مكتبة التعاون الصحفية

أعلام الصحافة العربية ٢

أنيس منصور
ذلك المجهول



محمود فوزى

أعلام الصحافة العربية [٢]

أنيس منصور

ذلك المجهول

محمود فوزى

مركز الدراسات الصحفية والتاريخية بمؤسسة دار التعاون للطبع والنشر

الغلاف : بريشة الفنان مصطفى حسين

مؤسسة دار التعاون للطبع والنشر

أعلام الصحافة العربية ٢

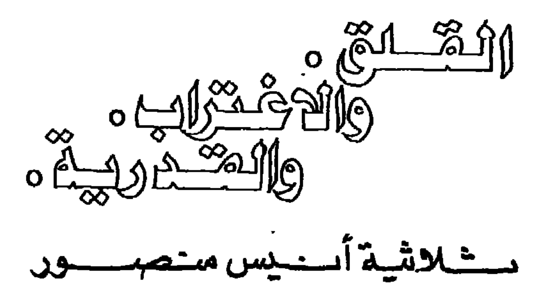
رئيس مجلس الادارة

ممدوح رضا

الاشتراكات والمراسلات

طريق المعادى الزراعى ـ القاهرة ـ تليفون ٩٨٢٥٣٣ ـ ٩٨٢٧٣٤

تلكس دولى ٩٢٦٣٨



كلما اقتربت من أنيس منصور احسست .انك تجهله أكثر ... فاذا اصبحت لصيقا به احسست ان أنيس منصور لا يعرفه أحد .

انه أنيس منصور .. ذلك المجهول !

محمود فوزى

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

فى حياة كل كاتب مواقف وتجارب مرئية يعرفها الجميع .. ومواقف وتجارب مجهولة غير معروفة حتى لأقرب المقربين إليه .. ومنهما معاً يتشكل وجدان وعقل الكاتب .

وأنت الآن أمام كاتب معروف ومجهول .. أنت أمام أنيس منصور الكاتب المعروف .. وأمام أنيس منصور الذى لا يعرفه أحد ..!

أنت أمام كاتب مجهول الهوية .. هلامى التكوين .. غير محدد فى جوانبه الفكرية والفلسفية .. فمن الصعب أن تحده بإطار فلسفى معين .. أو تضعه فى إطار مدرسة أدبية واحدة ..!

فهو كاتب تتخطى أعماله حدود الزمان والمكان .. وهى تحمل هبة الخلود وسمة المعاصرة .

أنت أمام أنيس منصور زعيم مدرسة اللا انتماء واللا التزام فى الأدب العربى ..

كاتب سريع الطلقات . يعزف على كل أصابع البيانو .. يرسم بكل ألوان الطيف يضرب بسهم وافر فى كل الاتجاهات ..

إذا وقفت أمام أعماله فمن الصعب أن ترفع رأسك عنها مهما كان حجمها .. فأنت مع مؤلفاته تأكل فاكهة الصيف فى الشتاء .. وتأكل فاكهة الشتاء فى الصيف .. وتتناوب عليك الفصول الأربعة وأنت مستلقى فى سريرك أو على مكتبك تشرب فنجاناً من القهوة .

وإذا وقفت أمام مواقف حياته فكأنك تقف أمام المرايا المقعرة فتستطيل الملامح .. وتستبين السمات وتختلط عليك الأمور ..!

حياته مغلفة بالقلق والاغتراب والقدرية ! وكأنما هى أقانيم حياته الثلاثة ..

فأنيس منصور هو واحد من أبناء الفجر .. وقد عبر عن ذلك بصدق وهو يروى ذكرياته عن طفولته وحياته فى صباه ، ويشرح لنا حقيقة شعوره « بمبدء » الحب الذى تحمله أمه له ، ويحمله هو لأمه ، وهو من أصدق وأروع ما عبر أنيس منصور عن قوة ذلك الإنسان وضعفه ومأساته التى هى من قوته وضعفه معاً وحين يقول أنيس منصور :

« ولم أسكن خيمة أبداً ولكن عواءه لم يفارق أذنى والخوف منه لم يختف من أحلامى »

« لم نكن جماعة من الناس يشد بعضنا أزر البعض .. وإنما كنا وحدنا .. أسرة صغيرة قلقة حائرة .. مصيرها ليس بيدها .. وحياتها ليست من اختيارها ، بل لا أختيار لها .. عذابها فى أيدى الآخرين .. وإذا جاءها الليل زادها فزعاً .. وإذا انتقلت من الخوف الذى نعرفه فإلى الهول الذى لا نعرفه .. وعرفت النور إلى الأشياء والناس من بعيد .. فكل شيء بعيد .. لأننى أقف وأجلس وأنام بعيداً عن كل الناس .. »

فهو يعبر عن إحساس عميق بقلق لا سبيل إلى استئصاله .. إحساس بعزلة أبدية مرضية شبيهة بعزلة الشعراء الرومانسيين .. شعور عميق بالعجز عن الاندماج والذوبان ، أو حتى المشاركة بمختلف درجاتها ، ولهذا فأنت لا تستطيع أن تحدد صديقاً واحداً معيناً لأنيس منصور رغم كثرة ما يعرف ليس فى مصر وحدها ، ولكن فى العالم أجمع .

ولا يمكن أن تشير بأصبعك إلى تلميذ واحد له رغم كثرة الذين عملوا معه من الأجيال المتعاقبة فى العديد من المؤسسات الصحفية والثقافية ، ربما لصعوبة المجالات التى طرقها معاً مجتمعة .. !

. ولا تستطيع أن تضع يديك على صالون أدبى له مثل أستاذه العقاد أو طه حسين أو الحكيم أو غيرهم .. رغم أن صالونه الأدبى مفتوح فى كل مكان ولا ينفض عنه زائروه ولكنه ليس محدداً بمكان أو زمان معين

ولا غرابة إذن اذا ما قدم أنيس منصور لقارئه « فلسفة ما » نراه يصر على شيئين : أحدهما هو الارتباط فعنده أن كل شىء وكل حكم وكل قيمة وكم موقف ينبغى أن يكون « إلى حد ما » والآخر هو إصراره على « المسافة » بين البشر وهو وجه آخر من وجوه اللا ارتباط .. وهذا يفسر لنا كيف بلغ أنيس منصور قمة الصدق عندما حدثنا عن قصة انتحار مارلين مونرو التى أوجز فيها مأساة كل من يسكنون وحدهم من النابغين ، كالنسور فوق القمم الباردة ، ولاسيما فى عصر « العاصفة والاندفاع » وفى قمة التشاؤم الرومانسى : نجده فى جوته وفى شيلى وفى بيرون وفى كيتس .. نجده فى قول جوته فى رسالته عن الشعر والحقيقة « كل عمل عظيم هو ابن العزلة الشاملة أو بمعنى آخر التأمل هو الأب الشرعى للعظمة .. »

ولقد إنعكست ظاهرة الاغتراب على أعمال أنيس منصور فلم يستقر فى مجال واحد أو ميدان بعينه فى كل ما كتب من القصة إلى المسرحية إلى المقالة إلى السياسة ، ومن كتاباته عن الوجودية إلى تحليل المرأة إلى محاولة كشف المجهول « فى الذين هبطوا من السماء » و « الذين صعدوا إلى السماء » ولعنة الفراعنة وأرواح وأشباح إلى أدب الأقوال اللاذعة فى « قالوا » إلى التصوف والدين « فى طلع البدر علينا » و « الخالدون مائة أعظمهم محمد » و « ديانات أخرى » إلى أدب التراجم فى « صالون العقاد » الذى عصر فيه لب الحياة فى كأس تغنى عن محيط ، والذى رصد فيه حياته وحياة جيله بين الضياع الفلسفى والضلال السياسى والحيرة الدينية ، فالكتاب قصة

حياته فى مواجهة عمالقة الفكر الذين ارتبط بهم بعمق ، وأفلت منهم بعمق أكثر ، محتفظاً بشخصيته المستقلة .

ولاشك أن القلق سمة أساسية عن سمات أنيس منصور النفسية ، فهو قلق دائما قلق الفنان الكبير .. والتفكير الشديد هى رياضته المفضلة اليومية .. وأعمال الفكر فى كل القضايا والمشكلات ..

أما القدرية فهى لصيقة الصلة بشخصيته .. فمن الغريب أن أسعد لحظات أنيس منصور هى أشقاها .

فمن مفارقات الأيام أنه فى اليوم الذى حصل فيه أنيس منصور على ليسانس الآداب قسم الفلسفة فى عام ١٩٤٧ وجاء ترتيبه الأول على زملائه بأمتياز مع مرتبة الشرف .. جرى إلى منزله ليسعد والده بهذا النجاح الباهر .. دخل عليه حجرته فوجده ميتاً

ويوم أن عين أنيس منصور رئيساً لتحرير مجلة آخر ساعة ماتت أمه فى نفس اليوم ، فكان أنيس منصور يتلقى برقيات التهانى والعزاء فى وقت واحد ، وفى اليوم الذى صدر قرار بتعيين أنيس منصور رئيساً لمجلس إدارة ورئاسة تحرير مجلة أكتوبر توفى أستاذه الروحى على أمين .

وفى اليوم الذى عين فيه رئيساً لتحرير مجلة وادى النيل توفيت شقيقته الكبرى فى نفس اليوم ، فكانت باقات الورود تدخل وسط المعزين فى منزله .. فالقدرية مزجت الأفراح بالأحزان فى حياته ..

وكأنما القلق والاغتراب والقدرية هى أقانيمه الثلاثة .. أو هى ثلاثية أنيس منصور ..

مشوار حياته كتاب .. يضم عدداً من الصفحات لا يمكن تحديدها .. مشوار عادى لإنسان غير عادى .. لإنسان قرأ كثيراً وحفظ القرآن كاملاً .. وكان الأول فى جميع مراحله الدراسية .. ولقد تميز أنيس عن زملائه وأقرانه فى الجامعة .. كان ذكاؤهم تأملياً أما ذكاؤه فكان خاطف البريق كآلاف من قطع الماس تخطف الأبصار فى كل اتجاه .. كانوا يبحثون فى أهتمام وعذاب .. وكان يبحث فى أهتمام ولا مبالاة .. كانوا يبحثون عن إنتماء عظيم .. وكان يبحث عن التحرر من كل إنتماء .. كانوا يجنحون إلى الفكر المادى والاجتماعى .. وكان

يجنح إلى المثالية والفردية .. وكان محصناً ضد الفلسفات المادية والجماعية .. كانوا يبحثون عن سلام النفس فى الإيمان « بالغير » أما هو فكان يبحث عن سلام نفسه فى الإيمان بالنفس .

كان عَلَى درجة كبيرة من الفضول العقلى .. كان يبحث عن قيم جديدة لنفسه ولمجتمعه .. لذلك كان من أكثر الطلاب محاورة مع أساتذته .. د . عبد الرحمن بدوى و د . لويس عوض و د . شوقى ضيف و د . يوسف مراد والشيخ مصطفى عبد الرازق و د . على عبد الواحد وافى .

وأصر على أن يتعلم لغات عديدة منها الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية والعبرية ، وجذبته الصحافة إلى عالمها ، ولكنه فى هذا العالم الذى عشقه دخله من باب المقال لا الخبر .. من باب الكتابة الأدبية والفنية لا من باب الجرى وراء الحوادث .. دخلها كاتب ومنتهى أمله أن يكون كل يوم فى بلد .. يرى ما لا يراه الآخرون .. وينقل إلى قارئه ما أنفعل به وما أحسه .. سواء فى أسفاره فى دنيا الله .. أو فى أسفاره فى عالم الأدب والفلسفة والفكر .. ولقد تحقق له ما أراد فى رحلته حول العالم فى ٢٢٨ يوماً ، وظلت حديث الملايين فى العالم العربى ، ونقلتها الصحف العالمية ووكالات الأنباء إذ كانت أطول رحلة فى تاريخ الصحافة العربية ، كما كانت أول دورة كاملة يقوم بها صحفى حول العالم .. تلك المرحلة التى لم يقدر ولن يقدر لكاتب بعده أن يجوبها ، وأنا أعنى تماما ما أقول فى العبارة الأخيرة .. فلو قدر لكاتب أن يطوف العالم بنفس الرحلة التى قام بها أنيس منصور عام ١٩٥٩ فإنه سيتكلف الآن ملايين الجنيهات .

ولا ترتفع حواجبك من الدهشة إذا علمت أن رحلة أنيس منصور تكلفت يومها ٣٠٠ جنيه فقط .. والرقم بالحروف هو ثلاثمائة جنيه حتى لا تتشكك فى أن أربعة أصفار من الرقم قد سقطت سهوا من العدد ..

إن ٣٠٠ جنيه لا تكفى الآن .. فى دوامة الارتفاع الرهيب فى الأسعار لمجرد قضاء يومين فى الإسكندرية .

وفى هذه الرحلة يطوف بك أنيس منصور من القاهرة إلى الهند والسلام والأفاعى والمحبة وعبادة الأبقار إلى مقبرة غاندى عند ملتقى البحور الثلاثة -- إلى بيت عرابى باشا فى كاندى -- إلى أندونيسيا وتحضير الأرواح بالسلة -- إلى جزيرة الهنود العارية -- إلى استراليا قارة الصحة والكانجرو والمال والمستقبل -- إلى الفلبين التى ترقص نهاراً لكل السائحين -- إلى هونج كونج جزيرة الابتسام والفساتين المشقوقة -- إلى اليابان حيث اللؤلؤ والجيش وكل ما هو صغير ودقيق ورائع -- الى الجنة الحمراء فى جزيرة هاواى حيث البراكين والأناناس وبنات الهولا فى ظل القمر تحت أشجار الجوز -- إلى أمريكا نصف العالم الجديد -- حيث المدينة الحديثة وناطحات السحاب والسيارات الفارهة ، والمبانى الشاهقة والكواكب والصواريخ ، والانسان الآلى والملايين من أصحاب الملايين إلى أوربا نصف العالم المتحضر --

إلى جميع البلاد والبقاع والأصقاع -- تصاحب أنيس منصور وأنت مغرق فى الضحك مأخوذ من السخرية -- مبهور بما يقدمه لك فى كتاب العمر عن رحلة العمر --

ولا غرابة فى ذلك مطلقاً فأنيس منصور له عين عصفور رأى بها كل شىء من أعلى ، وظهر جمل تحمل به كل شىء ، وساقا معزة لم تتعب أبداً من المشى ، ولم ينس أن يحمل على كتفيه حقيبتين إحداهما مملؤة بالصبر والأخرى مملؤة بألمعية الملاحظة ، ورفاهة الفطنة وسرعة الالتقاط والنظرة العميقة التى تجلو حقيقة الأشياء .

وعاد إلينا بعد رحلاته وفى يده مفتاح جديد لا يصدأ -- فتح به زيادة أدب الرحلات المعاصر -- وفى يده الأخرى كتابه الشائق والشائك والممتع ٢٠٠ يوم حول العالم --

ولو حاولت الآن بعد مرور أكثر من عشرين عاماً على صدور هذا الكتاب أن تذكر كتاباً واحداً فى أدب الرحلات يقف جنباً إلى جنب مع هذا الكتاب فى المكتبة العربية -- فان الذاكرة لن تسعفك بسهولة

وربما يفسر لك هذا ظاهرة خطيرة وهى : لماذا تحجب دائما جوائز الدولة سواء التقديرية أو التشجيعية فى أدب الرحلات ..

والحقيقة أن أنيس منصور من الكتاب الذين يحملون على كتفهم كاميرا الإحساس ، وقد لاحظت ولمست ذلك من خلال رحلات معه خارج مصر ، وكان آخرها فى إفريقيا حيث مناطق التصحر والجفاف ومأساة الذين يموتون جوعاً أمام ناظريك .. وهو من الكتّاب الذين تؤرقهم دائما أعقد ظاهرة فى الوجود : الإنسان ذاته .

وفى أثناء رحلة أنيس حول العالم أبلغه الكاتب الكبير على أمين تليفونياً وهو فى روما بأن زملاءه قد أجمعوا على اختياره رئيساً لتحرير مجلة الجيل .. وهذا الاختيار فى رأيى هو أصدق قرار صدر لأنيس منصور

وإذا كان أنيس منصور قد رأس تحرير الجيل وهو وهى وآخر ساعة فإنه سيحسب له دوماً أنه مؤسس لأنجح مجلة بعد ثورة يوليو وهى مجلة أكتوبر ، وهى تكاد تكون المجلة الوحيدة التى صدرت بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ وأستمرت تواصل نجاحها حتى الآن فكم من مجلات صدرت وأغلقت بعد الأعداد الأولى أو على أكثر تقدير بعد السنوات الأولى ، ولكن باصرار أنيس وزملائه من الصحفيين وتفانيهم فى العمل وإرادتهم فى النجاح أصبحت « أكتوبر » من أولى المجلات العربية وأحسنها وأكثرها أحتراماً ، وهو لاشك إنجاز كبير ومتفرد يحسب له ..

وكانت مجلة أكتوبر البداية الحقيقية لعلاقة أنيس منصور الوطيدة بالرئيس أنور السادات ، حين طلب منه وكانوا فى الطائرة عائدين من السعودية أن يخرج إلى حيز الوجود مجلة ٦ أكتوبر ..

وكانت بداية صداقة طال أمدها بين رئيس الجمهورية وكاتب كبير ، واستمرت حتى رحيل السادات ، بل كان المفروض أن يلتقى السادات وأنيس بعد حادث المنصة بساعات فى وادى الراحة ..

ولقد أجرى أنيس منصور مع السادات أكبر عدد من الأحاديث فى الصحافة المصرية والعربية .. أكثر من ٢٠ حديثاً بدأت بمذكرات « من

أوراق السادات » التى كتب معظمها أنيس منصور بعد أطول تسجيلات للرئيس السادات أكثر من ٣٠٠ شريط تسجيل بصوت السادات يروى فيها كل شىء ولا يزال يحتفظ بها أنيس منصور حتى الآن .

بل إن أنيس منصور جلس مع الرئيس السادات أطول ساعات يمكن أن يجلسها معه إنسان ، ولو كان أقرب المقربين له .

حدث هذا بعد ثورة ١٥ مايو حين جلس معه فى استراحة المعمورة فى الثانية عشرة ظهراً حتى الواحدة بعد منتصف الليل .

وكان السادات يحكى فيها لأول مرة كيف خطط ونفذ لثورته ١٥ مايو ، وأنا أختلف مع أنيس منصور فى فترة ارتباطه السياسى بالرئيس السادات ، وفى اعتقادى أن الأديب أنيس منصور خسر كثيرا ، بالانشغال بالكتابة السياسية وارتباطه السياسى الوثيق بالرئيس أنور السادات ، فخلال سبع سنوات هى عمر الصداقة الوطيدة بين أنيس منصور والسادات تعطل أنيس تعطيلاً مباشراً عن أعماله الأدبية والفلسفية ، فلم يصدر له كتاب واحد ، اللهم إلا كتاب واحد فى الفترة الأخيرة وهو « فى صالون العقاد » الذى حاول به اللحاق بقطار مؤلفاته السريع قبل فوات الأوان ، حيث كان يصدر له سنوياً ما بين أربعة وخمسة كتب فى العام الواحد .

وفى رأيى أن أنيس منصور كان ملكاً متوجاً فى المجال الأدبى والثقافى بآراء قرائه . فأصبح وزيراً فى عهد أنور السادات .. غير أن كتابه « فى صالون العقاد .. كانت لنا أيام » كان أكبر تعويض عن الكتب التى لم تصدر له خلال السبع سنوات الضائعة .

فلاشك أن الكتاب الأدبى هو الأبقى .. أبقى من المقالات السياسية التى لا تحتمل القراءة بعد فوات أسبوع واحد من مرور أحداثها ، ولا تندهش أن تغلف بعدها هذه المقالات سندويتشات الفول والطعمية .. والكاتب أنيس منصور لا يعتبر نفسه كاتباً سياسيا ، ولكن كاتباً فى الفكر السياسى ، فهو ليس مشغولاً بالأوضاع الحزبية ولا ملاحقة القضايا اليومية ويتخذ منها موقفاً معيناً ، ولكنه مشغول بالفكر السياسى وطريقته له هو الاشتغال بالأدب السياسى أو بالسياسة

الأدبية ، فهو مشغول دائما بتأديب السياسة أو بتسييس الأدب .. إيمانا منه ، بأن الكتابة السياسية قصيرة العمر وأن ما يكتبه فى مقالات سياسية فى مجلة أسبوعية أو جريدة يومية يومية يلقى يوم بيوم ، فهو يحاول أن يطيل من عمر الكتابة السياسية بتحويلها إلى كتابة أدبية .

ومنذ عام ١٩٥٧ والكاتب أنيس منصور يحصل على المركز الأول فى جميع الاستفتاءات التى أجريت بين القراء لاختيار أفضل الكتاب .. وقد حصل مؤخرأ بالمركز الأول من بين كتاب الصحف اليومية فى الاستفتاء الذى أجرته كلية الاعلام بالاشتراك مع مؤسسة الاهرام ..

وجاء فى هذا الاستفتاء أن حصول أنيس منصور على هذا المركز جاء نتيجة لسلاسة أسلوبه وسهولته وعباراته المشرقة مع تنوع ثقافته وتركيزه على اهتمامات المجتمع ومشاكلهم

والكتابة السياسية عند أنيس منصور تعود إلى الوراء قليلاً حين رفع شعارات عديدة بعد نكسة ١٩٦٧ منها « الإنسان القارىء تصعب هزيمته » وتطوع بإقامة معرض متنقل بين العواصم العربية والمحافظات المصرية وموضوع المعرض هو : أعرف عدوك .. ثم كتب العديد من المقالات وأصدر مولفاته : الحائط والدموع ثم جيل الصابرا ، ثم وجع فى قلب إسرائيل .

وهذه المؤلفات جميعها تتناول تاريخ اليهود فى العالم .. من جذورهم التاريخية حتى يومنا هذا .. يحلل مشاعرهم ويكشف نواياهم الخبيثة وميولهم العدوانية والدعاية المسمومة لهم .. لهذا لم يكن غريبا أن تعترض الحكومة الإسرائيلية ـ فى أقل من عام واحد من يوليو ١٩٨٤ حتى مارس ١٩٨٥ ـ أربع مرات على أربع مقالات كتبها أنيس منصور وهاجم فيها بشدة وبعنف إسرائيل .. والمشكلة الأزلية بين إسرائيل وأنيس منصور .. أنه يعرف عنهم الكثير ، بل إن وزارة الخارجية الإسرائيلية اعترفت رسمياً للحكومة المصرية وبكل وضوح وصراحة بأن أنيس منصور يعرف الكثير من نقاط الضعف فى

الشخصية اليهودية، بل إنه يعرف مواطن الوجع فى الشخصية الإسرائيلية.

لهذا فإن الكتاب اليهود فى العالم يعرفون مكانة إسرائيل فى قلب أنيس منصور، لدرجة أن الكاتب اليهودى الصهيونى الإنجليزى ديفيد هيرست أدلى بحديث لمندوب الـ أم. بى. سى.. إحدى الشبكات الأمريكية ليقول فيه: إن أنور السادات رجل كاذب ونازى وممثل فاشل فى مسرح السياسة، وإنه ليس كما يقال رجل سلام، وإن له مستشاراً اسمه أنيس منصور من أعدى أعداء اليهود، وله مقالة يقول فيها إن غلطة هتلر الوحيدة أنه لم يعتقل ويقتل عدداً كافياً من اليهود.. ثم إنه نقل هذا الحديث على شريط فيديو كاسيت وشاهده أنور السادات مما أثار غضبه الشديد.. وطرد السادات مندوب الـ أم. بى. سى.. من المؤتمر الصحفى فى ميت أبو اليوم ومن مصر كلها..

ولكن هل تغيرت وجهة نظر أنيس منصور الكاتب السياسى فى إسرائيل واليهود بعد كامب ديفيد؟ هل استطاعت شخصية سياسية كبيرة مثل أنور السادات كرئيس للجمهورية، وبحكم أن أنيس منصور كان من أقرب المقربين إليه من الكتاب والصحفيين أن يؤثر على رأيه فى اليهود وإسرائيل؟! اليهود فى رأى أنيس منصور نوعية غريبة من البشر لم تعرف الأمان، ولذلك لا أمان لها.. ولا أمان معها..

وهو الكاتب الوحيد الذى عندما يتحدث عن إسرائيل يقول: الشعوب اليهودية فى إسرائيل لأنها تضم عدداً من الشعوب المختلفة لغوياً وعرقياً وتاريخياً والتى استجلبت إلى هذه البلاد واستنبتت أو شتلت وانتقلت من الأرض، وأنه لم يفلح فى إذابة الفوارق اللغوية والمذهبية الدينية والسياسية إلا حالة الاستنفار المستمر أو التعبئة العسكرية لأنهم ليسوا إلا جيتو كبير بين دول لا تحبها، وأن حالة الاستنفار هذه أو التعبئة الأبدية هى التى جعلتهم فى حالة انسجام مزور أو مزيف.. بمعنى أنه لو قد فرضنا أن سلامتهم الدول العربية لانتهت عملية الاستنفار والتعبئة ولا أكل اليهود بعضهم بعضاً..

وكان أول درس تعلمه أنيس منصور فى الكتابة السياسية قاسياً ، فقد كتب مقالاً فى يوميات الأخبار بعنوان « حمار الشيخ عبد السلام » والمقال يقول : إن أحد الولاة فى سوريا ضاق بثناء الناس على علم وفضل قاضى قضاة دمشق فأمر بعزل قاضى القضاة وتعيين حمار الوالى قاضياً للقضاة .. وذهب الحمار إلى المحكمة وأحنى الناس رءوسهم للقاضى الجديد .

وجاء سكرتير تحرير الأخبار ووضع صورة الرئيس عبد الناصر فى مقال أنيس .. وكان على مكتب جمال عبد النصر نفس المقال مع تأشيرة من على صبرى تقول : هذا هو المقال وفى انتظار .. أوامركم ..

وفى نفس المقال مع تأشيرة من المخابرات العامة تقول : وفى انتظار أوامركم ..

وكان جمال عبد الناصر فى طريقه إلى الجزائر وأنيس منصور فى طريقه إلى الشارع وظل ينتقل من شارع إلى شارع وتتردد صدى أغنية عبد الحليم حافظ (راح .. راح) فى أذنيه سنة كاملة .. فقد صدر امر بطرد أنيس من أخبار اليوم ووقف مرتبه ومنع صرف أى معاش له ، ومنع اى مطبعة من طبع أى كتاب له ، ومنعه من الإذاعة والتليفزيون ، ومنعه من أن ينشر مقالات فى أى جريدة خارج مصر ، وملخص القرار العجيب أن يموت أنيس منصور جوعا ..

والدرس الثانى عندما أنتقل مع مصطفى أمين وعلى أمين إلى دار الهلال فقد كتب مقالاً يقارن فيه بين « الوحدة والعزلة » وكان مقالاً فلسفياً نفسياً ، ولكن الذى لم يخطر على باله أن الرئيس عبد الناصر قد وجد فى هذا المقال أيضاً تعريضاً له وسخرية بالوحدة مع سوريا والانفصال عنها ، ولذلك أمر بمنعه من الكتابة .. وهو أصعب قرار يمكن أن يتحمله أنيس منصور .. أن تمنعه من الكتابة أو أن تحجبه عن الإبداع ، فهو ولاشك كاتب موسوعى .. ماراثون فى التأليف .. (٩٠ كتابا) حتى كتابة هذه المقدمة فهو من الأدب إلى السياسة إلى الصحافة إلى القصة والمسرح وأدب الرحلات والتراجم والدين وأدب

الخيال العلمى ومحاولة كشف المجهول إلى أدب الأقوال اللاذعة فهو آخر سلالة الكاتب الشامل ..

ولهذا استغرق هذا الكتاب الذى بين يديك سنوات طويلة ، وكلما أيقنت أو اعتقدت واهماً أننى وضعت نقطة النهاية أفاجأ بأنيس منصور يصدر خمسة كتب فى وقت واحد .. فأعيد رؤيتى من جديد .. وأعدو .. وراء أسرع كاتب .. مقطوع الانفاس أشبه ما أكون بلاعبة الماراثون التى شاهدتها على شاشات التليفزيون فى دورة لوس أنجلوس الأولمبية ، وهى فى منتهى الإعياء تحاول جاهدة أن تصل إلى خط النهاية ..

وإذا كان أنيس منصور من أشهر كتاب الوطن العربى على الإطلاق فإنك كلما اقتربت منه تحس أنك تجهله أكثر .... فإذا أصبحت لصيقاً به أحسست أن أنيس منصور لا يعرفه أحد ..

إنه أنيس منصور ذلك المجهول !

محمود فوزى

القاهرة ــ ١٦ من يناير ١٩٨٦

حياة غجرى لها طعم الملح ولسع النار وبريق الأمل ...!

الكاتب الكبير أنيس منصور ضرب بسهم وافر فى جميع الاتجاهات الأدبية والفكرية والفلسفية والثقافية، وأعماله تتخطى حدود الزمان والمكان فهى من التراث الإنسانى الذى يحمل هبة الخلود وسمة المعاصرة .

وأنيس منصور .. فنان وأديب كبير .. شخص موهوب ذو حساسية خاصة تستطيع أن تلتقط الإيقاعات الخفية اللطيفة .. وذو قدرة تعبيرية خاصة تستطيع أن تحول هذه الإيقاعات التى يتلقاها حسه مكبرة مضخمة إلى لون من الأداء الجميل يثير فى النفس الانفعال ويحرك حاسة الجمال .

وأنيس منصور كاتب مبدع لا يعبر فى كتاباته المتعددة إلا عن انعكاس الحياة فى نفسه ، ولا يمكن أن يكون تعبيره إلا من الزاوية التى يرضى منها الوجود ويتلقى منها الإيقاع فهو فنان حقيقى صادق التعبير ، وليس مجرد صانع ماهر يتفنن فى صنع الكتابة . إن حركة القلم فى يده تمثل صورة لحركة الأفكار فى ذهنه ولسائر الدوافع والأحاسيس التى تتفاعل داخل نفسه .. وهو لا يتخيل الحياة بل يندمج فيها ويلحظ جزئياتها ، ويسجل تفاصيلها بمنتهى الدقة ، ويحصى دقائقها بمنتهى الأمانة ، ويغرس قلمه فى لحم الواقع مما يضفى على أدبه روح الصدق والحرارة والأصالة ..

ولكل أديب صادق موقف من الكون والحياة أراد أم لم يرد .. موقف تحدده طريقة تصوره لهذا الكون وارتباطاته ، وطريقة تفاعله مع الحياة والأحداث .. هذا الموقف قد يكون واعياً أو غير واع ولكنه موجود بالضرورة ، وهو مكشوف لمن يرقب أعمال هذا الأديب متى كان بعيداً واعى الحس قادراً على الفهم والتقدير ، ويستطيع إذا كانت له هذه المقدرة ـ أن يكيف هذا الموقف ويقومه ويزن عن طريقه أعمال هذا الأديب .

ويصور لنا أنيس منصور موقفه من الكون وخلجات نفسه وهمسات روحه من خلال استبطان ذاته ليجيب لنا عن سؤال حيوى طالما سأله لنفسه « من أنا.» ؟ فتكون إجابته خواطر ذاتية تكشف لنا عن ملامح نفسيته وأبعاده الفكرية وفلسفته فى الحياة فيقول :

« لا توجد عندى وسيلة لمعرفة سوى نفسى .. وسيلتى إلى معرفة العلاقات الإنسانية هو أنا ! »

فأنا المرصد والأجهزة التى أطل بها على العالم الخارجى ومن حين لآخر يجب أن يتأكد الإنسان من دقة هذه الأجهزة ، فينظر بها للداخل بدلاً من النظر بها من الخارج كما يحدث لأى طبيب ، فبدلا من أن يعالج غيره يعالج نفسه فهو فى هذه الحالة الطبيب والمريض معاً

فأنا الرائى وأنا المرئى .. أنا الممثل وأنا المتفرج .

وهى عادة عند كل فنان ومفكر : أن ينظر إلى نفسه وإلى أعماقه ، فالدنيا كلها تصب فى داخلى ، وأنا الوسيلة الوحيدة لكى تخرج هذه المعانى إلى العالم الخارجى . فهى جاءت منه فوضى وتعود إليه منظمة ، فأصابعى التى تمسك القلم هى « دود القز » الذى يحول أوراق التوت إلى حرير !

وأصابعى وقلمى هما اللذان يحولان خيوط الحرير إلى أثواب !.. بهذا الأسلوب الفريد والتحليل والصدق فى التعبير عن المشاعر والانفعالات رسم لنا أنيس منصور صورة معبرة لنفسه ، ورسم لنا خريطة صادقة لمشاعره !

وإذا كان لابد لأى أديب أو فنان من استعداد فطرى يولد معه ويحيا ما عاش ، فهو لا يمكن أن ينال بالتعليم أو التحصيل وإنما هو ملكة راسخة فى أعماق صاحبها تصدر عنها أعماله وسلوكه .

وذلك لا يمنع من أن تنشط هذه الملكة أو أن يزدهر نتاجها لبعض المثيرات أو فى بعض الأحيان ، كما تخف حدتها ويخفت بريقها بتأثير بعض الملابسات وتحت ضغط العوامل والأسباب التى تحول بينها وبين العطاء ، حتى يتاح لها ما يعيدها إلى العطاء وييسر لها سبيل الانطلاق إلى غاياتها .

وإذا كانت الملكة الأدبية والفنية وذلك الاستعداد الفطرى يولد مع الأديب والفنان ، فلقد ولد أنيس محمد منصور ومعه هذه الملكة الأدبية وذلك الحس الفنى فى قرية كفر الباز مركز السنبلاوين بالمنصورة فى ١٨ أغسطس سنة ١٩٢٤ .

وإذا كان مسقط رأس أنيس منصور هى مدينة المنصورة فإن المنصورة لها تاريخ عريق فى نضال الشعب المصرى ضد الغزاة الأجانب ، ولها وقفات فى ميدان القتال تدل على الصلابة وأصالة المقاومة الشعبية .. لقد وقف شعب المنصورة إلى جانب الجيش أيام حملة لويس التاسع حتى انكسرت الحملة

وسقط لويس أسيراً ، وقاد زعيم الصيادين حسن طوبار المقاومة الشعبية فى المنزلة ضد اسطول نابليون وضرب نموذجاً رائعاً للوطنية والمقاومة والفداء . وأغلب الظن أنه الى مدى أبعد تضرب المنصورة جذورها فى الوطنية والمقاومة والنضال .. ضد المستبد الغارجى والداخلى .. ربما قبل أبريل ١٢٤٩ عند أسر لويس التاسع ملك فرنسا فقد جاء على رأس حملة صليبية تريد أن تستعمر مصر .. سواء أكان حاكماً أجنبيًا أو مصريًا ، وبالطبع قبل الحملة الفرنسية على مصر ومجىء نابليون بونابرت عام ١٧٩٨ ولا غرابة أن تناضل أيضا ضد حكم السلطان حسين كامل أو فؤاد أو غيرهما ..

أما عن المناخ السياسى والفكرى لمدينة المنصورة قبل ميلاد الكاتب والأديب أنيس منصور ، فقد وفد شاب قاهرى وطنى على مدينة المنصورة سنة ١٩١٠ للترافع فى محاكمها عن قضايا موكليه الذين وكلوه فيها بعد اتفاقهم معه بمكتبه بالزقازيق وتروق له مدينة المنصورة للإقامة فيها ، ولكن المحامى عبد الرحمن الرافعى الذى يبلغ السابعة والعشرين من عمره لا يستقر بالمنصورة نهائياً إلا فى أكتوبر سنة ١٩١٧ بعد أن ترك مكتبه بالزقازيق لزميله المحامى أحمد وجدى ويتخذ لنفسه مقاماً فى أحد منازل شارع جمال الدين الأفغانى (حاليا أرض فضاء) جعل الدور الأول منه مكتبا لاستقبال زبائنه والثانى سكناً خاصاً له .

ولقد بقى الرافعى فى المنصورة حتى سنة ١٩٣٢ عندما انتقل الى القاهرة أى أنه مكث فى عاصمة الدقهلية أثنتين وعشرين سنة .. كان فى أثنائها أحد المحاور الهامة للنشاط الوطنى والسياسى والأجتماعى والثقافى ، فهو ينشىء مع مجموعة من الشبان الوطنيين مدرسة للشعب على نواة المدارس التى أنشأها الحزب الوطنى فى القاهرة ، ويقدم ثمن مبيعات كتابه الأول « حقوق الشعب » مساهمة منه فى أستمرار بقائها لما تقدم من خدمة جليلة للعمال والفقراء .

وينضم الرافعى لعضوية « نادى خلان الوفاء بالمنصورة » المؤسس سنة ١٩٠٦ والذى كان يضم نخبة كبيرة من المثقفين ، ويشارك فى أنشطته ويحاضر فى ندواته واجتماعاته ومناقشاته السياسية والثقافية ، ويهدى إلى مكتبة النادى بعض كتبه . ولا تنقطع الصلات بين الرافعى وأستاذه محمد فريد بعد مبارحة الأخير مصر سنة ١٩١٢ فيراسله بشكل منتظم ، وتحمل رسائل المحامى الشاب فى هذه الفترة صورة دقيقة قاتمة للأحداث السياسية ، وكيف أدى اضطهاد السلطات البريطانية للوطنيين إلى عزوفهم عن المشاركة فى الأنشطة السياسية وابتعادهم عن الأضواء وهو من بينهم ـ بعد أن رأوا التنكيل الذى حدا بزعيمهم ـ أى فريد ـ إلى النفى الاختيارى ولكن محمد فريد فى رده على عبد الرحمن الرافعى .. يدعوه الى عدم اليأس ويخطط له مساراً وطنياً أجدى لنفع

البلاد ويتصل بالمجال الاقتصادى إيماناً بأن استقلال مصر الاقتصادى مقدمة لاستقلالها السياسى .

وفى المنصورة يلتقى عبد الرحمن الرافعى بصديق الشباب والدراسة فى مدرسة الحقوق العليا .. أبن الدقهلية محمد حسين هيكل بعد أن عاد من باريس فى النصف الثانى من سنة ١٩١٢ حاملاً درجة الدكتوراه فى القانون .. وكل هيكل قد فضّل فى نهاية نفس العام أن يفتتح مكتباً للمحاماة بالمنصورة فجمعتهما الأيام مرة أخرى . فى زمالة جديدة .. وفى صيف ١٩١٤ يتفق الصديقان على تمضية شهر فى لبنان من خلال فترة تعطيل المحاكم .

ويعود الرافعى من لبنان بعد أن قضى فى ربوعه قرابة الشهر فيجد الأمور الداخلية للبلاد تقتصرها أحداث الحرب الأولى ، فعلى إثر ذلك دخلت الدولة العثمانية الحرب مع ألمانيا ضد الحلفاء فى ديسمبر ١٩١٤ ونجد سلطات الاحتلال أنتهزت الفرصة المواتية لقطع الشعرة الواهية التى كانت تربط مصر بتركيا ، فتعلق الحماية البريطانية على مصر . وتخلى الخديو عباس حلمى الثانى وتنصب بدلاً منه السلطان حسين كامل ولما كانت سلطات الاحتلال قد استطاعت من قبل أن تقضى على الآراء الحرة بالاضطهاد والتهديد ولم تعد تخشى أن تفلت الأمور من يدها ، كما حدث عندما تحرك الوطنيون ضدها من أجل تركيا وحليفتها ألمانيا فما أن تخلصت هذه السلطات من خطر الحملة التركية على قناة السويس التى كانت تهدف إلى احتلال مصر وبدأت الروح الوطنية فى الانحسار حتى اتجهت إلى أعتقال الوطنيين ومن بينهم الرافعى .

ويعتقل الرافعى بالمنصورة فى ١٧ أغسطس ١٩١٥ ويرحل وينتقل بين السجون والمعتقلات بالقاهرة وسجن الحضرة بالاسكندرية إلى أن يفرج عنه فى يونيه ١٩١٦ . وتنتهى الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨ بأنتصار الحلفاء ويلتقى الزعماء المصريون بالمندوب السامى البريطانى بالقاهرة للمطالبة بتنفيذ وعود الجلاء بعد أن ضمت البلاد فى خدمة قوات الحلفاء التى تمثلت فى استغلال كل اقتصاديات البلاد والعمالة المصرية والقوات على طول الجبهة المصرية ، ويرفض المندوب السامى البريطانى المطلب الشعبى فتتأجج الصدور المصرية بالغضب إلى درجة الغليان ، وتزيد سلطات الاحتلال النار اشتعالاً بالقبض على الزعماء المصريين .. وتقوم الثورة فى كل أرجاء البلاد لا تفرق بين مدنها أو قراها .. ويستخدم الإنجليز الرصاص فى تفريق المتظاهرات وإرهاب الوطنيين فيسقط القتلى ومع أرتفاع نسبة الشهداء على مر الأيام تتضاعف حركة تدمير المواصلات والاعتداء على جنود الاحتلال .

وفى هذا الجو المشتعل يشارك عبد الرحمن الرافعى بجهد كبير لا يقتصر على المنصورة وحدها ، بل يتجاوزها إلى القاهرة أيضا وقد وصل الأمر بخطورة

الرافعى عند قائد الحامية الإنجليزية بالمنصورة إلى أن يهدده رسمياً بإطلاق الرصاص عليه فى ميدان عام !

ولكن المحامى الشاب لا يحفل بالتهديد ولا يبتعد عن المدينة ويستمر فى نضاله الوطنى ، ولا تخمد المظاهرات فى المنصورة إلى أن يفرج عن سعد زغلول وصحبه ويسمح لهم بالسفر إلى باريس لعرض قضية البلاد أمام مؤتمر الصلح .

وفى يوليو ١٩١٩ والثورة مشتعلة يؤسس الرافعى على مجموعة من أصدقائه بالمنصورة جمعية لنشر وتعميم جمعيات التعاون الزراعية فى قرى الدقهلية مساعدة للفلاح المطحون ، ويستمر الرافعى حاملاً لواء التعاون فى المنصورة والعمل بجد على نشر جمعياته المختلفة ، وذلك بمساعدة الشباب الوطنى المهتم بالتعاون مثل الدكتور محمد حسين هيكل وإبراهيم الطاهرى وحسين هلال وعبد الوهاب البرعى والدكتور إبراهيم الوكيل ومحمود نصير وعبد الفتاح نور ومحمود موسى ، ولذلك ما أن حلت سنة ١٩٢٠ إلا وأسسوا ـ بعد الجمعيات التعاونية الزراعية ـ جمعيات التموين الخيرية فى المنصورة وغيرها من المدن والقرى فى فبراير سنة ١٩٢٠ .. وقد ساهمت هذه الجمعيات مساهمة فعالة فى محاربة الغلاء والسوق السوداء أبان الأزمة الاقتصادية الطاحنة بها مصر بعد الحرب العالمية الأولى من غلاء ونقصان فى المواد الغذائية تقدمت لاحتياجات الضرورية للأهالى بأسعار مخفضة مما كان له تأثيره على جماهير الشعب ، خاصة متوسطى الحال ، وفى هذا المجال أيضا يذكر لعبد الرحمن الرافعى موقفه من إنشاء بنك مصر فقد بادر هو فى نهاية سنة ١٩٢١ إلى تأسيس لجنة لتوزيع أسهم البنك فى المنصورة .

وفى يناير ١٩٢٢ يقدم الرافعى إلى المكتبة العربية كتابه « الجمعيات الوطنية ـ صحيفة من تاريخ النهضات القومية » تحدث فى فصوله الثمانية عن تاريخ النهضات القومية وشرح الدساتير والنظم البرلمانية .

ولما صدر الدستور فى أبريل ١٩٢٣ رأى الرافعى أن الفرصة متاحة لخدمة جماهيرية من نوع آخر هو العمل البرلمانى ..وهكذا خاض تجربة الانتخابات لأول مرة لعضوية مجلس النواب عن البلد الذى استضافة منذ سنة ١٩١٠ وشهدت وطنيته وخدماته لجماهيرها .. ويوفق الله الرافعى ويصبح عضواً فى مجلس النواب عن مركز المنصورة ..

وفى مجلس النواب ساهم الرافعى مع مجموعة من زملائه الوطنيين فى تشكيل جبهة للمعارضة البرلمانية لم يزد عددها على أربعة ، لكنها استطاعت أن تثير ثائرة الأغلبية الوفدية فى كثير من الأحيان ، وأن تكون العين الفاحصة لكل ما يثار داخل المجلس للمشروعات والمناقشات ، وعندما أغتيل السردار السيرلى ستاك باشا حاكم السودان بالقاهرة فى نوفمبر سنة ١٩٢٤ وجدتها

السلطات البريطانية فرصة سانحة للتخلص من العنصر الثورى المصرى الممثل فى الزعيم سعد زغلول رئيس الوزراء .. فقدمت إليه إنذارها بشأن اغتيال السردار ورآه الزعيم استهانأ للكرامة المصرية فرفضه وأستقال ..

وخلفه زيور باشا فى نوفمبر ١٩٢٤ ثم أعلن بعد شهر حل مجلس النواب وإعادة الانتخابات والتى فاز بها الرافعى فى دائرة المنصورة مرة أخرى ..

هذا هو حال مدينة المنصورة قبل ميلاد الكاتب والأديب أنيس منصور فى ١٨ أغسطس سنة ١٩٢٤ .

وأنيس منصور هو الأبن التاسع لأبيه ولابد أن يكون أنيساً للأسرة كلها التى تسكن قصراً عظيماً يملكه عدلى باشا فقد كان أبوه مأموراً لتفاتيش عدلى يكن وعز الدين يكن ونعمت هانم يكن ..

وأول كتاب أمتدت إليه يداه الصغيرة هو القرآن الكريم فحفظه كاملاً .. لم يفهم منه شيئاً ولكن موسيقى الآيات وروعتها وتكرارها اليومى على لسانه أبقاها فى ذاكرته ..

وكان موضع تقدير الجميع حين ذهب شيخ الكتاب يعلن لوالده أن « أنيس » قد أتم القرآن الكريم .

وظهرت البهجة والسعادة على وجه الجميع .. وكما هى عادة أهل الريف فى قرية نوب طريف مركز السنبلاوين دقهلية أجتمع الشيوخ والناس الطيبون والعمدة وشيخ البلد فى بيتهم وقالوا لأنيس .. لا تلعب اليوم .. فاليوم يومك !

ولم يفهم الطفل الصغير من هذه العبارة شيئاً وجاء الحلاق وقص شعره وبعض الحلوى امتدت إلى جيوبه وبضعة قروش فى يديه .. وتجىء القبلات من الصغير والكبير تغمره من كل جانب .. وطال النهار .. وجاء الليل على مهل .. وأضىء البيت بالكلوبات .. وجاء أناس كثيرون .. بعضهم يعرفه ويقبله ويضع الفلوس فى يده وهو خائف .. لا شىء واضح فى رأسه فى ذلك الوقت ..

وبعد أن تعلقت الأضواء جاء الليل بسرعة كأن كان ينتظر المصابيح ليتسلل إلى عينيه وينام فى ركن من أركان الغرفة ويوقظه الجميع .. وتتردد عبارات توقظ الطفل الصغير أنيس منصور وتدوى فى أذانه : يا بختك .. الجنة لك .. أدع لنا ! وتحدث الناس فى أشياء كثيرة وتناولوا العشاء .. فقد ذبحت بعض الأغنام .. وخلع النهار .. هؤلاء الناس جاءوا يباركون الطفل الذى باركه الله وسافر والده .. والناس أختفوا وعاود الطفل اللعب فى الشارع !

لقد عاش أنيس منصور منذ طفولته المبكرة على الحافة بين المدينة والقرية .. بين الخوف والقلق ..

فمنذ طفولته وجد والده على صله بالأراضى الواسعة .. وأن الناس يعاملونه معاملة خاصة وأنهم يلجئون إليه فى كثير من قضاياهم المادية والأدبية والمدنية .

وكان يركب حصاناً وحوله بعض الفلاحين يركبون الحمير وكان يضع طربوشاً على رأسه وله شارب .. ومنظار طبى وصدره محلى بسلسلة ذهبية مازالت صوره تؤكد ذلك . وكان الفلاحون ينادونه : يا حضرة المأمور .

فكان فى ذلك الوقت مأموراً لتفتيش عدلى باشا يكن فى الصعيد .. كل شىء يدل على أنه رجل محترم والناس يهابونه أو على الأصح يحبونه ، فلم يكن أبوه رجلاً مخيفاً ، وإنما كان يحب النكتة وإذا دخلت النكتة بين الناس زالت الهيبة وازدادت الألفة ، وأصبح من الصعب أن يكون الإنسان مؤذياً أو ضاراً وإنما فى استطاعته أن يتلقى الصدمات على شفتيه بابتسامة أو بنكتة ..

وفى سن مبكرة جداً أحس أنيس بالخوف الشديد من كل واحد يدق الباب فى ساعة متأخرة من الليل ، فحول البيت حراس كثيرون وكلاب أيضا ، وعلى الجدار بندقية معلقة فى غرفة نوم والده وتحت المخدة مسدسات ، وقبل أن تتفتح الأبواب تتعالى الأصوات ويدور حوار لا يفهمه غالباً ويستطيع أن يتابعه .. لأنه من يقوله له : نم .. أنت نم !! .

والطفل أنيس على خوفه من كل طارق فى الليل لم يكن له تعليل منطقى ، ولكن تعليله يتم عن طريق الظواهر التى تتابع بعد ذلك عقب دقات الليل المظلم .. ما الذى يعقب زوار الليل مما جعل الطفل يتنبأ بهذا القلق الغامض الذى لا يجعله يستقر على حال فهو لم ير عدلى باشا شذا ولا مرة ، ولا يعرف إن كان يجىء إلى أرضه الواسعة ، ولكنه يسمع كثيرا عن الاستعدادات للقائه .. أو عنه هو . فاسمه يتردد ليلاً ونهاراً مع التهديد وعظيم الاحترام

ولا يذكر الذى حدث ولا كيف حدث ما حدث ولا لماذا حدث ليجد نفسه فجأة ووالده وأمه فى سيارة .. والسيارة تنطلق فى الليل .. ووراءها التراب .. وفى التراب يجد حيوانات كثيرة .. ذئاباً وكلاباً وثعابين ورجالاً يتجهون عليهم .. وينظر إلى والده فيجده نائماً وكذلك أمه أما الامتعة كلها فقليلة .. ولا يعرف أين ذهبت .. شىء واحد كان يعتز به والده .. ساعة الحائط ربما لأن لها صوتاً جميلاً ، أو لأنه كان يصلحها بنفسه أو لأنها كانت مضبوطة . إنها ماتزال حتى الآن تعد الزمن وتتحداه .. وهذه الساعة هى الشىء الوحيد الذى لازم أنيس من الصعيد إلى وجه بحرى ..

ولكثرة تنقل الأب من مكان إلى آخر كان أنيس مرتبطاً بأمه أكثر .. لأنهم نشئوا فى عزلة .. مجموعة من الأغنام الخائفة من الذئب .. والذئاب تقترب لماذا ؟ لا يعرف ولكن يصحو وينام على الخوف من الناس ومن الزمن .. فكل الناس لهم أنياب .. وكل لحظة لها عقربان .. وكلها قد أعدت نفسها للهجوم عليهم ..

ولم يسأل نفسه في أي وقت ولماذا عليهم وحدهم ؟ وماذا عندهم حتى يغرى الناس بالاحتشاد والتعبئة ضدهم ؟ لم يسأل نفسه ولا أحد في أي وقت .. ولكن لا يكاد يمضى عام حتى يكونوا قدانتقلوا من بلد إلى بلد .. كأنهم جزيرة عائمة وسط محيط هائج مائج .. المحيط يتهدد .. المحيط يعلو و يهبط .. وهم متلاصقون معاً .. خائفون معاً .. حول الأم الرءوم .. لا يعرفون إلا هى .. ولا رأى إلا لها .. ولا حكمة إلا عقلها .. فهى التى تعرف كل شىء .. وهى التى تتنبأ بكل شىء .

ثم يتسأل الصغار : وهل يجىء خطاب من أبى فتقول حزينة : غداً .

ويجىء الغد بخطاب

وهل يبعث أبى بفلوس ؟

فتقول : ثلاثة جنيهات .

وتجىء رسالة وبها ثلاثة جنيهات .

وهل يشفى فلان من مرضه ؟ .. نعم بعد أربعة أيام .. وهل يهاجمنا الذئب ؟ نعم غداً .. ويجىء الذئب فى الغد ..

وكان الذئب يقفز من نافذة إلى بيتهم .. فالبيت فى أطراف مدينة أبو حمص على حافة حديقة .. وفى البيت دواجن وأغنام وديكة رومية .. ومعظمها يجىء أحد الأقارب ويأخذها كل شهر ..

وفى أحد الأيام استيقظوا من النوم على ثعبان قد تكوم فى الأرض .. لعله كان يحتاج إلى دفء .. ونظر إليه الطفل أنيس فى خوف شديد .. لم ينطق بكلمة .. فقد وجد أمه قد أحاطت به .. وغرق هو فى النوم .. ولعل سبب ذلك الخوف ، ولكن أمه ايقظته لتقول : هات المصحف .. وأقرأ .

ولم يستطع أن ينزل من السرير ليحضر المصحف من مكان قريب من الثعبان ولكنه استطاع أن يأتى بالمصحف ، نزل وأقترب من الثعبان الذى ظل ساكنا وبسرعة أمسك بالمصحف وقالت له أمه : أقرأ سورة يس وأنا أردد وراءك

وقرأ .. وكانت تردد وراءه .. وضغطت أمه على يده ليرى ورأى الثعبان كأنه عقدة تنحل .. أو كأنه أصابع خفية أو كأن حروف القرآن قد فكت عظمه .. عضله .. وإذا بالثعبان يختفى تحت السرير .. ونزلت أمه من على السرير .. وأتت ببعض الأعشاب وأشعلت فيها النار .. وأمتلاءت الغرفة بالدخان .. وعرف فيما بعد أنه « الشيخ » والشيخ فى البيت مليح

ولقد تأثر أنيس منصور بهذا الحادث كثيراً .. لدرجة أنه كتب بعد ذلك فى سنة ١٩٥٤ مقالاً جاء فيه : إن الثعبان من الطيور ! واتخذها الأستاذ العقاد نكتة فى جلساته وفى أحاديثه التليفونية ، ولا يعرف أنيس ما الذى جعله يكتب ذلك

فمن المؤكد أنه يعرف أن الثعبان من الحيوانات الزاحفة على بطنها : فلا جناحان ولا ساقان ولا يدان !

وفى سنة١٩٥٦ ودون شعور واضح كتب أنيس منصور إن الثعبان من الحيوانات مصاصة الدماء ونبهه صديق كبير إلى هذه الغلطة ، ومن المؤكد أن أنيس منصور يعرف أن الثعبان هو الحيوان الوحيد الذى يبتلع فراشة دون أن يحتاج إلى بذل مجهود فى طحنها وتذويبها وإنما يترك ذلك كله لعمليات كيميائية فى داخله !

ولم يفت الأستاذ العقاد أن يجعل من هذه الغلطة نكتة أيضا وأهداه كتاباً عن الزواحف وكتاباً عن الثعابين ـ فى العالم ٢٧٠٠ نوع من الثعابين !

وبعدها بعشر سنوات وقع أنيس منصور فى غلطة تعتبر إهانة للثعابين فقد نقل عن المستشار البهنساوى من كتابه عن « النباتين » أن الثعبان حيوان نباتى ولذلك طال عمره -- والثعبان ليس نباتياً ولو كان العقاد حياً لأغرق الدنيا ضحكاً على هذه الغلطة للمرة الثالثة ، ولكن قارئاً موظفاً فى حديقة الحيوان بالجيزة قد نبهه إلى ذلك . وكان والد أنيس يطارد الثعابين -- وكانت عنده مقدرة غريبة على أن يلاحق الثعابين وبسرعة مذهلة يمسك الثعبان من ذيله ويطرحه فى الهواء ثم يهوى به على الأرض ميتاً ، وفى إحدى المرات تناثر الدم على وجهه وملابسه ـ أما حالته فكانت نوعاً من المرض القريب من الموت !

وعندما ذهب أنيس منصور فى رحلته حول العالم إلى الهند أحس وهو فى صالون أحد الحلاقين أن فى السقف ثقباً ينفذ منه صاروخ من الهواء ونظر إلى أعلى ليرى :

ولم يكن هذا الصاروخ إلا هواء صادراً من عنق ثعبان ضخم -- وهرب من المحل -- والحلاق يلاحقه بالفوطة والمقص -- والضحك !

فلقد أثر فيه هذا الحادث وترسب فى أعماقه -- وأصبحت أخطاؤه عن الثعابين لا شعورية -- تفتقر له !

والعلاقة التى تربطه بأمه قوية ومؤثرة فلقد أنقذته الأم من الموت مرتين :

الأولى حين كانت مريضة وذهب ليشترى لها الدواء وركب الترام ووقف على سلم الترام وفجأة وجد الصيدلى يجلس فى الترام فأسرع داخلاً إليه ليقدم إليه الروشته -- فى الوقت الذى دخل فيه الترام جاء اتوبيس مسرعاً وأصطدم بالترام ووقع الثلاثة الذين كانوا يقفون على السلالم صرعى تحت عجلات الأتوبيس .

أما المرة الثانية فكانت عندما كلفت جريدة الأهرام الصحفى أنيس منصور سنة ١٩٥١ بالسفر إلى ايطاليا لإجراء بعض التحقيقات الصحفية وتعود أنيس أن يخفى عن أمه حين يركب طائرة -- أنه مسافر فكان يقول لها : إننى مسافر إلى الإسكندرية . وحزم أنيس حقائبه .وتأهب للسفر وجاء قريب من العائلة يقول له أمك مريضة -- وفى حالة خطيرة -- ولا تسافر --

واعتذر أنيس عن رحلته ولم يسافر على الطائرة التى سقطت بالممثلة المصرية كاميليا التى كانت على موعد مع الملك السابق فاروق فى روما !

ويقول أنيس منصور عن تأثير الأم فى حياته :

« العلاقة التى تربطنى بأمى غريبة .. فهى تحبنى طريقة مختلفة عن حبى لها »

ولكن ما يهم أمى وكل ما يهمنى لا تعرف أمه عنه أى شىء .. فهى لا تعرف ماذا أعمل ولا كم أساوى ولا ماذا يقلقنى أو يخيفنى ، وإذا كنت مريضاً فإننى لا أفتح فمى وأقول : آه .. وإذا كان المرض شديداً فإننى أختلق أى قصة وأهرب من البيت وأنزل فى أحد الفنادق .. فأمى لا تتصور أبداً أننى من الممكن أن أمرض أو أتعب أو أتعذب .. إنها تحزن فى عجز كل ما تملكه أمى هو بضع ملايين من الدموع ومثلها من الدعوات .. ثلاث مرات فى اليوم .. وهذا هو الطب القديم الذى لا تؤمن به الأمعاء ولا المعدة ولا الأعصاب .

والزجاجات الكثيرة الملونة الصغيرة والكبيرة التى إلى جوار فراشى ليست إلا فيتامينات بسيطة للزكام .. والزكام سببه البرد والسهر وسقوط اللحاف من فوقى وأنا نائم .. كما تقول أمى وأؤكد لها ذلك كل يوم

وكل رجل يطلبنى بالتليفون هو تلميذ من تلامذتى فى الجامعة .. وكل فتاة تطلبنى هى خطيبتى أو ستكون خطيبتى أو زوجتى وأمى تدعو لها بالسعادة والرفاء والبنيين .. وأمى طبعا ضعيفة فى الحساب وإلا لكانت تصورت أننى لا أستطيع أن أتزوج كل من يطلبنى فى التليفون فى خلال سنة أو عشر سنوات .

وأنا أحمد الله أن أمى لا تعرف عنى أكثر من هذا ولا تعرف ما يصيبنى فى جسمى أو نفسى وإلا لكانت كارثة علىّ أنا .. فكل ما يصيب أمى .. يصيبنى بعدها بلحظات .. إننى أبالغ فى متاعبها .. وهى أيضا .. هى ترى متاعبها ضئيلة جداً ولكنى أراها خطيرة

ولكن حب أمى يعذبنى جداً

إنها سلبتنى أعز ما أملك .. سلبتنى حريتى .

إننى أصبحت أشعر أننى حارس لابنها .. الذى هو أنا .. بأننى حامية .. بأننى أمانة .. فى عنقى .. بأننى « عهدة » يجب أن أسلمها إلى صاحبتها وهى والدتى .. بأننى يجب أن أصون نفسى يجب ألا أمرض ألا أتعب .. ألا أتقلب فى فراشى

إن حبى لأمى جعلنى أتحول من صاحب مال إلى حارس لهذا المال .. من صاحب عمارة إلى بواب إلى خفير من أبن إلى كلب يحرس هذا الأبن !

لقد كرهت حبى .. كرهت حبى لأمى .. لأنه يعذبنى .. لأنه يحرمنى متعة المرض .. متعة الصراخ بأعلى صوتى وأقول : آه .. متعة تبديد نفسى .. وإهدار صحتى ممارسة حريتى .

وحتى هذا ـ والحمد لله ـ لا تعرفه أمي وإذا عرفته فإنها لا تفهمه ولا يهمها فالذى يهمها هو أن أعود إلى البيت فى أى وقت وأدخل غرفتى وأمد يدى إلى كوب الشاى فأشربها ومعها قرص إسبرين وأسحب «القربة الساخنة» وأضعها تحت وأنام .. ولا تعرف أمى ـ طبعا ـ إننى فى حاجة إلى قربة ساخنة تحت رأسى وإلى جوار قلبى .. وقربة سخنة بينى وبينها .. قربة تشفينى من عذابى تشفينى منها .. فإنها هى المرض الغريزى .. والمرض الذى أوصت به السماء فى كل دين !

ومن مفارقات الأيام إنه فى يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٧١ يتلقى أنيس منصور برقيات التهنئة والعزاء فى آن واحد التهنئة لتعيينه رئيس تحرير مجلة آخر ساعة وبرقيات التعازى لوفاة والدته !

وفى إحدى الليالى تغيب والده عن الحضور .. ولم تكن هذه عادته .. مضت الساعات الكبيرة من الليل .. وجاءت الساعات الصغيرة ولم يجف دمع الأم والزوجة ، وفجأة طلبت الأم أن يأتى بالقرآن وأنيس يتلو وهى تردد وراءه ، وعندما فرغ من القراءة سمعوا دقاً على الباب وفى نفس واحد قالوا جميعا : مين ؟ لعله عفريت .. لعله ذئب .. لعله لص .. لعله واحد من الناس .. وكل الناس كذلك ، ولم يكن أحد فعلاً .. أو كان أحد وأدرك أنهم مستيقظون .. ثم أختفى .. مع أنهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً .. ما الذى تستطيع أم وأطفالها الصغار أن تفعل شيئاً فى هذه الساعة من الليل ؟

وعادت الأم تطلب من أنيس أن يقرأ القرآن الكريم .. وقرأ .. ولم يكد يفرغ حتى سمعوا دقاً على الباب .. ثم انفتح الباب .. إنه الأب .. والتفت الأسرة من حوله .. وعرفوا تفاصيل الحادث .. كيف أنه اضطر إلى الشهادة فى قضية أتهم فيها صاحب العمل الذى كان أبوه يعمل عنده ، ودخل صاحب العمل السجن .. وفصل أبوه من عمله ..

وكان لابد أن يسافروا إلى بلد آخر .. وسافروا وفى السيارة كان أبوه لا يفعل شيئاً إلا تلاوة القرآن ، وسافروا إلى أبى حمص ـ بحيرة عن ابن خاله الأب السيد عبد الحى البرعى وعمل الأب فى استصلاح ٥٠٠ فدان

كان الاب لا يفعل شيئاً إلا تلاوة القرآن .. وأنيس يردد وراءه فى رحلاته .. فى الظروف الحزينة بقراءة القرآن وينتظرون المعجزة .. وكانت تجىء

ولقد كان هذا الأب يحب الحرية فنشأ أبنه على غراره يحب الحرية ويقدسها ، يحب الحرية فى القول والعمل والبحث ، ومن المعروف أن حب الحرية والشغف بها يحبب إلى الإنسان الأسفار والتنقل ويجعله ينفر من الاستقرار والجمود فى المكان ! ولهذا السبب نرى أنيس منصور يؤمن إيمانا

صحيحاً بتلك الحكمة القائلة : « الكون سفر لم يقرأ منه غير صفحته الأولى ذلك الذى لم ير الأوطان فليسافر إذن وليقلب صفحات ذلك السفر العظيم وليقرأ ما خط فيه من أعاجيب وغرائب ..

وتتحول هذه الرحلات إلى قصائد من الشعر تمتلىء بآيات من القرآن الكريم . فهو إذن قصائد الرجل يؤمن بقضاء الله وقدره وأنها مشيئة الله ولا راد الله ، محكوم عليه أن يكون هكذا أو أن يكون عاجزاً تماما عن تغيير نفسه أو تغيير الناس أو مسايرة الناس أو العصر .. ولا الأم كانت تعارض فى شىء فهى فى صمت تتحرك وتجمع حاجاتها دون أن تعاونها واحدة من بنات القرية .. لا زوجة العمدة ولا بنت الجيران ولا بنت صاحب وابور الطحين وكانت صديقة لها ولا بنت الحاج عبد الغنى وهو أغنى أغنياء القرية ولا أحد إلى جوارها .. لا أحد إلى جواره .. ولا أصدقاء له فى البيت أو فى الشارع .. ولا فى أية قرية ..!

وقد أثر ذلك على حياة أنيس كلها فأنت لا تستطيع حتى الآن أن تشير بأصبعك إلى صديق واحد له رغم كثرة معارفة فى أنحاء العالم .

وينتقل الفتى مع والده .. كلما استدعى ذلك أن يركب بسيارة .. ومن خلفها التراب وعلى يمينه وعلى يساره أمه .. وعلى ركبته توضع ساعة الحائط .. ويستقر فى أبى حمص .. وينتقل أبوه إلى تفتيش آخر .. مرة مع أحد أقاربه .. ومرة مع توفيق دياب .. ومع كل رحلة يدب فى قلب الصغير .. الخوف .. القلق .. وتوقع شىء ما .. شىء مبهم غامض ..

وعندما دخل كتاب قرية كفر الباز مركز فارسكور .. كان صاحب الكتاب قريبه .. إنه أشقر الوجه أزرق العينيين .. وعشرات من أفراد أسرة أمه كذلك .. فجدته الكبرى فرنسية مغربية مسيحية .. وكانوا يضحكون على أنها لا تعرف كيف تنطق العربية .. ودفنت فى مقابر أخرى غير التى دفنت فيها أفراد الأسرة ..

وأحس أنيس بنفس الشعور وهو يقرأ قصة مدار بوفارى لجوستاف فلوبير يوم دخل الطفل شارل بوفارى لأول مرة .. ونظر إلى الطلبة وأرتبك .. وسأله المدرس عن اسمه فنطقه بصورة مضحكة .. يوم أن قرأ أنيس منصور هذه القصة أحس على الفور بما حدث فى ذلك اليوم فى عزبة دياب ولم يجد ما يقوله أو وجد ما قاله ولكنه لم يجد اللسان ليقـوله ..

المهم أن أنيس منصور حفظ القرآن صغيراً .. واجتهد فى دراسته على أساس أن هذه الدراسة ستنشله من واقعه إلى واقع جديد .. أكثر أمناً وطمأنينة ..

وتنبأ له أحد أقاربه وهو تلميذ صغير أنه سيكون من رجال المرور .. وأن والده لابد أن يحقق له هذه النبوءة .. لقد لاحظ قريبه أنه يحب الوقوف إلى جوار عساكر المرور ويلتقط أرقام السيارات .. ويقول مثلا : ٣٢ بحيرة .. أو ٨٧ دقهلية أو ٩٠ إسكندرية !

وشغلت هذه الملحوظة أسرته الصغيرة .. وبدءوا يناقشونها بالفعل .. كيف يكون أحد عساكر المرور .. أو أحد كونستبلات المرور وبعضهم بلغت به الجرأة درجة أن تنبأ له بأنه سيكون أحد ضباط المرور !

والفارق الوحيد كان بين الطفل أنيس وأى طفل آخر أنه إذا ذهب إلى بيوتهم وجد كل شىء فى مكانه .. السرير فى مكانه والزير فى مكانه .. أما فى بيته فلا استقرار لأى شىء .. وذات مرة جلس أنيس مع أبيه وكان فى غرفته أناس كثيرون وسمعه أحد الحاضرين وهو يقول الزير وراء الباب .. والطبلية فى وسط الأوضة .. والسرير لونه أحمر وتحت السرير توجد سلة فيها بيض .. وإلى جوار السلة توجد صفيحة فيها سمنة .. وقال الرجل وهو يداعبه : إنت تنفع عسكرى وقال واحد آخر وهو يضحك : أو ينفع حرامى .

ولاحظ أن والده لم تعجبه هذه النكتة .. فحزن وبكى .. وتذكر القروش التى كان يأخذها من الناس .. وتذكر أنه لم يكن يأخذها وإنما هم الذين يعطونها له .. وتذكر القماشة السوداء التى كانت تلف فيها جارتهم الطعام الذى تبعث به إليهم وشعر بالقرف والاحتقار لنفسه .. وتسلل إليه التفكير بالانتحار .. ولم يكن يعرف كلمة الانتحار هذه ولا سمعها من قبل ..

وشغلته هذه الفكرة واستغرقت كيانه كله .. وقرر أن يرمى نفسه فى النيل .. وقرر أن يخنق نفسه بنفسه .. وحاول وضغط على عنقه وشعر بألم شديد وعدل عن هذه المحاولة .. وقرر أن يهرب ..

وفى كل مرة يحاول الهرب فيها .. كان يقف على الطريق الزراعى طول النهار .. فإذا جاء الليل كان يخاف من الظلام .. وفى إحدى المرات استوقف سيارة .. ووقف .. وقبل أن ينطق بكلمة أعطاه السائق علبة من الصفيح وطلب منه أن يملأها ماء من النيل .. وذهب وملأ العلبة وأعطاها له ووقف إلى جواره يتفرج على موتور السيارة وهو ساخن يغلى .. وأعطاه الرجل قطعة من حلاوة المولد ثم انطلقت السيارة ، ووضع أنيس الحلوى فى فمه دون تفكير ثم بصقها .. كأنه يبصق كل شىء أعطاه الناس له ..

وكان يشعر شعوراً عميقاً .. شعوراً لا يعرف التعبير عنه فى ذلك الحين إن السيارة هى أعظم شىء فى الدنيا .. فعن طريقها يهرب الإنسان من الناس .. يهرب الإنسان من نظرات الناس ومن أيدى الناس .. يهرب الإنسان من المقارنة بينه وبينهم .. ووجد أنيس نفسه صديقاً للفجر فى كل مكان .. فهو قطعة من الحجر المتحرك لا ينمو عليها عشب ! وعندما تقدم فى الدراسة الابتدائية أحس بشىء من الحرية لا ينمو يذهب إلى أبى حمص على ظهر حمار ويجمع قصص ارسين لوبين وانشغل بهذه القصص البوليسية عن الطعام والشراب .. وفى كل

أسبوع يقرأ من روايات الجيب التى كان يصدرها عمر عبد العزيز أمين .. إنه عالم عجيب غريب .. ولكنه مثير وممتع ، وهذه الروايات جعلته يتجه الى هذا النوع من المتعة ولم يعدل عنها إلا فى سن متأخرة عندما وجد فى المنصورة كتب الأستاذ محمد صبيح عن الرسول وأبى بكر وعن القرآن ، وكانت هذه الكتب صغيرة ورخيصة واقتنى أنيس كل هذه الكتب . وهى مختلفة تماما عن روايات الجيب وإن كانت متشابهة من بعيد : فهى جميعاً تبحث عن حقيقة شىء حتى تهتدى إليه ..

وأول خروج من هذه القراءات كان عندما عثر على رواية حسين عفيف « زينات » وهى رواية رومانسية شاعرية .. وعرف مجلة « الرسالة » التى يصدرها أحمد حسن الزيات والذى عرفه بعد ذلك طالبا وصديقاً وآخر خطاب كتبه فى حياته كان إلى أنيس منصور .. وفى الرسالة اهتدى إلى العقاد ، وكان العقاد نوراً باهراً وسلاسل ذهبية وجسراً من الصلب .. ونافذة على كل الدنيا وقوة طاغية واتجه عقله إليه وقلبه بعد ذلك ، ومنذ ذلك الوقت وهو لا يغيب عن عينه وفكره .. وقد أصدر بعد ذلك أعظم كتاب عنه « فى صالون العقاد .. كانت لنا أيام » .. بل إنه وهو طالب فى المنصورة الثانوية كان يلف حول عنقه كوفية كما كان يفعل العقاد .

وعندما كان أنيس بمدرسة المنصورة الثانوية كانت مكتبة بلدية المنصورة هى النافذة التى يطل منها على الفكر العربى والعالمى ، وقد دخل أنيس المدرسة الثانوية بعد معارضة شديدة من والده المنهمك مادياً المرهق بأعباء أولاده التسعة لكن تفوق أنيس وحصوله على المركز أول فى التوجيهية وتأييد والدته له أرغم الأب على الموافقة فاتجه طموحه إلى القاهرة للالتحاق بالجامعة . حيث اختار قسم الفلسفة بكلية الآداب ، وكان ترتيبه فى الليسانس الأول .. بل إنه كان طالب الفلسفة الوحيد الذى يدرس فى قسم الامتياز تحت إشراف الدكتور منصور فهمى .

وفى هذه الفترة كان يتقاضى ستة جنيهات من الجامعة كمكافأة أمتياز ، وحاول أن يزيد دخله واقترح عليه الدكتور شوقى ضيف أن يذهب بتوصية منه إلى الأستاذ عبد الوهاب عزام ليوصى به لدى عبد الرحمن عزام أمين عام الجامعة العربية السابق ليرشحه بدوره فى أحد الأعمال بالسلك السياسى أو الأمم المتحدة .

ولكن خجل « أنيس » من التعرف على الناس ، أو التطلع إلى وجوه الناس منعه من الذهاب .

وقد تقدم لشغل وظيفة مذيع بالإذاعة واجتاز الاختبارات الأولية بنجاح وبقى الاختيار الأخير حتى يحقق حلمه فى أن يتردد اسمه على أسماع الملايين ، وقبل أن يأتى دوره وقف زميل له فى امتحان وكان محرراً فى الإذاعة

يلقى بعض الإرشادات ، وكانت نصيحته الأول أن يخفض من صوته قدر استطاعته لأن حساسية « الميكرفون » سترفع منه ونفذ ما اقترحه زميله وسقط فى الاختيار النهائى وكم تألم يومها أنيس الذى لم يعرف الفشل وعرف بعد ذلك أن هذه النصيحة لم تكن إلا مقلبا من الناصح فقد كان يتوق لشغل وظيفة « مذيع » وكان يخشى منافسته ولكنه سقط أيضا فى الاختيار .

وكلما تذكر أنيس هذه التجربة ضحك طويلاً ويقول لنفسه : « إننى لا أندم الآن على هذه التجربة بل إننى أشكر صاحب المقلب من حيث لا يدرى وأشكر الظروف التى دفعته إلى طريقى وإلا لكنت الآن مذيعاً يشغل وقتى عمل متصل يبعدنى عن حبيبتى الأولى والأخيرة الكتابة الأدبية !

ومرة أخرى أرسله د . شوقى ضيف إلى الدكتور على الرجال المحامى وكان يرأس تحرير جريدة الأساس فى ذلك الوقت ، فذهب أنيس وظل يدور حول مبنى جريدة الأساس مرة ومرة وهو عاجز عن الدخول وحده وساقت المصادفة زميلاً من خريجى قسم الفلسفة فأخذه من يده وقدمه للدكتور على الرجال الذى رحب به ووافق على نشر قصصه المترجمة

وعندما عرف أن أنيس يتقن الفرنسية والإنجليزية أقترح عليه أن يعمل فى الأساس بانتظام بأجر قدره عشرون جنيهاً . ورحب « أنيس منصور » وبدأت فى حياة « أنيس منصور » مرحلة جديدة مثيرة .

وأصبحت ميول أنيس منصور أدبية فلسفية واتجه إلى الفلسفة .. وبهرته .. وأطاحت به بعيداً جداً عن أى شىء .. أعطها نفسه فأخذتها ولعبت برأسه وقلبه ، وتحول أنيس من حجر متحرك لا ينبت عليه العشب إلى ورقة فى مهب الريح وكان يطمئن نفسه بنفسه ويقول لها : ما من شجرة إلا هزتها الريح .. ما من سفينة إلا هزها البحر فالاهتزاز حركة والحركة حياة .

وتأبط أنيس منصور ذراع الزمن ..

وتعلم لغات عديدة منها الإنجليزية والفرنسية والألمانية والعبرية والإيطالية واليونانية وجذبته الصحافة إلى عالمها ، ولكنه فى هذا العالم الذى عشقه دخله من باب المقال لا الخبر .. من باب الكتابة الأدبية والفنية لا من باب الجرى وراء الحوادث .. دخلها كاتباً ومنتهى أمله أن يكون كل يوم فى بلد .. يرى ما لا يراه الآخرون .. وينقل إلى قارئه ما انفعل به وما أحسه .. سواء فى أسفاره فى دنيا الله .. أو فى أسفاره فى عالم الأدب والفلسفة والفكر .. صفحات حياته هى بقايا دموع .. صدى صرخات .. ترددت فى نفسه ونفوس الآخرين .. إن حياة ذلك الشاب الفجرى لها طعم الملح ولسع النار ووخز الإبر وإلحاح الضمير وبريق الأمل !

الذى تعلم الغناء على ماكينة الخياطة !

كان يضع يده اليسرى على أذنه اليسرى ويقول : ياليل يا عين ويسمع بأذنه اليمنى : الله يا أستاذ

وكان أنيس منصور هو هذا الأستاذ !!

لم يكن يتجاوز الثامنة عشرة وكان يردد الليل والعين والناس يرددون الله يا أستاذ وعبارات استحسان أخرى .

وكانت آخر حفلة غنائية له فوق سطح أحد البيوت فى شارع القصر العينى .

وكان وقتها طالباً فى قسم الفلسفة بآداب القاهرة .. أما المناسبة فهى زواج أبن بواب المكتبة العامة .. وذهب أنيس مجاملة للبوّاب الذى قدم لهم الشاى والقهوة والساندوتشات وكان صبوراً عليهم فى سداد كل ذلك !

وغنى أنيس منصور « أنا هويت » لسيد درويش ، وخايف اقول اللى فى قلبى لمحمد عبد الوهاب ، والنوم يداعب عيون حبيبى لأم كلثوم .

وفجأة وجد أمامه مطرب آخر وفى يده العود وقد أرتدى الجلباب والجاكتة وراح يغنى لكارم محمود .. وسأله أنيس : أنت طالب ؟ فرد قائلاً : نعم فى كلية الطب .. ما أسمك : مصطفى محمود ..!

وكان هذا هو أول لقاء بين أنيس منصور و د . مصطفى محمود فوق السطوح فى إحدى ليالى الصيف يغنون ويتمايلون طرباً فى فرح أبن بواب مكتبة جامعة القاهرة !

ونسيت أن أقول لكم إن الشاب الذى كان يرقص وهم يصفقون له قد أصبح وزيراً للأوقاف بعد ذلك !

كان يغنى فى الحفلات المدرسية ويتطوع بالغناء فى الحفلات العامة .. وفى الخمسينات كان يتردد على مكتبه فى أخبار اليوم شاب فى مثل سنه هو عبد

الحليم حافظ ولم يكن له إلا أغنيتان فقط هى : صافينى مرة -- ويا أبو قلب خالى ، وكان يغنى ويقول أنيس : الله ويغنى أنيس لعبد الوهاب ويقول له : الله !

وسيطرة فكرة اعتزال الصحافة والتدريس فى الجامعة على أنيس منصور لكى يتفرغ للغناء والتأليف الغنائى أيضا !

ولم يعرف سبباً لهذا التغيير المفاجىء فهل سبب ذلك أنه انتقل من العمل فى جريدة الأهرام مبهوراً بأخبار اليوم ، فلما ذهب إلى أخبار اليوم لم يلق وقتها فى البداية الاهتمام الكافى الذى يحلم به -- هل هى هذه الصدمة الأولى -- صدمة من يلقى بنفسه فى الماء فتلسعه الماء -- أو من يقف تحت الدش فيتوقع ماء دافئاً فإذا هو شديد البرودة -- هل صدمة النافذة التى تنفتح فجأة فيطير الغطاء الدافىء ويرتعش الانسان فى مهب الريح ؟ هل هى حالة اليأس العام التى أصابته بعد وفاة أبيه واشتداد المرض على أمه -- هل بلغت درجة اليأس من مستقبله ككاتب أو أديب أو فليسوف الذروة حتى يقرر فجأة أن يتخلى عن مستقبله الصحفى والأدبى ليغنى للناس فوق الشوك مشانى زمانى !

وذهب أنيس منصور مع عبد الحليم حافظ وكمال الطويل والشاعر الغنائى مأمون الشناوى إلى الموسيقار محمد عبد الوهاب فى مكتبه حيث كان جالساً وأمامه فتاة ريفية على الأرض -- تغنى « عاشق الروح » وهو يصاحبها على العود أما الصوت فليس جميلاً -- ولا هى موهبة غنائية -- وحارت عيناه وأذناه بين عبد الوهاب والريفية -- واستقرت عيناه على وجه عبد الحليم حافظ وكمال الطويل ومأمون الشناوى والسقف والأرض ودار كل ذلك أمام عينيه ووجد أنيس نفسه على السلم -- فى الشارع -- على مكتبه فى منزله وأغلق الباب وراح يبكى -- لا يعرف ما الذى أبكاه -- كانت صدمة فظيعة -- فقد كان صوت الفتاة الريفية قبيحاً -- وكان عبد الوهاب مجاملاً جداً وكان يقول : الله -- يا سلام -- الله !

وكان من الممكن جداً أن يقول ذلك لأنيس منصور ألف مرة -- لا اقتناعاً بصوته ولكن مجاملة لطيفة منه !

واكتشف أنيس منصور بعد ذلك أنه أحب الغناء ولم يكن السبب الحقيقى هو أنه يريد أن يكون مغنياً ، وإنما لأنه كان عاشقاً للكلام الجميل والصوت الجميل -- ولأنه اعتمد على مجاملة الآخرين ولابد أن يكون السبب الرئيسى هو إعجابه الشديد بالموسيقار محمد عبد الوهاب -- صاحب العبارة الواضحة والأداء الغنائى السهل ! وهو الموسيقار المثقف الذى ينقل ثقافة الغرب إلينا فنقبله ونقبلها !

والذى أحبه أنيس منصور فى الغناء والموسيقى هو الذى تمناه فى الفلسفة أيضاً .. أن يكون قادراً على تبسيط الصعب وتجميل السهل وأن يكون ممتعاً ومفيداً !

وقصة أنيس منصور مع الغناء والطرب قصة قديمة ، لقد كان كل شىء فى طفولته يدل على أنه سيكون من رجال الدين فهو يصلى ويصوم ويحفظ القرآن كاملاً ويهتم بالكتب الدينية . ويحلم أنه يخطب فى عدد كبير من الناس ويحلم بأنه مات وأنه دخل الجنة !

إلى أن دخلت الماكينة الخياطة بيته وقد ظلت ماكينة الخياطة هذه متربصة فى منزله إلى أن باعتها والدته بخمسين قرشا !

لقد كانت هذه الماكينة هى المسئولة عن ظهور الفتحات فى بنطلوناته وقمصانه وكثيراً ما اكتشفت أن بنطلونه مقطوع ، وبالبحث يجد أن الخيوط هى التى أنقطعت وأن الماكينة هى التى تقطع الخيوط .. وظل كذلك سنوات لا يعرف كيف يصلحها ولم ير ضرورة لإصلاحها .. فليس عيبا أن يظهر جزء من جسم الإنسان من البنطلون مادام هذا الإنسان رجلاً ومدام هذا الرجل صغيراً لا يهتم بالأناقة .

وكان لهذه الماكينة غطاء .. والغطاء نصف أسطوانى وأكتشف أنيس تماماً ، كما اكتشف العالم الكبير جراهام بل مخترع التليفون أنه صوته يرن إذا وضع غطاء الماكينة بالقرب من فمه .

وتحدث أنيس بالقرب من غطاء الماكينة ثم وضع فمه فى داخله ، وتردد صوته وراح يرن ، ثم أمسك كتاباً وراح يقرأ فيه والصوت يدوى فى أنحاء البيت ، ثم ترك الكتاب وراح يخلع ويرتجل الخطب الطويلة .. ولم يعرف إن كان أحد فى البيت قد تنبه لصوته أو للضوضاء التى أحدثها فى البيت ..

وبينما أنيس جالس أمام البيت يخطب فإذا بجردل من الماء « النظيف » ينزل فوق رأسه .. وكلمة « نظيف » قد سمعها بعد ذلك عندما شكا إلى أمه ما حدث ..

وامتنع عن الخطب الرنانة فى غطاء ماكينة الخياطة .. ولكن غطاء الماكينة كان هو الميكروفون كان هو الاستديو .. كان هو كصفيحة الماء التى رأى فيها الفتى اليونانى « نرسيس » صورته فأحبها .. وظل ينظر إليها حتى مات من شدة حبه لوجهه الجميل !

ومن ذلك انتقل إلى مرحلة إنسانية !!

فقد كان والده من هواة « شراء الديوك » وكان له ديك وهذا الديك كان يقضى النهار كله فى « برى » أظافره لكى تكون حادة وقاتلة وعندما يشترك فى معركة مع الديوك الأخرى .

ولم يتذكر أنيس منصور مصارعة الديوك هذه إلا عندما سافر إلى جزيرة « بالى » فى أندونيسيا فقد رأى الديوك .. ورأى الناس أقل صبراً من أبيه .. فقد كان أبوه يتولى بنفسه تحويل أصابع الديوك إلى أمواس حلاقة أو إلى سكاكين قاتلة .. أما فى هذه الجزيرة فقد كانوا يربطون السكاكين فى أرجل الديوك لكى تكون قاضية على الديوك الأخرى ..

وفى كل مرة يرى فيها أنيس مصارعة الديوك فى منزله كان يبكى .. لمجرد رؤية الدم وهو ينزف من أعناقها ومن صدورها ولشدة تأثره بهذه المناظر الدامية .. امتنع عن أكل اللحوم أكثر من عشرين سنة ففى كل مرة يرى قطعة من اللحم أمامه كان يتصور البقرة أو الجاموسة أو الدجاجة وهى مذبوحة ودامية تترنح ..

وقد شاهد أنيس فى بيته الكثير من الخناقات ولكنه وقف فيها على الحياد ولكن ما أصعب الحياة عندما يكون المتشاجران هما : أبوه وأمه . وكره أنيس كل أنواع المشاجرات حتى إنه فى كل مرة كان يسمع فيها خناقة كان يغمض عينه ويتخيل صور الديوك والدماء ..

وعندما كتب أول مقالة صحفية فى مجلة المدرسة كان عنوانها جمعية الرفق بالطيور !

أما علاقة أنيس منصور بالفن بصورة صريحة فقد بدات عندما انتقل إلى بيت فيه بلكونة .. والبلكونة تشرف على حديقة وللحديقة جناينى وللجناينى أبن مريض ولولا مرض هذا الأبن ما دخل أنيس منصور عالم الفن والغناء والموسيقى . وانفتح أمامه باب الجلوس إلى جوار عبد الوهاب وعبد الحليم حافظ فقد كان أبن الجناينى ضعيفاً لا يقوى على طلوع السلم وكان طلوع السلم ضرورياً لكى يأتى لهم بالخضروات من الحديقة والفاكهة من فوق الشجر ، ولذلك كانوا يدلون له بالسلة وكان يضع هو الفاكهة فى السلة وكان أنيس هو الذى يرفع السلة ثم الفاكهة ، وفى كثير من الأحيان كان ينشغل عنه بأى شىء فهو كان وقتها طفلاً فى التاسعة من عمره وتلميذاً فى أحد كتاتيب قرية نوب طريق مركز السنبلاوين دقهلية .. وكان أبوه ناظر زراعة عز الدين يكن .. ثم عدلى باشا يكن بعد ذلك وعندما كان أنيس يتشاغل عن أبن الجناينى كان يغنى ياليل يا عين .. يا جارة الوادى طربت .. وبلبل حيران ..

ولم يعد يهم أنيس أن يأتى له بالفاكهة بقدر ما كان يهمه أن يسمع صوته وكان صوته جميلاً غليظاً ، وصوت هذا الشاب الصغير الذى هو لفت أذنه إلى صوت والده فقد كان جميلاً وإلى صوت خاله فقد كان جميلاً جداً . إلى صوت الفلاحات فى الحقل .. لقد أصبح أنيس يعيش بأذنه وانتقل من عالم المرئيات إلى عالم المسموعات ..

وفى يوم من الأيام فوجىء أنيس باختفاء الجنايني وأبنه وحزن حزناً شديداً وشكا إلى والده وعرف من أبيه انه هو السبب فان الجنايني مريض وهو لا يقوى على أن يرفض طلباً لابن البيه الناظر .. ومن أجل ذلك ترك الجنايني وولده العمل فراراً من هذا الطغيان الفنى .. أو هذا الإكراه الفنى !

وانتقل أنيس مرة واحدة إلى أن يغنى بنفسه لنفسه ثم الى أن يغنى للاخرين ! .

واتفق أنيس مع زميل له يعمل الآن مستشاراً على أن يقوما بإحياء الليالى وكانا تلميذين فى مدرسة المنصورة الثانوية .

كل ما كان يخشاه أنيس هو أن يجىء ترتيبه دون الأول ، ولذلك كان يحرص على المذاكرة الجادة حتى لا يشغله الغناء على أن يكون ترتيبه الأول .

وقد كان ترتيب أنيس الأول فى كل مراحل تعليمه الابتدائى والثانوى والجامعى .

وكان فرجة المفتشيين ووزراء المعارف فى ذلك الوقت ، وكان أنيس يتمنى أن يطلب الوزير أى وزير أن يسمعه وهو يغنى .. ولكن أحداً طبعا لم يطلب ذلك أبداً .

ولم يتصور أنيس فى ذلك الوقت أنه يعيش فى إحدى مسرحيات اللا معقول « مسرحية الكراسى » ليونسكو فهذه المسرحية تضم عشرات الكراسى الخالية ، والمفروض أن نتخيل أن هذه الكراسى مليئة بالناس ويظهر أمامنا فى هذه المسرحية رجل وامرأة يتحدثان إلى السادة الوهميين الجالسين على هذه المقاعد الحقيقية .. وهم لا يسمعون إلا كلام الزوجين .

هذا بالضبط ما كان يحدث لانيس منصور وزميله .

فقد كانا يتسللان إلى الفرح كما يتسلل الممثلون إلى المسرح قبل ارتفاع الستار .. ثم سرعان ما يندمجان وسط الناس ، وكأن هذه المقاعد خالية من الناس ويظل أنيس يغنى وزميله يعزف :

يا وابور قولى رايح على فين ..

وأنت وعزولى وزمانى

ومن زيك يا خضرة

وكأن أحداً لا يجلس على هذه المقاعد .. كأنها خالية تماما .. كأنها مشهد فى مسرحية الكراسى للكاتب الفرنسى يوجين يونسكو

وذات يوم سمعا طبلا وزمرا فى أحد شوارع المنصورة .. وذهب أنيس وزميله إلى .. المكان .. أن هناك أناساً كثيرين .. وأنه لا يوجد مطرب .. ولا توجد فرقة موسيقية .. والفرح يبدو أنه شعبى جداً وأن العريس والعروس على باب الله .. أى أنهما عاجزان تماما عن استئجار فرقة موسيقية ثم عادا الى المنزل

لاستطحاب العود بعد أن بدلا وغيرا ملابسهما وذهبا إلى الفرح ووقفا على بعد وقد وضع كل منه ابتسامة على وجهه .. هذه الابتسامة معناها أنهما متطوعان للغناء والموسيقى .

ومد أنيس يده وسحب مقعداً ثم جلس ولم يهتم أحد بوجودهما وبشعور التلميذين اللذين ذاكرا وجاءا ليرددا الدرس الذى حفظاه اقترب من زميله ثم بدأ يغنى وعينه زائغة بين كل الحاضرين

ولم يجد وجهاً واحداً يبتسم .. ولا قدماً واحدة تقترب .. توقف عن الغناء .. ووقف ويده على رأسه عندما سقط الفانوس المعلق من السقف .. وتطايرت فى الظلام أشياء لا يعرفها بوضوح ولكنها جافة كلها .. ربما كانت قباقيب .. أو قلل .. أو زجاجات فارغة .. وقبل أن ينطفىء الفانوس اشتعلت معركة بدأت بالألفاظ والصرخات والضربات ووقفا فى أحد الأركان ثم تسللا إلى خارج البيت ونصف الأغنية محشور فى حلقه والأنغام ماتت على أوتار العود الذى تأبطه زميله ..

ولم ينطقا بكلمة واحدة على طول الطريق .. كانهما عائدان من مقبرة بعد أن قاما بدفن إنسان عزيز عليهما .. وكانت الرغبة فى الغناء عزيزة عليهما فى تلك الليلة !

وفى إحدى الليالى .. وبإصرار المحترفين قرر أن يغنيا فى عرس يقع بالقرب من بيتهما فهما جيران.والجار له حق على الجار .. وكان هذا الشعور هو جواز الدخول إلى بين العروسين .. وعلى السلم طارا إلى خارج المنزل وهما فارغان لم يتصورا أن ناظر المدرسة يسكن فى هذا البيت وانه سيقابلهما بملابسه الداخلية وبنفس الوجه المكشر الذى يعرفانه فى كل يوم فى طابور الصباح !!

وفى أيام الجامعة ارتبط أنيس بكل الذين لهم ميول فنية . فقد انضم إلى جمعية الموسيقى التى كان يرأسها عبد الحميد توفيق زكى ، وأنضم إلى جمعية لجراموفون .. التى كان يرأسها الدكتور لويس عوض ..

وحرص على أن يستمع بانتظام إلى آمال فهمى وهى تقلد أم كلثوم فى أغانيها ..

وكان لا يفارق صديق عمره الراحل جمال أبو ريه وهو من المنصورة أيضاً ، وكان يشغل المستشار الفنى لأدب الأطفال بدار المعارف .. وكان صوت جمال أبو ريه من أجمل الأصوات التى سمعها أنيس فى حياته .

لقد أمضى أياماً فى المنصورة فى كلية الآداب يستمع إلى صوت جمال أبو ريه وهو يغنى لعبد الوهاب .

وحدث وأنيس فى الليسانس أن دعى إلى فرح ككل المدعوين وكان هذا الفرح فى قرية بالقرب من امبابة ، وبشىء من العناد غير المفهوم قرر أن يغنى وغنى بالفعل ولم يكد يغنى بالفعل حتى تعالت الأصوات : عاوزين تواشيح !!

ولم يفهم العلاقة بين أغنية : خايف أقول اللى فى قلبى لعبد الوهاب وبين التواشيح ، ولكن عندما عاد إلى البيت ونظر فى المرآة زالت الدهشة فقد كان يرتدى جلباباً أبيض وفوق رأسه طاقية بيضاء .. لقد استعارها من أبن العمدة الذى نام عنده فى تلك الليلة .. فالعلاقة واضحة جداً !

وعندما كان أنيس منصور يقوم بتدريس الفلسفة فى كلية آداب عين شمس كانت قاعة المحاضرات قريبة من المساكن ، وكانت محاضراته تصادف إذاعة برنامج ما يطلبه المستمعون ، وكان أنيس يشعر بعذاب لا نهاية له .. فالطلبة والطالبات لا يستطيعون أن يتابعوه وهو يتحدث عن النظريات الفلسفية الصعبة جداً وهو لا يستطيع أن يتابع الأغانى فى نفس الوقت يتابع أفكاره ..

وكان الحل الوحيد هو أن يغير مواعيد المحاضرات

أو تغير سامية صادق مواعيد البرنامج !

وغير أنيس مواعيد محاضراته

وانشغل تماما عن الغناء واستغرقته الصحافة والكتابة والقراءة ..

وتصادف أن ذهب أنيس منصور مع مأمون الشناوى لرؤية الموسيقار محمد عبد الوهاب فى مكتبه وذهب وهو يكاد يطير من الفرح ، وكانت هذه هى المرة الأولى التى يرى فيها أنيس الموسيقار عبد الوهاب .. وطبعا صدمة عبد الوهاب .. فالصورة التى وضعها له أكبر بكثير جداً من عبد الوهاب نفسه .

وعند عبد الوهاب قابل شاباً نحيفاً ضاحكاً وكان أيامها لا يتوقف عن الضحك هو عبد الحليم حافظ ، وكان يغنى لعبد الوهاب أغنية عاشق الروح ، ولاحظ أنيس أن صوت عبد الحليم حافظ جميل وكان لم يسمع عنه إطلاقاً وحدثه عبد الحليم عن أدبه ومقالاته ثم دعاه أنيس إلى زيارة دار أخبار اليوم .

وكانت سعادته لا حد لها وصارحه برغبته فى الغناء وقال عبد الحليم إن هذا هو رأيه أيضا . وأحس أنيس أنه طفل صغير كانت لهاحلام صغيرة .. وتجاوز هذه الأحلام ثم سرعان ما عدل عن التفكير فى الغناء .. وعدل وكان ذلك عدلاً !

وذات ليلة كان أنيس منصور فى سفارتنا فى روما وقد التفت من حوله فى زفة وفرح كل أعضاء السفارة ، وظل كل واحد يروى النوادر التى وقعت له فى أركان العالم الأربعة وعند خروجه من باب السفارة اقترب منه شاب صغير وظن أنيس أنه يطلب منه استشارة عاطفية ، أو لديه مشكلة وهو يطلب منه حلاً لها .

ووقف أنيس يستمع إليه وهو يقول :

حضرتك مش عارفني ؟

فقلت : والله مش فاكر .. لكن شكلك مألوف جداً

وعاد يقول : أنا من المنصوره

فقال : أهلا ببلدياتي .. أيوه لازم كنت في سنة أولى وأنا في التوجيهية .

ـ أبداً ..

ـ أمال إنت مين بقى ..

ـ غريبة إزاى حضرتك مش فاكر .. دا .. أنت غنيت في فرح أختى !

وأحس أنيس أن الكراسي التي كانت في مسرح أخته وفي مسرحية « الكراسي » قد نزلت فوق دماغه وارتمى في مقعده في السيارة بعد أن اختلط الضحك بالمفاجأة بالكسوف وماتت في حلقه كلمات أغنية « مسكين وحالى عدم » وقرر عندما يعود إلى القاهرة أن ينسحب من « فرقة البلابل الموسيقية » التي ألقاها على عدد من الزملاء في دار أخبار اليوم التي حولت السجائر أصواتهم إلى مواسير مياه متكسرة مليئة بالضفادع !

وأيام النكسة كانت السيدة أم كلثوم تسأل عن آخر الأخبار وكانت في حالة انزعاج شديد ، وكان أنيس ينقل لها الأخبار ويبالغ في مصائب الأمريكان واليهود في العالم كله .. وكان يسعدها ذلك .. وكانت تتصل به لتسمع مصائب أكثر .. ولكنها لم تفكر لحظة واحدة أن كان ما يقوله ليس صحيحاً !

وفي يوم من الأيام اختار قصة عن مرض الرئيس الأمريكي وأن لعنة الفراعنة قد أصابته ، وأنه سوف يموت بين لحظة وأخرى ، وأن موته سوف يؤثر على إسرائيل لأن إسرائيل تجلس على حجر أمريكا !

وفي يوم من الأيام قال لها : إنه سأل أحد علماء الفلك عن نهاية إسرائيل فقال : إنها تختفي عن الوجود بعد أربعين عاماً !

وردت أم كلثوم بصوت حزين : ياه .. أربعون سنة .. لن أكون على قيد الحياة حتى أسعد بهذا الموت العظيم !

وفي منتصف الليل اتصلت به أم كلثوم لتقول له في دهشة : ولكن الرئيس الأمريكي قابل سكرتير الأمم المتحدة فالدهايم !

وكان أنيس قد نسي هذه القصة التي اخترعها فتصرف بلباقة قائلاً لها : ولكنه طبيب قبل أن يكون سكرتيراً للأمم المتحدة ومن الذى يعالج الرئيس الأمريكي غير سكرتير الأمم المتحدة !

أما عن عبد الحليم حافظ فقد أحبه أنيس وكانت بينهما صداقة كبيرة وحين زاره أنيس وهو مريض في باريس كانت الغرفة ضيقة والإضاءة مرهقة للعين .. انحسرت دنياه وانحشر في سرير كأنه زورق الموت وخفضت أضواء ملايين العيون فشنقوها مصباحاً كالحاً يتدلى من السقف وقال له أنيس : ما رأيك

فرد عبد الحليم حافظ : فى ماذا ؟

فقال : أنت وحدك مع الرحن وحده ؟

وبكى عبد الحليم حافظ وأعتذر له أنيس منصور .. ويوم عبد الحليم حافظ اختفى عن حياتنا أجمل صوت فى الغناء العربى .. عبارة رددها أنيس منصور بعد رحيل العندليب الأسمر .

ومشكلة الأغنية المصرية فى رأى أنيس منصور إنها ضعيفة الغناء . ثم إن هناك عدداً كبيراً جداً من الأصوات التى تغنى والأقلام التى تكتب لها وعشرات الملحنين وكلها ضعيفة وخاصة أغنيات المناسبات التى هى أسخف وأحط ما عندنا من تأليف فنى ! فالكلام مكرر ثم إننا نرددها ونزيدها ليلاً ونهاراً حتى نضيق بالأغنية والموسيقى والطرب والمناسبات أيضاً !

وقال أنيس منصور رأيه بصراحة مطلقة فى كل الأصوات التى تغنى من حولنا وقد أغضب البعض آراؤه النقدية . لكنه أصر عليها بأمانة نقدية وفنية فقد كان رأيه فى نجاة الصغيرة كالهجوم عليها .. فهى تغنى ولكن لم يعد لها صوت .. ويوم كان لها صوت كان محدوداً !

أما وردة الجزائرية لها صوت ولكنها لا تغنى وقد وصفها بأنها سيئة الأداء العربى ! وصوتها ليست له شخصية فأحياناً حين تسمعها يخيل اليك أنها سعاد محمد أو فايزة أحمد فإن كان للصحة أثر على الأصوات فوردة تبرهن لأسوأ غناء وأقوى صوت !

وفايزة أحمد هى أجمل وأقوى الأصوات العربية أذكر أنه كان يطلب منها أن تغنى مقاطع من أغانيها الجديدة كلما زارته فى مكتبه فكان صوتها يعبر نهر النيل إلى الجهة المقابلة فى الزمالك . ولا غرابة ففى صوت فايزة أحمد كل ما تريده : الصوت المنطلق بلا مجهود ووضوح الحروف وإشراق الكلمات وهى مستريحة النفس . ثم إنها جميلة الأداء . ويعجبه أغانى الأخوين رحبانى بالصوت اللا زودى فيروز . فالكلام جميل والموسيقى والغناء أما صوت سعاد محمد فهى أحسن تلميذة فى مدرسة أم كلثوم . وكذلك أغنيات نجاح سلام فصوتها جميل وله صفات تنفرد بها .

ويعجبه صوت عبد الوهاب الدوكالى وكان من الممكن أن يحدث أثراً وتحولاً فى أداء الأغنيات العربية لولا أن إقامته فى مصر لم تطل .. وقد أعجب الدوكالى رأى أنيس فيه حين زرته فى منزله بالمغرب وعقب على ذلك بكلمة واحدة .. هذا مؤكد .. وكذلك مواطنه المغربى عبد الهادى بلخياط . وكذلك بعض أغنيات طلال مداح ومحمد عبده ففيها كثير من الشجن . ويرى لعفاف راضى أداء أوربياً كان ذلك فى بداية عهدها بالغناء ثم تحول الصوت الأجنبى إلى صوت مصرى يطربك أيضاً .

وكان أنيس منصور فى زيارة للسعودية لتقديم واجب العزاء فى وفاة الملك فيصل عندما قابله أحد موظفى وزارة الإعلام وعاتبه على أنه هاجم عفاف راضى وقال له يكفى أنها لا تملك سيارة ! أى يكفى أنها ماتزال فقيرة وأنها لم تلجأ إلى أساليب أخرى غير فنية لتكون لها سيارة وأكثر .

وعندما عاد إلى القاهرة كتب هذا اللقاء وفى اليوم التالى فوجىء بعفاف راضى ومعها جهاز تسجيل تطلب منه أن يقول رأيه فى صوتها وما قاله المستمع السعودى ولم يرها بعد ذلك !

وأنيس منصور لا يرى صوت بدوى فى الجزيرة العربية ، وإنما هى كلها أصوات مستعربة أو تحاول أن تكون عربية أى تنزع العباءة والعقال عن حناجرها .. وكان يعجبه صوت كويتى لمطرب اسمه عوض الدوقى وصوته ليس قويا ولا جميلاً ، ولكنه صوت هامس متميز .. يشبه طنين ملايين النمل يدور حول خيمة فى إحدى الواحات .. وربما كانت أجمل أصوات الخليج هو صوت أبناء البحرين لأنها ذات طبيعة خاصة ولأنها بدوية حزينة .. إنها أقرب إلى أصوات الصيادين قبل أن ينزلوا الى البحر بحثا عن اللؤلؤ .. ولكن نبرة وصدى هذه الأغانى يدل على أنهم لا يريدون أن يغوصوا فى البحر لأنه لا لؤلؤ هناك !

●●●

الوجودية كانت ريشا فى جناحيه !

ولد الفيلسوف الفرنسى الشهير « جان بول ساتر » فى يونيو ١٩٠٥ وكان أبوه ضابطا فى البحرية الفرنسية أما أمه ان مارى شفيتز فقد كان عمها الدكتور البير سفيتزر الطبيب المؤلف المعروف الذى حصل على جائزة نوبل .

وقد فقد سارتر أباه وهو فى الثانية من عمره فأخذته أمه من بيت الزوجية وذهبت الى منزل أسرتها لتعيش فى كنف جده .

ويقول سارتر فى (الكلمات) بعد زفاف أمى الى الضابط البحرى « جان باتيست » سنة ١٩٠٤ أنجب ولدا هو أنا ! ولكنه مريضا وكانت أمى تعنى به عناية خاصة ، ولكن دون أن تصل بها الجرأة الى حد الحب ، فقد كانت فى العشرين من عمرها ولما كانت أمى بلا مال ولا صنعه عادت الى بيت والديها .. كانت موت والدى أكبر حدث فى حياتى اذا أعاد أمى الى أغلالها ومنحنى الحرية !

وبدأ ساتر حياته الأدبية فى حجرة مكتب جده لأمه وفى سنواته الأولى دخل مدارس كثيرة ، ولكنه كان يرسب فى امتحان القبول وكان جده يحضر له المدرسين فى البيت على طريقة البورجوازيين الفرنسيين ، واستمر فى الدراسة ودخل السربون وشهدت مدرجات السربون أول لقاء بينه وبين سيمون دى بوفوار سنة ١٩٢٩ وبدأت الصداقة واللقاءات المتعددة فى مطعم بلزار وعلى شاطىء السين وفى حديقة اللوكسمبورج وحول نافورة ميديسى .. وبدأ صيته يذاع وينتشر وبدأت متاعب الشهرة !

وبدأت فلسفته تتضح ومسرحياته تعرض وقصصه وبحوثه تباع بأعداد كبيرة . ومنذ سنة ١٩٣٦ عرف العالم « جان بول سارتر » ذلك الشاب الفرنسى الذى كان يتسكع على مقاهى مونمارتر ومونبارناس وعلى طول الشانزليزيه .. يقرأ الصحيفة فيتسكع خلال سطورها ويقرأ الكتاب فيتسكع بين صفحتيه .. انه التسكع الفكرى بين أروقة الكتب !

[illegible] بحوث [illegible] ومصطلحات [illegible]
[illegible] التطورات في
[illegible]

وبذلك [illegible] أن يضعه تحت [illegible] كانت الفلسفة الوجودية بمصطلحاتها الآن ترجع الى أصل [illegible] بعبارة أدق فقد سطع نجم الوجودية من باريس بفضل [illegible] أن تحقق الفلسفة الجديدة، وأن تشارك مشاركة فعالة في ازدهار حركة « المقاومة » للاحتلال الألماني ومن باريس اخذت الوجودية طريقها الى كثير من البلاد الاوربية والامريكية والافريقية وكثيرون من زوار باريس بعد الحرب كانوا يبحثون عن حي « سان جرمان دى بريه » الذى نال شهرة عالمية منذ نمت فيه الفلسفة الوجودية . لكن أكثر من كانوا يرتادون ذلك الحي لم يكونوا يعرفون عن المذهب الوجودى ولا عن فلسفة « سارتر » قدر ما يعرفون عن « مجالس » الوجوديين وسهراتهم فى مقهى « فلور » أو مقهى « دوماجو » وفى كهف « تابو » أو ملهى « الوردة الحمراء » .

ولعل من أشق الأمور أن تتحدث عن الفلسفات الوجودية حديثا عاما مشتركا ، وذلك لأن وجود « فلاسفة وجوديين » أمر مشكوك فيه فاذا سألت فيلسوفا محترما مثل أبي الوجودية كير كيجارد وقلت له : هل أنت وجودى ؟ فسوف يحمر وجهه ويجيبك وهو يرفع عصاه الغليظة :

ـ لا يا أستاذ .

ـ كيف ذلك وأنت ابو الوجودية .

ـ من قال ذلك أنا مجرد باحث فى الامور الدينيه والالهيات .

فمن الوجوديين من لا يرضى أن يسمى نفسه فيلسوفا .. فاننا نجد فيلسوفا آخر مثل « هيدجر » يرفض هو الآخر أن يقال عنه انه فيلسوف وجودى ، لكن من وجهه نظر مختلفة . فهيدجر يرى أن الفيلسوف يقصر بحثه على « الوجود الخاص » أى على الوجود البشرى الخاص ولايتعداه الى البحث فى الوجود العام . ولهذا فانه يرفض أن يكون « وجوديا » من هذه الناحية . لأن الأساس فى فلسفته هو البحث فى الوجود العام شأنه فى ذلك شأن أية فلسفة أخرى ومن ناحية أخرى فان فيلسوفا ثالثا مثل « ياسبرز » يقول : « أنا فليسوف للوجود لكنى أرفض لفظة وجودى » وهذا يدعونا الى أن نضع الى جانب مصطلح « الفلسفة الوجودية مصطلحا آخر هو فلسفة الوجود وأن نفرق تبعا لذلك بين الفليسوف الوجودى وفليسوف الوجود ، وكارل باسبرز من هذا الطراز الأخير يضاف اليه فليسوفا آخر هو جبريل مارسل .

وحتى أبو الوجوديين فانه يفضل أن يقال عنه انه مجرد باحث فى الأمور الدينية والالهيات يضع الله أمامه فيما بينه وبين نفسه ويبحث فيه من هذه النظرة الذاتية كموقف عام له فى الحياة ، وذلك عقب تجربته الشخصية مع

خطيبته « ريجين » وفسخه الخطبة بعد ذلك ربما ترتب على هذا الموقف من نظرة ثورية انعزالية خاصة .

وإذا صح هذا بالنسبة الى هؤلاء الفلاسفة الذين يعدون مؤسسين للحركة الوجودية فان لفظة « وجودى » أصبحت مقصورة فى استعمالها على مدرسة باريس الوجودية التى تضم جان بول سارتر وسيمون دى بوفوار وموريس ميرلوبونتى ولكن الخلاف بين ميرلوبونتى وزميليه أخذ طريقه منذ الخمسينات وانتهى بانشقاقه عنهما . واصبح يمثل الجناح اليمينى فى الفلسفة الوجودية حتى وافاه الأجل سنة ١٩٦١ . لكن على الرغم من هذه الخلافات بين فلاسفة الحركة الوجودية فانك اذا سألت الفيلسوف الفرنسى جان بول سارتر :

هل انت فيلسوف وجودى ؟

فسوف يرد عليك قائلا :

ان فلسفتى هى فلسفة الوجود .. أما الوجودية فلست أدرى ما هى .. !

هذا وقد اتخذت الحركة الوجودية نقطة بدايتها من الانسان او من الوجود من الانسان او من الوجود البشرى وهى لاتقصد بالوجود البشرى أو كما يسميه هيدجر بالوجود الانسانى فى العالم ذلك الانسان العاقل او الحيوان الناطق كما كان يدعوه أرسطو ، أى أنها لاتقصد به ذلك الانسان المجرد الذى يمثل « كل البشر ولا أحد منهم » والذى افترض وجوده الفلاسفة العقليون من حيث ان الناس جميعهم عندهم نسخة واحدة ، بل تقصد به ذلك الانسان الفرد الذى يتفاعل مع الوجود والحياة من خلال تجربته الحية ، والذى لايستطيع أحد غيره أن يحل محله فى هذه التجربة .

والوجودية بهذا الاعتبار رد فعل قوى ضد التيارات العقلية التى صبغت الفلسفة فى عصورها القديمة والحديثة على السواء فاذا كان ديكارت قد فكر وقال : أنا أفكر فأنا إذن موجود « فان الفلسفات الوجودية ترد على هذا الموقف بقولها مثلا على لسان كير كيجارد : كلما ازددت تفكيرا قل وجودى » .

وذلك من أجل أن توضح للناس أن الانسان يستطيع أن يؤكد ذاته ووجوده فى هذه الحياة من خلال المواقف التى يجد نفسه منخرطا فيها باعتبار أنه ذلك الكائن البشرى الموجود فى العالم ، ومن خلال ذلك الاختيار الحر الذى يميز الانسان كانسان .

وقد أصبح الانسان على يد الفلاسفة الوجوديين يمثل ذلك الكائن البشرى الموجود فى العالم وسط الأشياء ولم يعد مجرد ذات عارفة فلابد أن يترتب على ذلك أن يصبح الانسان « معاشرا » للأشياء وليس « عارفا » لها ولهذا نجد « هيدجر » يقول : ان الفيلسوف الحق هو الذى يحب معاشرة الاشياء ويطيل الاقامة بينها ووسطها ويستمع الى همسها فى تعاطف ودى .

وكلمة « فلسفة » التي تعني في معناها المتعارف عليه « محبة الحكمة » أصبحت تدل عنده على معنى آخر اذ انها تتألف من كلمتين : كلمة « صوفيا » وهي مشتقة من كلمة « سوفرس » باليونانية وتعني الشخص الألوف الذى يحب معاشرة الاشياء ويجد في ذلك متعة تقربة لا من الاشياء فحسب بل من نفسه أيضا وتتألف كذلك من كلمة « فيليا » وهي تدل على التعاون أو التعاطف المشترك ، وبذلك اصبحت كلمة « فلسفة » تدل عنده على « فن معرفة النفس عن طريق معاشرة الأشياء الخارجية » .

وبالاضافة الى هذا فان الأشياء عند هيدجر وسارتر وسيمون دى بوفوار لم تعد موضوعات للمعرفة ، بل أصبحت « أدوات » استخدمها في حياتي اليومية .... ومن أجل هذا السبب نفسه حرص سارتر على مقاومة الاتجاهات التي أحالت « الوجود » وجود الأشياء والظواهر الى مجرد ادراك لها .

فهو يفرق مثلا بين « وجود الظاهرة » و « ظاهرة الوجود » ويقول ان لكل ظاهرة « وجودا » يتعدى كونها مجرد ظاهرة ويطلق على هذا الوجود أو على هذ الجانب من الظاهرة اسما خاصا فيسميه بالوجود المتعدى للظاهرة ، ويسميه كذلك بالوجود المتفوق على الشعور أو المتعالى عليه .

وفي تحليلاته الكثيرة لوجود الأشياء يذهب الى أن للاشياء في وجودها شخصية تملي نفسها بها على الشعور ، فهو يصف مثلا في « الغثيان » قبضة الباب أو « الأكرة » فيقول : « الآن عندما هممت بدخول حجرتي وقفت فجأة في مكاني ولم أستطع أن أتقدم خطوة واحدة ذلك لاني أحسست أن شيئا باردا لمس يدى وأملى على وجوده في « شخصية » لم أستطع أن أنكرها -- ثم فتحت قبضة يدى ونظرت -- لقد لمست يدى قبضة الباب ليس الا » .

ولقد اختلف الناس في شأن الوجودية واختلفوا أيضا كثيرا في تقديرها .

وقال البعض : ان الوجودية مبدأ يهدف الى ممارسة الحرية الفردية في أوسع نطاق وقال آخرون : بل كفر واباحية .

وقد أجاب توفيق الحكيم حين سأله سائل : عن الوجودية وما يماثها من المذاهب -- وهل انتهى الأمر بها الى الاندماج في أدبنا فأصبحت أثرا فيما يصدر عن الكتاب من أدب وفن ؟! أم أن أمرها لا يعدو كتابات دبجها بعض الذين اطلعوا على بعض خصائص هذه المذاهب ؟

فكان مما أجاب به الكاتب الفيلسوف : أن رواج هذه المذاهب الأجنبية قد يكون راجعا الى الكسل الفعلى فبعض شبابنا يكتفى بارتداء ما جاء مصنوعا « جاهزا » من بلاد أخرى ، كما يشغف شغفا شديدا بأحدث ما يرد الينا من موضات الأزياء والأفكار فاذا وصلنا يوما الى أن ننشىء بأنفسنا مذاهب ونظريات أدبية وفنية مستمدة من صحيح تفكيرنا الذاتي ومن ظروف مجتمعنا وعقائدنا فان ذلك يكون هو الاتجاه الصحيح الذى يتم عن نشاط عقلى ، ولم يكتف بالتلف السلبى عن الخارج بل تخطاه الى الانشاء الايجابى -- ومن الخير

ان نذكر دائما بأن ضعف الثقافة القومية والتأثر دائما بما يرد الينا من نظريات وفلسفات كل ذلك له خطرة لانه سينشىء جيلا ينظر الى تراثه القومى والى دينه . وربما الى لغته وثقافته بنفس النظرة التى ينظر بها الينا اولئك الذين يريدون ان نتحول عن تراثنا ، ونحن نجتاز فترة من التاريخ فيها كثير من الذين يتربصون ويريدون أن يغزونا من الداخل بمثل هذه المذاهب ، فمن واجبنا اليقظة وأن نحرص فى هذه الفترة بالذات على تغذية شعلة الحماس الوطنى وأن نحاول أن نحميها من هذه الدسائس الفكرية التى تحاول ان توهمنا .
و(الوجودية) أول كتاب لأنيس منصور فى رحلته الطويلة مع المؤلفات التى تزيد اليوم على الخمسة والثمانين مؤلفا ما بين دراسة وقصة ومسرحية ومترجمات ، وأنيس منصور يقول اليوم عن الوجودية :

كانت الوجودية (على مقاسى الفكرى) .. ولكن يظهر أنها ضاقت أو تمزقت .. أو كبرت عليها او أنها تحاول أن توقف نموى .. لقد ظهرت الفلسفة الوجودية فى أعقاب الحرب العالمية الثانية تعبر عن اليأس والقلق والخوف من الموت .. والخوف أن يضع الانسان الفرد فى زحام الجماهير .. وكانت الوجودية طريق نجاة لواحد غرقان .. وسحبته بعد ذلك الى الشاطىء .. وكان الايمان بها نوعا من الامتنان لها ..

وكانت الوجودية تدعو الى إن يشعر الانسان بأنه حر .. وحر جدا وان يرفض أن يدوس له اى انسان آخر على طرف حديثه .. حر فى ان يعيش وفى أن يرفض الحياة .. حر فى ان يكون رجلا أو يرفض هذه الرجولة .. أن يكون مؤمنا أو كافرا . ولكن هذه المشاعر أوجعت القلب والرأس معا .. ولم تقدم لنا حلولا .. وانما عرضت علينا خريطة دقيقة للسفر الى بلاد كثيرة ولكن لم تسمح لنا بالسفر عرضت علينا قائمة طعام دقيقة انيقة ومخيفة أيضا .. لكن لم تقدم لنا أى طعام ، وانما تجمعت عندنا الشعور بالجوع والشعور بالتخمة ولكن لاطعام هناك ! ولابد أن نسمع عن الطعام وان نراه ولا على أن نسمع عن الطعام وان نراه ولا يهم أن نذوقه .. ولكن يظهر أن الفلسفة الوجودية قالت ما عندها .. وقرأ ما قالته .. وكتبت عنها ولها .. ثم كتبت ضدها .. وعن ايمان عميق وربما كنت الوحيد الذى هاجم سارتر عندما جاء الى القاهرة وجاهر بموقفه المتميز لليهود فهو قبل أن يجىء الينا ترك ثروته لفتاة اسرائيلية وقبل أن يجىء الينا بثلاثين عاما قال فى أحد كتبه : إن العالم الذى لايسمح لليهود بأن يكون لهم وطن عالم لايستحق الاحترام !

إن الوجودية قد تحولت إلى سلاح لخدمة دور النشر اليهودية والقضية اليهودية أيضا ، وليس صحيحا ما نادت به الوجودية من العدل والحرية وكرامة الانسان ولما أحس سارتر أن فلسفته قد ارتطمت بالحائط .. حاول أن يتسلق الجدران الي أكثر المذاهب السياسية انتشارا ورسوخا : الاشتراكية فحاول أن

يعقد زواجا سعيدا بين الوجودية والاشتراكية . بشرط أن تقوم الوجودية بدور «المرشد السياحى» الى العالم الاشتراكى وينتهز المرشد هذه الفرصة ليقوم بتصحيح بعض المعلومات والمفهومات الفلسفية .. لكن هذه المحاولة هى تزوير لشهادة الميلاد ومحاولة جديدة لكى تبدو الوجودية قزما والاشتراكية عملاقا فإن القزم يبدو أطول إذا ركب كتف العملاق ..

ولكن يبدو أن الوجودية هزت عقلى .. وحركتنى .. وأطلقتنى وأطلعتنى على تجارب نفسية وعقلية كثيرة .. ووضعت المرارة على شفتى واليأس على نفسى .. وأفقدتنى الكثير من نعيم هذه الدنيا ..

وأعتقد أن الوجودية كانت ريشا فى جناحى .. وأننى غيرت ريشى .. وأننى كنت أفضل الطيران على المشى على الأرض .. ولكننى الآن أمشى على الأرض وأتلمس الجدران والإنسان .. وأتوجع لنفسى وللجميع !

إن أول كتاب أصدره انيس منصور .. هو كتاب الوجودية وقد بلغ ما بيع منه ٥٠ ألف نسخة .. والسبب أنه أول كتاب باللغة العربية يتناول هذا المذهب بلغة سهلة ..

إن البناء الكبير بدأ من أول حجر .. والرحلة الطويلة تبدأ من الخطوة الأولى .. والبناء لن يكتمل .. والرحلة لن تتم إلا إذا عرفت أين تضع الحجر الأول وعرفت متى تبدأ الخطوة الأولى وأين تكون الكلمة الأولى ..

إن كتاب الوجودية هو إثبات لوجود أنيس منصور على المسرح الفلسفى !

●●●

أنيس منصور - نظرة عصفور

ركب البغال فى أعالى الهملايا ، وركب النفاثة من هوليود إلى واشنطون ، وركب الأفيال وركب الزوارق وسط مياه مليئة بالأفاعى والتماسيح فى أقصى جنوب الهند ، وأكل الموز بالشطة فى سنغافورة وشرب الشاى بالملح فى أندونيسيا ، وأكل الأناناس مع الغربان فى سيلان .

ولقد انتقل من معبد إلى حانة ومن حانة إلى غابة .. إلى قمة جبل .. إلى طائرة فوق محيط أثناء عاصفة والناس نيام .. والظلام حالك فوق السحاب وارتدى الدولى فى كيرالا ولبس الكيمونو فى طوكيو ومشى ربع عريان فى هونولولو ، وكان له أصدقاء من أصحاب الملاليم وأصدقاء من أصحاب الملايين والبلايين .

انه انيس منصور .. نظرة عصفور

فأنيس منصور له عين عصفور فهو رأى كل شىء من أعلى ، وله ظهر جمل تحمل به كل شىء وساقا معزة لم تتعب أبداً من المشى .. ولم ينس أن يحمل على كتفيه حقيبتين : احداهما بها أوراقه وأقلامه والثانية مملؤة بالصبر والمعية الملاحظة ورهافة الفطنة وسرعة الالتقاط والنظرة العميقة التى تجلو حقيقة الأشياء ، وعاد إلينا بعد رحلاته وفي يديه مفتاح جديد لا يصدأ فتح به ريادة أدب الرحلات المعاصرة وفي يده الأخرى كتابه الشائق والشائك والممتع « حول العالم في ٢٠٠ يوم » وليس هناك أعجب ولا أروع من أحاديث الأدب العربى قديمه ووسطه من المؤرخين القدماء يؤكدون شغف وفتنة العربات بالرحلات إلى أرجاء جزيرتهم وأطرافها .. والفتوحات العربية في صدر إلاسلام دلت على أن العرب كانوا عارفين تماما بالبلاد التى تحيطهم من كل جانب اتيانا مثلما تعرفهم الشعوب الأخرى .

مثلا عمرو بن العاص حين فتح مصر كان خبيراً بدروبها ومسالكها وأقاليمها .. عارفاً تمام المعرفة بأهلها وأن المصريين كانوا يعرفون العرب الوافدين عليهم معرفة العرب بهم .. وكذلك كان الشأن بالنسبة للقواد الفاتحين لبلاد الشام وفارس والروم وغيرهم .. وأحاديث المصرى بين أهل الجنة والنار من الانس والجن في رسالة الغفران . وأحاديث السندباد البحرى والحسن الصائغ البصرى وألوان المقامات المؤسسة على الفتنة بالرحلات .. كلها تدل على أن هذا الولع وهذه الفتنة لم يشبعها عالم الدنيا فتجاوزته إلى الدار الآخرة ، ولم يكفها عالم إنس فتجاوزته إلى عالم الجن وعوالم أخرى يرحل إليها الانسان بسرعة سحرية تستغرق الشهور والسنين وكانت الرحلات من أقوى الدعائم لوحدة الفكر العربى لعصور الاسلام الأولى رغم التباعد بين أرجاء العالم العربى الاسلامى وصعوبة وسائل الانتقال وصعوبتها البالغة فى ذلك الزمان .. وكان حج بيت الله الحرام وكان طلب العلم من أسباب هذه الرحلات المحببة إلى النفوس رغم وعورتها الشديدة وعذابها الأليم الذى لا ينتهى أبداً .

ومن أقدم رحالة العرب أبو دلف بن مهلهل الشاعر فقد ملكت عليه الرحلات فؤاده فقد خرج من بلاده سائحاً تشوقه غرائب الشعوب وتدفع به عجائب المخلوقات فسافر إلى بلاد الهند وكشمير وأفغانستان ثم عاد ليؤلف كتابه المسمى « عجائب البلدان » والذى يعتبر من أهم المراجع لياقوت والقزوينى ويجمع فنون الأدب مع التاريخ والسياسة والجغرافيا .

ومثله أبو الريحان محمد البيرونى الرحالة الفيلسوف الرياضى الفلكى الذى يعد كتابه « تاريخ الهند » من أوثق المراجع وأوفاها فى التعريف بالهند ومختلف أحوالها ، أما المسعودى فهو مؤلف مروج الذهب والذى كتبه بعد أن سافر إلى بلاد الفرس عام ٩١٥ ميلادية والهند والخرز والتبت وجزيرة سرنديب ، ومنها عاد عن طريق عمان وقصد شاطىء بحر الخرر فزار بلاد الروم وسوريا وفلسطين ومصر والسودان . ولشدة ولوعة يجوب الآفاق ورغبته فى الوقوف على أحوال العالم خرج للسياحة ولم يبلغ العشرين من عمره .

وياقوت الحموى الذى قام بكتابة « معجم البلدان » بعد أن رحل للتجارة ثلاث مرات طاف خلالها معظم عواصم العالم .

ولكن من أشهر الرحلات العربية ذات الأثر لعصرها والباقية على مر الزمان حتى هذه الايام رحلة ابن جبير وابن بطوطة .

وابن جبير هو أبو الحسن الكنانى الأندلسى ولد بمدينة بلنسية فى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى وسافر إلى المشرق لأول مرة جاعلاً من وجهته الحج إلى الأندلس تحت عنوان « رحلة بن جبير » .. وقد رووا أنه حين عمل كاتب السحر لحاكم غرناطة شرب الخمر فعزم الحج تكفيراً عن خطيئته فذهب من غرناطة إلى سبته ماراً بجزيرة طريف حيث ركب البحر إلى الإسكندرية ..

وكان الصليبيون يحتلون فى ذلك العهد الطريق المألوف إلى مكة فسلك الطريق إلى القاهرة فقوص فعيذاب فجدة ، وبعد أن حج زار المدينة المكرمة وبغداد والموصل وحلب ودمشق ، وركب البحر من عكا إلى صقلية ثم عاد إلى غرناطة ورحل إلى المشرق بعد ذلك مرتين وفى الثانية مات بالإسكندرية التى فتن بها وأجاد وصفها فى كتابه « عام سبعة عشر ومائتين وألف ، ولكن كتابه لم يتضمن سوى حديث الرحلة الأولى » .

وفى رحلته ينشد الشعر فى حبيبه الذى يخلفه بغرناطة كما ينشد الشعر فى كل بلد يزوره .. وينشد قصيدة طويلة مستفيضة حين يبلغ مشارف كل من مكة والمدينة لكن شعره ليس جيداً وتظهر فيه الصنعة ويبدو التكلف ..

ومن قوله فى منى :

يا وفود الله فزتم بالمنى	فهنيئاً لكم أهل منى !
قد عرفنا عرفات بعدكم	فلهذا برح الشوق بنا
نحن فى الغرب ويجرى ذكركم	بغروب الدمع يجرى هينا

ويبدو التشاؤم عنده وسوء الظن بالناس بعد رحلاته وخبراته وهذا واجب وممكن أيضا .. وفى ذلك يقول الكثير .. ومنه:

صبرت على غدر الزمان وحقده	وشاب لى السم الزعاف بشهده
وجربت إخوان الزمان فلم أجد	صديقاً جميل الغيب فى حال بعده
بنفسك صارم كل أمر تريده	فليس مضاء السيف إلا بعده
وعزمك جرد عند كل مهمة	فما نافع مكث الحسام بغمده

ومما يمتاز به ابن جبير نقده لأساليب الحكم الغاشم وإطراؤه للحكم الصالح ، وحملته على قطاع الطرق ، ودعوته إلى كفالة الأمن العام وبعرضه الموجز الوافى بمختلف البلاد وتحديده للأماكن فى دقة ، وتعيينه للتواريخ بالتقويمين الهجرى والميلادى .

وأشهر الرحلات العربية فى العالم وأبقاها أثراً غير منازع وأشهرها هى رحلة ابن بطوطة وهو محمد بن عبد الله اللوانى الطنجى .. وموطنه الأصلى بلاد برقه حيث منازل قبيلة لواته على الحدود المصرية ثم طنجة بالمغرب ، وقد ولد فى السنة الرابعة للقرن الرابع عشر الميلادى وتوفى عام سبعة وثلاثمائة وألف ، وقد بدأ رحلاته فى الثانية والعشرين وقطع فيها ما يقدر بمائة وعشرين ألف كيلو متر واستنفذت منه ثمانية وعشرين عاماً .. وجاب أكثر ما عرف لزمانه من بلاد العالم ..

وفى الرحلة الأولى التى استغرقت أربعاً وعشرين سنة ، وبمراكش والجزائر وتونس وطرابلس الغرب ومصر وقصد البحر الأحمر ماراً ببلاد الصعيد ، ولكن الحرب القائمة فى ذلك الوقت بين المماليك والبجاة اضطرته للعودة إلى الفسطاط ومنها رحل إلى فلسطين ولبنان وسوريا والحجاز حيث حج حجته الأولى .

ومن مكة سافر إلى العراق وفارس والأناضول ثم عاد إلى مكة حيث أقام بها عامين وحج حجته الثانية .

ومن بعد ذلك سافر إلى اليمن فإفريقيا الشرقية وعاد إلى جزيرة العرب فالخليج حيث زار عمان والبحرين والأحساء ثم رجع إلى مكة وحج حجته الثالثة .

ومن مكة رحل إلى خوارزم وخراسان وتركستان وأفغانستان وكابول والسند وانتهى إلى الهند حيث ولاه ملكها محمد شاه القضاء المالكى ، ثم أرسله فى وفد إلى ملك الصين .. ومن هذه البعثة عاد إلى سومطرة وفارس والعراق وسوريا وفلسطين وبلغ مكة حيث حج حجته الرابعة ومن هناك عاد إلى موطنه فاس ماراً بمصر وتونس والجزائر ومراكش لكنه لم يستقر فيها سوى عامين ، ثم برحلته الثانية إلى بلاد الاندلس وأتبعها برحلته الثالثة والأخيرة الى بلاد افريقيا الوسطى .

ويعتبر ابن بطوطة أول سائح يكتب عن مجاهل افريقية الوسطى .. وقد أثارت رحلته الأفكار ، واختلف الناس على رواياته بين مصدق ومكذب كما يقول ابن خلدون ، ولكن المؤرخين الغربيين يجمعون على صدقه ويؤكدون الفائدة العظمى التى أعادها على علم تقويم البلدان والمعرفة بالأقطار المعمورة ونظم الحكم المختلفة لذلك الزمان ..

وتظهر فى رواياته آيات الأيمان والصدق والبساطة والنزاهة وقد أكرمه أبو عنان سلطان المغرب وضمه إلى حاشيته ... وطلب إلى كاتبه الأديب محمد بن جزيى الكلبى أن يصوغ ما يمليه عليه ابن بطوطة فصاغه فى أسلوب أدبى ، وأضاف إليه بعض الأشعار التى قيلت على البلاد التى يقص حكايتها ابن بطوطة ..

واكتملت بهذا رحلته المسماة .. شحنة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار .. وتظهر عناية ابن بطوطة بشئون الدين والحكم فى رواياته كما تظهر عنايته بوصف البلدان وما تحويه من الأنهار والجبال والوديان .. لكن قيمته العظيمة فى تصوره للشخصيات الحاكمة والقضائية وسائر الوظائف التى التقى بها .. فهو من هذه الناحية تاريخ اجتماعى قيم .

وبالرحلات عظمت مساهمة العرب فى التقدم العلمى والحضارة الإنسانية ، ولهذا لم يكن عجباً أن يكون الادريس الجغرافى العربى للقرن الثانى عشر الميلادى أول مكتشف لمنابع النيل وراسم مصور جغرافى لها ، وأن يكون معلم الغربيين فى هذا الميدان مثلما كان العرب أساتذة البحرية ومؤلف علومها وصانعى أدواتها .

ولم يكن عجباً أن يرشد ابن ماجد الخليجى العربى فاسكودى جاما فى اكتشافات البحرية للقرن الخامس عشر .. ولم يكن عجباً أن يسبق العرب الأمم الأخرى فى علوم الفلك والرياضيات وتقويم البلدان .

أما من ناحية أسلوب الكتابة لكل من رحلتى ابن جبير وابن بطوطة ..

فيؤخذ على أسلوب ابن جبير عدة مآخذ منها : عباراته العامية التى لا ترضى عنها اللغة الفصيحة ويرد ذلك إلى كتابتها على صورة مذكرات ، ثم تنسيق هذه المذكرات فيما بعد على يده أو يد أحد تلاميذه ..

ومن الملاحظ أيضا أن ابن جبير يضمن كلامه كثيراً من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، وينثر فيه بعض أبيات من الشعر فى مناسبات ملائمة .. وقارىء الرحلة يقع فيها أحياناً على كثير من الاستعارات والتعبيرات الأدبية التى يصطنعها اصطناعاً مثل قوله فى وصف أحد خطباء الحرم الشريف فى مكة ..

« وفى أثناء حديثه ترشقه سهام من المسائل فيتلقاها بمجن من الجواب السريع البليغ فتحار له الألباب .. » .

ومهما يكن فإن هذه الرحلة تحوى بعض المعلومات التى لا يستغنى عنها مؤرخ أو جغرافى أو أديب يريد أن يدرس هذه الفترة المهمة من حياة الشرق الاسلامى وقد أفاد منها الجغرافيون والمؤرخون والرحالة المتأخرون عليه ممن أعجبوا بعبارته .

أما الملاحظ على رحلة ابن بطوطة أنه لم يهتم بالأقطار إلا قليلا فهو إنما يصف المدن باعتبار من يقطنها من الناس ، فقد كان الناس موضع اهتمامه ولذلك تصدى ابن جزى بما اعتبره خدمة منه لوصف بعض المدن باعتماده على كتابات سابقة كرحلة ابن جبير مثلا أو وصف بغداد وحلب ودمشق ومتناسياً أن أهمية الوصف هنا تأتى من كونها تصور الموصوف أيام الرحالة ، وكما شاهده وعاينه بنفسه وإلا فما فائدة أن يصف لنا بغداد مثلاً كما رآها ابن جبير قبله بنحو مائتى علم ونحن نريد أن نعرفها كما رآها هو فنقف على ما آلت إليه خلال هذه المدة . ومثل هذا ما نقله عن ابن جبير أيضا فى وصف الحجر الأسود واثر تقبيله عند الحجاج . ويبدو أن لعامل الزمن إلى جانب شخصية ابن بطوطة أثراً كبيراً فى هذا الاتجاه .. ومن هنا فنحن لا نتقرب اهتمامه بذكر الشخصيات العلمية والدينية التى التقى بها فى كل بلد حل فيه .. فهو دائما موضع الاحتفاء والتكريم .. ويبدو أنه كان يستشعر لذة خاصة فى ذكر الأشخاص الذين عرفهم وفى التراث والتحدث عنهم .. وهم بهذا يشغلونه كثيراً حتى لكأن ذكرهم هداية وتبرك .. فيروى عن كراماتهم وأحاديثهم فيشوق القارىء ويطلعه على نواح من حياة المجتمع فى زمنه .. ويتصل بذكر هؤلاء الناس الفيض العميم من الحكايات والكرامات التى يذكرها عنهم ولهم أو لغيرهم .

وأكثر من هذا الخرافات التى سيطرت على معتقد الرحالة فقادته إلى معتقدات العامة بل اصبح من متابعها وأصولها فى هذه الرحلة فهو يفيض فى

ذكرها دون أن يبدى أى لون من ألوان الحذر أو التحفظ مما أثار فى نفوس معاصريه غموض الشك والريبة فى أحاديثه ..

ومن حيث أسلوب كتابة الرحلة فمن المعروف أن السلطان أبا عنان سلطان فاس كان صاحب الفضل فى ظهور كتاب وصف رحلة ابن بطوطة ، فهو الذى وفر له محررها الأديب من كتاب ديوانه . وتدل القرائن على أن رحلتنا على الرغم من ولعه بالقصص لم يكن ذا ميل إلى الكتابة لسبب أو لآخر . وأنه لم يملك مذكرات لرحلته عند الاملاء فهى إما أن تكون ضاعت منه أو أنه لم يكتبها أصلاً كما هو هو الأغلب . ومن هنا فإن سرده حوادث هذه الرحلة لم يكن متمثلاً فى ذهنه بهدف إخراجها كتاباً متكامل الجوانب بدليل تقطع الحكايات وعدم اتصال فيها باستمرار . وإنما كان كل همه أن يقدم مادة هذا الكتاب إلى المحرر بلا تنسيق . وقد أثر ذلك على منهج الكتاب وعلى التسلسل والتكامل فيه برغم الجهد الواضح الذى بذلك الكاتب للربط بين هذه القصص والأخبار .. ولعل طريقة المشاركة فى الإملاء والتدوين جعلت من الصعب الارتفاع بأسلوب الرحلة الى النمط الجيد والتدوين المتكامل المترابط فبدأ اختلاط الأسلوبين واضحاً وعرى التسلسل مفككة وغير مترابطة فى أكثر أجزاء الكتاب فجاء مفتقراً إلى التناسب والتناسق . فلغة السرد القصصى التى يعرض فيها الرحالة أخباره وحكاياته .. لغة قصصية بسيطة أميل ما تكون إلى لغة المحادثة العادية أو أقرب ما تكون إلى ما يمكن أن يسمى « باللهجة الشخصية » ولا غرابة فى ذلك إذ لم يكن همه عرض قدرة لغوية أو حكاية أدبية ، وإنما همه أن يقص مالديه من حكايات ومشاهدات .. وهذا أمر طبيعى مع رحالة طاف هذه السنوات فى أرجاء الأرض وفى مثل ظروف ابن بطوطة وأحواله .

وعلى أية حال فإن ابن بطوطة بهذه الرحلة العظيمة يمثل المواطن الاسلامى الذى طاف أرجاء العالم الاسلامى فى القرن الثامن الهجرى بدافع المغامرة والتجارة أو حب الرحلة المجرد وسيبقى دليلاً على وحدة الشعور الاسلامى أيامها فى أمصار الاسلام المتعددة . وسيبقى مثالاً لنوعية فريدة من الرجال الرحالين على مدى الدهور فقد قدم من خلال رحلته هذه كثيراً من المعلومات .. التاريخية والجغرافية عن مناطق معروفة ومناطق أخرى فى الشرق الأقصى وفى بعض مجاهل افريقية لم تكن معرفتها واسعة الانتشار إن لم تكن معدومة أحياناً .

ولا يقلل من اهمية هذه الرحلة ما تزخر به الرحلة من أخبار وحكايات غريبة تطبعها بطابع أسطورى وتضعها فى مصاف الرحلات الخرافية .. وسنظل نعتبر رحلة ابن بطوطة مع كونها صياغة أدبية لروايته حررها ابن جزى ، وبرغم ما أفقدتها هذه المشاركة من حيوية جهد أثرى به العرب فى جملة ما أثروا التراث الانسانى حتى فى مجال هذه الخرافات أو الحكايات الشعبية ، والحقيقة التى لا يختلف عليها اثنان أن الرحلات العربية كانت مصدر غناء للأدب العربى وللتقدم الانسانى وللحضارة العربية الرائدة فى أبهى عصورها .

ولقد ارتبط أدب الرحلات بمعالم حركة النهضة الحديثة .. بل إن الدارس لهذا اللون من الأدب يدهش وهو يكتشف لأول وهلة أنه من أهم معالم مرحلة التغطية الأولى التى صاحبت حركة التمرد على التخلف الذى عاشته أمتنا تحت جهل الحكم العثمانى ، وصاحبت حركة التمرد على محاولات الاستعماريين الفرنسى والانجليزى السيطرة على المكتبة العربية ووضعها فى القالب الذى يسير فى فلكها ويؤيد وجودها .. وهى بالتالى قد صاحبت حركة المخاض الهائلة التى استطاعت أن تخرج إلى النور .. وهذا العصر .. عصر البعث .. كان عصر التيارات الصاخبة المتصارعة كما كان عصر الرواد فى الفكر والتوعية والعلم والمدركين لخطورة دورهم على حياة أمتهم وعلى صورة مستقبلها .

ومن هنا امتزجت فى هذا العصر تيارات السياسة بتيارات الفكر ، كما امتزجت فى نفوس الرجال معارك السياسة بمعارك البناء الاجتماعى والبناء الفكرى للأمة على حد سواء ..

ولن تجد مفكراً فى هذا العصر لم يتناول مشاكل السياسة على قدم المساواة مع مشاكل التحرر الاجتماعى ومشاكل للنهضة الفكرية جميعاً .. وقد فرضت طبيعة العصر نفسها على التيارات المتصارعة وعلى الرجال الرواد ، وسواء كانت هذه الطبيعة غالبة من واقع المجتمع العربى ذاته أم من الصراعات العالمية حوله إلا أنك لن تستطيع أن تخرج هؤلاء الرجال والرواد من الدوامة الهائلة التى وضعتم طبيعة هذا العصر فى مسارها .. وجاء إنتاجهم الفكرى كله متأثراً بوجودهم فى إرساء هذه الدوامة كما جاء أدب الرحلات الذى أنتجوه صورة حقيقية معبرة عن عنف تيارات هذه الدوامة وشدة تأثيرها فى الرحلات نفسها ، تلك الرحلات التى أنتجت هذا الأدب خضعت فى أسبابها وفى الانطباعات الأساسية التى خلفتها لاحتياجات العصر وظروفه ، كما خففت أيضا للدوامات الضارية التى تحكمت فى العصر والرجال على السواء .

وأول كتاب من أدب الرحلات يبرز لنا كل هذه المعانى هو كتاب رفاعة رافع الطهطاوى « تخليص الابريز فى تلخيص باريز » فهذا الكتاب يرسم صورة المجاملة التى يقوم بها شرقنا العربى فى ارساء صور جديدة بينه وبين الغرب الذى يسبقه فى مضمار التقدم والعرفان والحضارة .

الرحلة نفسها كانت رحلة طالب العلم المتواضع الذى يذهب إلى حيث النور خارجاً من غياهب متكاثفة الظلمة .. شديدة التخلف ومنطلقة من نفس تحس الضآلة الشديدة أمام ما ستلقى من معرفة ، وبالخوف والشك فى قدرتها على تحقيق ما يراد منها ولها من الأخذ بأسباب هذا العلم الذى كفل للغرب التفوق ، وأعطاه القدرة والقوة على الشرق الذى عاش طويلاً فى حلم التفوق الخرافى على العالم كله لتستيقظ فجأة على واقع تخلفها المزرى وجهلها الكامل المقيت ،

فهذه الرحلة إذن رحلة لقاء بين طفولة جديدة للشرق العربى ورجولة عارمة متكاملة للغرب .

ويقول رفاعة الطهطاوى فى كتابه :

« فلما رسم اسمى فى جملة المسافرين وعزمت على التوجه أشار على بعض الأقارب والمحبين لاسيما شيخنا العطار فإنه مولع بسماع عجائب الأخبار والاطلاع على غرائب الآثار أن أنبه على ما يقع فى هذه السفرة وعلى ما أراه وما أصادفه من الأمور الغريبة والأشياء العجيبة وأن أقيده ليكون نافعاً فى كشف القناع عن محيا هذه البقاع التى يقال فيها إنها عرائس الأقطار ، وليبقى دليلاً يهتدى به إلى السفر إليها طلاب الأسفار ، خصوصا أنه من أول الزمن إلى الآن لم يظهر باللغة العربية على حسب ظنى فى تاريخ مدينة باريس عرس مملكة الفرنسين ولا فى تعريف أحوالها وأحوال أهلها ، فالحمد لله الذى جعل ذلك بأنفاس ولى النعمة فى عهده وبسبب عنايته وتقديمه للعلوم والفنون . »

وهذه الوقفة من رفاعة ومن شيخه وأستاذه حسن العطار شبيهة بوقفة شيخ المؤرخين فى عصره الشيخ الجبرتى وهو يزور المتحف الفرنسى أثناء احتلال نابليون لمصر ويطلع على الأدوات والبحوث والخرائط والصور التى استعان بها الفرنسيون فى دراستهم لمصر ، فهو المتطلع المندهش وهو فى نفس الوقت موقف الراغب فى المعرفة المقر بضرورتها وأهميتها .. وقد كان هذا الموقف هو السمة الغالبة دائما فى معظم وأهم الأعمال التى قدمت فى أدبنا المعاصر لأدب الرحلات ، فموقف التلميذ المتطلع إلى الاستاذ .. موقف الطالب الذاهب إلى مناهل العلم .. والمعرفة هو الموقف الذى شكل عمل رفاعة رافع الطهطاوى كما شكل أعمال توفيق الحكيم وهيكل وحسين فوزى ومن بعدهم أنيس منصور ..

ويبرز الدكتور حسين فوزى فى كتابه « سندباد إلى الغرب » هذا الموقف « عندما وضعت قدمى على الباخرة » الجنرال متزنجيه « كنت أعرف ما لى وهو لا شىء أنا مدين لوالدى وأساتذتى وأصدقائى وحكومتى بكل شىء ومهمتى بأوربا الوفاء بهذا الدين ، ولم يطلب هؤلاء مالاً وأن تكلفوا الكثير فى سبيلى وإنما هم ليقوضوننى الدين علماء ومعرفة أولا ثم وضع هذا العلم والمعرفة فى خدمة وطنى » . وعلى الرغم من الزمن الطويل الذى انقضى بين كتاب الرحلتين .. رحلة رفاعة إلى باريس ورحلة حسين فوزى إلى الغرب كله ومن باريس وهى رحلة تتم بعد الحرب العالمية الثانية إلا أنك ستجد أن موقف الطلب عند الاثنين واحد وأن منبع هذا الطلب والموصى به والمتكفل به واحد ايضا .

إن رفاعة الطهطاوى عندما ذهب إلى باريس ورأى (عربة الرش) التى يجرها حصان والماء ينزل منها فى ميدان الكونكورد أصابه ذهول فقد قارن بينها وبين

ما يحدث فى القاهرة ، ففى القاهرة كانوا يرشون الشوارع بالطشوت أو بالحلل .. فى وقت طويل وبصورة مرهقة فقال الطهطاوى فى كتابه المشهور :

« ودعوت الله سبحانه وتعالى أن يرشد واحداً من أبناء مصر فيخترع لها مثل هذا الاختراع العظيم ..

وكان هذا الاختراع العظيم هو عربة رش .. »

فأحداث الرحلة هنا وسيلة إلى غاية أهم وهى استكمال المعلومات التى يحس رفاعة أنها تنتصر معاصريه أو التى يحس أنها تفيد القارىء ليتابع تطوره الذهنى هو ليفهم سر الانطباعات الفكرية أو الفلسفية التى يثيرها حدث من أحداث الرحلة .

وهذا الموقف نفسه موقف من تابع رفاعة فى رحلات إلى باريس وأوربا نفس ما نجده عند هيكل فى كتاب رحلاته « ولدى » بل هو نفس ما نجده فى « سندباديات » الدكتور حسين فوزى الذى جعل حياته وكتبه حياة وكتب رحلة دائمة بحثاً عن العلم وبحثاً عن المعرفة والحضارة .

ويقول الدكتور حسين فوزى فى « سندباد إلى الغرب »

« جاهدت طول حياتى وما برحت وسأجاهد نحو غاية واحدة لا أحيد عنها ولا أميل : المعرفة لأننى صدقت موضوع المفاضلة بين العلم والمال وكان الأساتذة فى زمانى الأول يدافعون عن العلم ويدفعوننا إلى تفضيل العلم ففضلت العلم .. وكان والداى وأساتذتى وأصدقائى لا يعرفون غير مصدر واحد لهذا العلم هو أوربا وحضارة أوربا فأصيبت أوربا وحضارة أوربا » .

وسنجد هنا هذه الوقفة المنطلقة المندهشة من معطيات الحضارة والفكر عند أبناء الشرق عند كل كتاب الرحلة فى أدبنا الحديث منذ رفاعة رافع الطهطاوى وتوفيق البكرى وأحمد فارس الشدياق والشيخ رشيد رضا حتى أنيس منصور .. نفس التطلع المبهور بالحضارة الغربية ومعطياتها وبالعلم ودوره ومنشآته وبالمتاحف والمعارض بالمسرح والفن التشكيلى والمعمارى بالسلوك والعادات والتقاليد بالروح الوثابة المغامرة وبالحس الزائد بمعنى الفن والفكر والتقديس الكامل للحرية والجوهر الانسانى .

وإذا كان أدب الرحلات الذى بدأ مع حركة البعث والتطور ليعكس قضايا هذه الحركة ومشاكلها المتعددة وليعكس الصراع الذى دار بين قوى التقدم والتحرر وقوى الجمود والتبعية فأن هذا الأدب عكس أيضا صورة الصراع على الأسلوب واللغة ، وستجد فى محاولات الشدياق ورفاعة الطهطاوى انعكاساً كاملاً لهذا الصراع فيما أخذوا به من ارتباط ببعض التقاليد الثابتة مع محاولة لتطوير الأسلوب تطويراً يدفعه الى مجال الاستعمال الأكثر رحابة ، والأكثر صدقاً ، والأبعد عن التعقيد ، والأسراف فى المحسنات التى كانت تسود أسلوب أبناء عصرها ..

والحقيقة أن أدب الرحلات وقد سبق الأدب القصصى قد استطاع أن يقفز بالأسلوب العربى قفزات واسعة فى محاولة لاخراجه من المأزق الذى أوقعه فيه تمسك كتاب العصر بالمال والسجع فى مفهوم خاطىء لمعنى الأدب ورسالته . ولا شك أن أدب الرحلات بهذا يكون قد خاض معركة اللغة المستعملة فى الكتابة الأدبية . ولهذا لم يكن عجيباً أن تكون الصرخة .. صرخة توفيق الحكيم « أين الأسلوب » صادرة منه فى رسائله إلى صديقه «أندريه»وهو يحادثه عن باريس ومغامرات باريس « وانطباعاته عن حياة الفن فى العاصمة الفرنسية .. مدينة النور .. باريس .. هذه الصرخة التى تلخص كل رحلة الحكيم فى كتابه « زهرة العمر » إنما تعبر عن كل أدب الرحلات فى مطلع حياتنا الثقافية المعاصرة « أين الاسلوب » ؟

أين هو فى الحياة والفن والعلم والفكر والسياسة ؟

من أجل البحث عن الأسلوب كتب هؤلاء الرحالة الأدباء شرقنا وبين النور فى مصادرة التى بهرت عصرهم كله ..

وبحثاً عن الأسلوب سافروا وكتبوا وبحثاً عن الأسلوب نقلوا خواطرهم وانطباعاتهم وافكارهم وصراعاتهم المرة فى اذرع اخطبوط ضخم اذرعه صراعات العالم حولهم .. وصراعات التيارات الخفية التى عملت عملها فى تمزيق مفكريهم وكتابهم .

فأدب الرحلات أدب حيوى وهام وشائق لما يبعثه من متعة .. وما يبثه من أشواق ، ومه يتخلله من معلومات . ولكنه مع ذلك ليس سهل التناول فما أكثر الطيارين والمضيفين الذين سافروا .. وما أكثر البحارة الذين نزلوا فى كل ميناء ولكن ما أقل من كتب معبراً عما رأى شاهد .

وكان أنيس منصور من هؤلاء القلة الذين عبروا فى عمق وروعة عما رأوا وسهولة وقدرة وابداع عما شاهدوا فهو رائد له مدرسة متميزة فى أدب الرحلات .

وأهم مؤلفاته فى أدب الرحلات هى :

حول العالم فى ٢٠٠ يوم

أطيب تحياتى من موسكو

بلاد الله لخلق الله

اليمن ذلك المجهول

أيام الجزائر البيضاء

أنت فى اليابان

ففى كتابه « حول العالم فى ٢٠٠ يوم » سجل فيه أنيس منصور خواطره ومشاهداته وتأملاته وانفعالاته الذهنية والعاطفية فى رحلته من القاهرة إلى الهند وسيلان وأندونيسيا وجزيرة بالى واستراليا والفلبين وهونج كونج واليابان

وهاواى ، واخيرا إلى أمريكا ثم أوربا قبل أن يعود إلى القاهرة التى سبقته اليها مقالاته وتحقيقاته الصحفية من كل الدول التى زارها والتى أحدثت دويا هائلا وتأثيرا كبيرا والتى نشرها تباعاً فى مجلتى الجيل الجديد وآخر ساعة وصحيفتى الأخبار وأخبار اليوم ، حيث يطوف بك أنيس منصور بأسلوبه السهل الممتنع لتشاهد وتتمتع وتضحك وتبكى وتحزن وتفرح ولكنك لن تتثاءب أبدا وأنت تقرأ ولن تبدأ فيه حتى تنتهى منه

بعد أن صدرت الطبعة الأولى من كتاب حول العالم فى ٢٠٠ يوم والتى جمعها أنيس منصور من مقالاته المنشورة فى الصحف والمجلات جلس يقلب فى الكتاب .. فى صحفاته فأحس أنه غير مترابط فى أجزائه فجلس يكتب هذا الكتاب من جديد فى جلسة واحدة واستغرق ١٤ يوما لتصدر الطبعة الثانية فى ٨٠٠ صفحة قدم لها عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين بقوله :

« هذا كتاب ممتع حقًا تقرؤه فلا تنقص متعتك ، بل تزيد كلما تقدمت فى قراءته ، ومع أنه من الكتب الطوال جدًا فميزته الكبرى هى أنك حين تقرؤه لاتحتاج إلى راحة، وإنما تود لو تستطيع أن تمضى فيه حتى تبلغ آخره فى مجلس واحد ، لأنك تجد فيه المتعة والراحة والسلو وإرضاء حاجتك إلى الاستطلاع » .

ومن المحقق أن هذه الرحلة الرائعة يمكن أن تقرن إلى الرحلات العربية القديمة ، ومن يدرى لعل ان تمتاز منها ببعض الخصال ، فصاحب الكتاب حلو الروح .. خفيف الظل .. بعيد أشد البعد عن التكلف والتزيد والادلال بما يصل إليه من الغرائب التى يسجلها فى كتابه . »

ثم قدم لها الأديب الكبير محمود تيمور فى الطبعة السادسة مؤكداً إن لم يجد نظيراً لبراعة أنيس منصور من الكتاب والأدباء حتى يمكن أن يعقد بينهما مقارنة ..

ولم يشأ الكاتب الكبير أنيس منصور أن يغير كلمة واحدة فى العشرين طبعة التى ظهرت حتى الآن إيمانه منه بأن هذا الكتاب هو تجربة إنسانية فى المقام الأول ويجب أن يسجلها كما هى دون إضافة أو حذف حرف واحد ، ولو فكر فى أن يغير من بعض الأرقام وسكان الدول التى تزايدت بالطبع خلال العشرين سنة الأخيرة أو لو أراد أن يغير بعض الأسماء مثل رئيس وزراء الهند وكان يشغله نهرو فى طبعته الأولى فأنه سيكتفى بكتابة أسم راجيف غاندى أو حفيد نهرو أبن أنديرا غاندى فى الهامش فقط .. أما الأصل فهو كيان وتجربة لايحق أن يغير منها .

وفى عام ١٩٦٣ حصل أنيس منصور على جائزة الدولة التشجيعية وهى أول جائزة فى أدب الرحلات عن كتابه « حول العالم فى ٢٠٠ يوم » باعتباره أول صحفى عربى سافر إلى القارات الخمس ، ودار حول الكرة الارضية فى رحلة استغرقت ٢٢٣ يوما بلا توقف ، وكان ذلك فى عام ١٩٥٩ وقد جاء فى قرار المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بفوز الكتاب بالجائزة .

« إن طول الرحلة وتعدد الأقطار التى زارها الأديب الصحفى أنيس منصور وتدوين خواطره أثناء السفر خلع على الكتاب طابعة الخاص من ناحية الموضوعات وأسلوبه الخاص من ناحية التعبير ، وكان تصور الكاتب لجمهوره الكبير من قراء الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية المصورة ذا أثر كبير فى تخير المشاهد والتقاط المناظر وانتقاء الأحداث وصياغة الأوصاف ذات الألوان الزاهية ليظل قادراً على تشويق القراء وإغرائهم بمتابعة الرحلة وتجديد نشاطهم » .

وكان أكثر الكتب توزيعاً بشهادة منظمة اليونسكو بالأمم المتحدة .. ولايزال أكثر الكتب توزيعاً حتى الآن بعد مرور عشرين سنة على صدوره الأول .. وسافر أنيس منصور بعد هذه الرحلة سبعين مرة إلى أكثر دول العالم وتشعر دائما أن حبه للرحلات ليس حبًا للمغامرة ولكنه حب للمعرفة .

فى ٢٠٠ يوم حول العالم يطوف بك أنيس منصور فى الهند لتقابل معه رئيس وزرائها نامبود ريباذ وأولاده الذى بقى فى الحكم بعدها بساعات فقد سقطت فيه وزارته فى كيرالا ، وسوف تنتقل معه على محفة وأنت ايضا ملفوف بكل الأغطية فى عز الصيف فى التبت لتقابل الدلاى لاما وتلحق به فى جزيرة الشاى سيلان ، وفى هذه الجزيرة مئات الألوف من الأفدنة مزروعة شايا وانتشار الشاى فى العالم له قصص غريبة ، فيقال مثلا : إن أحد الملوك كان يغلى الماء فى « حلة » ليشربه فسقطت فيه ورقة من شجرة فلاحظ أنها أعطت الماء لوناً جميلاً .. وكان هذه « الحلة » هى أول .. فنجان من الشاى فى العالم وكان ذلك منذ خمسة آلاف سنة ..

تستطيع أن تحتس أول فنجان شاى فى حياتك وأن تستحضر خمسة آلاف سنة سابقة وأنت تقرأ لانيس منصور ، فمع أول رشفة من الشاى تحس أنه أول فنجان تشربه بمتعة ، فالقراءه له متعه ذهنية ونفسية معاً .

فتصبح وأنت تقرأ له الإمبراطور شن توانج ..

وتدخل معه جزيرة سرنديب هنا حيث كان عرابى منفيا . عشرون عاماً من حياة الزعيم أحمد عرابى لايعرفها أحد .. قضاها فى المنفى لم يقربه أحد .. لم يتحدث إليه أحد .. لم يكتب عنه أحد ولقد كتب عنه أنيس منصور فاقرأ :

... الذين أحبوه وساروا وراءه ماتوا لم يبق منهم إلا خادمته العجوز التى تسكن فى القرب من بيته فى مدينة كاندى .. إنها لاتتكلم ولكن عندما تسمع اسم عرابى تبكى وسوف تبكى معها ..

وحين التقيت بسفيرنا المصرى جمال الدين أبو العيون بعد أن صدر ٢٠٠ يوم فى العالم بلشرين عاما قال لىَ هل تعرف أن أنيس منصور كان السبب فى تحويل منزل عرابى إلى متحف قومى هناك .. لقد بدأت فكرة تحويل منزله الى متحف عقب صدور قرار تعيينى سفيراً لمصر فى سيلان فقد قرأت قبلها مباشرة كتاب « حول العالم فى ٢٠٠ يوم » للكاتب الكبير أنيس منصور وفيه فصل شائق عن « سيلان جزيرة الشاى » وفصل آخر ممتع بعنوان « هنا منفى عرابى » وأهمية هذا الكتاب أنه ألقى الضوء على نواح كانت مجهولة لدىَ ولدى الكثيرين غيرى عن حياة عرابى باشا وزملائه الستة فى المنفى ، حيث قضوا عشرين عاما نصفها فى العاصمة كولومبو المطلة على المحيط ونصفها الآخر فى أحضان الجبل بكاندى وفى الكتاب أن بيت عرابى مازال قائماً حتى الآن ، وأن المنزل يهيب بمصر أن تنقذه أن تشتريه وتحوله إلى متحف قومى يليق بذكرى الزعيم الذى عاش فيه ، وأن الرئيس عبد الناصر يفكر فى ذلك بالفعل وفيه أن أهل الجزيرة قد استقبلوا عرابى وصحبه استقبال الأبطال وأن تأثيره عليهم كان هائلاً جداً خاصة المسلمين منهم ، فهو الذى أذكى فيهم روح الوطنية وهو الذى أدخل إليهم الطربوش والزى المصرى والأطعمة المصرية ، وحين وصلت سرى لانكا فى ليلة الاحتفال بمطلع القرن الخامس عشر الهجرى أقمت أول حفلة للجالية الإسلامية بمنزلى بكولومبو وفوجئت بالكثيرين منهم يتذكرون الكاتب الكبير أنيس منصور وزيارته للبلاد ، وفى مقدمتهم الدكتور محمد خليل الوزير السابق ورئيس الرابطة الاسلامية السيلانية ، وكانوا يرتدون الطربوش المصرى ويتزاحمون للجلوس تحت صورة كبيرة بالألوان فى صدر الصالون وتمثل عرابى باشا على صهوة جواده .. والطريف أن بعضهم حسب هذا الحصان فيلا وهذا البعض معذور فى تصوره لأن الحصان غير معروف فى سيلان جزيرة الأفيال ..

وأذكر أننى ألقيت كلمة ليلتها أشرت وأشدت فيها بفضل الأستاذ انيس منصور وحين كنا نفتتح متحف عرابى بمنزله فى كاندى مع رئيس جمهورية سريلانكا أيقنت أن الصرخة التى أطلقها انيس منصور فى منفى عرابى أيقظت الضمير القومى فعاد من جديد عرابى إلى منزله فى سيلان كمعنى خالد فى متحفه القومى .. عاد بعد مائة عام ..

وتسافر مع أنيس منصور فى حول العالم فى ٢٠٠ يوم على مسافة ٤٠٠ كيلو متر من كولومبو إلى بلاد السمك وجزر المالديف .. وكلمة مالديف معناها جزيرة السمك فكلمة ماله معناها سمك وديف : أصلها « ديب » أو « ذيب » معناها

جزيرة والكلمة كلها سنسكرتيه وابن بطوطه الرحالة المغربى قد زار هذه الجزر فى سنة ١٣٤٥ وأقام بها سنة عمل فيها قاضياً .. ولم يعجبه فى نساء المالديف أنهن يمشين عاريات الصدر .. ولم يمنع هذا من أن يتزوج من بنات المالديف بعد أن غطى صدرها وحجبها عن عيون الناس ..

وتحمل حقائبك المملوءه بالانبهار والاعجاب وتضع على كتفيك كاميرا الاحساس وأنت معه فى استراليا ، فهو أول صحفى عربى يزور هذه القارة ، ونادى أنيس منصور بأن تكون لنا سفارة وأصبحت لنا سفارة بالفعل وتسمع معه موسيقى وأغانى عبد الوهاب وأم كلثوم وتشعر بالسعادة فهى حفلة تكريم لفن بلادنا وعظمتها .

ولن نتمكن من رؤية السبعة آلاف جزيرة التى تتكون منها الفلبين نكتفى معه بثلاث جزر فقط واحدة منها يسكنها ثلاثة أرباع سكان الفلبين ، والثانية عبارة عن مطعم صغير ، والثالثة كان قد أغرقها المد بالليل .. ونتفرج عليها عند ما ينسحب عنها مياه المحيط الهادى وتقف مبهوراً ومشدوهاً أمام أجمل فترينه في العالم كله .. فيها المال والجمال .. فيها العملية البسيطة جدًا التى كان يحلم بها أجدادنا جميعا ، وهى كيف يتحول التراب إلى الذهب .. وفيها العملية البسيطة التى تعرفها كلنا ونعلمها كلنا .. وهى كيف يتحول الذهب إلى التراب ..

وأجمل فترينه فى العالم كله هى جزيرة هونج كونج هذه المستعمرة البريطانية التى يملكها مليون صينى وتقع على حافة الصين التى يسكنها الآن بليون نسمة ..

وكأن الطائرة وهى تحوم فوق هونج كونج تصل الى مطار طوكيو فى الساعة الثامنة ليلاً .. والسماء كلها ضباب كثيف وأمطار ورياح وعواصف باردة اسمها دنيا .. ولسبب خبيث جدًا يطلق علماء الأرصاد أسماء النساء على العواصف ، وطوكيو أكبر مدينة فى العالم فعدد سكانها هى وضواحيها ٢٥ مليوناً الآن وفنادقها الكثيرة مزدحمة بالناس ، فهناك نشاط تجارى وسياسى ونشاط دولى والحصول على غرفة فى أى فندق يعتبر عملاً من أعمال البطولة ، وكانت هذه الزيارة الأولى لليابان وسوف يزور أنيس منصور اليابان بعد ذلك بعشرين عاماً ويفرد لها كتاباً مستقلاً بعنوان « أنت مع اليابان » .

وقد وقفت اليابان على أكتاف الدنيا .. والمهم أنها وقفت دائماً وتفوقت كلها ذلك فى أربعين عاماً وبأيدى مائة مليون من أناس مهذبين ونشطين يعشقون العمل ، ثم ينتقل إلى جزر هاواى .. أجمل جزر العالم أجمل من كابرى وصقلية ، وأروع من قبرص وسنغافورة ، وهى تضم أكثر من ١٢ جزيرة ، ولكن أشهرها جزيرة هاواى وجزيرة أواهو وفيها هونولولو عاصمة ولاية هاواى كلها التى

تشتهر بفتياتها السمراوات اللائى يرتدين ملابس شبه جلاليب الفلاحات عندنا واسعة ولها سفرة عالية وحول أعناق الفتيات عقود من الورد .

وقبل أن يخرج أنيس منصور من القارة الأسيوية خرج علينا بالدروس المستفادة ، فالناس فى القارة الأسيوية لايتعجلون أى شىء فكل شىء يمشى على مهل .. إنهم لايخافون من شىء ، فالطعام معلق فى الأشجار والماء تحفظة السماء فى خزانات السحاب والحرارة ترميها الشمس بلا حساب ، وإذا ماتَ واحد منهم فهناك ملايينْ ، وإذا عاش واحد فلن تضيق به الارض .. وأنت فى هذه البلاد تشعر كأنك تفكر بعقلية عقرب الثوانى ، أما هم فيفكرون بعقلية عقرب الدقائق والساعات أو حتى بحركة الشمس .. فالحياة ممكنة بمنطق آخر غير منطق بلادنا وفى ظروف أخرى أغرب وأقسى من ظروف بلادنا . ولايمكن أن يسود الدنيا كلها فكر واحد وعقل واحد وزى واحد .. فالناس مختلفون

.. ثم تنتقل مع أنيس منصور فى ٢٠٠ يوم حول العالم إلى أمريكا .. إلى هوليود أشهر مدينة فى العالم حيث مصانع الكمال والمجد والمال واشهر استوديوهات السينما فى العالم .

ثم ينتقل بعدها إلى مدينة لوس انجلوس الكبيرة جدًا بعماراتها وشوارعها العالية وجسورها المركبة بعضها فوق بعض .. وإلى جوار هوليود بيفرلى هيلز وهى ضاحية تابعة لهوليوود ولكنها أكبر منها فى المساحة .. وهى المنطقة الأرستقراطية فى كل ولاية كليفورنيا .. فكل أصحاب الأموال والأعمال يسكنون فيها وفى هوليوود أحسن وأكبر مطاعم وصناديق الليل والأسعار كلها غالية .. غالية جدًا .. ويمسح أنيس منصور أمريكا حضاريًا وإنسانياً بناظريه ينقل لنا قارة العجائب بأسلوبه الساخر السهل الممتنع .. نيويورك مركز القارة الامريكية ومركز الذهب وفيها خمسة مليون يهودى .. وهذه البيوت العالية التى تنطح السحاب .. سواء أكان السحاب موجوداً أو غير موجود .. عبارة عن أشجار من حديد وصلب فى غابة مخيفة اسمها نيويورك .. غابة يأكل فيها الإنسان الصغير جدًا ملايين الناس فى أى مكان بجرة قلم أو بجرة قدم .. أو غمزة عين .. هناك أناس يتحكمون فى ملايين الناس فى أركان العالم الأربع هناك أناس يتاجرون فى الحروب ويتاجرون فى السلام .. هناك اناس صناعتهم الكراهية .. إنهم يصدرون الكراهية لكل مكان ومجاناً ..

إنهم لايريدون للإنسان أن يهدأ .. إنهم يريدون للإنسان أن يموت محارباً ويعيش محارباً . لأن الحرب معناها صناعة الأسلحة وترويج الأدوية .. واضطراب الأعصاب يؤدى إلى أن يضغط انسان على زرار فى طائرة لتفجر قنبلة خطأ وتقوم الحرب ، وفى أثناء الحرب يبيعون ويشترون من أى مكان .. من أى طريق .. اليهود يحكمون نيويورك ونيويورك تحكم أمريكا وأمريكا

تحكم الدنيا .. اليهود لاوطن لهم .. ولذلك يريدون أن يهدموا كل وطن .. وكل قومية .. وهم حاقدون على أى دين وأى جنس .. وهم يريدون أن يشغلوا الناس عنهم وهم الذين يحكمون ويملكون الفلوس وأجهزة الاعلام فى أمريكا .

ولقد وقف أدب الرحلات على قدميه بثبات بعد رائعة أنيس منصور « ٢٠٠ يوم حول العالم » .

ولقد قرأت الطبعة الأولى لهذا الكتاب وكان عمرى وقتها حوالى ١٣ سنة فى شرفة مستشفى العجوزة حيث كان يجرى والدى عملية جراحية خطيرة ، وعلى الرغم من الظروف النفسية التى صاحبتنى خلال تلك الفترة إلا أننى لم أخرج من المستشفى إلا بعد أن انتهيت من هذا الكتاب ثم عدت وقرأت الطبعة الثالثة منه ثم الطبعة الثانية عشرة ثم الطبعة الخامسة عشرة فى رحلة العمر لأنيس منصور بعد أن نفذت طبعاته كلها وسجلت أرقاماً قياسية فى التوزيع ..

لقد كان أنيس منصور هو الرحالة حرخوف فى شلالات النيل .. وفاسكودى جاما فوق أمواج المحيطات .. جيلفر فى بلاد الأقزام .. همنجواى بين أدغال افريقيا وهضاب إسبانيا .. مايك تود .. عندما أنتج فيلمه الهزلى الخيالى

بسرعة ٢٨ ألف ميل فى الساعة ويصف مايرى .. كذلك كان أنيس منصور ينطلق بقلمه الخاطف على الورق يصف البشر والحيوان واللؤلؤ على الموائد وبين الأدغال وتحت الأمواج .. يصف البشر والحيوان واللؤلؤ .. على الموائد الفاخرة وبين الأدغال المخيفة وتحت الامواج الهادرة .. فى أضواء القمر أو لسعة الشمس أو صقيع البرد .. ينطلق فى قطار أو فوق مركب بلا شراع .. عواصف لفحته وبراكين هزته وأمراض أرقدته .. وحكايات سمعها وحكايات عاشها ليقولها فى أطول رحلة متتابعة قام بها أديب مصرى بأسلوب الصحافة التلغرافى ، فجاء لوناً جديداً شائقاً من أدب الرحلات ، وهو لاشك إضافة جديدة للمكتبة العربية وهو أشهر كتب أنيس منصور فى هذا المجال ، وقد وصفت لجنة تحكيم جائزة الدولة التشجيعية كتابه الفائز بالجائزة بأنه الكتاب الذى ألف نتيجة رحلته العقلية التى سجل فى أثنائها انطباعاته الشخصية إلى جانب ما انطوى عليه كتابه من معلومات جديدة تصور الحياة كما رآها .. فبدت فى الكتاب انطباعاته الشخصية من نواحى المعرفة العامة والفن الشخصى وإنه تحرى الصدق بحيث لم يصبح كتابه دعاية أو تشويهاً للحقائق أو لغاية معينة وانما لصاحبه أسلوبه الذاتى فى التعبير والكتابة مما يدخل مؤلفه فى عداد الكتب الأدبية التى ترتفع إلى مستوى الجائزة .

وأبسط ما يمكن أن يقال عن رحلات أنيس منصور إنه يأخذك فى عربة صغيرة .. أشبه بتلك التى اخترعها هـ . جـ . ويلز (آلة الزمن) التى يستطيع من خلالها أن ينتقل عبر الزمان .. الماضى والحاضر والمستقبل .. وينقلك فى

لحظة بين صقيع القطب الشمالى وحرارة خط الاستواء بين سمراوات جزيرة تاهيتى .. وبين مجاهل الكونغو .. بين روائع الأدب وخداع السياسة .. بين الأسطورة والحقيقة .. كل ذلك فى كوكتيل فنى عجيب .

ويقول عميد الأدب العربى فى مقدمة الطبعة الثالثة لهذا الكتاب :

« هذا كتاب ممتع حقًا تقرؤه فلا تنقص متعتك بل تزيد وكلما تقدمت فى قراءته .. والكتاب هو رحلة أنيس منصور حول العالم التى استغرقت ٢٠٠ يوم وظلت حديث الملايين بين العالم العربى ، ونقلتها الصحف العالمية ووكالات الأنباء .. إذ كانت أطول وأروع رحلة فى تاريخ الصحافة العربية ، كما كانت أول دورة كاملة يقوم بها صحفى حول العالم .

ولكن أين النظرة الفلسفية للفن ؟

فى هذه المغامرات التى عاد منها بمعلومات دقيقة وعجيبة ومثيرة عن الحياة والناس والظواهر الواضحة والمتخفية فى بلاد الشرق والغرب .. كنت أرجو أن يلقى نظرة فلسفية مقارنة بين فنون الشرق والغرب .

بديهى أنه قام بهذه الرحلة صحفيًا وأدبيأ وكان من الممكن أن يستكمل هذه النظرة الفنية وإلى الاعمال الفنية التى شاهدها ولو فى بضع صفحات ، أو فى الطبعة العشرين من هذا الكتاب القيم حقيقة ، فأنت لو تأملت أدب الرحلات منذ صدور كتاب حول العالم فى ٢٠٠ يوم وأردت أن تذكر كتاباً واحداً من أدب الرحلات بجانبه فإن ذاكرتك لن تسعفك بسهولة ..

لقد أفادنا أنيس منصور بإشارات فنية كثيرة ، فمثلا تحدى الذين يزعمون لنا أنهم تعلموا السينما فى هوليود لأنه رأى بنفسه أن استديوهاتها لاتسمح لأى أجنبى بدخولها ، أيضا قدم تفسيرات واعية لملامح الأدب الأمريكى ولم يهتم بمسارح برودواى ورأى فاتنات الشاشة ولم يحاول مقابلة أعلام الأدب والنقد .. وفى هونولولو شاهد الرقص والغناء بلغة هاواى وفنون جزر المحيط الهادى وسمع الموسيقى المتواصلة ليلاً ونهاراً ولكن لم يعطنا من هذه الفنون فكرة فنية ..

أننى اطالب الكاتب الكبير أنيس منصور بكتاب آخر يبحث فيه بعقليته الواعية مدى ارتباط الفنون التى رآها بالبيئة ، ومدى وأسباب تغير التفكير والتناول الفنى ، إن هذا بالتأكيد يفيدنا فى بحث مشكلات فنية كثيرة ومعقدة

ولقد تمنى عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين وتمنيت معه وتمنى قراء العربية أن يزور أنيس منصور الأجزاء الخطيرة التى لم يزرها أنيس فى رحلته حول العالم فى ٢٠٠ يوم » ، وقد حقق لنا هذه الأمنية فى مؤلفاته التالية فى أدب الرحلات .. إن كانت هناك قارة كاملة تدعوه إلى زياراتها وهى القارة الافريقية على اختلاف أقطارها المليئة بالكنوز والعادات والتقاليد والموروثات الأجتماعية والتى لم يكتب عنها بالقدر الكافى ..

ولاشك أن كتاب « حول العالم فى ٢٠٠ يوم » كتاب موسوعى يصاحبك فيه أنيس منصور وأنت مغرق فى الضحك .. مأخوذ من السخرية .. مبهور بما يقدمه لك فى كتاب العصر عن رحلة العمر .. فى كتاب هو من أكثر الكتب العربية انتشاراً بشهادة اليونيسكو ..

أما كتابه غريب فى بلاد غريبة فهو يحوى أربعة كتب فى مجلد واحد : بلاد الله .. خلق الله .. أطيب تحياتى من موسكو .. اليمن .. ذلك المجهول .. أيام فى الجزائر البيضاء ..

ففى « بلاد الله .. خلق الله » يصبح أنيس منصور حكمداراً وكلمة الحكمدار عند العسكريين معناها : الشخص الذى يتلقى الأوامر ويبلغها إلى زملائه ويتولى تنفيذها .

والأوامر هى أن أحداً ليس مسئولاً عن سفرهم الى الكونغو .. وانه مهما حدث لهم فهم وحدهم المسئولون ..

أنيس منصور وزملاؤه على متن طائرة عسكرية إلى الكونغو .. والكونغو هى أكبر « عزبة » عرفها الإنسان ..

فقد كانت الكونغو من الممتلكات الشخصية لملك بلجيكا .. ومساحة القرية حوالى مليون ميل أى نصف مساحة القمر .. ومن الغريب أن الذى اكتشف الكونغو ليس بلجيكا .. والذى يملك الكونغو أيضا ليس بلجيكا .. فالذى اكتشفها صحفى .. بريطانى اسمه جورتون ستانلى .. وملك بلجيكا الثانى لم ير هذه البلاد ..

ولم يفكر فى أن يزورها .. وإنما كان مشغولاً بامتصاص أموالها وكان هذا الملك نموذجاً لدناءة الإنسان ووحشية الرجل الأبيض أن يقطع ذراع وساق أى رجل من الكونغو لأى سبب .. وكثيرا ما كدس الرجل الأبيض عدداً كبيرا من أطراف المواطنيين للإرهاب .. وظل هذا الإرهاب الوحشى زمناً طويلاً لايدرى به قارة الأوربية والعالم المتحضر أنباء الملك المتوحش فزع الضمير العالمى .. ولم يكن هذا الفزع معناه الدعوة إلى تحرير إفريقيا من الاستعمار وإنما كان معناه فقط أن يكف الملك ورجاله عن هذه القسوة ولكن أن يبقوا فى مكانهم .. فبلجيكا كغيرها من الدول الاستعمارية تملك مساحات شاسعة .. وفرنسا تملك أرضاً فى حجم فرنسا نفسها ٢٣ مرة وبريطانيا تملك أرضا فى حجم بريطانيا ٢٠ مرة والبرتغال تملك أرضا فى حجم البرتغال ٢٠ مرة . فالمطلوب هو أن يغسل البيض أيديهم من دماء السود فقط ..

وقد أرغم الملك ليوبولا على أن ينزل عن عزبة المليون ميل إلى الشعب البلجيكى فى سنة ١٩٠٨ ، ومات الملك بعد ذلك بعام واحد .. أما مكتشف الكونغو فقد مات قبل ذلك بأربع سنوات .

ويطوف أنيس منصور فى كتابه بعديد من الدول الأوربية ألمانيا وايطاليا والنمسا وسويسرا ويتعرض لعديد من القضايا فى الفن والأدب والسياسة أما أطيب تحياتى من موسكو .. يتحدث الكاتب من رحلته فى روسيا حيث كان أرضها من قبل خراباً .. أحرقها وهدمها فوق رءوسهم وأولادهم ونسائهم وأمالهم الألمان ومثل الألمان جيوش الحرب العالمية الأولى .. وقبلها نابليون .. وأثناء ذلك كله الحروب الأهلية وحركات الاستقلال .. فتحت هذا الجليد الذى يغطى الشوارع والسقوف والاشجار والذى استعاره الناس لملامح وجوههم توجد نيران خفيفة ونيران ثورية .. وجوه الناس مثلا .. هؤلاء الروس لايمكن أن تحدد ملامحهم ففيهم الأبيض والأصفر .. والأسمر والأحمر .. وكلهم أبناء دولة واحدة ففى بلادهم ١٨ جمهورية وعشرات اللغات والقوميات ولكنهم جميعا سوفيت .. ووجوه الناس جامدة .. أو رخامية .. .. ولنفرض أن هذه هى صفاتهم التى بدت لك من أول نظرة .. فما الذى يمكن أن تستنتجه من مجرد النظر إلى وجوه الناس .. ما الذى يمكن أن تقوله عن الروس إذا وقفت فى المطار وضربت بعينك سهماً إلى فتاة جميلة .. وكان السهم لاخرج من عينك .. ولادخل فيها .. إذا ابتسمت لأى شاب أو رجل فكأنك مافعلت شيئاً ما الذى يمكن أن تصف به الروس على إثر هذه المحاولة التى تبدو بريئة .. ؟

تقول فعلا : ما هذا البرود ؟ ما هذا الجمود ؟ الشعب كله لايفهم النكتة ولايجب المرح ولا يرحب بالأجانب ؟

والروسى فخور ببلاده والشاعر الروسى لومنتوف عندما قارنوه بالشاعر الانجليزى بيرون قال : لست كالشاعر بيرون .. أنا مختلف عنه .. ومازلت مجهولاً أنت مثله منبوذ فقط .. ولكن أهم من ذلك أن لى قلباً روسياً ..

وهذا يكفيه ..

والشعراء الروس كثيراً ما بكوا على بلادهم وما أصابها ، وأثاروا الشعب على الظلم ... من أجل ذلك إرتفعت تماثيلهم فى كل مكان امتناناً من الشعب لهم وعرفاناً بفضلهم وتقديساً لكل من قال أو فعل شيئاً لكل الناس .

والشاعر تودجست فى القرن التاسع عشر قد وصف روسيا بلهجته الحزينة فقال :

« الفلاحون نيام كالموتى يزرعون ويحصدون وهم نيام ثم ينامون بعد ذلك ... والذى يضرب الفلاح على رأسه نائم أيضاً والذى يتلقى الضربات أكثر نوماً الغربان هى التى لم تعرف النوم فى خرائب روسيا .. إن روسيا تمسك زجاجة الخمر وتتجه برأسها إلى القطب الشمالى .. وتمدد ساقيها فى القوقاز وتنام نوماً لانهاية له هذه هى أرضنا المقدسة روسيا » .

ونامت روسيا كثيراً على صدور الشعراء وفى قصائدهم .. وكأنها ادخرت النوم الطويل للسهر الطويل بعد ذلك .. فصمت فى كل مكان .. وكل موقع .. وارتفعت وعنت .. ودارت حول الأرض وحول الكواكب .. وأصبحت دولة عظمى ..
تلمس روسيا فقط .. مهما طالت صلتك بها أو إقامتك فيها .. فأهلها أنفسهم يلمسونها ولايعرفون عنها الا القليل . فلا أحد استطاع أن يعرف الكثير من هذا الكثير جدًا فى كل شىء .. وفى كل ميدان ولكنها رغم ذلك تبهرك وتثيرك وتذهلك ..

وكل ما تستطيع أن تقوله : إنها مختلفة ..
وتسأل نفسك : مختلفة عن ماذا ؟
ويكون جوابك .. مختلفة عن كل البلاد التى رأيتها أو سمعت عنها ..
وهذا طبيعى فليس من الضرورى أن يتشابه كل الناس وكل البلاد مهما اختلفت الظروف أو مهما اختلفت أحداث التاريخ ..

ولكن ليس من الضرورى أن يكون اختلافها خصماً من رصيدها لديك .. وإنما هى مختلفة .. اختلاف شجرة عن شجرة أو ماركة سيارة عن ماركة سيارة أخرى أو اختلافك عن واحد مثلك فى مركزك وفى مستقبلك ..

وكأى انسان غريب عن روسيا تصطدم بأشياء غريبة .. وقد وقف أنيس منصور طويلاً عند هذه الأشياء الغريبة .. حاول أن يدور حولها ويهزها لعله يتحرك .. وحاول أن يضحك .. ولايزال الضحك نوعاً من السمو الروحى .. فالذى يضحك على شىء يشعر أنه أحسن منه .. وأنه لايمكن أن يرتكب حماقة أن يفعل نفس الشىء والضحك كالشمس .. والبيت الذى تدخله الشمس لايدخله الطبيب . وأنيس منصور حاول أن يكون طبيب نفسه .. وطبيبك الخاص أيضاً .. والروس لم يخترعوا كلمات : الشعب .. والجماهير .. والعمال .. والفلاحين .. والمثقفين والكادحين .. وانما هذه الكلمات موجودة فى الكتب وعلى ألسنة الناس وفى صرخاتهم .. ولكن الروس كشفوا عنها الغطاء .. جعلوها موتورات قوية دافعة تجتاز الحواجز .. وتدك القلاع .. وتغرس البذور وتجنى الثمار وتبنى المصانع تكتب التاريخ ..

وكراهية الروس للحرب لايمكن أن توصف .. ولايزال الأدب السوفيتى المعاصر يختار مادته وألوانه وموسيقاه من الحرب .. إنهم لم يحملوا الكلام عن الدمار والخراب .. ولذلك فلن يحاربوا .. لأنهم يعرفون معنى الحرب .. معناها أن .. يموت منهم ٢٠ مليونا آخرون .. وأن تنهار المصانع والمتاحف والعمارات .. وأن يعيش الدرس من جديد فى الخرائب .. ولكن الحرب هذه المرة ستكون فناء للعالم كله لأنها بين أكبر قوتين عرفهما الإنسان .. روسيا ـ وأمريكا .. أما الشعوب الأخرى فهى وقود للنيران .

وقد عكف لينين على دراسة الماركسية حتى أصبح حجة فيها ، ولقد تمكن سنة ١٨٩٥ من تجميع الحلقات الماركسية فى بطرسبرج فى تنظيم موحد هو عصبة النضال من أجل تحرير الطبقة العاملة . ويعتبر هذا التنظيم هو البداية الحقيقية للحزب الشيوعى فى روسيا ..

والسفر من موسكو إلى لنجراد فى صحبة أنيس منصور هو انطلاق ضد التاريخ ، فالتاريخ بدأ من لننجراد واتجه إلى العواصم الأخرى .. فقد كانت لننجراد هى العاصمة السياسية والثقافية .. ومنها قامت ثورة وراء ثورة .. حتى جاء لينين وأشعل الثورة الكبرى وتحولت موسكو إلى عاصمة للاتحاد السوفيتى .

ولننجراد اسمها بطرسبورج .. بتروجراد .. وبعد وفاة لينين سنة ١٩٢٤ أخذت اسمه .. وعلقت على صدرها اسمى نياشينه .. وأطلقوا عليها اسم (المدينة البطل) لأنها استطاعت ان تقف أمام الألمان ٩٠٠ يوم ليست امامهم بالضبط .. ولكن بينهم وتحتهم .. فقد حاصروها حتى مات نصف مليون من أبنائها جوعاً .. أسقطوا عليها ١٥٠ ألف قنبلة .. وكان من الطبيعى أن تسقط .. ولكنها قاومت .. وكان القائد الألمانى يعلم أنها ساقطة لامحالة ، ولذلك طبع بطاقات الدعوة محفلة الانتصار .. ولم يبق الان تكتب أسماء السادة المدعوين .. وبقيت البطاقات فى متحف المدينة التى لم تستسلم .

أما اليمن ذلك المجهول فهى رحلة لليمن .. اللغز الكبير فقد نجح الأئمة واحداً وراء واحد فى ١٢ قرناً من الزمان أن يجعلوا بلادهم لغزاً لايفهمه أحد فى اليمن ولاخارج اليمن ، لقد أغلقوا حدودها وأغلقوا البيوت على أهلها بالفزع « والقات » .. والخرافات وأصبحت اليمن كبلاد التبت .. بعد أن كانت اليمن لؤلؤه الجزيرة العربية فقد كان فيها ٨٠ سدا لحجز المياه وتوزيعها على ملايين الأفدنة المزروعة بالفواكه .. ومن بين هذه السدود سد مأرب .. وقد عرفت اليمن حكم الملكات وربما كان اليمن من أول البلاد التى حكمتها النساء إن « بلقيس » كانت سيدة جميلة ذكية وقد روى القرآن على لسانها أنها قالت : (يا أيها الملأ افتونى فى أمرى ! .. فقد كان تستشير رجالها مع أنها أعقل عنهم .. وعلى لسانها قال القرآن أيضا : (إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون ..

وعرفت اليمن ملكة أخرى بعد الإسلام وكانت فى غاية الحكمة .. وهى السيدة اروى بنت احمد .

والمؤرخ الهمزانى يحدثنا عن ناطحات السحاب فى اليمن وكيف أن المهندس اليمنى أقام عمارات من عشرين دوراً وكل دور ارتفاعه عشرون قامة.. وكيف أن

هذه العمارات لم تكن خاصة بالملوك والأمراء وإنما كانت لاغنياء الشعب .. وكان ذلك من ألوف السنين أيضا .

ولم تكن اليمن فى عزلة عن العالم .. فقد سافرت بلقيس إلى الملك سليمان وعادت تحمل أول ملوك اليهود .. وفى أيام المسيح سافر ثلاثة من أمراء اليمن لمقابلة المسيح والايمان به .. وفى أيام الرسول عليه الصلاة والسلام دانت بلاد اليمن وأسلمت بلا قتال وقال فيهم النبى : (أتاكم أهل اليمن وهم أرق الفئدة وألين قلوبا) .. وقال الرسول أيضا (الإيمان يمان والحكمة يمانية) .

ولقد استطاع أنيس منصور من خلال كتابه اليمن ذلك المجهول أن يميط اللثام ، وان يكشف النقاب عن لغز هذه البلاد ويفتح حدودها للقارىء ، ويدق الأبواب بعنف على أبوابها ليفتح أهلها أبوابهم مرحبين بهذا الضيف العزيز الذى يقرأ أسرارهم من عيونهم .

ويقدموا إليه فنجاناً من البن اليمنى تحية لهذا الرجل الذى كشف لغزهم الغامض

أما كتاب « أيام الجزائر البيضاء » وتقضى معه أياماً من خلال رؤيا السفر والترحال والأشياء الطبيعية ومن خلال البحث المشفوع بالرغبة فى الخلق والإبداع يعطى العالم الجديد نفسه للكاتب مجبولا بالدهشة والحب والاستغراق فى محاولة منه للتوحد بالشمس والرمل والبحر ووجود البشر وانحدارات الأزقة والشوارع ، وفى اللوحات التى رسمها الفنان أنيس منصور تكتشف وجوهاً أخرى للجزائر .

والجزائر فى هذه اللوحات عالم انطوى على جذور متغلغلة فى أعماق النفس العربية فهذه هى الدروب والبيوت والدكاكين التى لابد أن يجد صداها كل منا فى والبيوت والدكاكين التى لابد أن يجد صداها كل منا فى بيئته العربية والتى تعطى الآخرين انطباعاً تميزها عن غيرها .. وهذه هى المرأة العربية بزيها وسمرتها وتقاطيع وجهها .. إنها نفس المرأة التى ساهمت مساهمة فعلية فى تحرير أرضها من الاستعمار وقاتلت وتشردت فى سبيل بلادها .. وهى أيضا تلك الفتاة الرقيقة المدللة المتكئة على أرائك البهجة والفرح ، وتلمح أيضا ذلك الالتصاق بالتقاليد العريقة للعربى ونزوحه وتجواله فى أرضه التى يعتز بها .. وبقدرتها وقدرته على التناغم والانسجام فى هوية واحدة هى هوية الوطن .. لقد أعطت الجزائر للكاتب رؤية شمولية وأعطت الطبيعة لنفسها دفة واحدة وفتحت للقارىء والمتأمل تلك الحركية فى تفهم الأشياء .. وضمن هذه الحركية يجد

« أنا على استعداد أن أدفع شىء فى سبيل التوجه حالاً إلى القطب الشمالى أو إلى أى مكان فى طريق الأرض الجديدة » .

الفنان نفسه بين الناس والأشياء .. ومسحوراً بالألوان ومأخوذا بالتأملات والانفعالات ومن خلال تأكيد الفنان على الطابع الشعبى والفلكلورى تكتشف ذلك الوعى والتواصل بين تاريخ الأمة العربية وبين ما يخدم قضيتنا فى هذا العصر ..

إن الكاتب هنا لايقدم نسخاً فوتوغرافية عن حياة شعب بقدر ما يدخل ذلك الهاجس المدرك للفن الذى يخدم القضايا الأساسية لانطلاقتنا الجديده ومن هنا يربط الكاتب بين ماضيه وحاضره مانحا المستقبل قوة الفعل والتحقيق .. وأنيس منصور يخلق الطريق الخاص به فى الكتابة والأسلوب المتميز له كمن يستطيع إيصال مفاهيمه الخاصة به وهكذا نجد حرصه على الإتيان برواية جديدة قد تكون فى بداية تبلورها غير أن لكل خصوصية بداية منفردة ومبدعة

بعد أن تقرأ كتاب « غريب فى بلاد غريبة » لن تحس أنك غريباً بل سوف يخامرك شعور غريب بأنك فى بلاد تعرفها تمام المعرفة ، وهذا هو أنيس منصور .. أنت مع انيس منصور تأكل فاكهة الصيف فى الشتاء وفاكهة الشتاء فى الصيف .. فأنت فى هذه الكتب تتناوب عليك الفصول الأربعة وترى الدنيا كلها وأنت جالس .. مستريح .. مستلق على سريرك . على مكتبك .. أمام نافذة القطار .. فوق فوهة بركان ..

ولقد كان الأديب الروسى الكبير أنطون تشيكوف .. موسيقار القصة القصيرة محباً للتجوال والرحلات . فقد كان حبه للرحلات عظيما .. رحل إلى (شمالين) فى صقيع سيبيريا الرهيب ليكتب عن هؤلاء الذين يعيشون هناك تحت مستوى حقوق الإنسان.، وعندما وصل تشيكوف إلى سن الثلاثين وهى نفس السن التى رحل فيها أنيس منصور وطاف بلاد العالم كان تشيكوف قد قام بزيارة فلاديفستك .. هونج كونج .. سيلان .. سنغافوره استنبول .. الهند .. والبندقية .. فينا .. روما .. نابولى .. ومونت كارلو ... باريس ..

وحبا فى الرحلات والسفر والترحال فإنه أطلق عبارته المشهورة :

« قبل أن أعرف موضع قدمى تجرنى قوة غير مرئية مرة أخرى نحو أماكن مجهولة » وهو أيضا الذى قال :

« إننى مستعد للموت بكل بساطة .. فى سبيل ركوب باخرة فى سبيل الحرية »

وعندما وصل إلى باريس التف حوله الصحفيون يسألونه عن أحلامه وآماله فقال لهم :

وهذا هو أيضا أنيس منصور الذى دفع كل شىء فى سبيل رحلاته : المال والعرق والدم والصحة والراحة والقلق والأرق أيضا ..

وهذه الكتب فى ادب الرحلات قد شجعت ألوف الشبان على السفر وعلى الهجرة وهو الذى حبب لهم الدنيا .. وحبب لهم المشاق والمتاعب .. وهو صديقهم وهو هديتهم إلى كل صديق فى أماكن كثيرة من الدنيا فهو :

رائد فى أدب الرحلات

وبقى ان تعرف .. إنه من المفارقات الغريبة أن أنيس منصور الذى طاف حول العالم لم يزر حتى الآن دمياط التى تبعد عن المنصورة مسقط رأسه بساعة زمن ركوبا على ظهر حمار حصاوى .

●●●

هؤلاء على طبق من الفضة.. ومعهم شوكة وسكينة!!

طويل القامة .. نحيف .. يرتكز على ساقه اليسرى أكثر من ساقه اليمنى ، فتحس كأنه يمشى على ساق واحدة ، وإذا لاحظت أنه يدير لك خده أو يميل إليك برأسه فلأنه مايزال يشكو ثقلاً فى سمعة .. وما أصاب ساقه وأذنيه كان بسبب مرض أقعده فى الفراش خمس سنوات .. المرض اسمه سل العظام وقد تعلم فى فراشه ثلاث لغات أخرى غير لغته .. وتعلم الآلة الكاتبة التى يعتمد عليها تماما فى كتابه وقصصه ورواياته ولم يذهب إلى المدرسة إلا تسع سنوات فقط .

وفى سنة ١٩٢٥ عندما بدأ يكتب أولى رواياته كان يعمل مراسلاً لبعض الصحف الإيطالية فى لندن وباريس وغيرهما .

وفى اواخر الحكم الفاشى بإيطاليا صودرت كتبه ، وكان يكتب موضوعاته باسم مستعار ، وفى غضون الاحتلال الألمانى لإيطاليا اختفى فى الجبل حتى حررت إيطاليا فى مايو سنة ١٩٤٤ .

من أشهر رواياته وقصصه حكايات رومانية ، وامرأتان ، وامرأة فى روما ، وشبح فى الظهيرة ، وامراة ثرية جداً ، وحياة عائلية ، والحياة فى غابة وغيرها من عشرات الروايات والقصص القصيرة . وفن مورافيا يمتاز بالواقعية ، وهو يعد من أبرع كتاب القصص فى تحليل غرائز المرأة ونزواتها .. ويمتاز أسلوبه برقة وصف الأشياء وخاصة الطبيعة ، وعباراته القصيرة المركزة معالجاً مشاكل العصر الحديث من خلال قصصه الأخاذة .

ولقد سافر مورافيا إلى اسرائيل فهو يهودى وعاد إلى مصر وسافر إلى اسرائيل وعاد إلى مصر مرة أخرى . ولا أحد يعترض على رحلاته فى الشرق أو الغرب لأنه رجل بعيداً عن السياسة فهو متفرغ تماما لفنه ولاينتمى إلى حزب سياسى وقد تكون له آراء فلسفية ودينية لكنها ليست واضحة فى أدبه كله ..

ومن الممكن أن تسميه بأديب البرج العاجى .. إذا اعتبرت أن البرج العاجى هو أن يبتعد الأديب عن الخطوط السياسية ولكنه فى نفس الوقت ليس بعيداً عن الناس .. إنه أديب أبناء المدينة .. أديب الطبقة المتوسطة فى روما قبل وبعد أبناء المدينة .. أديب الطبقة المتوسطة فى روما قبل وبعد الحرب الثانية !

وكان أنيس منصور هو أول من قدم الكاتب الإيطالى الكبير البرتو مورافيا باللغة العربية مع بداية حياة أنيس الصحفية ، وكتب عنه أول مرة سنة ١٩٤٧ .. فقد قرأ كل ما كتب مورافيا وترجم له خمسين قصة قصيرة ، وقابلة أربع مرات فى بيته فى شارع الادزة المتفرع من ميدان الشعب فى روما ، وقابله هو وروجته مرتين فى القاهرة .. وزوجته هذه أدبية كبيرة اسمها الزه مورافيا ، وقد حاول زميل صحفى تصويرها فى فندق سميراميس أثناء زيارتها للقاهرة فما كان منها إلا أن غطت وجهها بمنديل أحمر ، وتقدم أنيس منصور ليمنع زميله من تصويرها فقد توسل إليه مورافيا .

نعم إن زوجته عصبية جدا . وفشلت كل المحاولات لتصويرّها !

ولقد تزوج مورافيا أخيراً بعد مرض زوجته من فتاة فى العشرين من عمرها !

ولقد كانت « فتاة روما » أول قصة شدت انتباه أنيس منصور لأدب مورافيا لأول مرة ، ولقد صارحه بذلك عندما قابله فى روما .. وبكى أنيس منصور مع البطلة ادريانا .. لم تكن تستحق البكاء ولكن حياتها مؤلمة وبساطتها تبعث على الألم ايضا .. لقمة العيش مرة ، والبحث عن الطعام مر ، والحب مر ، والذكريات أكثر مرارة .

وكما قدم أنيس منصور الكاتب الإيطالى البرتو مورافيا قدم لنا أيضا الأديب الفرنسى الكبير جوستاف فلوبير (١٨٢١ ـ ١٨٨١) الذى يعد واحداً من أبرز أعلام القصة والرواية فى أدب العالم كله .. ولقد عاش فلوبير حياته فى عزله ، كاملة بعيداً عن العاصمة باريس حيث أعطى نفسه وحياته لفنه ، فقد كان حريصاً على أن يعيش لأدبه أو يُعيش أدبه له وأن يغلق أبوابه فى وجه المجتمع وأن يسد منافذة حتى لاتهرب مشكلة اجتماعية إلى أذنه .

وفلوبير ريفى فرنسى .. أبوه رجل ثرى .. طبيب جراح وابنه الأكبر طبيب أيضا ، وقد ولد فلوبير الصغير وعاش معظم سنوات حياته فى احدى المستشفيات يرى الجثث وقد تكاثر عليها الذباب .. نفس الذباب الذى يدور حوله وهو يأكل أو يشرب ! وأم فلوبير ابنة طبيب ايضا .. وأصدقاء فلوبير من الأطباء ايضا وأول من سافر معه إلى إسبانيا فى رحلة خارج فرنسا كان طبيباً .

ولقد تأثر فلوبير بالجو الطبى .. بجو الذين يرون الموت ولايخافونه .. يقبلون فى الجثث بلا اشمئزاز .. يغسلون أيديهم من الدم دون قرف .. وإن لم

يكن جوستاف فلوبير من أصحاب الأعصاب الباردة فهو قطعة من النار فى أناء من حديد متين .

ولم يشأ الأب أن يجعل فلوبير يدرس الطب . ولو شاء لرفض الابن ، فلقد بعث به إلى باريس ليدرس القانون .. ولم يحب الابن دراسة القانون .. لقد اتجهت ميوله إلى شىء آخر .. هو التأمل والقراءة .. والقراءة أكثر . وكان يصاب بسرحان شديد عندما يذهب الى قاعات البحث . وعندما كان يلقى أستاذه معلومات عن الرومان والتاريخ الرومانى كان فلوبير يغيب فى أحلام يقظة تدور كلها فى حلبات الصراع الرومانية وفى الحمامات والحدائق الرومانية .. لقد كان الطالب فلوبير ينسج من خياله أساليب غريبة للهرب .

وعرف فلوبير الهرب بصورة أعنف .. لقد كان يسقط على الأرض والدم ينزف منه ، يسقط فجأة ويصرخ ويتحول إلى قطعة من الخشب .. ولقد وصف الأطباء مرضه فى ذلك الوقت بأنه نوع من الصرع ، وتكرر هذا كثيراً وأدرك الأب أن ابنه لن يستطيع استكمال دراسته فسحبه من باريس وأعاده إلى الريف . ولكن نوبات الصرع هذه قد جعلت فلوبير الصغير يخاف مخالطة الناس . فانعزل وأحس بضعفه ، وربما كان حرص فلوبير على أن يجعل صوته غليظاً هو أن يبدو قوياً متيناً ، وحرص أيضا على ان يتبختر أثناء المشى وكان يباعد بين ذراعيه وجسمه كأنه ديك رومى ليؤكد حركات التعويض لكى يبدو أقوى مما هو عليه .

ولقد عاونه ثراء أبيه على أن يلزم البيت وأن يجد كل ما يريد من مال وكتب .. فلم يكن فى حاجة إلى أن يعمل أو إلى الاستعجال فى النشر والكتابة .. لقد كان ينام على مهل ويأكل على مهل ويقرأ ويكتب وينشر على مهل .. فهو ليس فى حاجة إلى النشر السريع .. لأنه ليس فى حاجة إلى الشهرة .. ثم إنه واثق من نفسه تماما .. وكان من عادة الأديب الصغير أن يستدعى أصدقاءه ليقيموا فى بيته أياماً ليقرأ لهم ما كتب .. وقد تعلم هذه العادة أو اضطر إليها وهو فى الرابعة عشرة من عمره ، وبقيت كذلك إلى اخر ايامه .. وبقى شىء اخر هو حساسيته الشديدة لأى نقد فقد كان لا يقبل النقد .. وإذا سمعه فإنه يثور وقد يسقط مغشيا عليه وكان أصدقاءه يجدون صعوبة شديدة فى معاملته وفى مناقشته ولكن الشىء الوحيد الذى كان يحميه منهم هو الحبوب المهدئة التى كان يتعاطاها بأسراف شديد ، وكانت هذه الحبوب من عوامل برودته النفسية والعقلية .. والجنسية أيضا !

ومن مظاهر التأنى والتألق فى أسلوب فلوبير أنه كان يمضى الساعات فى اختيار الجملة أو اختيار اللفظة الواحدة . وكان يقرأ جملة بصوت مرتفع لنفسه ولاصدقائه أيضا .

الأديب يجب أن يكون لأسلوبه النثرى موسيقى من نوع خاص . وكان يحرص فى شىء من الهوس على الا يكرر اللفظ الواحد فى الصفحة الواحدة مرتين ،

وكان يجد فى هذا صعوبة شديدة وصعوبة لامبرر لها أيضاً .. فهو يستخدم كلمات بسيطة ومحدودة هو حريص على ذلك فكيف يستخدم كلمات الكلمات المحدودة مرة واحدة فى قصصه الطويلة التى تتكرر فيها المعانى والمواقف دون أن يلجأ إلى نفس الألفاظ .. منتهى الصعوبة ولكنه كان يحاول ذلك بأصرار طويل وعنيد !

وفى خطاباته إلى عشيقته « لويز كوليه » اعترف لها بأنه يعانى آلاماً شديدة بسبب كلمتين فى إحدى قصصه !

وهو صادق فيما يقول .. !

فقد كان يهتم بما يكتب ويعنى به ويتأنى فيه أشد التأنى ويراجعه مرات عديدة . وكانت (مدام بوفارى) هى قمة أعماله الفنية . وقد قضى خمس سنوات متصلة فى كتابتها حتى جاءت على هذه الصورة الرائعة من الإتقان والعمق والجمال والمتعة . وقد اعتبرها النقاد العالميون أثراً فنياً خالداً . ولكن الحكومة الفرنسية قبضت على فلوبير بعد نشر روايته .. بتهمة التمكين للأدب الخليع من التسلل إلى الجمهور . وبعد محاكمة عاصفة حكمت المحكمة ببراءته مع توبيخ شفوى توجه به إليه رئيس الجلسة .. ولكن الجمهور كان فى صف فلوبير ولم يكن ضده لأنه وجد فى الرواية وصفاً صادقاً للحياة .

وفلوبير زار مصر سنة ١٨٤٩ وبقى بها عدة شهور وكانت زيارته لمصر بسبب غريب هو استخدام آلة التصوير الفوتوغرافى التى كان قد تم اختراعها فى ذلك الوقت لتصوير الآثار المصرية المعروفة .

وقد وصف مصر فى صفحات تضمنت رسائل إلى أمه وأصدقائه . ضمنها أدق الأوصاف للمغامرات والمشاهدات والانطباعات التى مرت به فى الرحلة التى طاف خلالها بأرجاء مصر حتى أقاصى الصعيد . وصور ببراعة ورشاقة ما كانت عليه الحياة فى هذه البلاد فى ذلك الوقت .

ولقد زار فلوبير بولاق والإسكندرية ورشيد وركب سفينة نيلية حملته إلى الصعيد .. وكان له مغامرات غرامية مع الغوازى ونساء الهوى مع كوجك هانم فى اسنا ومع الراقصة التى قضى ليلة فى مخدعها بأحد شوارع القاهرة الجانبية ليلة حمراء !

ولنبدأ معه الرحلة من أولها : فقد قضى أياماً قبل السفر مشفقاً من وداع أمه التى كان تعلله بها مرضيا ! حتى أرسلها إلى أسرتها فى نوجان لتقول على فراقة ولينتزع نفسه من حنانها الغامر فيبدأ رحلته باكيا فى ٢٥ أكتوبر سنة ١٨٤٩ .

ويقول فلوبير : إن الشرق يبدأ من القاهرة إذ أن الإسكندرية تزفر بالأوربيين الذين لايحتفظون لها بطابع محلى بحت .. هنا لاتجدين من القبعات غير القليل .. إننا نطوف بالأسواق والمقاهى والمساجد ونرى المهرجين .. وهم

أولئك الممثلون الهزليون المتجولون الذين يتمتعون بمواهب كبيرة ولكن فكاهاتهم تتخطى الأدب ..

ومن أوائل زيارتنا زيارة لسوق العبيد .. أى احتقار للجسم البشرى !
إن الاشتراكية ليست قريبة فى مصر !
وجاء هذا الكلام فى رسالة كتبها فلوبير لأمة ولكن من ١٢٥ سنة !

أما يوجين يونسكو وقد تضاربت الآراء فى مسرحه وحار الناس فى فهمه لغموضه وإغرابه ، واقع الأمر أن مسرحه « بسيط جداً » سهل الفهم جدًا .. منظور يدركه البصر .. بدائى صبيانى لايتطلب فهمه سوى التخلص من بعض العادات الفكرية .. كما يقول يونسكو وهو يعد دون شك واحداً من أعظم الدراميين الاصيليين فى هذا القرن ، وكما يقول الكاتب وليم ساروبان فى مقال له عن يونسكو « للآن فى وقتنا الحاضر يبدو أن بيكيت ويونسكو هما الكاتبان الدراميان الوحيدان الحاذقان اللذان حصلنا عليهما » ويونسكو لايرجو إلا أن يعتبر « أحد رجال المسرح المتواضعين الذين يخلصون المسرح من قيودة الادبية محاولاً إعادته إلى شكل أصيل .

فإن الداء عند يونسكو أن المسرح المعاصر لم يعد يعرض سوى مسرحيات واقعية لاتتصف بالواقعية إلا من ناحية المظهر فقط .. ولاتخرج فى تصويرها عن التقاليد المألوفة التى « اصبحت مبادىء » زائفة جامدة يجب أن يتحلل منها المجتمع ليحقق تطوره ..

وليونسكو رأى فى المسرحيات المعاصرة يأتى على لسان شوبيرت فى مسرحية شهداء الواجب ، فهو يرى أن كل ما كتب من مسرحيات منذ عهد الإغريق القدماء حتى يومنا لم تكن سوى مسرحيات بوليسية ، ولقد كانت المسرحية واقعية دائمة وكان هناك محقق على الدوام .. وكل المسرحيات عبارة عن بحث يصل إلى نهاية مرضية هناك لغزيحل فى المشهد الأخير « فهى كلها مسرحيات طبيعية بوليسية تصلح لمسرح أندريه أنطوان .. وحتى الروائع الكلاسيكية نجده يصفها انها مسرحيات بوليسية ذات مستوى راق . وقد لى دراسة مسرحه .. يرى يونسكو أن المسرح فى العصور القديمة وخاصة عند الإغريق كان فناً جماعياً ملحمياً يصور بطلاً نموذجياً وسط جوقة من المنشدين (الكورس) ويعبر عن صراع الإنسان ضد كوارث الطبيعة فى عالم لامعنى وراءه إلا القدر الخفى الذى يوجه شئون الناس كما يشاء .. وفى العصور الوسطى مع سيطرة الدين انتقل هذا الصراع الدرامى إلى صراع بين قوتين عظميين هما الخير والشر قدرة الشيطان وقدره الله وفى عصر النهضة عندما أمن الإنسان بنفسه تحول صراعه الدرامى إلى باطنه دائراً بين عقله وغرائزه ، كما نرى فى

شخصيات شكسبير وكورنى وراسبين . وفى العصر الحديث انتشرت حضارة مادية لم تهتم بوجدان الفرد ولا بفكره . بل انتجت حروباً طاحنة ونظماً عقائدية وأيديولوجية صارمة مستغلة البشر كالقطعان فى تحقيق أغراضها ، معارضة فى ذلك حرية الإنسان الطبيعية . ولذا ظهرت الوجودية فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ثائرة . على ذلك منادية بأن أوضاع الحياة الراهنة لامعنى لها ، وأن الصواب هو ما يريده الإنسان وترجمت الدراما الوجودية عن نوع جديد من الصراع -- صراع بين الإنسان الحر وبين هذه العقائد الاجتماعية والظروف الخارجية التى تريد خنقه .

واقتضى تغيير مجال الدراما على هذا النمط تغييراً موازياً فى شكلها لأن يونسكو قاد جماعة مسرح الطليعة عندما أرادوا توصيل حقيقة هذا الصراع الذى يقلقهم ويقلق كل إنسان واع لم يتمكنوا من صبها فى القوالب الفتيه المألوفة التى تضيق عن تصوير المادة الجديدة ، وأصبح المسرح المعاصر بذلك لا يعكس النمط الحضارى للعصر ، وبدأ يونسكو فى مسرحياته الأولى بتحطيم كل هذه المسرح » حطم يونسكو وجماعة الطليعة المنطق وأسس التفكير البشرى ، فانهارت بتحطيمها المفاهيم التقليدية للزمان والمكان والشخصية واللغة والحكاية المحبوكة فى المسرح ، وأقاموا مسرحهم على هذا البعث -- مسرحاً لا أرسطيا يقوم على منطق مختلف -- يقوم على شكل جديد -- هذا الخط الذى يفترض فى الإنسان طبيعة ثابتة يرى الطليعيون أن يصور الإنسان من حيث هو كائن حى متطور يتطلع إلى التحرر ويتحرك إلى ما أمكن ضد عوامل الضغط . لذلك لاتأخذ الشخصية عند يونسكو شكلاً متكاملاً بل هى مجموعة مواقف متفرقة ، بل هو شخصية عادية واحد من أفراد القطيع البشرى المطارد ، وكلامه لايعرض وصفاً تقريراً خارجياً -- لنضاله ضد مصادر الخطر التى تهدد مصادر الخطر التى تهدد وجوده والتى يهاجمها بل اصبح كلامه تلقائياً -- لا يحاول صياغة أفكاره فيترك لأقواله المفككة هواه أن تنقل لنا مباشرة ، وفى مسرحه تختلط الألوان فينكشف التناقض فى كل شىء ويشتد التوتر فيضحك المشاهدون فى أحلك اللحظات -- ويونسكو قد جمع بذلك المأساة والملهاة فى تركيب جديد أحله محل « عنصر التشويق » القديم الزائف ، وعن طريق هذا الضحك يصحو المشاهدون وينتابهم إحساس جديد بالدهشة إحساس أشبه بالصفقة التى تثير التفكير فينسهبون ويدركون ويتدخلون فى المشكلة ، وهذا هو الحل الجديد لدى يونسكو للأزمة بدلا من التطهير الذى نادى به أرسطو .

وبذلك فأن يونسكو يحرر الدراما من التزاميات المنطق ويحطم دكتاتورية العقل على المسرح فيما عرف بالواقعية كاشفاً عن عمقها كأساس للدراما ، فيختزل دورها من دور سيد إلى دور خادم يمكن استخدامه حينما تتطلب

المسرحية . ويعمق يونسكو مجال « الواقع » الذى يجب على الدراما أن تقدمه فيستمد من الأحلام واللا وعى أساساً لمسرحه .. ومجدداً بذلك الواقع ..

هذه خطوط سريعة لما قدمه يونسكو للدراما وتعد الأساس الذى أرسى عليه يونسكو مسرحه الجديد ، وقد يكون من الغريب أن يونسكو الذى استحدث هذه الثورة الجذرية فى الدراما حتى إنه يعد بالاشتراك مع بريخت أشهر الكتاب الدراميين المعاصرين فى العالم تتعدد حولهما المدارس والحركات الفنية .. ومن الغريب أن عمره الفنى لايتعدى أربعة عشر عاماً فقط ، وبالتالى بعد كل ذلك فلم يكن يونسكو يفكر أبداً فى أنه سيكتب مسرحية حتى بلغ السادسة والثلاثين من عمره فكتب مسرحيته الأولى « المغنية الصلعاء » ... ولكتابة هذه المسرحية قصة ..

ولكن لنرجع إلى الوراء مع يونسكو ..

ولد يوجين يونسكو فى بلده سلاتين برومانيا فى ٢٦ نوفمبر سنة ١٩٢٢ من ام فرنسية واب رومانى ، وبعد فترة قصيرة من مولده انتقل والداه للمعيشة فى باريس ، ولذا كانت الفرنسية لغتة الأولى حيث أتم تعليمه الابتدائى فى باريس ، أما معظم معرفته بالرومانية فقد اكتسبها بعد عودته إلى رومانيا فى سن الثالثة عشرة ، وفى هذه السنة كتب مسرحية وطنية وقبلها بسنة كتب مسرحية لم يعد يذكر عنها شيئاً سوى أنها انتهت بخناقة !

وعندما عاد أبواه إلى رومانيا فى سنة هذه صدم يونسكو صدمة كبيرة أظهرت له وحشية العالم ، ويصف يونسكو هذه الحادثة بقوله :

« عندما عدت إلى وطنى الثانى رايت رجلاً شاباً وقوياً يهاجم عجوزاً ضعيفا بالكلمات والركل بحذائه .. ليس عندى صور أخرى عن العالم سوى هذا الانحلال والوحشية والغرور والهياج والعوم والإرهاب والبغض اللا مجدى ... » وفى رومانيا ، أصبح الفتى يوجين طالبا يدرس اللغة الفرنسية وادابها فى جامعة بوخارست .

وكتب يونسكو أولى أشعاره متأثراً بمترلنك وفرانسيس جام ، كما نشر نقداً أدبياً هاجم فيه ثلاثة من كبار الأدباء التقليدين الرومانيين ووصفهم بضيق الأفق والافتقار إلى الأصالة ، ولكنه عاد بعد فترة قصيرة ونشر مقالاً ثانيا مستخدماً فيه نفس أسلوبه العقلى المنطقى فى النقد . ورفع فيه نفس هؤلاء الكتاب الثلاثة إلى السماء ، ثم قدم مقالاً نقدياً بعنوان « لا » ! ليثبت « تطابق الأضداء » .

وبعد انتهائه من دراسته عمل مدرساً للغة الفرنسية فى مدرسة الليسية ببوخارست ، واشتغل بالنقد والأدب وتزوج فى عام ١٩٣٦ وحصل فى سنة ١٩٣٨ على منحة حكومية تمكنه من الذهاب إلى فرنسا لبحث فى رسالة دكتوراه خططها تحت عنوان « أفكار الخطيئة والموت فى الشعر الفرنسى من عهد

بودلير .. وسافر إلى فرنسا ولكنه كان يعلم أنه لن يخط سطراً واحداً فى هذا العمل . ففى فرنسا اتصل بالصحافة وبالمجلات الثقافية وخاصة بالمتطلعين فيها الى قيم جديدة .. ولما نشبت الحرب سنة ١٩٣٩ انتقل يونسكو إلى مرسيليا ثم عاد الى باريس وبعد انتهائها عمل فى إحدى دور النشر فيها .

وعندما عاد يونسكو إلى باريس بعد الحرب كان فى حوالى الرابعة والثلاثين من عمره . ولم يكن هناك ما يشير إلى أنه سيصبح كاتباً مسرحياً مشهوراً . فقد كان فى الواقع يكره المسرح فى حين كان يقرأ الكتب ويذهب إلى السينما للتسلية ومن وقت لآخر يستمع الى الموسيقى ويزور معارض الرسم ، ولكنه نادراً ما كان يذهب لمشاهدة مسرحية إذ كان المسرح يبدو له مخيفاً وزائفاً وأثر ذلك عنده فيما بعد فيما نراه فى المعنى الكامن وراء ثورته التى شنها على المسرح والتى هدم فيها المسرح رأساً على عقب ! وفشلت مسرحيته الأولى فشلاً ذريعاً ولكنه استفاد من فشلها فى معرفة المزيد من طبيعة اللغة كأداة للتفاهم أو لعدم التفاهم بين الناس وأطلق عبارته المشهورة · إن الكلمات تتساقط كالجثث .. كالحجارة ' إلا أن أغلب جمهور النقاد استقبلوا المسرحية بفتور ، وكثيراً ما حلت أكثر المقاعد من المتفرجين فالغيت الحفلة . ولذا أوقف عرض المسرحية بعد ستة أسابيع ..

لم يثبط هذا الفشل الذى صادفته المسرحية عزم يونسكو على الكتابة المسرحية على العكس كان ذلك إعلانا عن مولد كاتب درامى أصيل ، فقد تعلم يونسكو من هذا الفشل أن مصيره قد ارتبط بالمسرح نهائياً ، فموهبته موهبة بكل شىء حتى إن « المغنية الصلعاء » اعتبرت بعد ذلك مسرحية من أهم المسرحيات العالمية واكثرها ذيوعاً وانتشاراً بعد أن فهم الناس إزاء اتجاه طليعى فى عالم المسرح بل من أهم الاتجاهات فى تاريخه .

واستمر يونسكو فى كتابة المسرحيات وفى ٢٠ فبراير سنة ١٩٥١ عرضت له مسرحية « الدرس » ثم كتب جاك أو ا الطاعة « فى سنه ١٩٥١ ثم عرضت له مسرحية الكراس وهى تأثير مسرحية له تصل إلى المسرح وكان عرض هذه المسرحية هو بداية انتصاره .. بالرغم من مهاجمة أغلب النقاد لها ، فقد ظهر فى مجلة الفنون دفاع عنها وقعة صامويل بيكيت وارثر اداموف ولوك لستانج وريمون كونيو .. وغيرهم كما وقف الكاتب المسرحى الشهير ادوبرتى فى نهاية العرض الأخير بين المقاعد الخالية وهو يصيح بأعلى صوته « برافو » وحتى جان انوى الذى كان يرفض مسرح الطليعة دافع عن يونسكو ووصف مسرحيته هذه بأنها من روائع المسرح ، ورفع يونسكو على ستردنبرج وقارنه بموليير وقال إن هذه المسرحية كلاسيكية رغم كل ما فيها من تجارب طليعية ، لايرضى عنها .

وتعاقبت أعمال يونسكو فمثلت له شهداء الواجب فى فبراير سنة ١٩٥٣ ، ثم ظهرت له سبعة اسكتشات صغيرة مثلت كلها فى سبتمبر سنة ١٩٥٣ ، ونشر منها معرض السيارات وفتاة للزواج والأستاذ ، أما الاربعة الباقية فقد ضاعت مخطوطاتها وهى « الحرارة الكبيرة » و « اتعرف » و « ابن أخت الزوجة » و « ردم الاورنيك » وكتب بعد ذلك اميديه او كيف تتخلص منها » وهى أول مسرحية طويلة له فى ٣ فصول ومثلت فى ١٤ أبريل سنة ١٩٥٤ ، وعرضت له الخرتيت فى ثلاثة فصول فى نوفمبر سنة ١٩٥٩ فى دوسلدورف لأول مرة ثم مسرحية قتل بلا أجر فى ٣ فصول وعرضت فى باريس فى فبراير سنة ١٩٥٩ ، ثم كتب الملك يحتضر فى ١٩٦٢ وهى مسرحية طويلة وفى سنة ١٩٦٣ كتب السائر فى الهواء . وهكذا تتوالى أعمال يونسكو المسرحية التى قلب بها المسرح المألوف على رأسه- والتى هز بها ولايزال المسارح فى أغلب بلاد العالم التى مازال « المذهب الواقعى » يصبغ التمثيل فيها ، كما نرى فى الواقعية الاشتراكية فى روسيا وفى مسارح البوليفار فى فرنسا .

ولقد عبر يونسكو عن مسرحه بقوله « مسرحى محاولة لإعادة إكتشاف الحقيقة الإصيلة للدراما فى أنقى حالاتها » .

وبجانب البرتو مورافيا وجوستاف ويوجين يونسكو قدم لنا انيس منصور فى رؤية نقدية ورحلة سياحية ممتعة كل من جان بول سارتر والبير كامى وهمنجواى وارثر ميللر وبرناردشو وتنس ويليامز وجون اسبورن ومئات من الأدباء فى الشرق والغرب .

ولقد شرح أستاذنا الكبير عباس محمود العقاد مهمة النقد بقوله :

« ان مهمة الناقد هى أن يعرف الحسنات والسيئات فى العمل الأدبى ، وليست مهمته التنقيب عن السيئات فقط وعليه دائما أن يضع نفسه فى موضع المؤلف ، وأن يحاول فهم عباراته كما أرادها ولايقتحم عليه معنى لم يرده ، وقد ينكره إذا نسب اليه ، كما يجب أن تكون ثقافته لاتقل عن ثقافة المؤلف فإنه مطالب بأن يوازى بين عدة مؤلفين وأن يصيب له ثقافة تحيط بثقافات المؤلفين جميعا حتى يستطيع أن يميز بينها وأن يرجح منها ماهو أحسن على مالا يتحقق فيه شروط الحسن أما الثقافة التى يجب أن ينالها فهى ثقافة عامة شامله ليس لها لون لأن الثقافة كالنور الأبيض تشتمل على كل الألوان ، والنقد بلغة أبسط أو بعبارة أوضح هو ما عبر عنه الناقد الشهير سانت بيف فى كتابه شاتوبريان وجماعته الأدبية بقوله .

إذا عرفت كيف تقرأ كتاباً قراءة جيدة دون توقف عن مواصلة تذوقه فذلك هو فن النقد، وهذا الفن يقوم كذلك على المقارنات فإذا فعلت ذلك كنت قد فعلت كل شىء ..

ولقد عرض لنا أنيس منصور الشخصية الأدبية معتمداً على المنهج النفسى المستعين بنظريات علم النفس .

وهناك من النقاد المحدثين من يعنى بالشخصيات الأدبية أكثر من عنايته بما فى فنها من جمال . ومنهم من يحتفل بالتحليل الفنى أكثر من احتفاله بتلك الشخصيات . ومهما كان الأمر فالحكم فى التحليل النفسى حكم ترجيحى فحسب لأنه ليس من السهل سبر غور النفوس ، ولربما غاب عن الناقد بعض ما يوضحها أو يعلل أدبها ، وخاصة إن كانت الشخصية لأحد القدماء الذين يصعب فى كثير من الأحيان تتبع أحوالهم الخاصة أو العامة ، ولقد بذل أنيس منصور كل جهوده للاستقصاء . واتخذ الحيطة التاريخية الدقيقة فى كل ما كتب ومحاولة إعطاء صورة حية للأدباء ، ومثل ذلك ما ينبغى أن يفعله المرء أيضا حين يكتب تاريخ نفسه بنفسه فعلية أن يعنى بمقوماتها العقلية والخلقية ليعطى لها تلك الصورة الأدبية الحية .

ولقد عنى أنيس منصور فى رؤيته النقدية لكل ما كتب بالتحليل الفنى المستفيد من جميع العلوم والمعارف والمناهج التى يمكنها أن تلقى ضوءاً على شخصية الاديب او تفسر فنه ، ثم بنى دراسته بعد ذلك على حسن الاستنتاج والتعليل والاعتماد على الحساسة الفنية وعلى الفهم الصحيح للادب ، ونقد المصادر والنزاهة العلمية والصحفية وعفة البيان واعتماده على دقة التحقيق والتمحيص والاستقصاء فى البحث ، والموازنة الصحيحة بين النصوص وبين الأدباء أيضاً .

ولقد رجع الكاتب والناقد أنيس منصور لذوقه الخاص جاعلاً غايته من النقد التوجيه الصحيح للأديب والعلم والفن وتوضيح الحق فيها ، وميز الجيد من الردىء مع الدقة فى الأحكام ووضوحها والاحتياط فيها .

وعندما يعتمد الناقد فى نقده على المناهج العلمية والمذهب المحدد فهو إذن ينقد نقداً موضوعياً ، وعندما يعتمد على ذوقه فهو ينقد نقداً ذاتيًا ، وبهذا الموضوعية والذاتية معاً تنقد سائر الفنون الجميلة .

وبما أن أذواق الأفراد والجماعات تختلف وأذواق الأجيال تختلف ، فالناس لذلك يختلفون فيما يصدرون من احكام على الأدب ، ويختلفون فيما ينتهجون من مذاهب ، وهذا يقتضى أن نحكم دائماً على الأدب بذوق عصره وبمقدار تصويره له ولصاحبه أولاً ثم بذوقنا الخاص بعد ذلك .

ولقد استطاع الكاتب الكبير أنيس منصور أن يحدد وظيفته النقدية فى الاستمتاع بالأدب وإعادة فهمة فى عمق وإمعان ، ثم تفتيح الأذهان لما استجد من تفاعلات مع العلوم والفنون المختلفة ، ولا أعنى هنا بالفهم الصحيح الإلمام

بالكلمات والعبارات والتراكيب فقد نلم لها كلها دون أن نصل إلى أى مرحلة من مراحل التقييم الجيد للنصوص الأدبية .

ومعيار التقييم والرؤية النقدية هو ما نحس به من متعة عميقة حينما تقرأ نصاً من النصوص الجيدة ، ثم نستجيب لعظمته الفنية وقيمته الأدبية . ولاتتأتى هذه المزايا إلا على أساس الفهم السليم والاستجابة الصحيحة فهما عماد النقد المتكامل -- إن نقص أحد هذه العناصر سيؤدى حتماً إلى عدم التهيؤ أو التكيف على الوجه الصحيح ومن ثم تخرج عن النص الأدبى .

كما أن الناقد الذى تشعبت ألوان معارفه وتخطت حدود النقد الأدبى وتطرقت إلى غيره من الفنون المختلفة مثل الكاتب الكبير أنيس منصور لهو أقدر من غيره على وضع النصوص فى مكانها الملائم . وهو أقدر أيضاً على توجيه انتباهنا نحو نواحى المتعة الأدبية والفنية التى تحدث -- أما الناقد الذى يقتصر على الأدب وحده دون تعرضه الى غيره من الفنون لابد أن يكون نقده أميل إلى التجريد الخالص وهذا هو الحال أيضا فى الشعر -- فالشاعر الذى يقتصر على أسلوب شعرى معين لابد أن يكون شاعراً أجوف -- فلقد لعبت الخبرات المترامية والأفكار المتزاحمة والاتجاهات المتشعبة أدواراً عظيمة فى إخصاب الشعر وإثراء مكوناته ومعانيه .

إن النقد الحى هو الذى يعبر عن الحياة فى تكاملها بمبادئها وخبراتها ، وهو . وعلينا أن ندرك أن النقد الأدبى خاضع لعوامل شتى تاريخيه واجتماعيه خلقية ، وأن هذه العوامل وهى متفرقة لاتعنى بمهمة التقييم الصحيح إنها ترشدنا إلى اتجاهات هذه الاشعاعات حيث تتجمع فى بؤرة واحدة تختلط فيها الفكرة بالوجدان وتمتد بها فى أصالة وعمق .

وعلى ذلك فلقد تبلورت مهمة الناقد أنيس منصور فى تتبع هذه الاشعاعات وتقديمها للقارىء الذى قد يعجز عن الوصول إليها إلا بعد جهد وعناء ، وتنحصر مهمته أيضا فى ازاحة ما قد يكتنف النصوص من غموض وإبهام لتبدو جلية واضحة حتى يتمكن القارىء من فهمها والتفاعل معها على الوجه الصحيح ، وهذا مما يتطلب من القارىء أيضا فهماً عميقاً وإحساساً صادقا وقدرة على التذوق فى غير تحيز -- وهكذا كان أنيس منصور --

... وأنيس منصور قارىء نهم -- وناقد ممتاز -- ولو تفرغ للنقد الأدبى لقفز به قفزات سريعة إلى الأمام -- إلا أنه وأن كان قد بدأ حياته ناقدا -- ويلقى الأضواء على ما يقرأ -- ينبهر بالموضات الجديدة فى الفكر والأدب ثم يحاول شرحها وتبسيطها للقارىء -- إلا أن الروافد الأخرى من الفكر قد جذبته إليها بحكم عمله كصحفى -- فلم يستغرق النقد معظم أعماله ووقته ولكن

انشغل إلى جانب ذلك بترجمة المسرحيات .. والقصص .. والكتب التى تتناول فروعاً مختلفة من المعرفة .. فليس له كتب نقدية على كثرة ما كتب فى النقد .. وإنما أعماله النقدية نجدها ضمن موضوعات فى كتبه المختلفة .

وما كتبه انيس منصور عن الوجودية أو عن الفلسفات الوجودية ومحاولة تغيرها الناس بأسلوب سهل جداً .. بسيط جداً .. يعبر عن غموض الفلسفة واصطلاحاتها .. يعتبر من باب النقد .. !

وما كتبه عن الغاضبين .. والساخطين .. يعتبر من باب النقد ، وما كتبه وترجمه عن الأعمال الأدبية الكبيرة .. وتقيمها والقاء الضوء عليها .. يعتبر من باب النقد لأن النقد هو فى أبسط صوره .. تسهيل ما فهم الناقد وما أحب .. وتوصيله بأقرب طريق إلى القارىء .. دون أن يعانى الأخير من عدم الفهم وألا يكون الناقد قد فشل فى أداء مهمته .. !

وأنيس عندما يكتب فى النقد لا يدخل بك فى متاهات لفظية ولا يلعب معك « لعبة الاستغماية » كما يفعل بعض النقاد .. ولا يتحذلق . ولا يستعرض عضلاته الثقافية بإغراقك فى المصطلحات والألفاظ الغريبة .. وبعبارة مختصرة جداً .. لا يجعلك فى حاجة إلى دفتر (لوغرتمات) لتفهم ما يقول .. إنما هو يأخذك مباشرة أيضا فى الجولة التى يريدك أن تصحبه فيها .. سواء فى عقل فنان أو فليسوف .. أو فى عمل من أعمال هذا الفنان او هذا الفليسوف .. وعندما تنتهى من قراءة ما كتب .. تكون الصورة أمامك واضحة السمات .. وتكون الأفكار التى يريد أن تصل إليك قد استغرقت فى نفسك بيسر .. فلا حاجة إلى العودة إلى قاموس .. أو تفتيش فى مرجع .. !

أن المهمة الأولى والأخيرة للناقد أن يقرأ فيفهم فيحب فيقدر ثم يسهل للآخرين ما قرأه وما فهمه وما أحبه ! وهذا هو أنيس منصور ..

ولقد قدم لنا النظريات الأدبية والتيارات الفكرية والفلسفية والثقافية والفنية فضلاً عن أبرز كتاب المسرح والأدب مورافيا وفلوبير ويونسكو وسارتر وبرنارد شو واسبورن ومالرو وهمنجواى والعديد من الأدباء والكتاب من الشرق والغرب .. معروفين ونصف معروفين .. مشهورين ونصف مشهورين وأسماء لم نكن نسمع عنها من قبل بأسلوب سهل وبسيط وممتع .

قدمهم جميعا فى شرائح نقدية طازجة على طبق من الفضة ومعهم شوكة وسكين !

تحضير الأرواح فى سلة كشف المجهول ..!

عندما نفى الشاعر والروائى الفرنسى الكبير فيكتور هيجو إلى جزيرة جرسية ، كان ينظم جلسات لتحضير الارواح ، ولقد نشر تفاصيل هذه الجلسات فأثار الفضول والدهشة وحب الاستطلاع بين الناس مؤكدا أنها ستكون « ثورة المستقبل » مما دفع الناقد « جوستاف سيمون » إلى جمعها ونشرها فى كتاب بعد موت هيجو لما تحوى من حقائق هامة .

فقد كان فيكتور هيجو نفسه أهم الشخصيات المولعة بالحقائق العلمية جنباً إلى جنب مع كونه شاعراً عظيماً ، وكان يمكن أن يصبح عالماً مرموقاً بفضل حدسه وقدرته على التنبؤ ، فقد تنبأ سنة ١٨٤٢ بنظرية الإشعاع ومن يقرأ بإمعان يدرك أن العالم الآخر قد شغله قبل هذا العام بكثير ، وعناوين مولفاته أكبر دليل على ذلك ومنها « الميل إلى التأمل » و « ما هى نهاية كل شىء » ويشتمل ديوانه « التأملات » على قصيدة بعنوان « زحل » كتبها سنة ١٨٣٩ وصور فيها هذا الكوكب البغيض المنعزل كوكب العقاب ، لكن هذا العقاب ليس أبدياً لأن هذا الكوكب الملعون لن يتحفظ على الأشرار خلال الفترة التى يريد الله لهم فيها العقاب ، وكان يرى أن الحياة الحقيقية تبدأ عند القبر أى مع الموت ، عندما يجعل القبر نفسه منا أحياء ، قد تذهب جميعا ذات يوم فى الفضاء القرمزى لنقرأ العمل اللا نهائى والقصيدة الخالدة ، ولكم و د هيجو فى حياته أن يفسر بضع صفحات من هذه القصيدة !

ومنذ ماتت ابنته تحولت رغبته فى النفاذ إلى الأسرار الكامنة وراء القبر إلى رغبة ملحة أمره .. وربط بين موضوع السموات الغامض والقضايا العلمية فى عالمنا الأرضى ، فقد قال سنة ١٨٥٥ عندما تنبأ باختراع الطائرة : « إنها ثقل

محرر طائر .. إنها القوة المتحالفة مع الإنسان البراق .. قوة تنتزع الطين من الأرض وتحلق عبر دهشة السموات الهائلة التى انفتحت أخيرا »

وفى المقدمة الفلسفية لرواية « البؤساء » تلك المقدمة التى قال عنها هيجو إنها تلخص فلسفته الشخصية تناول كافة الموضوعات تكوين الأرض .. حركات الكواكب .. تاريخ الديانات .. تقدم العالم .. دعا إلى موضوع الطائرة قائلاً جملة غريبة فى وقتها تعلن عن بناء الطائرات التى نعرفها اليوم : « قد يتمثل الحل أيضا فى محاكاة الطيران ولم يكن أحد يفكر فى ذلك الوقت فى محاكاة الطير أو فى جهاز ذى جناحين بل كان الاهتمام منصباً على المنطاد .

وكان من الطبيعى ـ نظرا لقدرته على التنبؤ ـ أن يهتم بكل الوسائل التى تمكنه من اكتشاف سر ما بعد الموت أو معرفته !

لقد رأى بالطبع شيئاً من الغرابة في المائدة التى تلعب دور الوسيط رأى فيها شيئاً أغرب من الحلم والرؤى والتنبؤ وكلها أمور بعيدة عن عالم المحسوس .. وكان هيجو يقف موقف المتفرج الذى لا يكترث كثيرا بالأمر ثم أخذ ينصت إلى ما يقال . ثم سرعان ما أهتم بالتجارب ثم استهوته الظاهرة وفى كل جلسة كان يزداد أهتماماً بها ويكتب ما تمليه عليه المائدة ، وأخذ يسأل الموائد أسئلة طويلة ودفعه حب الاستطلاع والمعرفة إلى التحدث إلى كبار المفكرين والدخول فى مناقشات فلسفية بل وأدبية وتاريخية معهم ، وبعد الجلسة كان يعمد أحياناً الى التعبير كتابة عن اختلافه فى الرأى مع محدثه ، ولقد تساءل الباحثون والدارسون عن مدى تأثير فيكتور هيجو على الموائد ومدى تأثيرها عليه قال بعضهم : إن هيجو ألف لا شعورياً الأسئلة والأجوبة وأن روح المائدة ليست سوى روح الشاعر نفسه ، لكن ألد أعداء تحضير الأرواح لم يشكوا لحظة واحدة فى سلامة نية الشاعر واستبعدوا فكرة خداعة الآخرين ولم يتحدثوا إلا عن سذاجته وميله إلى تصديق كل ما يقال ويرى .. واكتشف اخرون أن هيجو كان يناقش ويسأل ويرد لا شعوريا9 عن طريق الوسيط ، وكثيراً ما كان يلعب دوره ابنه شارل هيجو وساقوا دليلاً على ذلك أن الشعر والنثر أياً كانت الروح التى يعبران عنها كانا يتفقان دائما والشكل والمفهوم الذى ألفهما الشاعر ، وقال اخرون : إن شخصية هيجو كانت تخضع أثناء انعقاد هذه الجلسات للازدواج وأن روح هيجو كانت ترد على الأسئلة التى يطرحها هيجو أو ترفض الرد عليها أو تنفى الحجج التى تسوقها أو تسخر منه ..

كل هذا بالشكل والأسلوب اللذين اعتادهما الشاعر إلا أن الشكل والأسلوب كانا يظلان كما هما حتى عندما لا يحضر هيجو الجلسات ..

وقيل إن الجلسات كانت تعقد فى بيت هيجو أى فى مكان كانت الاشياء فيه مشبعة بوجوده ، بعبارة أخرى فى مكان شاعت فيه نغمات من روحه ، وبالتالى عكست الموائد شيئاً من شخصية الشاعر .

ولو أن كبار المفكرين والفلاسفة والعلماء والكتاب والفنانين بعثوا من جديد لقالوا لنا الكثير عما دار فى هذه الجلسات التى لم يغب عنها على سبيل المثال موليير واسخيلوس وشكسبير وأفلاطون وجاليليو . وكان يتدخل أحياناً فى هذه الجلسات متحدثون لم يتوقع حضورهم الحاضرون .. هذا ما حدث مثلاً عندما سأل أحد الموجودين الروح فردت بقولها « أنا الرواية » وأنا « المأساة » أو « أنا الدراما » !

لكن من ذا الذى جعل هيجو وأصدقاءه المنفيين فى جزيرة جرسية يستشيرون الموائدة الدائرة : إنها مدام دى جرردان !

كانت امرأة مؤمنة تقية وهذا يتضح لنا عندما نقرأ الرسائل التى تبادلتها مع هيجو كانت قد حضرت إلى الجزيرة سنة ١٨٥٣ ، ولم يكن بوسع هيجو أن يقاوم سحرها وسحر تفكيرها كانت بمثابة رسول للموائد . وكان هيجو ميالاً بطبعه إلى التعاطف مع الرسل أو لم يكن هو أيضا رسولاً فى ميدان الشعر ؟!

وفى الجزيرة التفت حول مدام دى جرردان مجموعة من الأصدقاء الراغبين فى العلم والمعرفة كانوا لا يرون أى مشكلة فى التجربة ، بل كانوا ميالين إلى الشك ومما لا يقبل الجدل أنه قيل لها إن مثل هذه الجلسات تحتاج إلى الحياد على الأقل إن لم تحتج إلى الإيمان .

وكما قادت مدام دى جرردان فيكتور هيجو إلى التجربة المثيرة فقد قادت سيدة مصرية فى أندونسيا أسمها فوزية .. الكاتب الكبير أنيس منصور الى نفس التجربة التى كانت أكثر إثارة بالنسبة إليه .

وهذه السيدة متزوجة من أحد أبناء أندونيسيا الذى يملك مصنعا للزجاج فى مدينة بوجور وكان معه فى هذه الزيارة سفيرنا السابق العمروسى ، وصديقه لطفى متولى ملحقنا العسكرى فى ذلك الوقت ، وسفيرنا السابق فى العراق والدكتور محمود رضوان مستشارنا الثقافى السابق ، وصديقه أحمد والى ملحقنا الصحفى فى جاكرتا فى ذلك الوقت .

وفى إحدى الجلسات أطلعته السيدة فوزية على تحضير الأرواح عن طريق السلة ولم يصدق أنيس منصور فى أول الأمر .. ولكنه لاحظ أن كل الذين معه رجالاً ونساء يصدقون .. وأعاد التجربة .. ووسط البخور والهدوء .والآيات القرانية .. ورأى السلة وهى تتحرك وتكتب .. ولاحظ أن هناك اثنين يحملان السلة وأنها تتحرك وتكتب بلغات مختلفة ، وتجمد الدم فى عروق أنيس منصور

وتغصد العرق من جبينه واستحضروا أرواح بعض المصريين -- ولاحظ أنها تكتب -- وأنها تكتب بلغات مختلفة بعض النكت -- ولم يصدق أيضا .

وركب أنيس سيارة السفير والتقط من الشارع اثنين لا يعرفهما -- وحملا السلة وقرأ آيات من القرآن الكريم والتزم الهدوء -- وكانت السلة تكتب بلغات لا يعرفها معظم الحاضرين -- فقد كانت تكتب بالألمانية والإيطالية واليونانية واللاتينية وهى لغات يعرفها أنيس منصور جيداً .

ثم طلب أنيس من الحاضرين أن يستحضروا روح المرحوم والده -- وكتبت السلة أنه لا يريد أن يحضر -- وشعر أنيس بالارتياح

وقال : لابد إنها أكذوبة

وأخيراً حضرت الروح وكتبت !

ولم تنته دهشته فقد كان خطها طبق الأصل من خط والده وخصوصا إمضاءه

أما فيكتور هيجو فقد كانت جلسات تحضير الأرواح التى يعقدها كانت فى حجرة صالوان ، وأن عدد الموائد كان كبيراً نسبياً ، وفى البداية لم تكن الأمور مستقرة -- كانت المائدة تتحرك بعنف أحيانا وكانت تسأل فترد ردوداً موجزة ومبهة أحياناً -- كانت الأسئلة تطول والأجوبة تقصر بالتالى « نعم » أو « لا » وكانت « النعم » و « اللا » تتابعان باستمرار -- لم يعرف الحاضرون فى البداية كيف يديرون الموائد لكن لم يستطع أحد منهم أن ينكر أنها تتحرك ، وأدركوا واكتشفوا أن المسألة مسألة « تأثير سحرى » يلعب فيها الوسيط الدور الأعظم . ولم يدركوا أن لشارل هيجو مثل هذا التأثير ، وتثبت دراسة مخطوطات أن هذه الظاهرة كانت حقيقية -- كان هيجو أو زوجته أو أحد الحاضرين يمسك بالقلم ويكتب تباعاً الحروف التى تمليها المائدة ، لكن الكاتب كان لا يفهم الكلمة الا عندما تكتمل حروفها وكانت الروح تملى كلمات يكتب بعضها تلو البعض الآخر فيشرك الحاضرون بعد سطرين أو ثلاثة أن هذه الكلمات تكون أبياتاً من الشعر . وعلى بعد ٧٠ كيلو من جاكرتا فى الستينات كان هناك خليط من أبناء دمياط وجاكرتا بينهم أنيس منصور . وكانت الساعة الرابعة عصراً يمارسون تجربة اسمها باللغة الأندونسية « جالات كون » ويقال إن معناها « الهيكل العظمى -- ويقال ليس لها معنى » !

ولقد أصدرت الحكومة الاندونسية قراراً صريحاً بتحريم هذه التجربة فقد شغل بها الطلبة عن مذاكرة الدروس ، وقد تفرغت لها العائلات تماماً . وهى فى اندونسيا أكثر انتشاراً من قراءة الفنجان وفتح الكوتشينة عندنا .

فهى من السهولة بحيث يستطيع أى انسان أن يجريها وحاول أن تجرب ! هات سلة -- سلة عادية جدا -- وضع فيها خشبة طويلة على هيئة صليب وضع

على هذا الصليب قميصاً وفى أعلى القميص أرسم صورة وجه على ورقة ، وضع فى أعلى الرأس عودين من البخور .

ثم ضع فى مقدمة السلة قلما من الرصاص .. ضع القلم بين فتحات السلة وعليك بعد ذلكأن تحمل السلة أنت وصديق لك على أطراف الأصابع على أن يمسك زميل آخر بورقة أمام القلم أطلق البخور وردد الكلمات : جالان كون .. جالان بيس .. ومن الممكن أن يقرأ الفاتحة أو أى كلام دينى آخر .. هكذا يقال ..

بعد ذلك أى بعد دقيقة سترى السلة تندفع إلى الأمام وتكتب بلغة الروح التى حلت فى هذه السلة .

تستطيع أن تكلمها أن تسألها : من أنت ؟

وسترد عليك كتابة بلغتها ..

أطلب منها الزوح التى تريدها .. ستحضر حالاً

ومن هذه الأرواح التى رآها أنيس منصور وهى تكتب رجل حشاش توفى فى باب الشعرية اسمه « محمود صالح » .. إنه يروى النكت .. نكت قديمة جداً لم نسمعها أبداً ، ويبدو أنه كان يعمل كناساً أو بائعا للخضر فى القاهرة .. ثقافته لا تزيد على ذلك .

وقد لاحظت أن السلة تكتب بلغة عامية جداً واللذان كانا يحملان السلة أثنان من الاندونيسيين ولا يعرفان كلمة عربية واحدة .

ثم طلب الحاضرون روح السيدة « روز اليوسف » ولما لم يكن الكاتب الصحفى أنيس منصور حاضراً فقد شتمت الحاضرين جميعاً !

وكتب لهم مفيش معاكم حد صحفى ؟

فقالوا : لا ..

كتبت : بلاش لعب عيال !

وطلبت منهم أن يصرفوها .. وقالوا لها : انصرفى .

وبعض الأرواح تطلب من الحاضرين أن يأذنوا لها بالبقاء .. وبعضها يصر على البقاء . ومن ضمن الأرواح التى تم تحضيرها روح رجل اسمه ناصر الدين .. وهو عصبى .. فهو يضرب السلة فى وجوه الحاضرين ويصر أن يكتب دائما ..

ولا يوجد ممن يعتقدون فى تحضير الأرواح أحد فى أندونيسيا لا يسأل السلة عن صحته وعن حياته .. وعن مستقبله .. وعن مرضه وعن أحوال الناس الاخرين .. ومتى يسافر فلان ؟ ومتى تلد فلانة ؟ ومتى تتزوج فلانة ؟ وهل فلان هذا طيب وهل زوجته كذلك ؟ .. كل أحوال الدنيا والدين الكبيرة والصغيرة يسألون فيها هذه السلة ..

وقد أصدرت الحكومة فى أندونيسيا قراراً بمنع استخدام هذه السلة إطلاقاً ، وكان هذا القرار على إثر حادث غريب ، فقد شاهد البوليس ثلاثة من الأطفال يحملون فى أيديهم سلة ويمشون بها فى الشارع وكان ذلك بعد منتصف الليل - والذى حدث أن السلة كتبت لهم : أريد أن أذهب الى بيت فلان .

وكان هذا البيت يبعد عن العاصمة عشرة كيلو مترات ، ولما ضبطهم البوليس مزق السلة واعتقل الأطفال الثلاثة .

وأصبحت هذه السلة ممنوعة .

والزوج الذى يعرف أن زوجته تشتغل بتحضير الارواح يخشى على نفسه منها ، ولذلك يشتغل هو أيضا بتحضير الأرواح ويسخر روحاً خاصة لحمايته من زوجته .

أما النوم بعد هذه القصص وأما الراحة بعد هذه الظواهر الغريبة المفزعة. فخرافة !

ولما كان فيكتور هيجو من أشد المعجبين بشكسبير فقد قام بتحضير روحه فى منفاه . وشكسبير كان مثالاً يحتذى فى نظر الرومانسيين جميعا ولقد أفرد له هيجو كتاباً كاملاً يحمل اسمه ، وكان من الطبيعى أن يحضر روحه فى جلسة عقدها وحضرها كل من أبنه وزوجته وصديقهم شارل فاكرى .

وكان الحديث التالى :

ـ أسمك ؟

ـ شكسبير .

هيجو ـ تعلم أنك فى نظرنا واحد من الكبار الأربعة أو الخمسة الذين خلقوا الإنسانية . والآن قلت لنا ما الذى حدث فى القبر وإى لقاء تم فى ٢٣ أبريل سنة ١٦١٦ ؟

ـ قبلت كورنى الناشىء .

ـ هيجو ـ لم أقل ١٦٠٦ بل قلت ١٦١٦ ركز وابحث عما إذا شكسبير قد قابل فى ذلك اليوم ممثلاً عظيماً آخر للفكر الإنسانى .

ـ لا ..

هيجو ـ تقول إنك لا تريد الرد أم أنك لم تقابله ؟

ـ لم يمت سرفنتس فى الساعة التى مت فيها ..

هيجوـ لكنه مات فى نفس اليوم ولابد أنكما تقابلتما .. ماذا قال كل منكما للآخر ؟

ـ عندما يموت الإنسان يأخذ فجأة عمر كل الموتى أى الخلود .

لا يوجد فى السموات أول القادمين أو آخرهم للجميع ثانية حياة وتدوم هذه الثانية مائة مليون عام وسؤال الميت منذ متى جئت إلى السماء ؟ يتساوى مع

سؤال الشعاع : منذ متى جئت إلى الشمس ؟ فالروح أخت لا تكبرها أخت .. كل الأفئدة العظيمة توائم .. وللفكرة أبناء .. لا أحفاد اذا سألت الشعاع عن عمره قال لك : سل البرق واذا سألت البرق قال لك : سل الشعاع .. رأيت سرفنتس مرة واحدة وحياتى وحدثنى على النحو التالى ما رأيك فى دون كيخوته أيها الشاعر ؟ وكان موليير مارا فقال : هو دون جوان وقلت أنا هو هاملت فدون كيخوته يشك ودون جوان يشك وهاملت يشك ودون كيخوته يبحث وهاولت يبحث ودون جوان يبحث ودون كيخوته يبكى ودون جوان يضحك وهاملت يبتسم وثلاثتهم يتعذبون فى الجمجمة التى يمسك بها هاملت دمعتك يا سرفنتس وضحك يا موليير .. يكشر هيكل الشك تحت جمال مؤلفات ثلاثتنا نحن نصنع الدراما والله ينهيها .. أنظروا الى السماء إنها الفصل الأخير وحجر القبر الذى يفتح على أرواحنا ستار يرفع ويرينا الخاتمة .. صفق يا سرفنتس ! صفق يا موليير ! صفق يا شكسبير ! لقد أضاء الله خشبة المسرح !

وعندما سأل هيجو روح شكسبير عما اذا كان الكاتب العظيم يواصل الخلق والابداع بعد مغادرته الأرض ردت بنص شاعرى جميل جاء فيه : « يخلق البشر الحياة الانسانية ويخلق الخالق الالهى حياة السموات .

الخلق ذلك هو العمل التأمل ذلك هو الثواب .. فى الأرض يخلق كبار المفكرين للوعظ أما فى السماء فكل شىء أخلاقى .. كل شىء طيب كل شىء عادل .. كل شىء جميل ولو أنى خلقت شيئاً لما أكتملت السماء .. محكوم على بالاعجاب أنا المعجب به أنا ضائع وسط حشد المتفسرين أنا الخالق كنا جالسين متأملين أمام نور الخالد .. النور يضيئنا ويبهرنا والحياة تسحرنا وتفيض عنا ولو أنك سألتنى عما اذا كنت أخلق شيئا الا أن أنظر لا أنا أسمع .. لا أنا ذرة متنبهة أمام الفضاء الواسع .. أنا انسان عظيم يتنارل أمام اللا نهائية عدت ملاكا وهبطت صغيرا من مكان التمثال وألقيت بهالتى .. أنا حلم يقظته الموت كان الفن لى أما الان فالحب لى ترك ابداعى جناحيه فى القبر والحب فن قد بعث ويسير الفن عند باب السماء ولا يدخل منه الا الحب وحده والسعادة « مكة » خالدة يحج اليها الفن وملأها الحب .

وفى جلسة أخرى دار حديث بين هيجو والموت سأل الأول الثانى عما اذا كانت هناك وسيلة أخرى غير ما كشفت عنه الموائد لمعرفة المستقبل المجهول واضاحه ، فالتنبؤ وحده لا يكفى ولابد من شىء اخر لكى يصدق الناس ما قاله الشاعر بعد مماته ..

ورد الموت بأبيات يصعب علىّ من يقرؤها إلا أن يلمس فيها روح هيجو وأسلوبه وتحمل بصماته الى أقصى حد :

أدرس الفلك الإنسانى فهو ملآن ببذور الحقائق تستطيع أن تستخلص منها حقائق أكبر على سبيل المثال يمكنك أن تسمى بالتحديد مجموعة الكواكب فى العوالم السعيدة والعوالم الشقية حسب بعدها عن الشمس .. فقانون السماء متفق مع قانون الأرض وهذا القانون إنما هو إخلاص الكبير للصغير والطيب للشقى والعادل للظالم والفرح للحزين والمبتسم لمن يقطر دما .. إنه فداء الظلمة بالنور والفجر بالليل .. إنه حجر الصليب الشهيد يخلص حجر المشنقة الآثم .. إنه الزرع العطر يخلص الزرع السام .. إنه الحيوان القوى إنه الحيوان الرقيق يخلصان الحيوان المفترس .. إنه الإنسان البرىء يخلص الإنسان المجرم .. إنه روح نالت الثواب تخلص روحاً منيت بالعقاب .. إنه الفكرة الحقة تخلص الفكرة الزائفة .. إنه أخيراً النجم اللامع يخلص النجم الباكى وتضحيه الجنة الهائلة من أجل الجحيم .

ومن أطرف الجلسات تلك التى حضر فيها هيجو روح « النقد » وراح يسألها عن رأيها فى بلزاك وجورج صاند وفولتير والفريد دى موسيه والنقد والنقاد .

ـ من هناك ؟

ـ النقد .

ـ ألديك شىء تقوله لنا ؟

ـ نعم .

ـ تكلم ..

ـ ما رأيك فى بلزاك ؟

ـ إنه مفتاح القلب إلى أن جاء .. كان قلب الإنسان مغلقاً وكان باب روح الإنسان موارباً كان كل مع شكسبير وهيجو وجوته قد فتحوا باب الحب على مصراعيه لكن الالام الصغيرة لهذا الألم العظيم ظلت مجهولة .

وكان بلزاك المتحضر النبيل الذى أحصى أنواع اليأس لقد ألقى على روح المرأة المخدوعة نظرة عميقة حنونة .. والتقط المنديل المبتل بالدمع والشريط الذابل ، وشم الزهرة الساقطة من باقة الحفلة الراقصة ، وقبل القفاز المعطر الذى هجره الحب ولم يهجره العطر .. ورأى كل شىء فيما لا يرى ووجد كل شىء فى المجهول وسمى كل شىء فى اللا معروف ..

ـ حدثنى عن جورج صاند ..

ـ امرأة ساقطة فدت المرأة .

ـ ساقطة بأى معنى ؟

ـ فى نظر المرأة التى تفديها

ـ لنتحدث بمزيد من الوضوح .

ـ النساء يحتقرن .. صاند وهى التى رفعتهن من سقطتهن منذ بدء الخليقة كانت الامتيازات للرجل والاهمال للمرأة كان العرش للرجل .. كانت المرأة أمه عند الأقدمين ، وخادمة فى العصر الوسيط ، ومحظيته فى العهد البائد ، ومواطنة أثناء الثورة . وأنثى فى عهد الإمبراطورية .. ولسوف تكون المرأة فى المستقبل

وجورج صاند رسول مستقبل النساء لم ير بلزاك فى المرأة الا الجانب الانسانى .. أما صاند فرأت فيها الجانب الأجتماعى أيضاً .

ولقد حضر فيكتور هيجو روح المسيح عليه السلام الذى تحدث عن الثورة ـرنسية .

هيجو ـ من هناك ؟

ـ روح المسيح ..

هيجو ـ سلام عليك .. أستمر فى حديثك عن الأشياء العظيمة التى تقولها!

ـ قال دين الغالبيين آمنوا وقالت المسيحية آمنوا .. وجعلت كلماتها أجيالاً كاملة تجثو على ركبتها لكن ذات يوم دخل المعبد فجأة مجهول يلبس أثمالاً بالية مشعث الشعر حافى القدمين أسود اليدين عالى الجبين ممسكاً بعصا المستقبل الهائلة ، وكان الشحاذ هو العقل البشرى .. كان المسافر فى الفسق كان السائر فى الظلام كان المتنزة فى الهوة السحيقة .. كان راعى الأسود .. كان رعى النمور .. كان الكائن الذى لا يؤمن لكنه يفكر كان محدث الله العظيم .

كان من يفض الحقيقة .. السائل .. المتمرد .. المحارب كل الجروح على قداس السهر المشع الدامى .. حامل جرح الشك وإثر حرج الفكرة كانت له أسماء عدة أسمه موسى ، ونظرته سقراط ، وفمه لوثر ، وجراحه جاليليو وآثار جراحه فولتيير كان آتياً من الصحارى الأربعة : صحراء اسخيلوس وصحراء دانتى وصحراء شكسبير وصحراء موليير .. كان يأتى حركات تخيف الأعمدة الرخامية ويتهز قطعاً من السحاب عندما يفتح معطفه كان المتشرد الهادر الملتهب كان أشبه بالصاعقة فى طريقها إلى سدوم دخل وقال « قفوا أيها الجاثون ! أنتم تضيعون وقتكم هنا .. سيروا يا من توقفتم ! لقد بدأ العالم إلى العمل يا من ترتاحون ! الإيمان نوم والحرية يقظة أنا الفجر .. انهضى يا قبور انهضوا يا عبيد ! استيقظوا يابكم .. إلى الأمام أيتها الأشباح !. أسرعن أيتها التماثيل ونهضت الجماهير المحتشدة .. وقعد الفرسان السود وسمع صهيل ١٧٨٩ وقفز الشعب قفزة واحدة وامتطت المثل العليا صهوة الجواد .. »

أما أنيس منصور فقد استدعى فى أندونيسيا أرواح أحبائه : سعد زغلول وبتهوفن وسيد درويش ونابليون وشفيقة القبطية وسار برنار !

والسلة عادة تأخذ الأوضاع التى تناسب الروح التى تحل بها .. فعندما ظهرت روح بتهوفن اعتدلت السلة وراحت ترتجف بجنون والذين يقولون بجنون

يعرفون أن بتهوفن قد وصل إلى حالة الصمم التى أفضت إلى الجنون .. طبعاً واحد موسيقار مثل بتهوفن يصاب بالصمم لابد أن يؤدى به ذلك إلى ما يشبه الجنون أو الجنون نفسه !

وعندما استدعوا روح شفيقة القبطية يؤكدون أن السلة كانت ترقص على واحدة ونص !

وعندما ظهرت روح نابليون كانت السلة ثقيلة وشامخة كأنها مدفع ، وأحس اللذان يحملان السلة بشىء من القرف كأنهما يريان خيول نابليون تدوس حرمات المساجد فى القاهرة !

وسيد درويش عندما حل فى السلة مالت إلى جانب ثم عادت واعتدلت وتساقطت على الجانب الآخر .. وتدلى القلم من السلة كأنه الغابة التى توضع فى الجوزة .. ويستنتجون من ذلك أن صحيح أن سيد درويش كان بيتعاطى المخدرات وأن الرجل لم ينكر ذلك عندما استدعوه ! ..

والبحث عن الروح يشغل الإنسان فى كل زمان ومكان .. ذلك أنها سر الحياة التى عجز عن الوصول إليها البشر عبر السنين .. ورغم أن الروح لا تدخل فى طاقة البحث العلمى .. فلا هى شىء يستطيع الانسان أن يراه أو يمسكه أو يصنعه فى معمله ليجرى عليه تجاربه ، وكل ما يقال عنها ما هو إلا على سبيل الظن والتخمين إلا أن الإنسان مازال يحاول أن يعرف شيئاً .

بعض العلماء يقول إن الروح لها وزن ويستدل على ذلك من أن الإنسان عندما يموت يفقد جزءاً من وزنه فجأة .. والبعض الآخر ينكر أن لها وزناً .. بعض الناس يحاول أن ينكر وجود الروح .. ويسميها الزمن أو الطبيعة .. وحيرة العلماء سجلها القرآن منذ أربعة عشر قرنا .. عندما قال الله تعالى :

(ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا)

وقد جعل الله سبحانه وتعالى الروح نفساً .. فقال تعالى : (ونفخت فيه من روحى) .. والنفخ معناه إخراج الهواء من حيز الصدر إلى المنفوخ فيه إذن فإن هناك شيئاً دخل إلى جسد الإنسان .. بكلمة كن .. نفخ الله سبحانه وتعالى من روحه .. فدخل شىء فى جسد الإنسان وهبه الحياة بكلمة كن وظلت نفساً .. إذا توقف النفس .. خرجت الروح .

ولكن البحث العلمى فى مسألة الروح .. وكون أن لها وزناً أو ليس لها وزن .. نوع من العبث .. ذلك أن أحداً لا يستطيع ولن يستطيع أن يمسك الروح

ويدخلها المعمل ليجرى عليها تجارب أو يزنها ليعرف إذا كان لها وزن أم لا .. إذن الجزم بشىء هنا .. مجرد عبث لا فائدة منه !

لكنها قضايا شغلت أنيس منصور فى الستينات فهو كان يفكر فى كل ما هو مجهول من الإنسان .. وكان تحضير الأرواح هو شاغله الشاغل وشغل به الملايين من قرائه !

●●●

لو تزوج أنيس مارلين مونرو لأقدم هو على الانتحار!

استوقفتنى عبارة قالها الكاتب المسرحى الأمريكى آرثر ميللر وهو يتحدث معى عن مسرحياته قال لى فجأة : « إن انيس منصور هو الجسر الذى ربط بين مسرحى وقراء العربية بعد أن ترجم مسرحيتى « بعد السقوط » والتى سقطت بعدها من عيون القراء واتهمنى البعض بأننى كنت وراء حادث انتحار زوجتى مارلين مارلين مونرو . والحقيقة أنها ماتت لأنها من الطبيعى أن تموت بعد أن فقدت عقلها واستنزف المنتجون والمخرجون دمها ولحمها وهانت عليها الحياة فانتحرت .

فقلت له إن أنيس منصور اتهمك بأنك فتحت باب القفص الذهبى لحمامة جميلة فوجدت نفسها مع نسر شرس فى يده مشرط أو سيف يسميه قلماً فضحك آرثر طويلاً قبل أن يقول لى : لو تزوجها أنيس منصور لأقدم هو على الانتحار .. مفضلا الموت على الحياة مع العنقاء !

ولقد ترجم الكاتب الكبير أنيس منصور العديد من المسرحيات لأشهر كتاب المسرح العالمى على رأسها مسرحيات الكاتب السويسرى فريدريش ديرنمات وكانت أولها رومولوس العظيم ثم مسرحية الشهاب ثم مسرحية سلطانة زمانه المأخوذة عن مسرحية هبط الملاك فى بابل ومسرحيات أخرى ترجمها مثل « الإمبراطور جونز » للكاتب الأمريكى يوجين اونيل ومسرحية « سواد عينيها » للكاتب الفرنسى جيرودو ومسرحية « أمير الأراضى البور » للكاتب السويسرى ماكس فريش وترجم مسرحيات قصيرة للأديب الفرنسى يوجين يونسكو ومسرحيات قصيرة للأديب الإسبانى ارايال ومسرحية « الأستاذ تاران » للكاتب الفرنسى أواموف

وقد التقى أنيس منصور بالكاتب الألمانى فريدريش ديرنمات مرات عديدة قبل وبعد أن ترجم مسرحياته ، ويتميز ديرنمات بأنه متعدد المواهب فهو يكتب الشعر والنقد فضلا عن مسرحياته العديدة والتى أشهرها « زيارة السيدة العجوز » والتى مثلت على كل مسارح الدنيا بكل لغة .. وقد ولد فريدريش ديرنمات سنة ١٩٢٢ فى قرية كونولنجين فى مقاطعة بيرن وكان أبواه قسا بروتستانيا ودرس الاداب واللا هوت فى جامعة زيورخ ، ثم أنصرف بعد ذلك للتأليف ومن حسن الحظ أنه لم يجر فى طريق الابسوردية أو اللا معقول بل أنشأ أدبه على الأصول التى تواضع الناس عليها منذ عرف الناس الإنشاء الأدبى ، وهى أن يكون الكلام واضحاً مفهوماً والأفكار إنسانية أو مقبولة عند الناس على الأقل .. ولذلك فأنت لا تعانى معه ما يعانيه مع الكثيرين ممن يكتبون فى عصرنا وبخاصة صمويل بيكيت وكارل تسوكماير وهذا أحد الأسباب الرئيسية التى دفعت الكاتب أنيس منصور لترجمة مسرحياته ، وديرنمات كان ملاصقا لكتف الدكتور حسين مؤنس وزميلاً له فى كلية الآداب بجامعة زيورخ يستمعان إلى المحاضرات الأدبية التى كان يلقيها الفليسوف اميل اشتايجر والذى تنبأ لديمرنمات بالمستقبل الادبى العظيم وبأنه سيصبح كاتباً كبيراً فى يوم من الأيام بعد أن قرأ له مقالاً ممتعاً فى مجلة « الفيلت فوخه » .

أما مسرحية « هبط الملاك فى بابل » لديرنمات فهى من الأعمال العالمية الهامة حيث إنها تلقى الضوء على مشاكل الإنسان وتطلعاته وما يتحكم فى مسرحياته ، فالمسرحية تجعلك تضحك وتفكر فى آن واحد وتقف بك لحظات أمام التأمل الفلسفى والمسرحية ترجع بك عبر التاريخ الطويل إلى مدينة بابل فى عصر الملك البابلى بختنصر ولكنك تحس أن أحداثها تدور بك فى العصر الحديث ، ففى هذه المسرحية نجد رجلاً شحاذاً رفض أن يلتحق بأى وظيفة أخرى ، فالدولة التى يعيش فيها قررت القضاء على التسول ولكنه أصر على أن يبقى متسولاً وحاول الملك الذى كان يحكم بابل والذى كان يبغضه اليهود فى كل العصور لأنه قتل منهم عشرات الألوف .. حاول الملك إقناع هذا المتسول عن طريق القضاء والشرطة ولكن دون جدوى .. أصر على أن يعيش فى صندوق قمامة على نهر الفرات !

وأضطر الملك أن يذهب إليه بنفسه لإقناعه .. ارتدى ملابس وأثمال مهلهة ، وفى هذه الأثناء هبط ملاك من السماء ومعه رسالة .. هذه الرسالة عبارة عن فتاة جميلة .. جميلة للغاية .. إن السماء قررت أن تكون هذه الفتاة الجميلة هدية لأفقر إنسان فى العالم .. فهذه الفتاة من نصيبه بالطبع ولكن عندما نزل الملاك على الأرض وجد هناك شخصين يلبسان ملابس الشحاذين .. شحاذ بابل .. والملك الذى ارتضى أن يلبس ملابس الشحاذين ونظر الملاك إلى الخريطة التى

معه في دهشة ، فالتعليمات التى عنده تؤكد أن هناك شحاذاً واحداً ولكنه وجد فى بابل اثنين !

وبسرعة نجد هذين الشحاذين قد دخلا فى مباراة للتسول أيهما أقدر على الشحاذة ومن الطبيعى أن يفوز شحاذ بابل إنها مهنته وحرفته الذى عاش من أجلها ، وبالطبع فشل الملك وهذا معناه أن الفتاة ستكون من نصيب الملك الشحاذ لأنه عاجز عن الكسب .. فهو إذن أفقر إنسان فى العالم وتدور معارك بين الملك والشحاذ وبين الفتاة والملك ، ويتهافت الناس فى كل مكان على الفتاة الجميلة الفاتنة .. إنهم يريدون أن يخطبوها لأنفسهم .. كل منهم يعرض عليها المال والجاه والذهب والمجوهرات الثمينة ولكنها أحبت الملك الشحاذ دون أن تعرف أنه الملك كما أن أهالى بابل قد شاهدوا الملاك وعرفوا الحقيقة فارتبكت الحياة فى المدينة .. وانصرف الناس من كل شىء إلا عن قضية الملاك والجمال هذه الفتاة ، ويحاول الملك أن يهدىء من ثورة الناس ولكن دون جدوى ، ويقف عاجزاً حتى عن إقناع الفتاة أنه ملك المدينة وأنه قد تنكر فى زى الشحاذين ولكنها ترفض على أن يظل شحاذاً ويتنازل الملك عن العرض وسط توسلات الوزراء للفتاة لكى تعدل عن طلبها الغريب ! لكنها ترفض بإصرار ويطلب الملك من أهل المدينة أن يتقدموا للزواج من تلك الفتاة الجميلة ويسارع الناس إليها ولكن عندما تطلب منهم أن يتنازلوا عن أموالهم وثرواتهم وتكون مهنتهم هى الشحاذة يرفضون ويضطر الملك إلى طردها ومعها شحاذ بابل إلى خارج المدينة .

ومعنى ذلك أن المدينة عندما أرادت أن تدافع عن عادتها وتقاليدها رفضت هدية السماء ، إنك تحس هذه المواقف الساخرة والمضحكة التى برع الكاتب السويسرى فى نسجها فمثلا من المواقف الغريبة أن من قوانين بابل أن يكون الملك السابق نائماً تحت أقدام الملك الحالى .. فيظل الملك طوال الوقت جالساً على المقعد وقدماه على ظهر الملك السابق .. وقد حدث أن أصدر الملك قراراً بسجن الملك السابق فطلب الوزراء أن يدخل معه السجن حتى يضع قدمه على ظهره .. وعندما أراد تغيير هذه المادة حتى يجنب نفسه السجن رفض الوزراء باعتبار أن مواد القانون كلها لابد أن تتغير إذا تغيرت هذه المادة !؟

فالمسرحية تنعش عقلك وقلبك وتؤكد مقولة مؤلفها « .. إننى أكتب دائما للذين إذا استمعوا إلى محاضرات فى الفلسفة أغرقوا فى النوم .. إننى أكتب فقط إلى الذين يشاركوننى فى أنه من الممكن إنقاذ الإنسان من أنياب الإنسان »

أما مسرحية « زيارة السيدة العجوز » فتدور أحداثها حول فتاة أحبها بقال ، ولكنه خدعها بعد أن غرر بها وحملت منه وتوسلت عند قدميه أن يتزوجها ، ولكنه رفض فى صلف وغرور بعد أن لفق لها تهمة أنها كانت على علاقة

بآخرين ، وطردت من المدينة بعد أن فضحها وولدت طفلها الذى مات بعد ذلك وعرفت الكثيرين وتزوجت عدة مرات واستقرت أخيراً مع أحد ملوك البترول .. لكن الانتقام مع ذلك لا يزال يجرى فى دمها وعروقها ولابد أن تعود يوماً لتنتقم من الرجل الذى وهبته كل شىء ولم تأخذ منه إلا الفضيحة والعار .. عادت إلى المدينة فوجدتها منهارة .. فى ضائقة مالية وكساد اقتصادى ، ومن المؤكد أن أهل المدينة يريدون أن يطلبوا معاونتها المادية ووافقت هى على المساعدة المادية بشرط أن تحكم المدينة كلها بالإعدام على هذا البقال الذى تزوج فتاة أخرى فى مال أبيها ، وحكمت المدينة على الرجل بالإعدام فى سبيل أن تنقذ نفسها من الأزمة الاقتصادية ، وعندما تقرر المدينة بالإجماع أن الرجل يستحق الموت تتقدم المليونيرة وتحكم بالبراءة وهى فى الحقيقة لم تحكم له بقدر ما حكمت عليه لأن البراءة نوع من العقاب .. إنها أقسى من الإعدام ، وكانت هذه اقسى نكته أطلقها ديرنمات على ألمانيا وموقف امريكا بعد الحرب ، فأمريكا جاءت تحاكم ألمانيا والشعب الألمانى هو القاتل والقتيل معاً .. أما أمريكا فهى هذه العجوز الشمطاء !

ولقد ترجم أنيس منصور أيضا لنفس المؤلف مسرحية « رومولوس العظيمة » إنها مسرحية كوميدية أو يمكن تسميتها مهزلة ، ويمكنك أن تقول إنها تهريج ولقد وقف ديرنمات يقول للممثلين وللمخرج قبل أن يبدءوا البروفات : هذه كوميدية صعبة وصعوبتها فى أنها تبدو سهلة !

وقد صدق ديرنمات فيما قال وفيما كتب فرومولوس هذا أدرك أن بلاده متعفنة وأن السوس ينخر فى عظامها ، لذا فإنها يجب ألا تعيش ويجب أن تفتح أبوابها على مصراعيها استسلاماً للحرمان !.

لذلك نرى الإمبراطور رومولوس يجرد دولته من أى سلاح وأية وسيلة من وسائل الحياة وعندما تتقدم قوات الجرمان لتمثل روما فإنه لا يخاف ولا يهرب ولا يندهش من تلك الصيحات التى كانت تصيبه فى وجهه « الخائن لوطنه » و « العار على وطنه ! » إن هذا الإمبراطور هو رمز للشجاعة فى زمن الخوف والرهبة .. إنه يصفع المجتمع كله كى يفيق من الغيبوبة التى يعيش فيها .. استطاع أن يواجه المواطنين فى روما بفداحة الكارثة .

إن الذى يقرأ مسرحيات شكسبير لا يجد فيها ملكاً واحداً مضحكاً .. فكل ملوك المسرح القديم يبحثون عن الحزن والخوف .. كلهم أغبياء أو أشرار ولكن ليس بينهم واحد فقط يبعث على الضحك ، ولذلك كانت الكوميديا هى الصورة الوحيدة التى تناسب العصر الذى نعيش فيه .. لأن الكوميديا تنبع مع اليأس من وضع قائم .. فالكوميديا هى وحدها القادرة على تعميق الأزمة تمهيداً لحلها .. فقد يكون الضحك فى وجه الأحداث سبباً مباشراً لازلتها .

أما فى مسرحية « الشهاب » فيتناول ديرنمات معجزة إحياء السيد المسيح للعازر بعد وفاته بأربعة أيام كما جاء فى « إنجيل يوحنا » يتناول ديرنمات هذه المشكلة ويناقشها ما الذى يحدث لو أن إنساناً لم يستطع أن يموت ؟

إن هذا الأديب ـ هو أديب حائز على جائزة نوبل فى الأدب مات أو حاول أن يموت فلم يستطع فهو كالشهاب لا يحترق ولكن يحترق كل شىء من حوله ، وكأن أعمال الكاتب ومؤلفاته هى هذا الشهاب .. قد يحترق شخصه المادى من حوله لكى يبقى الأساس وهو شخصه المعنوى .. الأدبى .. إبداعه .. فنه لا يستطيع الموت أن يعدو عليه أبداً يظل كالشهاب نوراً مبهراً وناراً لا تنطفىء !

والحقيقة أن الكاتب الكبير أنيس منصور قد أثرى حياتنا المسرحية بهذه الترجمات الرائعة التى نقلت إلينا فكر أقطاب المسرح العالمى ، وقد تميزت ترجمته بأنها نقلت إلينا روح النص المسرحى الحقيقى ، فلاشك أن ترجمة المسرح من أصعب أنواع الترجمة إن لم نقل أصعبها جميعاً لأنها بعكس ما يتصور الكثيرون ليست مجرد نقل من لغة إلى لغة أو مجرد إجادة للغتين المنقول منها والمنقول إليها .. وإنما هى أولاً وقبل كل شىء شغف دائم وحقيقى بالمسرح يترتب عليه فهم مقتضياته وفهم لغته .. فهم الكلمة التى يمكن أن تقال والكلمة التى لا يمكن أن تقال .. فهم الفعل الذى يمكن أن يؤدى والفعل الذى لا يمكن أداؤه .

ومع ذلك فإن ترجمة المسرحية ليست استبدال كلام بكلام بقدر ما هو استبدال كلام بأقوال وأفعال .. أقوال تقال وأفعال تؤدى بحيث يتحول النص فى يد المترجم إلى كائنات حية تنبض بالحياة وبحيث يترجمه فى سليقته شعوراً قبل أن ينقله على الورق ألفاظاً فينفعل به كما لو كان قطعة من حسه وضميره . .

ومن هنا كانت ترجمة المسرح ما يسمح فيها ببعض أنواع التجاوز التى لا يسمح بها فى غيرها من أنواع كأن تكون لغة الترجمة أقرب إلى لغة التخاطب منها إلى اللغة الفصحى .. كأن يضحى بالكلمة الأكثر دقة فى سبيل الكلمة المسرحية أو الأقرب إلى المسرح وكأن يتجاوز عن قواعد النحو فى بعض الأحيان فيقدم الفاعل على الفعل مجاراة للغة الحديثة ، وكأن يحتفظ ببعض الألفاظ الأجنبية دونما تعريب محافظة على الجو العام للمسرحية ، فكما يجب النظر وإعادة النظر فى المسرحيات التى تترجم يجب النظر وإعادة النظر فى الشخص الذى يترجم فيعمل الحساب لاهتمامه بالفن المسرحى وانشغاله به وحتى تكون ترجمته ترجمة مسرحية وليست ترجمة والسلام !

والحقيقة أن اختيارات أنيس منصور فى ترجمة المسرح العالمى كانت كلها اختيارات موفقة عرف من خلال جمهور المسرح المصرى كل التيارات

والمدارس المسرحية دون الوقوف عند مدرسة وحيدة بعينها .. فلم يكن الهدف من وراء ترجماته هو جذب الجمهور وترغيبه فى المسرح ، ولكن كان هدفه الأسمى هو تربية جمهور المسرح تربية درامية وتدريبه على الحس المسرحى ، والفرق بين الهدفين كبير وهو أن الجمهور فى الحالة الاولى يتجه إلى المسرح بنفس السرعة التى ينصرف بها عنه مادام الأمر ليس عملية تكوين وتربية ، وإنما عملية اجتذاب قد لا تكون لها علاقة بالفن الدرامى أو المسرحى مثل تخفيض ثمن التذاكر والإستعانة بنجوم السينما ومسرحه روايـــات لكتاب لامعين وتعبئة المسرحية بألوان الغناء والرقص والتوابل الحراقة من إيماءات جنسية وخلافه تماما ، كما يحدث فى مصر فى الآونة الأخيرة والمسرحيات المترجمة هى الأخرى إن لم يرع فى ترجمتها اعتبارات كثيرة انقلبت فائدتها ضرراً مع أنها أفضل غذاء يمكن أن يقدم لجمهور المسرح فى هذه الفترة لأنها وحدها الكفيلة بتنمية هذا الجمهور وتوعيته بالفن الدرامى الصحيح ، وربما كان اختيار المسرحيات التى تترجم فى طليعة هذه الاعتبارات ذلك لأن المشكلة التى يعانيها قارىء اليوم ليست قلة المسرحيات المترجمة بل كثرتها .. أعنى أن مشكلته ليست مشكلة احتياج وإنما هى مشكلة اختيار .. اختيار المسرحية التى يقرؤها أن يشاهدها فيحس فعلاً أنه قد تناول وجبة غذائية ولم يكن يمضغ لباناً ! .. لهذا كان الكاتب الكبير أنيس منصور مدققا فى اختيار مسرحياته بما تحمل من فكر عالمى خالد .. وأسلوب .. هو عدسة مقربة فاحصة لجزئيات المسرحيات الأصلية .

ومعظم ما يبهر الكاتب أنيس منصور من المسرحيات التى ترجمها هى المسرحيات ذات الطابع الفلسفى الضاحك .

والحقيقة أنه فى الوقت الذى نكاد نجمع فيه على اللغة التى نترجم بها المسرحيات التراجيدية لم نكد نتفق بعد على اللغة التى نترجم بها المسرحيات الكوميدية ، تلك التى ترتكز على المفارقة اللفظية وتقصد أساساً إلى إشاعة جو الضحك فى بيئة بعينها وبين الجمهور بالذات ، ولذلك نجد أن اللغة الفحصى تعجز عن نقل روح الفكاهة وهى الركيزة المحورية التى تدور عليها أحداث المسرحية الكوميدية ، فاللغة الفصحى تقتل ما فى الكوميديا من عفوية وتجمد ما فيها من تلقائية وتؤذى إحساس الجمهور بالنكتة وتعطل إعجابه بالقفشات . أما اللغة العامية فقادرة على الوفاء بهذا كله لأنها ليست مجرد قالب يصب فيه مضمون العمل الفنى بل هى جزء أصيل فى بنية المسرحية وعنصر داخل فى صميم البناء المسرحى فضلا عن أن الحركة فى المسرحية الكوميدية تكاد تتوقف على تلك اللغة بحيث تتحدان وتصبحان شيئاً واحداً ، وأمامنا مثال من هذا القبيل مسرحية « الرجل الذى حضر للعشاء » للكاتبين الأمريكيين جورج كوفمان ومدس هارت ، وهما يشبهان عندنا نجيب الريحانى وبديع خيرى فعندما

ترجمت هذه المسرحية باللغة الفحصى فقدت الكثير من طرافتها وافتقرت إلى ما تمتاز به روح الفكاهة ، أما عندما ترجمت مسرحية فكاهية أخرى لنفس هذين الكاتبين وهى « ما حدش واخد منها حاجة » مع استخدام اللغة العامية فى الترجمة لم يفقد الأصل كثيراً من معناه ..

وهكذا نجد أننا فى مسرحيات أنيس منصور المترجمة تقابل لغة التخاطب المثلى هى أساس نقلها إلى الجمهور نحن فى مسيس الحاجة إلى ترجمة مسرحيات النوع الكوميدى بهذا الأسلوب الرائع .

إن الترجمة علاوة على أنها خدمة تؤدى إلى قرائنا الذين لا يعرفون أو لا يستطيعون أن يتذوقوا الكتب الأجنبية فى لغتها الأصلية ، إنما تدعو المترجم إلى التوقف أمام قيم ومثل عليا كان يمكن أن تفوته لو لم يقف أمامها وقوف شحيح ضاع فى التراب خاتمه !

إن كل مترجمات أنيس منصور المسرحية تعتبر إضافة جديدة إلى القارىء والمشاهد المسرحى المصرى والعربى بعدها انطلق أنيس إلى الإبداع المسرحى والتى بدأها بمسرحية « الأحياء المجاورة » التى كتبها سنة ١٩٦٢ وعرضت على المسرح الكوميدى وأخرجها جلال الشرقاوى الذى عرض على أنيس منصور فى البداية أن يقوم بدور البطولة ولكنه رفض رفضاً قاطعاً ، بل رفض أن يصعد على المسرح لتحية الجمهور مع حمدى غيث وسناء جميل بعد نهاية العرض ونجاح المسرحية نجاحاً منقطع النظير -- رفض أن يصعد على المسرح لإيمانه المطلق بأن الكاتب المسرحى تنتهى صلته بمسرحيته بمجرد الانتهاء من كتابتها ووضع كلمة « ختام وتسدل الستار » فهو يسدل الستار على كل علاقة له بمسرحيته وإلا لكان مباحاً للكاتب المسرحى أن يصعد إلى المسرح أثناء مسرحيته ، ويجلس على خشبة المسرح أو يمر من أمام الممثلين بدعوى أن المسرحية مسرحيته هو -- وأنه صاحب الحق فى أن يفعل فيها ما يشاء طالما أنه مؤلفها -- ولو حدث ذلك افتراضاً لكان هذا خروجاً على النص !

وكان آخر عهد أنيس منصور بالتمثيل وهو فى السنة الثانية ابتدائى مثل دور « معن بن زائدة » الذى يواجهه أحد الأعراب ويحاول أن يثير غضبه فلا يغضب لأنه من أشهر القادرين على التحكم فى أعصابهم -- فكان رجلاً حليماً وكان يبدأ المشهد بأن يقول الأعرابى :

أتذكر إذا هابك جلد شاة
وإذا نعلاك من جلد البعير
فسبحان الذى أعطاك ملكا
وعلمك الجلوس على السرير

فيرد أنيس منصور عليه : سبحانه وتعالى يعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير إنه على كل شىء قدير ..

فيقول الأعرابى :

سأرحل عن بلاد أنت فيها
ولو جار الزمان على الفقير

فيرد أنيس : إن جاورتنا فمرحبا بإقامة وإن غادرتنا فمصحوباً بالسلامة .

ولم يظهر من يومها أنيس منصور على المسرح فهو خجول جداً .. لا يستطيع ان يواجه الجمهور .. فمن الصعب أن يضع عينيه فى عيون جمهور المسرح بعد انتهاء مسرحيته !

لكن كانت لديه الشجاعة فى أن يواصل الاستمرار فى الكتابة للمسرح خاصة بعد نجاح مسرحيته الأولى « الأحياء المجاورة » التى قام ببطولتها لمدة ثلاث ساعات : حمدى غيث وسناء جميل .. اثنان فقط ولم يظهر أحد على المسرح وإن كان الاثنان يتوقعان دائما مجىء الآخرين .. فى انتظار ما لم يجىء .. تماما مثل مسرحية « فى انتظار جودو » لصمويل بيكيت .. الجميع فى انتظار جودو الذى لا يأتى أبداً

وأنيس منصور كان ينوى أن يقوم ببطولة المسرحية مثل واحد فقط وكان يكتب هذه المسرحية للتليفزيون وبعد تفكير أراد أن يلعب بطولتها أثنين .. والحقيقة أن كل واحد لوحده .. فمثلا فى مسرحية « الكراسى » الزوج يتكلم والزوجة ليست إلا صداه .. ولكن فى مسرحية « الأحياء المجاورة » نغمتين فى لحن عنيف .. أحيانا رقيق وأحيانا يبدو هذا اللحن كأنه طلق نارى .. اثنان يعانيان مشكلة واحدة .. زوجان تزوجا عن حب ، وتعرض هذا الحب لما تتعرض له الحياة الزوجية عادة من ملل وسام وليست الخناقات والمشاكل الموجودة فى الأسرة إلا ضرورة يحتمها الفرار من الملل والبحث عن شىء ما يجدد الحياة الرتيبة ولو كان حادث مثيراً .. وتصبح هذه الخناقات والمشادات بين الزوجين أشبه ما تكون بالأحجار التى تلقيها فى بحيرة راكدة لتنساب بعدها الحياة بين الزوجين فى سهولة ويسر !

ثم جاءت بعدها مسرحية « حلمك يا شيخ علام » وتقوم المسرحية كلها على ادعاء أحد الشيوخ الذى نعلم فيما بعد أنه ليس شيخاً ولا يمت لرجال الدين بصلة !

ويدخل الشيخ علام فى علاقة جديدة مع أسرة بعد أن يوهم كل من فيها بأنه يعرفهم جميعاً بالاسم ويدلل على ذلك بأفعال ومواقف ، ويؤكد لهم الشيخ علام بأنه قادر على أن يحلم فى أى لحظة بما يحدث فى المستقبل ، ويتنبأ بفشل زواج فى الأسرة ولكن سرعان ما يكتشفون ألاعيبه فى النهاية وأنه لا يعدو أن

يكون شيخاً أجيراً من قبل أحد المقربين من الأسرة وأن الخادمة مبروكة هى التى كانت تخبره بالأحداث الجارية فى المنزل .

وتدور أحداث هذه المسرحية من خلال حبكة كوميدية بها كثير من المفارقات الغريبة فهى تدخل فى عداد « كوميديا الموقف » كما تضم بين جوانبها سخرية كثيرة مريرة من الأحلام والخرافات ولمحات من علم النفس والدراسة الشخصية المصرية ، كما تضم بالطبع خفة دم الكاتب أنيس منصور والحيوية التى تميز جميع أعماله .

ثم مسرحية « مين قتل مين » التى قام ببطولتها الفنان أمين الهندى الذى قام ببطولة « حلمك يا شيخ علام » أيضاً .

« ماتش كرة على المسرح » هكذا كان ذكاء أنيس منصور فى مسرحيته « مين قتل مين » .. جريمة تقع . بواب العمارة يبلغ الشرطة .. المفتش يصل ليعاين الجريمة .. الجثة تختفى .. التحقيق يجرى .. كل واحد يمكن أن يكون القاتل .. الاتهام ينتقل بسرعة كما تنتقل الكرة بين أقدام اللاعبين .. البواب يقوم بدور اللاعب والحكم فى آن واحد .. ثم يظهر القتيل .. إنه حى .. ولكن آثار الجريمة مازالت موجودة .. هناك دم وهناك سلاح .. ولا ينقص إلا القتيل وتستمر المسرحية .. أحداث متلاصقة وغير متوقعة .. تماما كما يحدث فى ملعب الكرة .. الجمهور فى المدرجات يقظ جداً .. وفى حالة توتر وتوقع باستمرار .. إنه لا يعرف ما قد يقع فى اللحظة التالية .. هكذا نجح أنيس توتر وتوقع باستمرار .. إنه لا يعرف ما قد يقع فى اللحظة التالية .. هكذا نجح أنيس منصور فى مخاطبة وجذب اهتمام المشاهدين .. وربطهم بما يجرى أمامهم كما نجح فى أن يظل متحفظاً بالنتيجة النهائية حتى آخر دقيقة من المسرحية وهو فى الوقت نفسه الميقاتى الوحيد فى المسرحية مثل حكم المباراة .. تماما كما يحدث أثناء « الماتش » حتى النكت والتشبيهات كان يستعيرها من جو الكرة .. لقد كان البواب يلبس صديرياً رسم على بطانته ملعب كرة .. وكان كلما أعياه لغز من ألغاز الجريمة يخلع الصديرى ويفرشه على الأرض وينظر فى الملعب المرسوم محاولاً أن يحل اللغز .. وقد تميز البواب بأنه كان يقوم بدور اللاعب والحكم الأمر الذى أوجد بينه وبين المفتش صراعاً زاد من دوره وحيويته .. وكان الأمر يصل به أحيانا إلى أن يأخذ مكان المفتش ويبدأ استجوابه .

لقد كانت مسرحية « مين قتل مين » على المسرح .. هى أنيس منصور نفسه .. شخصيته التى نعرفها .. خفة ظله .. لمعان ذهنه .. طريقته فى التعليق والنكتة التى تعبر عن فكره والسخرية التى تعبر عن فلسفته .

« التهمة فى إيد البواب .. خدها من المفتش .. المفتش شاطها جت فى أنور .. أنور بيسلمها لبهية .. قطعها عليهم البواب .. ضربها هيد .. جت فى

فهمى .. فهمى ردها له .. البواب شاطها .. شوطة طويلة .. يا خسارة .. جت فى الخشبة .. المفتش بيشد شعره .. فين القتيل .. فين القاتل .. فين الأدلة .. الأدلة مع البواب .. خدها منه أنور .. شاطها جامد .. طلعت أوف سايد ؟ »

فالحدث هنا يتطور من موقف يبدو طبيعياً ولكن فى الحقيقة ينبنى على خداع النظر ، والحدث يسير إلى نهايته فى تسلسل قد يبدو غير منطقى ، ومع ذلك فالترابط بين مراحله المختلفة ترابط ضرورة لا صدفة .. وهكذا تودى السخرية الكامنة فى البناء إلى مزيد من السخرية فى نسيج المسرحية .. فالبواب هو المحرك للأحداث وهو محور الفكاهة -وبه كل المتناقضات الموجودة فى المجتمع والتى يعلق هو عليها ساخراً متفكهاً طول الوقت .. ولكن كل هذا لا يكفى لكى يقربنا من فهم المسرحية وتذوقها ..

فلكى يتحقق لنا هذا نحن بحاجة إلى أن ندرك أن هذه المسرحية لا تمثل ولا تعطينا قطعة أو صورة من الحياة .. ومعنى هذا أنها مسرح أولاً وقبل كل شىء .. وأن أحداثها تخضع لهذا المنطق وحده وليس لمنطق الأشياء .كما تحدث فى الحياة .. كل الأدلة تشير إلى هذا فى داخل المسرحية ذاتها .. نهايتها والكثير من حوارها بل الشخصية الرئيسية فيها التى هى شخصية مسرحية لا تتمشى مع منطق الواقع فى الكثير أو القليل مما تقول أن تفعل ..

هذه المسرحية سمة من سمات المسرح الحديث ، فلقد زال الحائط الرابع ولم يعد المسرح يحاكى المنطق المألوف للأشياء ، بل لقد أصبح فى الحقيقة يناقضه .. وهذه حقيقة يدركها أنيس منصور بمعاصرته الثقافية ويميل إليها بمزاجه الفنى الذى يأبى إلا أن يأتى دائما بالجديد ..

وفى المسرحية أيضا أكثر من لمسة عبثية فأكثر شخصياتها مجردأشخاص بل الشخصية الرئيسية فيها لا يمكن أعتبارها شخصية بالمعنى المألوف فى المسرح .. والمسرحية بعد ذلك لا تحكى قصة بل ترسم لوحة - لولا تغير الألوان التى تضفى عليها من وقت لآخر - لقلنا إنها لوحة ثابتة ، ثم هناك التلاعب باللفظ وهو من سمات المسرح العبثى ..

إن الطريق الوحيد إلى تذوق الأعمال الفنية هو أن تراها كما هى على حقيقتها على حد تعبير الكاتب المسرحى د . رشاد رشدى .. وبالنسبة لهذه المسرحية أعتقد أن السبيل إلى هذا هو أن تظل عليها من هاتين الواجهتين لا أن نقيسها بمقاييس تقليدية .. فأنيس منصور فى المسرح كما فى غيره من ألوان - ليس كاتباً تقليدياً .. ولكن كاتباً متفرداً بحواره الذكى السريع وروح الفكاهة .

الخلاف المستور بين

عبد الناصر وأنيس منصور !

استدعى مدير مكتب كمال رفعت الوزير الشيوعى وكان أيامها مشرفاً على أخبار اليوم الكاتب الصحفى أنيس منصور .. ودخل أنيس المكتب وسط نظرات الحسد مع زملائه الذين كانوا يراقبونه .. وطلب له على غير العادة فنجاناً من الشاى وتناقشا فى موضوعات كثيرة وقد تهامس زملاؤه خارج الحجرة بأن أنيس امضى عند مدير مكتب الوزير أكثر من خمس دقائق ، وأقسم آخرون بأنه أمضى أكثر من سبع دقائق ! وهذا رقم قياسى .. فقد كان المألوف فى ذلك الوقت ألا يذهب أحد إلى مكتب المدير .. وإنما يجىء سكرتير المدير فيخبر رئيس السعاة الذى طلب إلى أحد السعاة أى رئيس تحرير إلى مكتب السيد السكرتير ليجلس وبعد ذلك يعتذر له عن انشغال السيد المدير ، ولكن أنيس جلس أكثر من سبع دقائق !

وكانت هذه الدقائق كافية لأن يذهب السيد السكرتير ومعه رئيس السعاة إلى مكتب أنيس منصور ويفتشاه ثم يغلقاه بالشمع الأحمر .. وعندما تم لهما ذلك اتصلا بالسيد المدير وأخبراه بذلك فى اللحظة التى كان قد فرغ فيها أنيس منصور من شرب الشاى ليسمع منه أصعب كلمات سمعها فى حياته والتى خرج بعدها من أخبار اليوم إلى الشارع بلا عودة ! فهذه هى التعليمات الصارمة !

وخرج أنيس إلى الشارع ولا شىء فى أذنه إلا أغنية عبد الحليم حافظ : راح .. راح أما السبب فهو مقال كتبه أنيس منصور فى يوميات الأخبار بعنوان « حمار الشيخ عبد السلام » بتاريخ سابق على ذلك بأيام ، والمقال يقول : إن أحد الولاة فى سوريا ضاق بثناء الناس على علم وفضل قاضى قضاة دمشق ، فأمر بعزل قاضى القضاة وتعيين حمار الوالى قاضياً للقضاة ! وذهب الحمار إلى المحكمة وأحنى الناس رءوسهم للقاضى الجديد !

وجاء سكرتير تحرير الأخبار ووضع صورة الرئيس عبد الناصر فى مقال أنيس !

وكان على مكتب جمال عبد الناصر نفس المقال مع تأشيرة من على صبرى تقول : هذا هو المقال وفى انتظار أوامركم !

ونفس المقال مع تأشيرة من المخابرات العامة تقول : وفى أنتظار أوامركم !

وكان جمال عبد الناصر فى طريقه إلى الجزائر وأنيس منصور فى طريقه إلى الشارع ، وظل ينتقل من شارع إلى شارع ومن بيت إلى بيت سنة كاملة ! فقد صدر أمر بطرد أنيس من أخبار اليوم ووقف مرتبه ومنع صرف أى معاش له ومنع أى مطبعة من طبع أى كتاب له ، ومنعه من الإذاعة والتليفزيون ، ومنعه من أن ينشر مقالات فى أى جريدة خارج مصر وملخص القرار العجيب أن يموت أنيس منصور جوعاً !

لقد كتب أنيس منصور بعدها كتاباً عن جائزة نوبل يربو على ألف صفحة ولم ينشر أسم أنيس منصور على الغلاف وهو أبسط حقوقه الأدبية كمولف ، ولكن اكتفى بكتابة اسم المؤلف بعد كتابة المقدمة صغيراً جداً .. كان اسمه مكتوب ببنط تسعة أبيض ! وهو ما يغضب محرر تحت التمرين إذا ما وضع اسمه بهذا البنط على خبر من ثلاثة سطور !

وحتى لا يعتقد أن هناك خطأ مطبعياً سأعيد عليك تلك العبارة « إن كتاب أنيس منصور عن جائزة نوبل كان يزيد على ألف صفحة ! »

وكان من الصعب على أنيس منصور أن يتعامل مع أحد .. ووجد أن الحل الوحيد هو ألا يراه أحد وألا يرى أحداً فالناس يخافون .. إنهم أكثر خوفاً من أنيس نفسه .. لأن عشرات الأنواع من التهم من الممكن أن تودى إلى فصل أى إنسان من عمله .. التآمر على قلب نظام الحكم .. والشيوعية والتجسس .. والتآمر على جمال عبد الناصر ..

وكلها كالأمراض المعدية .. تنتقل بمجرد اللمس أو بمجرد التفكير فيها ! ولهذا قرر أنيس منصور أن يبعد حتى لا ينقل العدوى إلى أى أحد ..

وفى ذلك الوقت سمع أنيس منصور من على أمين هذه العبارة : لا تمتحن أحداً الآن وإلا فقد كل الناس !

ولم ينس أنيس هذا المعنى ففى هذا الوقت بالذات ما كان يصح أن يحاسب الناس على خوفهم منه وحرصهم على الابتعاد عنه فهم معذورون ، فهو لم يكن على خلاف مع وزير ويرجو عطف رئيس الجمهورية !

ولكنه على خلاف مع رئيس الجمهورية شخصياً !

أما أصدقاؤه فى الإذاعة فقد رفضوا أن يتعاملوا معه .. فقد كان يكتب قصة ويقرؤها المذيعين فقالوا له : نأسف !.. فطلب أن يعمل دون أن يعرف أحداً اسمه فقالوا له أيضاً نأسف !

وذهب إلى ناشر صديقه وعرض عليه كتابه « أقصر طريق إلى سعادتك »
فقال الناشر : سخرية من السعادة ؟
فرد أنيس : إنه كتاب جاد .. دراسات نفسية وقصص عاطفية تاريخية ..
فقال الناشر : وهل يصدق الناس أنك لا تسخر من جمال عبد الناصر . ؟
فقال أنيس : لا علاقة للكتاب بالسياسة .

فرد الناشر : وكيف أقنع الناس بذلك .. ثم كيف يصدر لك كتاب الآن وأنت تتآمر على الحاكم .. أنت تعرف أن جمال عبد الناصر لا يرحم .. وأنت لا يرضيك أن أمشى معك فى نفس الطريق وأتسول .. أنا صاحب عيال .. وأنت ولله الحمد لا عندك زوجة ولا أولاد .. خفيف .. اذهب الله يحنن عليك إنت من سكة وأنا من سكة !

وفكر فى الهجرة نهائياً من مصر ولكن على أمين أقنعه بالعدول عن هذه الفكرة .

وكان كل ما يشغل أنيس ليلاً ونهاراً هو كيف يتحايل على أمه فلا تعرف أنه مفصول عن عمله ..

ففى حياته أحداث أليمة .. وذكريات موجعة فقد فصل والده من عمله كثيرا ولأسباب تتعلق بطيبة قلبه وسفالة الذين كان يعمل عندهم ومنهم من الباشوات ونظار الزراعة .. وكان أنيس يصحو من نومه فيجد أمه قد ربطت العفش والملابس ووضعت ساعة الحائط تحت أرجلهم ليسافروا من بلد إلى بلد .. ذكريات موجعة عادت إلى الذاكرة وقتها .

واقتسم مصطفى أمين مع أخيه على أمين مرتبهما مع أنيس منصور لمدة عام وهو عام الفصل !

وانتهز مصطفى أمين فرصة رضاء الرئيس جمال عبد الناصر عليه بعد أن أمر بمنحه إجازة هو وأخيه على أمين من أخبار اليوم وعين مصطفى فى منصب رئيس مجلس إدارة دار الهلال ، وطلب من الرئيس أن يعمل معه أنيس فى دار الهلال ووافق الرئيس بسهولة غريبة !

وفوجىء الكاتب الكبير مصطفى أمين بعد أسابيع بالدكتور عبد القادر حاتم نائب رئيس الوزراء يتصل به تليفونياً ويقول له بصـوت حزين إنه صدر قرار جمهورى بوقف أنيس منصور !

وسأله عن السبب فقال إنه لا يعرف .

ثم عاد الدكتور حاتم بعدها بساعة واتصل به تليفونياً ليسأله :

هل العدد المطبوع من المصور فيه مقال لأنيس منصور ؟!

فقال له إن عدد المصور طبع فعلاً وفيه مقال لأنيس فطلب الدكتور حاتم وقف الطبع وإعدام النسخ التى فيها مقال أنيس منصور .

وكلف هذا دار الهلال بضع مئات من الجنيهات .

وأتصل مصطفى أمين بالرئيس عبد الناصر يطلب مقابلته .. ولكن محمد أحمد سكرتير الرئيس قال إن الرئيس مشغول .

وفهم أن الرئيس لا يريد مقابلته !

وبعد أيام قليلة اتصل بالرئيس فى رقم تليفونه فى مخدعه وأجابه الرئيس فطلب منه أن يتفضل ويحدد له موعداً وقال له الرئيس :

بشرط ألا تحدثنى فى مسألة أنيس منصور !

وقبل هذا الشرط مرغماً وذهب الى بيت الرئيس وتحدث معه فى كل المسائل الأخرى إلا مسألة أنيس !

وإذا بالرئيس عبد الناصر يقول بمصطفى أمين : إن أنيس منصور يشتم رئيس الجمهورية !

فرد قائلاً : إننى أرى أنيس كل يوم وهو يسهر فى بيتى كل ليلة ولم أسمعه يشتم رئيس الجمهورية !

فقال الرئيس : عندى تقارير تؤكد هذا .. إنه ليس تقريراً واحداً بل أربعة تقارير من أربع جهات !

ـ أليس غريبا يا ريس أن أربع جهات تقدم تقريراً عن أنيس منصور فى يوم واحد .

ـ لأنه يشتمنى فى كل مكان !

ـ لا إن التهمة ملفقة من المخابرات .

ـ إن التقارير ليست من المخابرات !

ـ من الممكن أن يصدر الأمر لمختلف الأجهزة أن تكتب تقريراً واحداً .

وقال الرئيس عبد الناصر إنه سيبحث الأمر وفعلاً تبين له بعد ذلك الحقيقة وصدر الأمر بعودة أنيس منصور ولكن بعد أن عانى الأمرين !

وكان كلما أصاب اليأس أنيس منصور وفكر فى الهجرة من مصر نهائياً كان المرحوم على أمين يمنعه بعنف من أن يفكر فى شىء من ذلك مطلقا وأنه يجب أن يصبر وأن جمال عبد الناصر لن يعيش إلى الأبد .. وأن هذا الذى حدث له هو شرف عظيم وأن هذا أقصى ما يبلغه أى كاتب !

●●●

أنيس منصور يطرق على باب المجهول!

جول فيرن الكاتب الفرنسى الذى وضع حجر الأساس للأساطير العلمية الحديثة ذكر فى كتبه ومؤلفاته منذ ثمانين عاما أن الأمريكيين أول من سيغزون القمر، بل ذهب فيرن إلى أبعد من ذلك واختار للأمريكيين الموقع الممتاز الذى سوف يطلقون منه سفينتهم لتشق طريقها إلى القمر فى رحلتها الطويلة المرتقبة من أواسط فلوريدا ..

وفى روايته المعروفة « من الأرض إلى القمر » ذكر فيرن كيف أن ثلاثة من الأمريكيين تسلقوا مركبة على هيئة دانة مدفع أطلقها مدفع ضخم عملاق وبعد ٩٧ ساعة و ٢٠ دقيقة اقتربوا من القمر وداروا حوله ثم انحرفوا عنه وذهبوا إلى النجوم حيث تركهم فيرن هناك فى نهاية قصته ..

والغريب أن العالم الفرنسى حدد فلوريدا بالذات وذكر أن مدينة تامبا هى أنسب مكان يمكن إطلاق الكبسولة منه . وتقع مدينة تامبا عبر شبه جزيرة فلوريدا من كيب كينيدى المكان الذى تطلق منه اليوم الأقمار والصواريخ ومركبات وسفن الفضاء، وهذا مما يجعل تكهنات فيرن مثيرة وذات مكانة فى تاريخ العلوم اليوم .

وقد استغلت إحدى دور النشر الفكرة فقامت بعرض أفكار العالم الفرنسى الكبير فى لوحات فى أحد المعارض الباريسية . فتزاحمت عليه الجماهير ونجح المعرض نجاحاً عظيماً .. واستخلصت الدار أفكار فيرن من عشرة من رواياته وأعادت طبعها بلغتها « الفرنسية » وظلت أبواب المعرض مفتوحة للجمهور حتى يوم ٣٠ أبريل سنة ١٩٦٦ وزينت واجهة المعرض بعبارة كتبها فيرن فى إحدى رواياته « إن ما يستطيع الإنسان أن يتخيله يستطيع الآخرون أن يحققوه » .

ولم يقتصر تفكير فيرن على مركبات الفضاء التى ستهبط فوق سطح القمر بل تكهن وتخيل إمكان اختراع الإنسان لطائرات الهليكوبتر، واكتشاف الغواصات

للقطبين الشمالى والجنوبى والمناطيد ورى الصحارى وبناء ناطحات السحاب والتليفزيون وكل ما نراه اليوم لم يكن معروفاً فى عصره ..

وتضمن معرض باريس بعض كتابات فيرن عن آلات وأجهزة غريبة معقدة لاتزال غير مفهومة .. واستغلت كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى فكرة إنشاء المعرض ، فعرضتا أفلاماً ملونة عن سفن الفضاء والأقمار الصناعية ، وصوراً واضحة عن سطح القمر والأجهزة الدقيقة التى استطاعت أن تلتقط هذه الصور على مقربة من سطحه فى محاولات متعددة كللت بالنجاح .

وقد ولد فيرن فى نانت بفرنسا سنة ١٨٢٨ ومات فى امين سنة ١٩٠٥ وكان مولعاً بالسفر فى المحيطات التى استهوته ، وأوحت إليه بالكتابة عن الفضاء والبحر وكان دائماً يقول : أحب الحرية والموسيقى والبحر ...!

وكما أحدثت مؤلفات جول فيرن صدى حين صدرت لما فيها من خيال خصب وثراء فكرى ومستحيل لا يمكن أن يقترب من الحقيقة فى ذلك الوقت ، فإن الكاتب الكبير أنيس منصور قد صدرت له فى الآونة الأخيرة عدة مؤلفات تقترب فى خيالها وإن اختلفت عن مؤلفات فيرن فإذا كانت مؤلفات هذا الأخير تحاول أن تستشف المستقبل من خلال غلالة من الخيال العلمى ، فإن مؤلفات أنيس منصور « الذين هبطوا من السماء ! » و « الذين عادوا إلى السماء » و « لعنة الفراعنة » تحاول أن تفتش فى كومة من حفريات قديمة عن حضارات بادت ، وأن تكشف النقاب عن ألغاز وأسرار ، ولذلك فإنها تكاد تقترب من المؤلفات صدى لدى صدورها وأثير حولها جدل كبير .

ففى كتاب « الذين هبطوا من السماء » يعرض الكاتب فى فصل اسمه « الانسان ذلك المجهول جداً جداً » للعبارة التى جاءت فى المحاضرة التى ألقاها العالم الكبير داروين فى أواخر القرن التاسع عشر عندما عرف أن أحد العلماء الألمان قد اكتشف العمود الفقرى لإحدى الزواحف واكتشف أنه له أجنحة !

هذه العبارة تقول « ما أقل ما يعرفه الإنسان عن هذه الكائنات التى عاشت قبلنا على هذه الأرض .. ما أقل ما يعرفه وما أصعب الطريق الذى سوف يسلكه لكى يعرف ..! » ومعنى هذا الاكتشاف أن الطيور أصلها زواحف وأن الريش قد نبت على جانبى الجسم لينقذها من قسوة البيئة التى عايشتها وقاومتها مئات الألوف من السنين !

والذى قال داروين يجب أن تقوله فى كل وقت فنحن لا نعرف إلا القليل من أى شىء .. فى الأرض وفى السماء وفى أنفسنا .. فى الماضى والحاضر والمستقبل .

ولكن الإنسان بخياله وعبقريته يريد أن يعرف كيف كان الماضى وكيف يكون المستقبل اعتماداً على ما لديه من معلومات حاضرة جاهزة .. إن الإنسان

يحاول من ألوف السنين أن « يستحضر » ماضيه .. وأن يستحضر مستقبله أيضاً .. يريد أن يعرف الطريق الذى يجلس عند نهايته والطريق الذى يقف عند بدايته . ويتساءل أنيس منصور فى كتابه

هل هناك سكان فى كواكب أخرى ؟

ويجيب عن هذا التساؤل قائلاً : إن علم الفلك يؤكد أن هناك ملايين الملايين من الكواكب الأخرى فى الكون ، ولا يستبعد أن تكون بعض هذه الكواكب صالحة للحياة ، وليس مستحيلاً أن يكون سكان هذه الكواكب ينتقلون من كوكب إلى كوكب .. إن الكتب الدينية تقترب من هذا المعنى ..

ولابد أن يكون آدم وحواء قد هبطا من كوكب آخر إلى كوكب الأرض ويعطى لنا عديداً من الأمثلة والأحداث التى تدل على ذلك والاكتشافات التى لا تحصى ، فلقد بدأ الاتجاه إلى الماضى القديم بصورة عصرية فى ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٢٥ عندما نشر الدكتور موزليه بحثاً عن اكتشاف فريد من نوعه بالقرب من مدينة فيشى بفرنسا وبالضبط عند قرية جلوزيل .. هذا الاكتشاف يؤكد بوضوح أن الإنسان القديم قد استخدم الحروف الهجائية اللاتينية التى تستخدمها الآن .. وأن ذلك قبل الميلاد بمائة وخمسين قرناً !

أما المعارك التى دارت بين العلماء حول من الذى اكتشف هذا الأثر العظيم فدليل متكرر على سفالة الإنسان وجشعه أيضا !

وبعد اثنى عشر عاما اكتشف عالم أثرى فى قرية « ليساك القصور » بالقرب من فيينا حجراً منقوشاً اصفر اللون .. وتأكد العلماء بعد ذلك أن هذا الحجر صحيح ، وأن النقوش المرسومة صحيحة أيضا ، وأن النقش منذ أكثر من عشرين ألف سنة ..

أهم من هذا كله : إن على النقوش الموجودة فى كهوف هذه القرية القديمة رسوماً لرجال يرتدون البنطلون والجاكتة والبرنيطة والأحذية أما النساء فيرتدين الملابس الحريرية والإيشاربات ويمسكن حقائب فى أيديهن .. ولابد أن هولاء المواطنين القدماء كانت لهم مدن وشوارع ووسائل مواصلات متطورة ومصانع ..

وكان من المألوف فى كتب التاريخ أن تتحدث عن هذه الفترة من الزمن فتصف الإنسان بأنه بدائى يحمل الفأس الحجرية ويجمع الثمار من الغابات ويأوى عارياً عاجزاً إلى الكهوف !

وأصبح البحث عن الحضارة القديمة جداً فى الكهوف والمتاحف جنوناً علمياً .. فقد تأكد لدى العلماء المتخصصين فى الحضارة الفرعونية والأشورية والبابلية . أن هناك عصوراً أزهى وأكثر تقدماً من هذا العصر .

ويقول أنيس منصور : أنت لست الوحيد فى العالم ولا حضارتنا هى الوحيدة فى تاريخ الإنسان . كانت هناك حضارة كثيرة اختفت تحت الماء أو تحت الرمال بملايين الناس والبيوت والمدن والمصانع .

وطوفان نوح هو إحدى هذه الكوارث التى أغرقت الحضارة الإنسانية كلها . ولكن كانت هنا ك حضارات قبل ذلك أهلكتها كوارث فلكية أخرى فنزلت النيران والأحجار الملتهبة من السماء ، واحتمى الناس منها فى الكهوف وفى بيوت تحت الأرض .

هذا هو أحد الاحتمالات العلمية أو إحدى الحقائق المؤكدة . ولاتزال الحضارة الانسانية مهددة مرة أخرى بالفناء ..

إن الانسان هو الذى سوف يفنيها هذه المرة وسوف تفنى دون أن نعرف من أين جاءت هذه الحضارة وعلى أى الحضارات قامت مدننا ومصانعنا . ولانزال نجهل تماما كيف ظهرت الحضارة الفرعونية مكتملة ناضجة لأول مرة أو مرة واحدة هكذا .. كانها كانت فى مكان ما من العالم ثم نقلت وقامت .. إن الفراعنة هم أول من تحدث عن قارة اطلانطس التى غرقت إن الآثار فى زمباوى بأواسط إفريقيا تؤكد لنا وجود سفن فضاء من عشرات الألوف من السنين .. إن النقوش فى كهوف بيرو تؤكد لنا وجود إنسان كان يطير مستعيناً بآلات متطورة جداً

إن الرحالة النرويجى ثور هايردال هو أحد المؤمنين بأن الفراعنة هم الذين صنعوا المعجزات وأن الحضارات إذا كانت قد ظهرت كلها فى الغرب فإن نورها قد انطلق من الشرق ولاتزال أخبار « رع » تلقى نفس الأهمية التى تلقاها سفن الفضاء فى رحلاتها إلى القمر ..

ولاتزال العبارة الشهيرة التى قالها البرت اينشتين أعظم علماء هذا القرن رائعة مثيرة :

قال اينتشتين « إن أروع شعور يملاء نفس الانسان وهو يتطلع إلى السماء أن هناك سراً هائلاً وراء كل شىء .. إن هذا السر هو المصدر الحقيقى لكل علم وكل إنسان لم يستشعر جلال هذا السر هو إنسان أعمى » .

إن التوراة تحدثنا عن طوفان نوح .

وتحدثنا أيضا عن نقوش وألواح وبرج بابل .. وان كنا لا نعرف تفاصيل ما حدث .. ولا ما قيل .. فلأن صوت الأحداث قد اعتقلته الصخور والتوراة لم تقل أكثر من أن الحضارة اتخذت لها مكاناً ممتازاً بين الدجلة والفرات وأنها ولدت قبل ذلك فى السماء .. أى أن الحضارة الإنسانية مقرها الشرق الأوسط .

ولكن الآثار فى فرنسا وأيرلندا وإسبانيا والمكسيك تقطع ــ وهذه حقيقة علمية ــ إنها عاشت وازدهرت قبل ذلك بألوف السنين .. كما أن الطوفان قد أصاب ما بين فرنسا وإنجلترا .. والنقوش توكد ذلك فى اسكتلندا والبرتغال

وألمانيا ورومانيا وتؤكد أنه قبل إنشاء برج بابل ازدهرت حضارات فى هذه البلاد وأن أهلها كانوا فى غاية النشاط والحيوية .

أما فى الصين فهناك ما يدل على أنه كانت حضارات قديمة فى آسيا عاشت قبل حضارتنا هذه تحيات الألوف من السنين !

العالم الفرنسى الطبيعى بيفون يؤكد : إن كتلاً من الجرانيت قد ألقيت من السماء إلى الأرض .

العالم الرياضى لابلاس يقول : هناك شعوب عظيمة لا نعرف اسمها ولا حتى لغتها قد اختفت فى ظروف غريبة من هذه الأرض ولم تترك لنا أثراً من علم أو صناعة !

العالم الألمانى همبولت أبو الجغرافيا النباتية يقول : إن طوفاناً قد أغرق معظم هذه الأرض المسكونة !

العالم الكبير اراجو يؤكد لنا : إن هذا الفيضان من الاحتمالات لا يجيب عن كل الاسئلة ، لابد أن كارثة كونية قد وقعت فمحت التاريخ المكتوب على وجه الأرض ؟

هؤلاء العلماء قد اتفقوا على شىء واحد : إن زلزالاً أو طوفاناً مخيفاً قد أغرق وجه الأرض منذ أربعة أو عشرة آلاف أو ستة عشر ألف سنة قبل الميلاد .

وأنه ليس طوفاناً واحداً .. بل أكثر من طوفان من طوفان وأكثر من كارثة كونية .. ومعنى ذلك أن هذه الحضارة ولدت من حضارة أخرى . وأن هذه الحضارة الأخرى قد ولدت من حضارات سابقة عليها .

وينتهى أنيس منصور إلى نتيجة هى أن حضاراتنا هذه إذن ليست هى الحضارة الوحيدة وإنما كانت هناك حضارات أخرى كثيرة ولأسباب عجيبة اختفت !

ولكن هذه الحضارات تركت وراءها ألغازاً وأسراراً مثيرة أوضحها جميعاً أهرامات الجيزة .. إنها كتل من الحجارة الضخمة التى تشير أطرافها إلى الجهات الأصلية بدقة مذهلة .. إنها كتل من الأسرار أيضا ، تتحدنا أن نعرف ما وراءها وما تحتها ..

وهناك علماء كثيرون قبلوا التحدى .. ويحاولون ..

إن هذه النتيجة التى توصل إليها الكاتب فى منتهى الخطورة لأنها تقلب تاريخنا رأساً على عقب !

فالذى يعلمه ودرسه وتلقنه أى قارىء لهذه السطور مهما كان مستواه العلمى والا جتماعى وثقافته التاريخية هو أن الفراعنة هم أول من اكتشفوا أى شىء من الأبرة الى الصاروخ !

ثم يأتى أنيس منصور ويحاول أن يلغى هذا التاريخ بجرة قلم وكأن نقطة حبر قد سقطت من قلمه فطمست تاريخ الفراعنة .. وستحال سن قلمه إلى نصل حاد مغروساً فى لحم رمسيس الثانى !

إن الدكتور مفلين كالفين الحاصل على جائزة نوبل فى الكيمياء وأستاذ هذا العلم بجامعة كاليفورنيا له رأى عن احتمال وجود الحياة على الكواكب الأخرى .. فقد حصل على جائزة نوبل سنة ١٩٦١ وذلك لاستطاعته إتمام الدورة الكيميائية للتركيب الضوئى فى النباتات الخضراء !

إن معلوماتنا عن طبيعة الكون تعتمد على المعلومات التى وصلتنا من الفضاء الخارجى بفضل الأجهزة الحديثة التى نقلتها عبر الفضاء الأقمار الصناعية والصواريخ ، أو عن طريق الموجات اللاسلكية التى التقطتها التلسكوبات اللاسلكية المركبة فى المناطق المعينة من الكرة الأرضية ، والحقيقة أن العلماء استطاعوا أخيراً الحصول على معلومات من النيازك والشهب نفسها توكد وجود الحياة على الكواكب الأخرى ..

وهذا الكتاب فى مجموعه بلا مبالغة هو أول كتاب فى اللغة العربية .. وهو يقوم بأول رحلة تاريخية فلكية جغرافية مثيرة ويناقش قضايا تثار لأول مرة فى اللغة العربية ، وأنيس يؤكد فى كتابه أن الانسان ليس هو الكائن العاقل الوحيد فى هذا الكون .. هناك كائنات أعقل وأذكى تعيش على كواكب أخرى كثيرة - ويؤكد ان هذه الكائنات الأعقل والأذكى قد جاءت إلى الأرض .. عاشت وأقامت وعلمت الانسان وحذرته ثم اختفت .. ولكن بعد أن تركت آثارها فى الجيزة وفى بعلبك وفى كهوف التسيلى بليبيا .. بالقـرب من بغداد .. وفى جنوب فرنسا والنمسا وإنجلترا وروسيا ..

والكـاتب الكبيـر أنيس منصور بعباراته المثيرة الرشيقة الجميلة يؤكد أن الانسان أصله إنسان وليس قرداً .. وأن آدم وحواء قد هاجرا إلى كوكبنا هذا من كواكب أخرى .. تماما كما هاجرنا نحن من أوروبا إلى استراليا وإلى امريكا .. ثم هذه الأطباق الطائرة .. وهذه الأجسام التى تطارد سفن الفضاء وهذا الانفجار الذى أضاء أوربا أياماً كاملة .. والانفجارات النووية لمدينتى سودوم وعموره ..

إن هذا الكتاب يؤكد الكتب السماوية فى كل قضاياها الروحية الكبرى .. ثم خرج علينا أنيس منصور بعد ذلك بكتاب آخر يعتبر امتداداً الكتاب الأول ، هذا الكتاب هو « الذين عادوا إلى السماء » وهو استكمال للطرق على باب المجهول نحس ذلك من عنوان الفصل الأول « صورة من الجو للهرم عمرها ثلاثة آلاف سنة » .

فقد تلقى أنيس منصور كتاباً وخطاباً من عالم الفضاء المصرى فاروق الباز يقول فى خطابه : عندما كنت أقوم بتعليم رواد أبولو ١٧ قلت لهم لابد أن

الفراعنة قد أقاموا الاهرامات ليوحدوا بين أبناء الجنوب والشمال فى مصر فى عمل معمارى هندسى فلكى دينى واحد .. إنها مناسبة عظمى لتذويب الطبقات والفئات فى شىء واحد . وهو بالضبط ما تفعله الشركات والمؤسسات والهيئات الأمريكية عندما تبنى وتطلق سفناً إلى الفضاء الخارجى حتى لم تعد هذه السفن مشروعاً « أمريكياً » إنما حلم إنسان تحقق أمام الجميع وللجميع .

ويقول د . فاروق الباز أيضا : إن هذه النظرية قد أخذتها من كتاب أرسله إليك الكتاب اسمه « لغز الأهرامات » من تأليف كورت نيكسلون وقد قرأ أنيس منصور هذا الكتاب الذى بعث به د . الباز والذى يقول مؤلفه : إننى مدين بحياتى لأهرامات مصر قبل أن اراها ، فعندما هاجرت إلى بريطانيا لأدرس الفيزياء لم تكن هناك أموال فى الجامعة للإنفاق على طالب مثلى .. وأخيراً وجدوا أعتماداً رصدته الجامعة لتشجيع الحفائر حول الهرم الأكبر فنذرت نفسى للبحث عن الهرم الذى لم أراه ، وجئت إلى مصر وتعلمت على نفقة الهرم الأكبر .

ورأيت الهرم وأدركت أننى لم أضيع وقتى فى شىء بل لو كان عندى عمر آخر لأمضيه فى معرفة سر هذا الشىء الهائل العظيم ، وقد درست وبحثت وخرجت بأشياء لم يسبقنى إليها أحد ..

ويمضى معك أنيس منصور وتنسرح فصوله الممتعة ويجيب فيها عن تساؤلات مثيرة ومخيفة :

هل حدث على سطح المريخ ما حدث من قبل على سطح هذه الأرض ؟ هل كانت هناك حياة متطورة جداً ثم اختفت لأسباب لا نعرفها الآن بوضوح ؟ هل كانت هناك على المريخ حضارات رفيعة جداً ثم هربت من الكواكب فى سفن ضخمة جداً إلى أعماق الفضاء الكونى ؟

ربما .. وهو شىء معقول أن روسيا أعلنت رسمياً فى سنة ١٩٦٨ أن أحد مراصدها قد شاهد قبل ذلك بعام فى يوليو ١٩٦٧ سفينة متحركة طولها نصف كيلو متر وسرعتها ١٨ ألف ميل فى الساعة . كما أن مرصداً فى جنوب روسيا قد سجل نفس الحدث الجليل !

ولكن اكتشاف آخر قد هز العالم كله فاتجهت العيون إلى المريخ واتجهت القلوب أيضا ، فالعالم الفلكى الإيطالى سكباريللى لاحظ وجود « قنوات » على سطح المريخ .. وأكد للعالم أن هذه القنوات من صنع كائنات عاقلة أي أنها ليست أنهاراً ولا بحيرات ، وإنما هى خطوط هندسية دقيقة ومنظمة جداً .. وصدر اتجاهها وتعامدها على خط استواء المريخ وعلى خط محوره ، وجاء الاكتشاف دليلاً جديداً مقنعاً على أن المريخ حياة عاقلة وهى حياة لم يبلغها الإنسان ومن الصعب عليه ذلك .

ويسجل الكاتب قمة البحوث العلمية التى أجراها العلماء فى السنوات الأخيرة للتأكد من وجود كائنات عاقلة فى الكواكب والمجرات .. فالمريخ مثلا سبق أن عاشت فيه مخلوقات من عشرات الألوف من السنين .

إن الكاتب القدير أنيس منصور يؤكد قول العلامة كارل ساجان :

« لقد أمكننا أن نلقى نظرة ونظرات على الكواكب القريبة منا والبعيدة .. فنحن الجيل الذى غزا الفضاء ويحاول جاهداً أن يعرف سر الكون »

إن أنيس منصور يطرق على باب المجهول ويكشف النقاب عن كل ما هو جديد فى مؤلفاته .. ويدق بقوة على عقل قارئه .. يهز عقله لعل ثمرات من العلم تكون دانية القطوف فتسقط .. وهذا هو النضوخ العقلى والفكرى والعلمى الذى تلمسه فى مؤلفات أنيس الأخيرة ..

إن هذه المؤلفات هى عصير أبحاث طويلة استغرقت جهد الإنسان وفكره وأمله ومستقبله .

إنها اجتهادات مشكورة من كاتب ينقب ويبحث ويتطور دائما مع كل ما هو جديد .. إنه يخلع من على يد قارئه قيداً هو الماضى ليضع على معصمه شيئاً أحلى وأجمل منه ذلك هو المستقبل !

غير أن المؤكد الوحيد هو أننا سنظل نتعجب دائما من إعجاز خلق الله وما أودعه كونه من أسرار وجمال ، وسنظل دائما نحنى رءوسنا خاشعين أمام عظمته وقدرته وجلا له وصدق الله العظيم إذ قال :

(سنريهم أياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) .

●●●

أسعد لحظات حياته هي أشقاها!

مشكلة الاغتراب .. حالة مميزة للإنسان في المجتمع الحديث فرضت نفسها على كثير من مجالات النشاط الثقافي في الوقت الحالي، وظهرت كموضوع أساسي في كثير من الكتابات الأدبية والأعمال الفنية والدراسات الفلسفية، وأصبح المنطوى على نفسه يظهر في هذه الأعمال مغترباً عن الناس، بل ومن نفسه ومشاعره وعواطفه .. يعاني عذاب الوحدة والعجز عن الاتصال بالآخرين وعدم القدرة على التعامل مع غيره ..

وهناك زوايات عديدة عميقة عن الاغتراب لعل من أشهرها رواية الأديب الفرنسي البير كامي « الغريب » التي يعالج فيها مشكلة الشاب الفرنسي ميرسو، الذي يعمل في إحدى الوظائف الكتابية، ويعيش كغيره من أبناء طبقته في شقته التي يطهو فيها طعامه بنفسه ويلتقي فيها بفتاته في نهاية الأسبوع، ويرتاد كغيره دور السينما ولكنه مع ذلك يجد صعوبة في فهم المجتمع الذي يعيش فيه، إذ كان يفتقر إلى كثير من الصفات التي يجب أن يتمتع بها أي شخص عادي لكي يتقبله المجتمع ويتعامل معه .. كانت تنقصه القدرة على مسايرة الآخرين أي على النفاق الاجتماعي وعلى التنازل عن مشاعره وآرائه الصادقة الأمينة، وكان يبدي رايه الصريح الموضوعي البارد في مشكلات الحياة والموت والجنس، فتصدر عنه كما لو كانت صادرة عن غيره وينظر إليها من الخارج. وبذلك كان يعاني من الاغتراب من المجتمع الذي يعيش فيه، ومن الناس الذي يتصل بهم في حياته اليومية. وهذه الحالة ذاتها ترددت بصور مختلفة في أعماق الكثيرين من مشاهير الكتاب من أمثال بيكيت ويونسكو وجينيه بطريقة أصبح يبدو معها كما لو كان نوعاً من الوباء الاجتماعي الذي يهدد المجتمع الحديث. ولعل ديكارت أشهر فليسوف مغترب

فى التاريخ الفلسفى فقد عاش معظم حياته غريباً عن وطنه .. فنحن نعرف أن حياة ديكارت بدأت بفقدانه لأمه التى ماتت قبل أن يبلغ العام الثانى من عمره ، ومهما قيل عن حبه وإخلاصه للمرضعة التى عنيت به إلا أن إشارة ديكارت لحادث وفاة أمه فى خطاب بعث به للأميرة اليصابات وهو فى سن الخمسين تشهد بأن هذا الحادث لم يمح من حياته الشعورية أو اللاشعورية . هذا الحادث يمكن فى ضوء التحليل النفسى بصفة عامة أن يعتبر أول عتبة فى طريق الاغتراب ، والعلاقة بين الأم والأرض علاقة وثيقة . والانفصال عن الأم هو بمثابة الانفصال عن النسيج الأصلى الشامل للإنسان ولما يغاير الأنا . ومع هذا الانفصال تبدأ أولى خطوات الاغتراب التى نراها تمضى فى حياة ديكارت فتنأى به عن وطنه وأرضه ليعيش ابتداء من عام ١٦١٨ وهو العام الذى التحق فيه بجيش الأمير موريس دى ناسو الهولندى بعيداً عن وطنه فرنسا ، فلم يكد ديكارت يمضى عاماً ببريدا بهولندا حتى ضاق بها ورحل فى إثر صديقه إسحق بيكمان الى المانيا حيث استقر بعد فترة في مدينة او لم لكنه لم يلبث ان بارحها الى جنوب غرب المانيا ثم الى هولندا ومنها الى فرنسا . ولم يستقر ديكارت فى بلد .. فقد سافر بين عامى ١٦٢٢ و ١٦٢٥ فى رحلة إلى إيطاليا . ثم أخذ ينتقل إلى فرنسا عدة ثلاث سنوات . وفى عام ١٦٢٩ غادر فرنسا واقام فى هولندا حتى نهاية حياته تقريبا إقامه شبه مستديمة حيث استطاع أن يعيش كما يقول : « عيشة العزلة كما لو كانت فى الصحارى ! .. ولم تتخلل هذه العزلة سوى بضع رحلات بين هولندا وفرنسا والدانمارك ..

هل كان ديكارت يسعى إلى العزلة والخلوة هرباً من جو باريس الملىء بالملهيات كما قال فى خطاب له إلى الأب مرسين فى ٢٧ أبريل سنة ١٦٢٨ ؟ أم سعى إليها ديكارت لأنها بلاد تتوفر فيها الحرية الفكرية بالقدر الذى يتيح للفليسوف أن يعيش فيها آمناً مطمئناً بعيداً عن مضايقات الحكام أو رجال الدين ؟ لقد جعل ديكارت شعار حياته كلمة ابيقور « السعيد من عاش متخفيا » وعاش بالفعل حياته فى غربة عن وطنه وفى عزلة بالغ فيها إلى حد إخفاء مقر إقامته عن معارفه . ولاشك أن حب العزلة سمة أصيلة فى شخصية ديكارت . لقد كان ديكارت منذ صباه وهو لا يزال تلميذاً فى مدرسة لافليسن ينام منفرداً فى غرفته ويمكث بها فترات طويلة عاكفاً على التفكير والتأمل ، ولامبرر لذلك سوى رغبة الفليسوف الأصلية فى العزلة وتحقيق هذه الرغبة فى جميع مراحل حياته : ابتداء من طفولته حتى وفاته ، فهو لم يرتبط بوطن ولا بأهل ولا بوظيفة ولابزوجة حتى ابنته فرنسين التى أنجبها من هيلين هانس والتى شغل بها كثيرا لم تكن تقيم معه أثناء طفولتها التى لم تتعدها إذ توفيت وهى فى سن الخامسة .

ومن هنا يمكن أن نطلق على حب العزلة وإرادة الغربة التى صاحبت ديكارت أثناء حياته كلها .. كلمة الاغربات وتباين ايضا ان نصف حياة ديكارت بانها كانت حياة فليسوف مغترب ..

وظاهرة الاغتراب تعتبر ظاهرة عالمية فلا يجوز القول بأنها مشكلة تخص الغرب فقط أو الشرق فقط أو المجتمعات الرأسمالية دون الاشتراكية ، والاغتراب ظاهرة تتصف بها الحياة المعاصرة وهى تعالج كقضية فى شتى المجالات ، ففى مجال النقد الأدبى يتناول النقاد بالتحليل ظاهرة الاغتراب فى شتى الفنون والآداب مثل القصة والشعر والفنون التشكيلية والسينما والمسرح . وهم حينما يتكلمون عن الاغتراب يقصدون عادة أن هذه الأشكال الفنية تعالج مشكلة من أدق مشاكل الإنسان المعاصر . وانعكاس هذه الظاهرة على الحياة الأدبية عامة وفى المسرح خاصة يتمثل فى نشؤ تيار عرف بتيار « حركة الغضب » التى نشأت فى إنجلترا فى بداية الستينات ، ويعتبر هذا التيار أحد الانعكاسات الاجتماعية لظاهرة الاغتراب باعتبار أن المسرح يمثل أحد الأنشطة الاجتماعية

وقد فرضت مشكلة الاغتراب على مسرح بريخت الملحمى ولمعرفة القيمة الحقيقية لمسرحة ومدى تأثيره ينبغى أن تكشف عن الفكرة المحورية باعتبار أن أى مفكر لابد أن يواجه مشكلة معينة ويبحث عن حل لها ، وباقى الحلول تتفرع عن هذه المشكلة الأساسية ، وتدور حولها .. والفكرة المحورية فى مسرح بريخت هى مشكلة الاغتراب والحل إزالة هذا الاغتراب ويقدم بريخت تفسيره للاغتراب فى إطار ينطوى على رؤية جديدة للتغيير . وهذه الرؤية تعتبر مستقبلية لأنها تجاوز للوضع الراهن .

والاغتراب من وجهة نظر بريخت يعتبر السمة المميزة للمجتمع الراسمالى ، ومن الجدير بالملاحظة أن تناول بريخت لمفهوم الاغتراب واستخلاصه لهذا اللفظ عند تحليل الظواهر الاجتماعية السياسية هو بدون شك نتيجة تأثره بماركس . إن اختيار بريخت مقولة الاغتراب واستخدامه لها كتكتيك مسرحى يرجع إلى تصوره أن الاغتراب هو الصفة المميزة للبناء الداخلى للشخصية وللمجتمع فى القرن العشرين .

ويعتقد بريخت أن حالة الاغتراب التى يعانيها الإنسان والمجتمع هى من نتاج الرأسمالية ، ومن خلال نقده للمجتمع الرأسمالى استطاع أن يثبت فى أعماله المسرحية كيف أن هذا المجتمع تسوده نظرة لامنطقية تجعل من خداع النفس حقيقة وتجعل ماهو غير طبيعى يبدو طبيعياً ، ولذلك فهو يتقدم لكى ينزع القناع عن الحقيقة الكاملة فى النظام الرأسمالى من خلال مفهوم الاغتراب .

والـذين قـرأوا روايــة توفيــق الحكيــم « نهـر الجنـون » لابد ان يكونوا قد أدركوا الرواية تحاول أن تعالج بطريقتها الخاصة مشكلة الأغتـراب . فالشخـص الذى كان يشرب من ذلك النهر يصاب بلوثة تجعله يبدو غريباً فى نظر المجتمع الذى كان يهزأ منه وينبذه ويبتعد عنه . ولكن بمرور الزمن تزايد عدد الشاربين (المجانين) وتناقص عدد (العقلاء) بسرعة وانقلبت الآية وتغيرت الأوضاع وأصبح العقلاء قلة تعرضت لسخرية الأكثرية (المجنونة) التى كانت تنظر إلعس الأقلية على أنها غريبة الأطوار ويجب نبذها من المجتمع لما بها من جنون وحتى لا يسرى هذا الجنون من تلك الأقلية إلى بقية أفراد المجتمع . حتى لم يبق سوى شخص واحد فى آخر الأمر كان يأبى على نفسه أن يشرب من النهر حتـى لا يفقد عقله .. ولم يكن يريد أن يفقد تميزه وتفرده وشخصيته وعقله وقيمة .. كان يعيش مغترباً عن ذلك المجتمع الذى ينتمى ولا ينتمى إليه وكان يقاسى من هذا الاغتراب ولم يجد أمامه فى آخر الأمر إلا أن يشرب من النهر حتى يساير بقية أفراد المجتمع ويندمج فيه ، وكان ذلك بمثابة انتحار بالنسبة إليه .

وإذا كانت مشكلة الاغتراب قد فرضت نفسها على معظم كتابات كبار الأدباء والفلاسفة فإنها تمثل السمة الرئيسية والنسيج العام فى كتابات أنيس منصور ، ويرجع هذا إلى نشأته وطبيعة عمل والده الذى كان يستلزم السفر والترحال من مدينة إلى مدينة ، ومن قرية إلى كفر ومن كفر إلى نجع ، وكثيرا ما كان يستيقظ من النوم وهو صغير فيجد والدته وقد حزمت الحقائب ا ستعداداً للرحيل ، ثم تأتى سيارة كبيرة لنقل الأثاث وتقطع مئات الكيلو مترات إلى مكان مجهول لدى الطفل الصغير .

وأنيس منصور يعتبر نفسه واحداً من أبناء الغجر .. أو مثل الغجر .. مثل الأحجار الدائرة التى لا ينبت عليها العشب .. ويصف أنيس تلك المرحلة الخطيرة من حياته :

وأنا صغير كنت أرى عدداً من الناس ، نساء واطفالاً ورجالا يعيشون فى أطراف مدينة المنصورة .. إنهم أناس مثلنا . ولكن لسبب لا اعرفه كان الناس ينظرون اليهم بشىء من الخوف والاحتقار . ولم أجد سبباً لذلك إلا أنهـم يعيشون فى خيام . والخيام قد امتلاءت بهم وبحيواناتهم وطيورهم . ولم أجد فى ذلك شيئاً غريباً .

وعندما اقتربت من أحد الأطفال وجدته مثلى تماما . يريد أن يلعب . وقد لعبنا . وجاءت أمه وطلبت إليه أن يكف عن اللعب وأن يهتم بالماعز والطيور وإلا .. وقبل أن يرد عليها الطفل كانت قد صفعته على وجهه . ونظرت ناحيتى بقسوة شديدة .. وكان لابد أن أترك المكان ..

ولم اجد فى ذلك شيئاً عجيباً فقد عرفت الضرب والصفع والركل من والدتى ، ولأسباب من هذا النوع وربما لأسباب أتفه كثيراً .

وفى يوم أتيت معى بطعام وظللت واقفاً بالقرب من هذه الخيام . وكان فى نيتى أن اقدم هذا الطعام إلى صديقى « حسان » .. إنه أحد الأطفال . أجده لطيفاً وأجدنى حريصاً على أن أجلس معه وأن نلعب معاً . وكان يحدثنى عن الذى تفعله أمه بأبيه .. قال إنها تضربه كثيراً . وقد أدهشنى ذلك . فقد كانت هذه هى المرة الأولى التى اسمع فيها أن أمًا تضرب أباً ..

ولم يظهر « حسان » . والقيت بالطعام إلى الكلاب . وعدت إلى البيت حزيناً . وسمعت والدتى وصديقات لها يتحدثن عن هؤلاء الناس .. هؤلاء الغجر . وكيف أنهم يسرقون الملابس والطعام والطيور وأى شىء . ثم يحملون خيامهم ليلاً . ويذهبون إلى مكان آخر .. فهم لصوص متجولون . وسمعت أن أحداً لا يعرف من أين جاءوا أو إلى أين ذهبوا . إنهم هكذا يعيشون على الحدود .. على حدود المدن .. وعلى حافة المجتمع .. وعلى المسافة الضيقة بين القانون والخروج عليه ..

هل لأنهم غجر هم لصوص ؟ أو هل لأنهم لصوص قرروا أن يكونوا غجراً . أى أن يكونوا مجموعة من الناس تعيش معاً ، وتهرب معاً ، ولاتبقى فى مكان واحد ، حتى لا ينكشف أمرها ، ويعاقبها الناس ..

ولم اشعر لحظة واحدة بالضيق من هؤلاء الناس . أو بهذا الاحتقار لهم . إننى لا أوافق على أنهم يسرقون . ولكن أجد فى اعماقى تحذراً جاهزاً لهذه السرقات . فأقول لابد أنهم محتاجون إلى الطعام .

ولو أعطاهم الناس ، ما سرقوا . ولو كانت لهم بيوت ما سرقوا .. ثم إنهم ليسوا اللصوص الوحيدين . فالذين لهم بيوت يسرقون . والذين يملكون الكثير يسرقون أيضا . إننى لا أنس فزعى يوم رأيت البوليس يلقى القبض على أحد أقاربى وكان ابن العمدة . أما تهمته قد ساعد عدداً من الفلاحين على سرقة جواميس وأبقار ! وسمعت وأنا صغير أن العمدة كان غنيًا وأن هذا هو ابنه الوحيد !!

وفى أول رحلة لى إلى أوربا سنة ١٩٥٠ قرأت فى الصحف الإيطالية أن ملكة الغجر قد ماتت . ولم أفكر فيمن تكون . ولامعنى أن للغجر ملكة . ولكن ركبت القطار إلى حيث بيتها وجنازتها ووقفت فى طابور المعزين . ونزلت الدموع من عينى . ووجدت من يسألنى : من أى البلاد أنت ؟ فقلت : من مصر ..

أى من غجر مصر !

ولا أعرف إن كان الرجل قد أدهشه ذلك . ولكن كنت قد استسلمت لإحساس غريب فى أعماقى . إنهم غجر . وهم لذلك يثيرون العطف والحزن . لماذا ؟ لم أفكر كثيراً فى ذلك .

واتجهت ادرس حياة الغجر تلك الجماعات الضالة فى أوروبا شرقا وغربا ووجدت أن الاغلبية العظمى من الغجر يعيشون فى بولندا ورومانيا .. وأن عدداً كبيراً منهم يعيشون فى إسبانيا ..

ولا أنسى كيف اهتزت أعماقى يوم رأيت فيلم « غراميات كارمن » بطولة ريتا هيوارث وجلين فورد . والقصة من تأليف الأديب الفرنسى ميريميه .. ولا أعرف كم عدد المرات التى رأيت فيها أوبرا « كارمن » . ولا اعرف لماذا ادمعت عيناى أكثر من مرة .. إن كارمن غجرية جميلة وعندها شجاعة وشخصية وجرأة واعتزاز بنفسها . رغم أنها لاتقف على أرض ولاتربطها أسرة طويلة عريضة وتشدها حضارة غربية أو شرقية . فإن ينبوع قوتها ينفجر من أعماقها . وهذا الينبوع يتدفق قوة وجمالاً وجلالاً .. وهى عندما تقف وحدها فإنها مثل مليون امرأة قد تحولت جميعا إلى خلايا حية فى جسم امراة واحدة تكاملت محاسنها ، وتعاظمت مفاتنها ـ هكذا رأيتها .

وكتبت كثيراً جداً عن هذا الفيلم وكيف أن عبارة واحدة قالها بطل هذا الفيلم قد غيرت مجرى حياتى . وجعلتنى أتحول من مدرس فى الجامعة إلى أديب فقط وحريص على أن أظل كذلك . أما العبارة فهى « أن الانسان ليس دائماً ما يفعله .. »

أى أن الإنسان يمكن أن تحكم عليه بما يفعله . لأنه من الممكن ان يكون قاتلاً وهو مضطر إلى ذلك . ويكون لصًا وهو مرغم على ذلك . وكان البطل يفعل بالضبط ما يفعله الغجر . مع أنه ليس غجريًا . ومن الممكن أن يفعل الإنسان أى شىء ، وهو فى أعماقه شىء آخر . ووجدت هذه العبارة تنطبق على حياتى بعد ان تخرجت فى الجامعة . فقد اتجهت إلى التدريس . ولكننى لا أحب ذلك . واتجهت الى الطريق الاكاديمى الجاف القاسى ولكن لا احب ذلك . ولا أقدر على هذا الأختناق المنظم ، العظيم الاحترام .

ولما رأيت هذا الفيلم للمرة الثانية ـ أى بعد ثلاثين عاما لم أجد هذه العبارة التى زلزلت وجودى . لم أجد المعنى الذى يشير إليها ! إذن هذه العبارة قد خرجت من أعماقى . لأنها أعماقى . وجاء هذا الفيلم تفسيراً جميلاً انيقاً لها .. واكتشفت أنى واحد من أبناء الغجر ..

فقد تنقلت طويلاً فى الريف المصرى . كان والدى يعمل فى أماكن كثيراً . ونحن وراءه نجرى ونلاحقه . ونتدحرج على الريف المصرى ولانثبت على

أرض . ولاتثبت لنا علاقات اجتماعية : الأصدقاء والأقارب والجيران .. فكأننا نقيم فى خيام على أطراف المدن . ولأسباب واضحة نضع خيامنا . ولاسباب ليست واضحة نفك خيامنا ونحملها ثم نمض إلى مكان آخر ..

وعرفت طفولتى الخوف معنى « المسافة » .. فأنا على مسافة من الناس . وأنا فى حالة من الخوف . من الذى جعل هذه المسافة بعيدة . لا أعرف . من الذى وما الذى اخافنى ؟ لا أعرف . ولكن لم نشعر بالدفء .. ولم نشعر بالأنس .. لم نجد العشرة .. لم نعرف المودة .. ولاحرارة اللقاء ، ولاثقل الفراق .. لم نر الأيدى تمتد للسلام ، ولا عند الوداع .. فنحن نجىء ولايشعر بنا أحد . ونمشى ولا يدرى بنا أحد .. هل هناك يد تمتد خفية فتنزرعنا فى أرض غريبة ، ثم تمتد مرة أخرى فتنقلنا إلى أرض غريبة .. لم أشعر لحظة أنى نبات زرعوه ثم اقتلعوه .. وإنما كنت أشعر أنى نبات ملقى دائماً بعيداً .. ثم إلى مكان آخر وألقى فيه .. وكان انتقالنا ليلاً . لماذا ؟ لا أعرف ..

وعرفت مع الليل المزيد من الخوف ..

وقد كان بيتنا فى أطراف القرى . وقد رأيت الذئاب والثعالب تعتدى على طيورنا ليلاً . وأحيانا سمعت من أمى أن اللصوص ايضاً .. لقد كنت أحس أننى أتعس حالاً من ابناء الفجر .. فهم قادرون على السطو والسرقة والقتل . فالناس يخافونهم ، وهم لايخافون الناس .. أما نحن فقد كنا وحدنا فى أطراف القرى .. وحدنا فى بيتنا . هان أمرنا على الناس وعلى الذئاب والكلاب .. ومهما أغلقنا الباب والشباك ، فنحن فى خوف من أشياء كثيرة ..

لم نكن جماعة من الناس يشد بعضنا أزر بعض .. وإنما كنا وحدنا .. أسرة صغيرة قلقة حائرة ، مصيرها ليس بيدها . وحياتها ليست من اختيارها ، بل لااختيار لها . عذابها فى أيدى الآخرين .. وإذا جاءها الليل ، زادها فزعاً .. وإذا انتقلت من الخوف الذى تعرفه ، فإلى الهول الذى لاتعرفه ..

وعرفت النظر إلى الاشياء والناس من بعيد .. فكل شىء بعيد .. لأننى اقف وأجلس وأنام بعيداً عن كل الناس .

وعندما كبرت وعندما استقر رأسى على كتفى ، ووجدت ما أملأ به هذا الفراغ ، ووجدت ما يميزنى عن غيرى من الصغار . عندما تفوقت فى الدراسة . وعندما حفظت القرآن الكريم ونظمت الشعر ، أحسست أننى أنتسب إلى فصيلة أخرى من الناس . إلى طراز يعيش بعيداً . ومن الخير أن يكونوا كذلك لكى نرى أوضح ، ونسمع أصفى ، ونفكر أعمق . وليس ذلك سجناً انفرادياً ، ولكنها العزلة المقدسة .. عزلة الرهبان فى الاديرة ، والعلماء فى المعامل . والزعامات فى القمم .. عزلة حيوان اللؤلؤ يفرز مادته الفضية وحده بعيداً عن بقية الكائنات البحرية .. وحدة دودة القز تفرز حريرها .. وحدة الجنين فى بطن أمه .. وحدة

يوسف فى البئر .. وحدة يونس فى بطن الحوت .. وحدة ربسون كروزو فى جزيرته .. وحدة النبى فى الغار .. وحدة علماء المراصد يعلقون عيونهم بين النجوم .. وحدة رواد الفضاء .. وحدة الفنان عندما يبدع ..

وهناك حكمة تقول : « إنه لايقدر على العزلة الكاملة إلا إله أو حيوان .. »

وأنيس منصور لم يستقر فى مجال أو ميدان بعينه فى كل ما كتب من القصة إلى المسرحية إلى المقالة إلى السياسة ، ومن كتاباته عن الوجودية إلى تحليل المرأة إلى محاولة كشف المجهول فى « الذين هبطوا من السماء » « الذين صعدوا الى السماء » ولعنة الفراعنة وأرواح وأشباح إلى أدب الأقوال اللاذعة فى « قالوا » .. إلى التصوف والدين فى طلع البدر علينا والخالدون مائة أعظمهم محمد رسول الله وديانات أخرى الى أدب التراجم « صالون العقاد » الذى عصر فيه لب الحياة فى كأس تغنى عن محيط ، والذى رصد فيه حياته وحياة جيله بين الضياع الفلسفى والضلال السياسى والحيرة الدينية ، فالكتاب قصة حياته فى مواجهة عمالقة العصر الذين ارتبط بهم بعمق وأفلت منهم بعمق أكثر ، محتفظاً بشخصيته المستقلة والقلق سمة من سمات شخصية أنيس منصور النفسية فهو قلق دائماً .. قلق الفنان الكبير .. والتفكير الشديد هى رياضيته اليومية المفضلة وأعمال الفكر فى كل القضايا والمشكلات ..

أما القدرية فهى لصيقة الصلة بشخصيته .. فمن الغريب أن أسعد لحظات أنيس منصور هى أشقاها .

فمن مفارقات الأيام أنه يوم أن حصل أنيس منصور على ليسانس الآداب قسم الفلسفة فى عام ١٩٤٧ وجاء ترتيبه الأول على زملائه بامتياز مع مرتبة الشرف .. جرى إلى منزله ليسعد والده بهذا النجاح الباهر .. دخل عليه حجرته فوجده ميتاً !

ويوم أن عين أنيس منصور رئيساً لتحرير مجلة آخر ساعة ماتت أمه فى نفس اليوم فكان أنيس منصور يتلقى برقيات التهانى والعزاء فى وقت واحد ، وفى اليوم الذى صدر قرار بتعيين أنيس منصور رئيساً لمجلس إدارة ورئاسة تحرير مجلة أكتوبر توفى أستاذه الروحى على أمين .

وفى اليوم الذى عين فيه رئيساً لتحرير مجلة وادى النيل توفيت شقيقته الكبرى فى نفس اليوم فكانت باقات الورود تدخل وسط المعزين فى منزله . فالقدرية مزجت الأفراح بالأحزان فى حياته ..

وكأنما الأغتراب والقدرية هى أقانيمه الثلاثة .. أو هى ثلاثية أنيس منصور ..

مؤسس أنجح مجلة بعد الثورة !

كان عليه أن يشد المستحيل ليصبح واقعاً وأن يشد الواقع ليصبح ممكنا .. فقد تم صدور العدد الأول من مجلة أكتوبر وسط الخوف والفزع والرهبة من التجربة الجديدة ، وتحت وابل من الشائعات تطلقها بعض المؤسسات الصحفية تؤكد جميعها أن هذه المجلة قد ولدت لتموت مع أنها لم تكن قد ولدت بعد ! وأن عدداً « واحدا » سوف يصدر وسوف يعود المحررون والمصورون جميعاً إلى المؤسسات التى جاءوا منها ! وبالعرق والدم والجهد تجمع الجميع من حوله بروح الفريق الواحد لينجح الكاتب الكبير أنيس منصور باقتدار فى إصدار وتأسيس المجلة الوحيدة التى صدرت بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ ، واستمرت تواصل نجاحها فكم من مجلات صدرت وأغلقت بعد الأعداد الأولى أو على أكثر تقدير بعد السنوات الأولى ، ولكن بالإصرار والإرادة والتفانى أصبحت « أكتوبر » من أولى المجلات العربية وأحسنها وأكثرها احتراماً ، وهو لاشك إنجاز كبير ومنفرد يحسب له .. فقد كان أستاذنا أنيس منصور ولايزال قويًا فى غير عنف .. قادراً فى غير صخب .. خلاقاً فى غير ادعاء .. فهو يحتضن الخبر والكلمة والفكرة ويحنو عليها ويقبلها على وجوهها ليقدمها للقارىء من الزواية المفيدة الجديدة .

ولاشك أنك تحس وأنت تقرأ له أن القراءة أصبحت متعة . وقد يحالفك الحظ وتجلس إليه فتشعر أن ثقافته الموسوعية وإنسانيته المتدفقة وإدارته لدفة الحديث بمهارة واقتدار متعة كبيرة لكن متعة المتع كلها أن تعمل معه فهو مدرسة .. ريادة .. إنسان كبير أولاً وأخيراً .. لم يتعال على أحد بل كان ينزل إلى مستوى أصغر عامل يتحدث معه عن أدق مشاكله ، ويحاول أن يجد له الحل ولم يكن مثل البالونات الفارغة إلا من الهواء فلم يعرف الغرور أو التعالى على

المحررين زملائه ، بل قدم لنا أنيس منصور ويقدم من خلال رئاسته لتحرير العديد من المجلات نموذجاً لرئيس التحرير المتفانى فى عمله .. المحب الانسانيــة المتدفقــة . إن رياســة التحرير هـى عـرق يبـذل ودم يسكـــب وأعصاب تحترق .. إنه منصب لايعرف العطلة الأسبوعية ولاساعات محددة للعمل ، فهو يبدأ عمله فى الرابعة صباحاً ولاينتهى منه قبل منتصف الليل .. يأكل وهو صحفى وينام وهو صحفى ويحلم وهو صحفى ! بروح عظيمة وعقل متفتح ، وقلب لم يعرف الحقد إلى قلبه سبيلاً ..

ولقد بدأ أنيس منصور حياته العملية بعد تخرجه فى كلية الآداب قسم فلسفة عام ١٩٤٧ وكان ترتيبه الأول ، فعمل مدرساً بالجامعة ولكنه لم يصمد أمام حبه للأدب والصحافة ، فسرعان ما ترك عمله بالجامعة وكان يمكن للصحافة أن تفتح له أبوابها على مصراعيها ، ولكنه رضى أن يدخل الصحافة من السلم الضيق .. أن يكون محرراً صغيراً .. يكتب .. ويكتب..ولايهم أن يكون اسمه منشوراً ، وبدأ أنيس منصور حياته الصحفية فى جريدة الأساس حيث كان ينشر قصصاً مترجمة فى الصفحة الادبية ، ثم أصبح المحرر الأدبى لجريدة الأساس فجمع بين تحرير الصفحة الأدبية وكتابة القصة القصيرة دون أن يظهر اسمه .

وعندما بدأ يكتب قصة قصيرة اراد أن يندمج فى الحياة أكثر فأصبح يزور الملاهى الليلية بانتظام .. يجلس وحده فى صمت لايكلم أحداً .. وبدأ يكتب قصصاً عن الراقصات كل من قرأها اعتقد أنها مغامرات شخصية لأنيس ولم يعرفوا أنها من وحى خياله وعن بنات أفكاره !

وعاش أنيس منصور جزءاً من حياته الصحفية مع مذكرات عدد من عظماء وزعماء العالم .. فقد قام بترجمة مذكرات روميل أكبر قادة ألمانيا العسكريين خلال الحرب العالمية الأخيرة والذى كان يلقبونه بثعلب الصحراء .. والذى وصل بجيوشة إلى العلمين وهذه المذكرات نشرتها جريدة الأهرام ..

وفى أخبار اليوم ترجم مذكرات دوق وندسور .. ملك بريطانيا الذى باع العرش من أجل قلبه .. منعه الدستور البريطانى من أن يتزوج حبيبته .. لأنها كانت مطلقة .. ولأنها كانت من الشعب .. ولمْ يشأ دوق وندسور أن يتنازل عن حبه .. ولكنه تنازل عن عرش الامبراطورية التى كانت الشمس لاتغيب عنها .

وقام أيضا بترجمة مذكرات الرئيس اليوغسلافى الأسبق تيتو .. زعيم الحركة اليوغسلافية فى مقاومة النازية ورئيس اتحاد الجمهوريات اليوغسلافية .. ومن المدافعين عن فكرة الإرادة الذاتية ومن رواد التعايش السلمى والحياد الإيجابى وعدم الأنحياز .. وترجم أيضا مذكرات مستر واتلى رئيس وزراء بريطانيا .. وكل هذه الـترجـمات نشرت له بدون اسمه .. لم يتعجل ولم يتسرع .. كان يعرف أنه فى حاجة إلى

شهادة جديدة .. تختلف عن الشهادة التى يحملها من الجامعة .. شهادة أرقام النجاح فيها .. يكتبها بالجهد والعرق والأعصاب الذى يبذله .. مر بكل التجارب .. وصمد لكل المتاعب التى صادفته .. كان تطلعه للقمة وئيداً وئيداً .. كان يريد أن يحمل نفسه بنفسه .. لا أن يصعد على أكتاف الآخرين .

إن أنيس منصور يعترف .. إن الصحافة لم تكن ضمن شريط مستقبله .. ولم يخطر بباله يوماً أن يكون صحفيًا ولكن الصحفى كان مطموراً فى أعماق أنيس منصور .. إن محاولاته كانت تهدف إلى البحث عن جريدة تقبل أن تنشر له قصصه التى كان يكتبها .. وإنه بدأ نشر هذه القصص فى الصفحة الأدبية بجريدة الأساس ، وكان هذا فى عام ١٩٤٧ .. وإنه لم يكن يفكر فى أن يحصل على أجر أو مكافأة ولكن بعض زملائه شجعوه أن يطالب بأجر هذه القصص .. قالوا إن الاساس تدفع خمسة جنيهات عن كل قصة .. وكان قد نشر ست قصص .. ومن ثم أصبح مستحقًا لثلاثين جنيها .. وذهب إلى رئيس التحرير .. صحيح أنه لم يقبض مليماً عن هذه القصص .. ولكن رئيس التحرير عرض عليه ان يصبح محرراً للصفحة الأدبية على أن تدفع له الجريدة ٢٥ جنيهاً فى الشهر .. وقبل أنيس منصور العرض .. كان يشترك معه فى تحرير الصفحة زملاء كثيرون .. ووجدهم يتركون العمل فى الأساس .. وبعدها أصبح هو المحرر الأدبى للجريدة دون أن يظهر اسمه ، وحتى عندما انتقل إلى العمل فى روز اليوسف كان قد اختار لنفسه اسماً مستعارا هو « سلفانا ماريللى » وتحت هذا التوقيع سحبت كثيرا من الموضوعات حتى أصبح مشهوراً عند القراء وعند الصحفيين ..

أكثر من هذا ففى عدد واحد من روز اليوسف ظهرت إمضاءات عديدة .. أحلام شريف .. شريف شريف .. منى جعفر .. ولم تكن هذه التوقيعات .. إلا أسماء استعارها أنيس منصور .. وحتى لاتقف عقبة تكرار الاسم فى العدد الأول حائلاً دون نشر موضوعاته ..

وعندما انتقل إلى العمل فى أخبار اليوم .. خشى أن يترك اسم « سلفانا ماريللى » على روز اليوسف .. وإنه لهذا السبب نشر خبراً قال فيه : إن « سلفانا » ماتت فى حادث سيارة ! ولكنه لم يفعل هذا مع أحلام شريف التى كانت تظهر أحيانا على صفحات الملحق الأدبى لجريدة الأخبار !

وفى جريدة الأهرام ظل أنيس منصور يكتب القصة القصيرة التى كانت تنشرها فى صفحتها الأخيرة وبلغ عددها ٥٠٠ قصة .. نشرت كلها بدون إمضاء !
ولعله غريب وعجيب .. أن يكون أنيس منصور هو محرر الصفحة النسائية التى كانت تنشرها الأهرام فيما بين عامى ١٩٥٠ و ١٩٥٢ .. وإنه رغم جهله بالموضة فى تطوراتها فى ذلك الوقت .. وأسماء الفساتين والأزياء .. وكان

يقضى أياما يتردد فيها على بيوت الأزياء .. ويستعين بعدد من مصممى الأزياء لترجمة مصطلحات الموضة !

وقد نجحت هذه الصفحة فى كسب ثقة عدد كبير من القارئات .. وكسبت الأهرام أرقاماً جديدة فى توزيعها !

وكان أنيس منصور أول صحفى فى العالم كله يقابل الدلاى لاما إله التبت شخصياً ويأخذ منه الزكام !

وكان أول صحفى فى الكرة الأرضية يصور أم الإلة .. ويقابل هذا الإلة الشاب الذى وقع عليه الاختيار ليكون إلها فهو إلة بالاختيار .. أى أن الناس لم يولدوا ليجدوا أنفسهم مؤمنين به وإنما انتظروه وتوقعوه وآمنوا به .

أما كيف يختارون قداسته ؟ فهذا سر من أسرار الرهبان الذين يحكمون هذه البلاد حكماً حقيقياً .. فهؤلاء الرهبان يختارون من بينهم واحداً ولابد أن يكون هذا الواحد أكبرهم سناً وأكثرهم صلعاً !

وقد صدر أخيراً كتاب للزعيم الروحى للتبت الدالاى لاما « بلادى وشعبى » يصف فيه المعاناة التى تعرض لها وقصة هروبه إلى الهند وحياته فى المنفى ويقول فيه « إننى بالرغم من الجرائم الوحشية التى ارتكبتها السلطات الصينية فى بلادنا .. لست أحمل فى صدرى أى كراهية للشعب الصينى .. إن الصينيين ليسوا أعداءنا بل أعداؤنا الحقيقيون هم بعض الصينيين الشيوعيين ، فالجرائم الوحشية التى وقعت فى التبت ارتكبها صينيون لا أخلاق لهم وصينيون من أحقر مستوى .. إنهم نسبة صغيرة من الجنود والمسئولين الشيوعيين .. ولاشك أن أغلب الصينيين سيشعرون بالعار إذا علموا بهذه الأعمال .. ولكنهم دون شك لايعلمون عنها شيئاً ويجب ألا نسعى إلى الانتقام من أولئك الذين ارتكبوا هذه الجرائم ضدنا أو نرد على جرائمهم بجرائم مثلها فواجبنا أن نساعد مرتكبى هذه الجرائم على أن ترتفعوا من الحضيض ويصلوا إلى النور بدلاً من أن نتركهم فى ظلمات الجهل .. لقد استمرت الشيوعية الصينية ١٢ عاماً ولكن عقيدتنا استمرت ٢٥٠٠ عام ونحن واثقون من أنها سوف تستمر إلى أن يظهر بوذا آخر !

إن أمل كل البشر هو راحة البال وأملى أنا يتمثل فى شجاعة شعب التبت وفى حب العدل الذى مازال متغلغلاً فى قلوب الجنس البشرى ، كما أننى أؤمن برحمة خالقى ! »

وقد حاول أنيس منصور أن يقابل الدالاى لاما فى منفاه الجديد فى الهند ، وعندما طلب أن يقابله رفضت السلطات فذهب إليه فى بيته ورفض الحراس أن يقابله ثم قابل وزراءه وادعى أنه مريض قادم من مصر وأن شفاءه على يديه .. ونقلوه على محفه .. وهو ملفوف بكل ما عنده من بطاطين فى عز الصيف وكان الجو بارداً جدًا فوق الهملايا ..

وجاءت الريكشا وتمدد عليها أنيس منصور ملفوفاً بالبطاطين وملفوفاً بالفوط والبشاكير ، وارتفعت حواجب الناس من الدهشة فقال لهم بصوت غير واضح : إننى مريض وعلاجى الوحيد عند قداسة الدلاى لاما ..

وبين طيات ملابسه توجد كاميرا ..

أما الرجل الذى يحمل الريكشا من الخلف فهو مصور محترف وقد استدرجه أنيس منصور إلى هذه المنطقة بين الجبال وراء أمل براق جدًا وهو أنه موفد من إحدى شركات السينما العالمية لعمل فيلم عن الدلاى لاما .. ووعده بأنه سيكون ضمن الذين سيشتركون فى تصوير هذا الفيلم .

وعلى المحفة صعد السلم ..

ويصف لك أنيس منصور ببراعته المعتادة فى الوصف البيت وتكوينه فى وصف دقيق ، فالسلم من خشب كسلالم البيوت الإنجليزية ، ومفروش عليه سجاد من جلود الأغنام أو الجمال أو حيوان السلاما .. ولكن الخشب والجدران نظيفة كلها ، وتفوح منها رائحة البخور وكل شىء ..

ثم انفتح باب صغير .. وعند انفتاحه انحنت الرءوس التى ظهرت فجأة .. وتقدم الدلاى لاما ..

شاب متوسط القامة .. لامع الوجه والابتسامة أيضاً وصوته غليظ وشعر رأسه قصير ، ويمشى مرفوع القامة ويغمض عينه اليسرى عند الضحك وهو لا يضحك وإنما يقهقه ، ولم يكد يرى أنيس منصور حتى تعالت ضحكاته ووضع يده على أنفه !

.. ثم اتجه مباشرة إلى كرسى وثير وجلس واضعاً شبشباً على شبشب .. فبعد أن جلس خلع الشبشب الذى يرتديه .. ثم وضع واحداً منهما على الآخر .. تماماً كما يحدث فى الريف عندما يتشاجر الاورد فيضعوا طوبة فوق طوبة دلالة على أن المعركة مستمرة .. طوبة فوق طوبة تبقى المعركة منصوبة !

ولاحظ أنيس منصور أن قدمى قداسته لاترقى إلى المستوى اللائق ، ثم إن أظافره مصبوغه بلون أصفر ..

ثم نزع أنيس الأغطية بعد أن أحس بأنه خنق نفسه من غير مبرر وأن بعض هذه الأغطية كان يكفى للضحك على الحراس فقط .

وجلس الى جوار الدلاى لاما لكى تظهر له أول صورة نشرت له فى العالم العربى أو أول صورة تنشرها : أخبار اليوم « للدلاى لاما وأنيس يبتسم له ، وهو أيضا وبسبب ابتسامته أنه روى له نكتة وسبب ابتسامته أنه يضحك عادة .

ثم سأل الدلاى لاما : كيف هربت من التبت إلى الهند ؟

فأجاب بصوت غليظ : سر

ثم سأله : هل أخذت معك كميات من الذهب ؟

فأجاب : سر

فقال : هل تنوى نشر مذكراتك بعد ذلك ؟

فأجاب : سر

فسأله : ما سر حرصك على أن يكون كل شىء سر ؟

فأجاب : سر .

فقال له أنيس منصور : ولكن كل شىء معروف عنك .. فمعروف عدد رجالك وماذا تأكلون وماذا تشربون ؟ إن الذين يقولون حراستك هم الذين ينشرون أخبارك فى كل مكان .

فأجاب : إننى أعرف ذلك ..

.. إذاً لايوجد أى سر .

فضحك الدلاى لاما : هل أستطيع أن أعرف كيف تعيش هنا ؟

وأشار الدلاى إلى ملابسه وإلى غرفة فى مواجهته وضحك .

وهنا التفت أنيس إلى المترجم يسأله إن كان المقصود هو أن قداسته قد زهق إنه كاد يطلع من هدومه ! .

ثم سأل الدلاى لاما : هل جاء دورك لكى تختفى فى سن الثالثة والعشرين كما هى العادة ؟ أو وجودك فى بلاد أجنبية يجعلك تعدل عن هذه العادة ؟

وضحك ..

وقبل أن ينطق قال : هذا رأى الصحف الصينية !

ثم سأله : ماهى حدود قدرتك كإله ؟

وأشار إلى الغرفة الضيقة .

والتفت المترجم يقول : إنه يصلى دائما .

أى أنه يطلب من آلهة أكبر أن تعاونه على أداء رسالته ..

يعنى هذا الدلاى لاما غلبان مثلنا !

وكما صور الدلاى لاما والتقطت له عدة صور معه فقد سمح له قداسته أن يصور صاحبة القداسة والدته ؟

ويقول الكاتب أنيس منصور : وبنفس السيارة الطويلة العريضة عدت إلى نيودلهى ، وفى ركن من السيارة بدأت أقرص نفسى لأتاكد إن كنت حيًا أو ميتاً فلم أصدق نفسى وأنا اقول باللغة العربية : أول صحفى فى الكرة الأرضية وفى العالم كله يقابل الدلاى لاما شخصيًا ويأخذ منه الزكام ، ومن المؤكد أننى أول صحفى فى الكرة الأرضية يصور أم الإله ولو طلبت منى أن أتزوجها لوعدتها فوراً !

وكان أنيس منصور أول رئيس تحرير يختاره زملاؤه لهذا المنصب !

فقد أبلغه الكاتب الكبير على أمين تليفونياً وهو فى روما فى رحلته حول العالم بأن زملاءه قد أجمعوا على اختياره رئيساً لتحرير مجلة الجيل .. وهذا الاختيار فى رأيى هو أصدق قرار صدر لأنيس منصور .

ولقد نجح أنيس منصور فى مهمته الصغيرة كرئيس لتحرير مجلة الجيل ، فلاشك أن رئيس التحرير يعتبر الدنيامو الذى يحرك العمل الصحفى فى الصحف ، وإلى جانب ذلك فهو مسئول عن جميع المواد التى تنشرها صحيفته سواء اكانت أنباء أم تعليقات أم موضوعات فكرية أم تحقيقات .

إن الصحفى الإنجليزى الكبير ديكهام ستيد يشبه دور رئيس التحرير بدور رئيس الفريق الرياضى فمهمته تزويد معاونيه بالأفكار ووضعها موضع التنفيذ ، وعلى مسئوليته تقع مهمة تحديد سياسة الصحيفة ، بعد أن يكون قد سبق وتناقش فيها مع أعضاء مجلس الإدارة أو مع اللجنة التى تتولى الإشراف عليها ، وعليه أن يشرح لمعاونيه خطوط ومبادىء هذه السياسة بحيث يستطيع الكل فهمها وقبولها بمحض رغبتهم . ولما كانت المسئولية الصحفية كلها واقعة عليه حتى الأخبار والآراء التى تنشر فيها دون علمه فيتحتم عليه أن يضع ثقته التامة فيمن يختارهم من المحررين ، لذا وجب عليه ألا يسند إليهم أى

عمل فى جريدته إلا بعد أن يختبرهم تماما ليكونوا موضع ثقته ، وهيئة التحرير الناجحة هى الهيئة التى تكون فيها الثقة متبادلة بين المحررين جميعاً ، وليست مهمة رئيس التحرير أن يكتب فقط ، بل أن يجعل غيره يكتب وهذه مهمة شاقة تحتاج إلى كثير من الاستعداد تتكدس على مكتبه أصول المقاولات والأخبار فيقوم باختيار الصالح منها ، كما ترد عليه المقالات التى يرسلها رجال السياسة فينشر منها ما يتفق وسياسة صحيفته ويعتذر عن عدم نشر مالا يراه موافقاً . إن مركزه فى هذه الاحوال أكثر المراكز دقة وحرجاً لاسيما إن كان الأمر متعلقاً بمقال كتبه أحد اصحاب النفوذ ، ومن الواجب عليه أن يخلق جوًا ملائماً بين المحررين . إن المحرر الفذ لابد من أن تكون له شخصية قوية متحررة فيحدث كثيراً أن تصطدم هذه الشخصيات القوية المتمردة بعضها ببعض ، فيسود هيئة التحرير جو خانق تضطرب فيه أمور الصحيفة وتتعقد لولا حكمة رئيس التحرير ومرونته ولياقته فيبادر إلى وضع الأمور فى نصابها وعليه الا يكون ليناً فيعصر ولا صلباً فيكسر ..

ولقد أرسل الكاتب الكبير مصطفى أمين رسالة إلى الكاتب أنيس منصور بمناسبة تعيينه رئيساً لتحرير الجيل .. الخطاب كتب عليه بالخط الأحمر « سرى جدًا ! »

عزيزى أنيس :

إنك ستتولى رئاسة تحرير مجلة « الجيل » ولاتتصور أننى أكتب لك خطاب تهنئة !

إننى أعرف أكثر من غيرى ماهو منصب رئيس التحرير .. إنه أكبر « خازوق » فى الصحافة ولا أريد أن أهنئك بالجلوس فوق الخازوق إن رئاسة التحرير هى عرق يبذل ودم يسكب وأعصاب تحترق . إنه منصب لايعرف العطلة الأسبوعية ولا الإجازة السنوية ولاساعات محددة للعمل . إن رئيس التحرير هو صحفى لمدة ٢٤ ساعة يأكل وهو صحفى وينام وهو صحفى ويحلم وهو صحفى أيضا - إنه مزيج من مخرج السينما وقائد الأوركسترا وأستاذ فى جامعة «ومترودوتيل» فى فندق ، وبواب فى عمارة ، وترجمان للسياح وبهلوان . فكما أن مخرج السينما يجب أن يوزع أدوار القصة على عدد من الممثلين الممتازين ويختار لكل شخصية الوجه الذى يصلح لها ، فكذلك يجب على رئيس التحرير أن يوزع على المحررين أدوارهم وأن يحرص على أن يغير الوجره ويبدلها ، فإن القارىء مثل جمهور السينما يمل أن يرى كوكباً واحداً يتولى البطولة فى كل قصة ويملأ وحده الشاشة البيضاء !

وكما أن قائد الأوركسترا يحرص على أن تنسجم النغمات فلا تضيع أنغام الناس مع دقات الطبول ، فكذلك يحرص رئيس التحرير على أن تكون مجلته أنشودة متناسقة منسجمة تتعانق فيها الأنغام مع الألحان !

وهو يجب أن يقرأ كما يقرأ أستاذ الجامعة يدرس ويبحث وينقب- ولكن حذار أن يظهر أمام القارىء فى صورة الأستاذ ، فالقراء يكرهون أن يجلسوا فى مقاعد التلاميذ وهم إذا شعروا أن الكاتب يلقى عليهم المحاضرات والدروس هربوا منه الى السينما تماما كما كنا نهرب من دروس الجامعة ونذهب الى المحاضرات الساعة العاشرة صباحا فى سينما ايديال وكورسال .. !

والمطلوب من رئيس التحرير أن يعطى للقارىء صورة للدنيا التى يعيش فيها وللدنيا التى سوف يعيش فيها أن يترجم له الأحداث المقبلة . وقد انتهى عصر رئيس التحرير المحلى الذى لايعرف سوى حدود بلاده ، وبدأ عصر رئيس التحرير العالمى الذى طار إلى كل بلد وأطل على الدنيا من مختلف نوافذها ، وأصبح له فى كل عاصمة أصدقاء واتصالات ومصادر أخبار ورئيس التحرير مثل البهلوان يسير دائما فوق سلك مشدود ، أى غلطة صغيرة تهوى به وأى زلة قدم تسقطه وتسقط الجريدة التى يحملها على رأسه .

وهو يخطىء إذا صدق التصفيق أو إذا ذعر من الصفير إن رئيس التحرير يجب أن يمضى فى طريقه يكتب ما يؤمن به سواء أرضى القراء أو أغضبهم .. إن رئيس التحرير الكفء لايمشى خلف المظاهرات وإنما يسير أمامها ولايجرى

وراء الشرفة وإنما هو يعزف ألحانها فترقص الجماهير على أنغامها .. ! إنه لايدخل المعارك بعد أن يتأكد من نتائجها وإنما يشترك فى المعركة بغير أن يهمه أن يرفع فوق الرءوس أو يداس بالأقدام مادام مؤمناً بأنه يكتب ما يعتقد وسداد قلمه من دمه وروحه وأعصابه .. !

وأنت اليوم ستجلس على مقعد رئيس تحرير « الجيل » وهو مقعد موضوع فوق صينية اللونابارك ، هذه الصينية التى تدور وتدور وتسرع وتسرع وتلقى فجأة بالواقف على الأرض ذلك أن الحياة الصحفية لاتستقر ويوم تقف الصينية فمعنى هذا أن المجلة هدأت .. ثم هوت ! والصحافة لاتعرف الهدوء ولا الاستقرار إنها عجلة هائلة تدور بأقصى سرعتها وهى لا ترحم الذين يريدون الراحة أو يؤثرون الجمود !

إننى متفق على أنه يجب أن تختلف مجلة « الجيل » عن مجلة « آخر ساعة » أن تكون أكثر جرأة وتطرفاً واندفاعاً وشباباً وأنا أتمنى أن تتجه « الجيل بسرعة » إلى أن تكون مجلة المنطقة كلها وليست مجلة مصرية فقط أو مجلة عربية فقط ..

إننا نعيش الآن فى عصر جديد .. إن الحرية دخلت إلى كل البلاد التى حولنا .. إن الشعوب استيقظت على صوت الطبول التى فزعناها .

« فالجيل » يجب أن تكون مجلة الأحرار فى كل مكان ومجلة المتمردين فى كل مكان أن تعالج الموضوعات بروح المنطقة كلها لا بالروح المحلية الضيقة ولابالنظرة الإقليمية المجردة .. يجب أن تكون سفيرة لنا فى هذه البلاد فى بلادنا .. فإذا كتبت عن الرياضة مثلا نشرت صور أبطالها فى كل مكان فى المنطقة .. واذا كتبت عن الفن أو المرأة كتبت عن الفنانين فى هذه المنطقة الضخمة .

عندما تغنى أم كلثوم فى حفلة أول خميس من كل شهر تستطيع أن تسوق سيارتك من الخليج العربى على المحيط الهندى إلى المغرب على المحيط الأطلنطى فتسمع صوتها على طول الطريق بغير أن تفتح جهاز الراديو فى سيارتك ذلك ان أم كلثوم تغنى لمنطقةباسرها.. ! وكذلك أتمنى أن تكتب « الجيل » لمنطقةباسرهاوأن تكون « الجيل » هى .. أم كلثوم الصحافة .. !

يا صديقى أنيس ..
ابدأ فى العزف ..... وكلنا سنغنى معك !

مصطفى أمين .

إن هذا الخطاب أصبح فيما بعد هو دستور الصحفيين .. كان هو البوصلة التى تحدد الاتجاه الصحيح لربان الصحيفة .. أى صحيفة فى مواجهة أنواء الفشل وأمواج التوزيع وعواصف المنافسة العتيدة !

ولقد حقق أنيس منصور سطوراً كثيرة من هذة الرسالة فقد حقق نجاحاً عملياً وانسانياً منقطع النظير فى مهمته الشاقة كرئيس تحرير فى المجلات التى رأس تحريرها فى الجيل وهو وهى وآخر ساعة .

ولقد فوجىء أنيس منصور وكان عائدا مع الرئيس السادات من رحلة جوية قادمين من السعودية إلى القاهرة بسكرتيره الخاص يدعوه إلى لقاء مع الرئيس في كابينته .. وبادره الرئيس السادات قائلاً : أنا عاوزك تطلع مجلة ٦ أكتوبر يا أنيس ..

وكانت هذه أصعب عبارة سمعها أنيس منصور فى حياته فإصدار مجلة جديدة فى مصر معناه أنها سوف تكون الأولى فى عشرين عاما . فلم تصدر فى هذه الفترة مجلة كبيرة لأى سبب ومن أية جهة . فإذا كان تطوير مجلة يمثل صعوبة لرئيس تحرير فإنه قمة الصعوبة هى إنشاء مجلة جديدة الشكل والمضمون ، وقد سبق تكليف الرئيس السادات بعض المشاورات عام ١٩٧٦ عندما سمع كل من على حمدى الجمال رئيس تحرير الأهرام فى ذلك الوقت وإحسان عبد القدوس ومحمود أبو وافيه عن تفكير السادات فى إصدار مجلة جديدة تحمل اسم ٦ أكتوبر أو العاشر من رمضان ، ووقتها كان أنيس رئيساً لتحرير مجلة آخر ساعة ، وكان اقتراح على الجمال أن تصدر المجلة ــ إذا صدرت ــ من الأهرام وقد اعتبر أنيس ذلك تفكيراً بصوت عال لاعلاقة له به .

ومرة أخرى كان الرئيس السادات فى زيارة للسعودية واستدعى أنيس فى حجرته وكان بملابس النوم وأخرج من تحت المخدة ورقة وقال لأنيس :

« أنا عاوز هذه الأبواب تكون فى مجلة ٦ أكتوبر »

ولم تكن لدى انيس منصور وقتها أى فكرة عن اسم المجلة أو شكلها أو حجمها أو سياستها أو ميزانيتها أو الجهة التى تصدر منها .. وفي أول الامر كان من المقرر أن تصدر المجلة من جريدة الأهرام وأعيد تجديده من أجل محررى المجلة وبدأ أنيس منصور يتصل بإسماعيل فهمى وكان له ملاحظات على شكل المجلة وعلى اسمها فكان من رأيه أن تسمى مجلة أكتوبر وليس ٦ أكتوبر !

ووضع انيس منصور عشرات المجلات أمامه فيختار منها شكلاً مميزاً للمجلة الجديدة .. وضع أمامه المجلات الألمانية شترن وكويك وبونته وبوردا والفرنسية لوبوان وبارى ماتش والمجلات الإيطالية الاويروبيو وابوكا .

ونشر هذه المجلات أمام عينيه وتوقف أمام تبويبها وموضوعاتها وألوانها وصورها وأغلفتها وكذلك المجلات العربية وكان لابد ان يخرج بتصور واحد من كل هذه الأنواع أى من كل تجارب الشعوب الأخرى واجتهاداتها فى أن تكون مجلة جديدة ذات طابع خاص ..

وتنوعت أشكال وأحجام كلمة ٦ أكتوبر ثم اختار شكلاً للاسم من بين عشرات الأشكال والألوان والأحجام ..

وقد فوجىء أنيس منصور فى مؤتمر صحفى فى فيينا بمن يسأل أنور السادات متى تصدر مجلة أكتوبر ؟ فأجاب عليه السادات بقوله : لقد اتفقت مع أنيس منصور أن تصدر فى ١٥ مايو أى بعد ٤١ يوماً من تاريخ التصريح ، ولم يكن السادات فى الحقيقة قد اتفق مع أنيس منصور .. وهل من الممكن إصدار مجلة خلال أربعين يوماً !

وكان الرأى بعدها أن تصدر المجلة فى ٢٢ يوليو واستغرق إعداد المجلة وقتاً طويلا وأثناء المؤتمر الافريقى الذى عقد فى فندق هيلتون وكان للسادات جناحاً فى الفندق أبلغ أنيس بأن المجلة لابد أن تصدر يوم ٦ أكتوبر ..

وصدر القرار الجمهورى بأن يكون أنيس منصور رئيسا لتحرير مجلة ٦ أكتوبر ورئيساً لمجلس إدارة دار المعارف كبرى دوز النشر فى العالم العربى وأكثرها احتراماً ..

وفى دار المعارف لم يجد مكاناً لهيئة تحرير المجلة ، وهنا برزت الروح الطيبة فى دار المعارف .. وأفسحوا غرفة وراء الأخرى ثم طابقاً واثنين .

وكا لابد أن يأتى المحررون من كل المؤسسات الصحفية الأخرى .. من كانوا تلاميذ أنيس منصور فى الجامعة ومن كانوا أصدقاءه ومن كانوا زملاءه فى الأخبار وآخر ساعة .

فى البداية كل الذين سارعوا كانوا السكرتيرية الفنية لآخر ساعة وبعض المحررين الذين كانوا فى بداية حياتهم الصحفية .

ولم يكن فى البداية من كبار الكتاب سوى إحسان عبد القدوس ثم نشر نجيب محفوظ روايته الحرافيش مسلسلة فى المجلة .

وبدأ المحررون يتجمعون واحداً وراء الآخر حتى أصبحوا ثمانين محرراً وسكرتيراً فنيًا ومصوراً ومراجعاً ومصححاً وفنيين فى المطابع .

ولم يكن لهذه المجلة : مكتبة ولا أرشيف للموضوعات ولا أرشيف للصور — أى ليست لهذه المجلة « ذاكرة » .. وليست لها ذاكرة لانه ليس لها تاريخ فما تزال جنيناً فى عالم الغيب !

وكان لابد، لأنيس منصور أن يستغل ويستثمر الرئيس السادات فى تشجيعه للمجلة فذهب وعرض عليه عشرين عدداً مكتوبا قبل أن يصدر من المجلة عدد واحد .

وأبدى الرئيس السادات ملاحظات نافذة على صفحات المجلة وقدم أبواباً جديدة ولم يفته أن يقول كلمة لتشجيع أنيس فقال له : لست متعجلاً .. الوقت لايهم .. خذ وقتك .. المهم أن تنجح وتستمر . فليس من الممكن أن تنجح المجلة من أول عدد ـ وإن كان هذا هو ما حدث ـ ولكن يجب أن يصبر على أعدادها الأولى واحداً بعد واحد وأن يتلقى ملاحظات القراء والصحفيين المحترفين ، وأن يجمع هذه الملاحظات وأن يدرسها وأن يعدل مسار هذه المجلة أولاً بأول ..

وقد واجهت المجلة حملة ضاربة قبل صدورها من المؤسسات الصحفية المنافسة فأطلقوا أن المجلة اسمها أكتوبر وستغلق فى نوفمبر . وأنها يجب أن تسمى يوم الأحد « ٦ أكتوبر » ويوم الجمعة « ١٠ رمضان » وأمام هذه الحملة الضاربة التى أتعبت نفسية المحررين طلب أنيس منصور من السادات أن يتوجه بحديث إلى المحررين لرفع معنوياتهم !

ولقد هنأ السادات وبارك المجلة الجديدة التى أساسها الثقافة والعلم والفن وليس صحافة تصفية الحسابات القديمة . .

ولقد جمع أنيس منصور وأدار عليهم شريطاً مسجلاً عليه هذه التهنئة للمجلة الوليدة بصوت السادات !

وكان من الصعب على المحررين أن ينطلقوا فى المؤسسات الصحفية الأخرى ليعلنوا ذلك . فصدر قرار من الرئيس السادات بأن تذاع هذه التهنئة فى الإذاعة والتليفزيون وتنشر فى جميع الصحف والمجلات يوم صدور المجلة . وقد كان .. وكان للمجلة بهذا التسجيل شهادة ميلاد ، مختلفة عن المجلات الأخرى !

وصدر العدد الأول من مجلة أكتوبر فى ٣١ أكتوبر عام ١٩٧٦ .

ولقد واجهت مجلة أكتوبر صعوبات كثيرة على مدى أكثر من تسع سنوات أى خلالها أنيس منصور رئاسة تحريرها كانت أخطرها حين قرر أنور السادات ـ بعد .. أن أصبحت المجلة ناجحة بالفعل ـ أن تصبح مجرد ملحق تابع لجريدة مايو ، فالسادات كان مشغولاً جدًا بثورة مايو . وكان فى رأيه أن الزعامة السياسية لابد أن تقترن بثورة . فإذا كان عبد الناصر صاحب ثورة يوليو فلابد هو الآخر أن يكون صاحب ثورة مايو ، وكان حريصاً على أن يكون ذلك .. صحيح أنه اتخذ قرار حرب أكتوبر ولكن فى مايو كان أنور السادات القائد والمحارب معاً أما فى أكتوبر فالأمر يختلف فكان إلى جانبه عدد كبير من القادة والمقاتلين

والمهندسين وهم بالتأكيد أصحاب اليد الطولى فى البطولات التى تحققت .. إذن فمايو كانت الثورة وهو كزعيم عاش الثورات كان يتمنى أن يكون قائد ثورة .

وقد فاتح الرئيس أنور السادات الكاتب أنيس منصور فى رغبته أن تصبح مجلة أكتوبر ملحقاً مصوراً لجريدة مايو..

ولشدة ما أحزن ذلك أنيس منصور فقد أحس بعد أن نجحت المجلة أن كل جهوده سوف تذهب أدراج الرياح !

وبعد أن أصبحت مجلة أكتوبر من أولى المجلات العربية بالإصرار والعرق والجهد الكبير، سيضيع كل هذا وتصبح مجرد ملحق تابع لمشروع لم يولد أو يتحقق بعد، لهذا فقد استأذن أنيس منصور الرئيس السادات فى مقابلته مع محررى أكتوبر.. وبعد أن سمح الرئيس بهذا اللقاء.. ذهب ومعه جميع المحررين والسكرتارية والمصورين وعددهم حوالى ٨٠ إلى ميت أبو الكوم دون أن يعرفوا سبب الزيارة غير أن الرئيس يريد أن يلتقى بهم !

وكانت مفاجأة كبيرة أمام السادات أن يرى كل هذا العدد الكبير فقدهش السادات وأشفق من أن تتحول هذه الطاقة الهائلة إلى مجرد طاقة معطلة لاتصدر إلا أربع صفحات من جريدة !

وقال السادات لأنيس عبارته الشهيرة :

أنت يا أنيس لم تجعلنى أحمل هم أكتوبر كما يفعل الآخرون معى فى مايو !

فرد عليه أنيس قائلاً :

إننى أشعر يا سيادة الرئيس وكأننى شهرزاد فى ليلتها الأخيرة من ألف ليلة وليلة فهى بعد أن انتهت من سرد حكايتها التى بلغت ١٢٥ قصة روتها على مدى ألف ليلة وليلة

قلت له يا مولاى : والآن أقدم إليك أولادى الثلاثة !

فقد أتضح أن شهر زاد قد أنجبت ثلاثة أولاد دون أن يلاحظ شهريار انها حملت أو وضعت أو شغلته بأى مشكلة من كل هذه المشاكل .

فضحك أنور السادات طويلا .

وكما جاء فى بعض الروايات أن شهريار لم يأمر سيافه مسرور بأن يطير رقبة شهرزاد كما فعل مع بنات جنسها من قبل، لم يضع السادات جهود أنيس وزملائه سدى بأن يصدر قراراً بكلمة لإغلاق اكتوبر وتحويلها إلى ملحق لصحيفة !

وقد تناولت العديد من الدراسات والوسائل الجامعية تأثير شخصية أنيس منصور رئيس التحرير على مجلة أكتوبر، ومنها رسالة الماجستير التى كان قد تقدم بها الدكتور محمود علم الدين مدرس الصحافة بكلية الإعلام جامعة

القاهرة الآن لنيل درجة الماجستير فى عام ١٩٨٠ وموضوع الرسالة « الفن الصحفى فى المجلة العامة مع دراسة تطبيقه على المجلات المصرية العامة « المصور ـ آخر ساعة ـ أكتوبر » .

وقد خرج فى رسالته بالنتائج الاتية :

« بتحليل الجوانب المختلفة لشخصية أنيس منصور رئيس تحرير مجلة « أكتوبر » الثقافية والسياسية والمهنية واهتماماته المختلفة وتاريخه الصحفى وخبراته وتصوره لدور المجلة ووظيفة رئيس التحرير ، نجد أنه قد نجح فى أن يضفى على المجلة كل ملامح شخصيته المميـزة ، وظهر ذلك فى الجوانب المختلفة فى الفنّ الصحفى : فى تحريرها وإخراجها ومضمونها وإدارة العمل بها وحتى الإعلانات الموجودة بها وذلك بالشكل التالى :

أولاً : عمل أنيس منصور فى معظم الدراسات الصحفية المصرية وتأثر بها فى « الأهرام » و « روز اليوسف » و « أخبار اليوم » و « دار الهلال » ورأس تحرير ثلاث مجلات هى « الجيل » و « هى » مع على أمين و « آخر ساعة » لذلك نجد مجلته تجمع فى دفيتها ما بين وقار واتزان « الأهرام » فى المقالات السياسية والتحليلات العميقة والأسلوب الساخر وتوظيف الرسوم الخاص بـ « روز اليوسف » وتوظيف اللون والصورة ـ وإن كان طبع المجلة بطريقة الطباعة من السطح الأملس لم يشجعه على ذلك ـ بشكل مؤثر فى الأجزاء الملونة من المجلة والمطبوعة على ورق كوشيه والحيوية والرشاقة والسلامة فى الموضوعات الاجتماعية والمنوعة والإيقاع السريع الذى تتسم به المجلة بشكل عام .

ثانياً : عمله فى جريدة « الاساس » ثم « روز اليوسف » و « الأهرام » كمحرر لفترة طويلة دون أن يظهر اسمه أو كتابته بأسماء مستعارة مثل « سلفانا ماريللى » أو أحلام شريف مازال يسيطر عليه فنجده فى بعض الأحيان يختلق أسماء وهمية ويكتب بعض الموضوعات ويوقعها بها أو يوقع بأسماء محررين آخرين فى مجلته .

ثالثاً : دراسته للفلسفة فى بداية حياته وتدريسه لها لفترة ثم الكتب والدراسات والتأملات التى الفها جعلته يهتم بالجانب الفكرى فى المجلة ، والتأملات الفلسفية والمضمون الذى يعالج قضايا الفكر والثقافة ، ومع ذلك لم يزد عن ٢,٥ من المضمون العام للمجلة !

رابعاً : اهتمامه بالإسرائيليات وبقضايا الصراع العربى الإسرائيلى وبالفكر اليهودى جعلـه يخـصص ٨,٢ مـن مساحـة المجـلة للجـوانب السياسيـة للصراع العربى الإسرائيلى ، بالإضافة إلى الزواية المختلفة لهذا الصراع اقتصادياً

وعسكريا وحضاريًا وغيرها مما أعطى فى النهاية رؤية متكاملة وحضارية للصراع العربى الإسرائيلى .

خامساً : تصوره لوظيفة رئيس التحرير أنه صاحب التصور الأساسى الخاص بالمجلة وأنه المسئول عن التنفيذ جعله يتدخل فى كل كثيرة وصغيرة فى المجلة ، بدأ بالتفكير فى الموضوعات وتكليف المحررين حتى تصميم الغلاف واختيار الصور وكتابة تعليقها ومراجعة كل الموضوعات ، وتكليف المحررين ببعض الموضوعات وتلقيها منهم وإعادة صياغتها أو تغيير عنوانها فقط جعل المجلة كلها تصبح نتاجاً لفكره وتصوره واهتماماته وخطتها كلها فى رأسه ، وأثر هذا فى تفكير محرريه فأصبح أسلوب تفكيرهم وأفكار موضوعاتهم وحتى عناوينها يتفق مع فكره ورؤيته .

سادساً : إجادته لأكثر من لغة أجنبية ساعدته على الاطلاع على الجرائد والمجلات الأجنبية ، ونقل بعض الأفكار عنها سواء فى مضمون أو شكل المجلة وتبويبها ، ولعل نظرة إلى إخراج المجلة توضح مدى تأثرها بالمجلات الفرنسية وخاصة باب اتجاه الريح والأسلوب الجديد الذى تقدم به مسابقة الكلمات المتقاطعة وأبواب التسلية والمسابقات يقترب من أسلوب بعض المجلات الفرنسية فى ذلك ، ونجد التأثر أيضا فى وصفه لتاريخ صدور العدد ورقم العدد واسم المجلة أسفل كل صفحة من صفحات مجلة أكتوبر ، وهناك ميل للتجديد والتغيير والمستمر فى كل شىء فى المجلة كنتيجة طبيعية للاطلاع على المجلات الأجنبية التى تصدر بالإنجليزية والفرنسية والإيطالية والألمانية .

سابعاً : اهتمامه بالكتب والاطلاع على الأحداث منها باستمرار جعله يفرد مساحات كبيرة من المجلة لها تقدر بحوالى ١١٪ من المضمون العام للمجلة فى مجالات متنوعة .

ثامناً : قربه من مراكز صناعة القرار السياسى فى مصر وصلاته الوثيقة بالرئيس أنور السادات جعلته ينجح فى أن يحقق أكثر من انفراد صحفى للمجلة . تتمثل فى « الأوراق الخاصة للرئيس السادات » و « الأحاديث التى انفردت بها أكتوبر معه » وعشرات الأخبار السياسية المحلية » .

وحين تولى الكاتب الكبير صلاح منتصر رئاسة مجلس ادارة ورئاسة تحرير اكتوبر خصص عددا كاملا من المجلة عن الأديب الكبير انيس منصور وخرجت مجلة اكتوبر وعلى غلافها صورة للاستاذ أنيس منصور وهو موقف يدل حقيقة على فروسية المواقف للاستاذ صلاح منتصر وهى بادرة تحدث لاول مرة فى الصحافة المصرية ان يخصص غلاف مجلة مصرية او عربية لرئيس تحرير وهو على قيد الحياة ... وهو موقف يحسب للوفاء والايثار والحب الذى يجب ان يسود حياتنا الصحفية .

قصاص مجهول اسمه :

أنيس منصور !

القصة القصيرة ليست مجرد قصة تقع فى صفحات قلائل ، بل هى لون من ألوان الأدب الحديث ظهر فى أواخر القرن التاسع عشر وله خصائص ومميزات شكلية معينة . وفى عصر نهضتنا الحديثة التى يمكن القول بأنها بدأت فى القرن التاسع عشر قد عدنا لنأخذ من الغرب ما سبق أن تأثر فيه بنا وأضاف إليه وطوره .

ولقد كانت هناك أسباب هيأت البيئة العربية إلى بعث القصة بشكلها الأدبى وتطويره ، ويرجع ذلك إلى عدة أسباب منها انتشار التعليم مما خلق جمهوراً قارئاً وعدداً من الكتاب ، ثم ظهور الصحافة التى احتاجت القصة القصيرة لقرائها ، ثم سفور المرأة الذى جعل التقاء الرجل بالمرأة ممكناً فى الحياة الاجتماعية مما خلق مواقف عاطفية كانت محوراً من أهم المحاور القصصية والدوافع وراء كتابتها وقراءتها معاً وأهم من ذلك كله نمو الطبقة الوسطى من الناحيتين العددية والاقتصادية ، بحيث أصبحت قادرة على شراء وقراءة الصحيفة والمجلة ، فخرج منها كتاب القصة يتناولون أساساً قضايا طبقتهم . وفى هذا الجو المهيأ اتخذ المتأثر بالقصة القصيرة فى الغرب اتجاهين : اتجاه حاول أن يوفق أو يجمع بين الأشكال الغريبة الحديثة بالشكل القصصى كما عرفه التراث العربى أما التيار الآخر فلم يلتفت كثيراً إلى هذا التراث ولم يدرس كثيراً من أصحابه الأدب العربى وحتى الذين ألموا بهذا الأدب كان أكثرهم لا علم له بالقصة العربية لإهمالها فى الدراسة التقليدية ، ويمثل التيار الأول المويلحى والمنفلوطى وهما يتفقان فى الشكل والموضوع من ناحية ويختلفان فيهما أيضا من ناحية أخرى .. فلاكهما يقترب بالشكل اللغوى والأسلوب العربى وكلاهما متأثر بدعوة الإصلاح التى أثارها جمال الدين الأفغانى وحمل رسالته

تلاميذه من بعده وهما يختلفان بعد ذلك .. المويلحى تأخذ كتابته شكل المقامة ومن هنا يمكن إطلاق اسم « القصة والمقامة » على كتابة « حديث عيسى بن هشام » أما المنفلوطى فيسترسل متحررا من قيود السجع وإن كانت قصصه أقرب إلى المقال ، ومن هنا يمكن أن نطلق اسم ـ القصة والمقال ـ على ما جاء فى كتابيه : العبرات والنظرات و « القصة ـ المقال » تختلف عن المقال بأنها أميل إلى الذاتية .

أما التيار الآخر المتأثر بالغرب فقد انتظم فيه صف طويل يبدأ بمحمد تيمور وأخيه محمود تيمور ـ والأخوين عيسى وشحاته عبيد ثم محمود طاهر لاشين ـ وكان تأثير هؤلاء بالآداب الأجنبية مباشرة يقرءونها فى لغاتها ، ومن هنا فإن الترجمة لم يكن لها ذلك التأثير الذى نجده اليوم فى تطوير القصة القصيرة المصرية . أما تأثير الترجمة فقد جاء بعد ذلك حين نشأ من ناحية كتاب قصصيون لا يعرفون اللغات الأجنبية أو يعرفونها ولا يقرءونها لأنهم يستهلون قراءة الترجمة باللغة العربية ، وحين وجدت من ناحية أخرى ترجمات قصصية كثيرة زحمت سوق المكتبات .

وهناك أكثر من رأى فى أول قصة متكاملة بالمعنى الغربى نشرت فى أدبنا العربى ، فالمستشرق الروسى كراتشوكوفسكى والإلمانى بروكلمات والفرنسى هنرى بيرس يرؤيان قصة « فى القطار » لمحمد تيمور التى نشرت سنة ١٩١٧ فى جريدة السفور هى أول قصة بهذا المعنى الفنى ، ويؤيد هذا الرأى الأستاذ عباس خضر فى كتابة القصة القصيزة ، وكذلك الأستاذ يوسف الشارونى بينما يرى المرحوم الدكتور عبد العزيز عبد المجيد فى كتابه الذى ألفه بالإنجليزية بعنوان « الأقصوصة فى الأدب العربى الحديث » إن قصة « سنتها الجديدة » التى نشرت سنة ١٩١٤ للكاتب اللبنانى ميخائيل نعيمة هى أول قصة فنية فى الأدب العربى ، أما الدكتور محمد يوسف نجم فيرى أنها قصة « العاقر » التى نشرت لميخائيل نعيمه سنة ١٩١٥ ..

والواقع أن الاختلاف دليل على أن القصة الفنية قد اكتملت بالمعنى الغربى فى الأدب العربى فى العقد الثانى من القرن العشرين أما تحديد قصة معينة فأمر تعسفى لأنه من الممكن جداً فى مثل هذه الفترات أن يبدع كاتب قصة قبل آخر ثم لا يتاح له نشرها إلا بعد نشر قصة زميله التى أبدعها بعده ثم يأتى المؤرخ الأدبى ويتخذ قراراته فى ضوء الظاهر ، لهذا فأهم من ذلك هو تحديد الفترة التى ولدت فيها القصة القصيرة فى أدبنا العربى بالمعنى الغربى ، وليس المهم الشخص ، ويلاحظ أن هذه هى الفترة نفسها التى ولدت فيها أول رواية فى أدبنا العربى بالمعنى الغربى أيضا وهى رواية « زينب » للدكتور محمد حسين هيكل التى نشرت سنة ١٩١٢ أى فى العقد الثانى من هذا القرن أيضا .

ثم كان هناك كتاب وأدباء كثيرون للقصة القصيرة فى مصر منهم يحيى حقى ويوسف الشارونى بجانب محمد تيمور ومحمود تيمور، وهناك من كتب القصة الطويلة والقصة معاً مثل نجيب محفوظ ويوسف السباعى وعبد الحميد جودة السحار وثروت أباظة وعبد الرحمن الشرقاوى ومحمود البدوى .

وهذه الأسماء التى كتبتها فى السطور السابقة هى التى غالبا ما تكتب فى الدراسات الأدبية التى تتناول القصة القصيرة فى مصر .

وينسى النقاد أن هناك أديباً وكاتب قصة قصيرة مغموراً ومجهولاً فى مصر اسمه « أنيس منصور » على الرغم من أن أنيس منصور له ثلاث مجموعات قصصية « بقايا كل شىء » و « هى وغيرها » و « عزيزى فلان » إلا أنه يبدو أن اهتماماته المتعددة وتناوله لعديد من فنون الأدب قد أنسى القراء أن أنيس منصور أديب وكاتب قصة قصيرة ، وأن أنيس ليس مقلداً أو مترجماً أو ناقلاً بل هو كاتب منشىء له شخصيته المستقلة وأسلوبه المنفرد .

بل إن أديب مثل يحيى حقى كل ما كتبه فى حياته لا يتجاوز فى مجموعه ما كتبه أنيس منصور فى مجموعة واحدة من أعماله !

ولقد بدأ أنيس منصور فى كتابة مذكراته الشخصية .. يكتب عن المدرسين والباعة والحلاقين والطلبة .. وكان حريصاً جداً على أن يجعل هذه المذكرات فى مكان بعيد عن الأيدى والعيون مع أن كل الذى كتبه لا يعدو أن يكون محاولة إبداء رأى فى كل الناس دون الحديث معهم أو وصف حالهم فى هذه الدنيا .. وهذا يدل على الخوف الذى دفعه إلى اتخاذ عدائه من الجميع ، ومحاولاته السرية ترجع إلى أنه غير مطمئن إلى قدرته على تحقيق شىء ..

وأول قصة كتبها أنيس منصور فى حياته كان عنوانها غريباً طويلاً .. كان عنوانها « الفارس الذى وقع من فوق الحصان »

والفارس الذى وقع هو إنسان آخر .. وهذا الفارس كان يمثل فوق حصانه ويتفرج عليه إخوته ، وفجأة وقع من فوق حصانه ، وكانت تحت قدمى الحصان بئر !! وفى هذه البئر سقط الفارس وظل يقرأ القصيدة رغم أنه كاد يغرق وآخر ما سمع الناس منه كان وهو يقول :

. ويا بنت الاقماح اذا إلتقينا

تعانقت الانامل فى يدينا .

وهذا الشعر من نظم أنيس منصور وهو كما يعترف بنفسه : مهزوز غريب فى مفرداته !

ولقد قصد أنيس منصور فى قصته الأولى السخرية من الآخرين الذين يحاولون وفى نفس الوقت سخرية من الناس الذين يستمعون إليه ولم يحاولوا إنقاذه

وأثناء دراسته للفلسفة بدأ يكتب قصصاً رمزية .. يستعرض فيها قدراته الفلسفية وبعدها اتجه نحو الآداب الغربية من كل نوع .. وعرف الادباء الألمان جيته وشيلر وتوفاليس وهينه ونشر الكثير من القصائد والقصص والمقالات ، وعرف الأديب الإيطالى البرتو مورافيا وذلك فى سنة ١٩٤٧ عندما اشتغل بالصحافة ، وأصبحت صداقته له وثيقة وتمت لقاءات عديدة فى مصر وروما وبرلين وهافانا ، وكان أنيس منصور أول من نقل مورافيا إلى اللغة العربية وترجم له أكثر من مائة قصة قصيرة نشرت جميعا . ثم نشر بعد ذلك عدداً من القصص فى جريدة « الأساس » كانت من تأليفه ولكنه لم يستطع أن يقول إنها من تأليفه فقد كان صغيراً على ذلك ولا أحد يعرفه ، ولذلك فقد قال إنها من ترجمته وفى « الجريدة المسائية » واصل النشر والترجمة وادعاء الترجمة وادعاء التأليف أيضا !

وفى « الاهرام » كان ينشر أنيس منصور القصة القصيرة كل يوم وفى ذلك الوقت لم يكن مسموحاً له أو للذى فى مثل سنه وتجربته فى سنة ١٩٥٠ أن يوقع بإمضائه على شىء . وكان زملاؤه يطلقون عليه لقب الأستاذ « تمت » .. وهذه الكلمة كانت النهاية اليومية لكل قصة قصيرة إنها تمت ! ونشر فى الأهرام أكثر من مائتى قصة قصيرة ، ولقد جعل أنيس منصور أسماءها أجنبية لتبدو أنها أيضا أجنبية !

وفى « روز اليوسف » نشر أنواعاً من القصص الوجودى ، ونشر إحدى القصص المسرحية والمسرحية الروائية فى سنة ١٩٥٢ وقدمها الأستاذ إحسان عبد القدوس تقديماً أخاف أنيس منصور فقد قال إحسان عبد القدوس وهو يقدمه : إنه خليط ممتاز من العقاد وطه حسين والحكيم وسارتر .. وإننى أتوقع له مستقبلاً باهراً .

وفى إحدى المرات استراح الأستاذ عباس محمود العقاد إلى قصة ترجمها أنيس منصور لتولستوى وقال أنيس أعجبنى فيها أسلوبك !!

وانزعج أنيس منصور جداً فالأسلوب الذى يعجب به العقاد لابد أن يكون قريباً من أسلوب العقاد نفسه .. وأسلوب العقاد قوى كالحديد .. منيع ولكنه ليس رقيقاً ولا سهلاً .. ولا جميلاً !!

ولقد كان أنيس منصور معجباً أشد الإعجاب بالأديب الكبير مصطفى صادق الرافعى وقرأ له : السحاب الأحمر وأوراق الورد ورسائل الأحزان وكانت له عبارات بللورية وكل واحدة مكثفة جميلة التراكيب ناقصة المعنى ، ولكن عباراته كانت مثل الفتيات الجميلات المتحجبات أو المحتشمات .. جميلة ومثيرة !

وحاول أنيس منصور أن يبنى نوعاً ما من القصص على عباراته البديعة، ولكنه لم يسترح إلى هذا الشكل المضحك من الكتابة، ولكنه كان يحاول جاهداً أن يجد الشكل الذى يريحه ولم يكن ذلك هو الشكل.

فدراسة أنيس منصور الفلسفية والمنطقية قد أهلته لكى يكتب القصص الخفيفة أى التى تدور فى داخل النفس، ووجد أنيس نفسه راهباً فى معابد دستويفسكى وموروافيا وسومرست موم وغيرهم .. فهم أساتذة القصة والرواية فى العصر الحديث وكانت أولى محاولاته فى القصة رومانسية خالصة، وهذا طبيعى بالنسبة لبداية أى قصاص، وقد نشر جزءاً من هذه القصص فى مجموعة قصصية اسمها «هى وغيرها» وهى قصص رومانسية جداً وأخرى واقعية.

فنرى قصة «ولنظر وراءه!» قصة فتى وفتاة كانا حبيبين وكانا ينتقلان بين الوديان والغابات والأنهار والبحار، ويغنيان أغنية الحب السعيد .. وفجأة زحف ثعبان هائل ولدغ حبيبته .. فسقطت هامدة .. وكان الحبيب له ناى عجيب يستطيع أن يفعل به ما يشاء، وأمسك الناى فى فمه وراح ينفخ فانفتحت له أبواب عالم الموت وأضاءت له السراديب المظلمة. وتزاحمت الآلهة حوله وسألوه: ماذا تريد؟ فأجاب أريد حبيبتى التى أفرح بها فقالوا: بشرط أنا ستسير وراءك فى هذه السراديب الطويلة .. ولكن لا تنظر وراءك قبل أن تبرح عالم الموت .. لا تنظر وراءك أبداً ..

وفى فرحته وسعادته خانته رقبته فإذا به يتلفت وراءه ويرى حبيبته وهى ترفل فى ثوب أبيض شفاف .. ولكنه لم يكد يراها حتى تلاشت وحتى رأى نفسه خارج أبواب عالم الموت .. إنساناً بلا صديق والدنيا كلها أعداؤه.

وفى مجموعة «عزيزى فلان» توجد رواية اسمها «عريس فاطمة» هذه الرواية أرهقت الكاتب أنيس منصور وعذبته، وعندما حاول أن ينهى هذه الرواية توقف وأحس أنه فى مأزق ومطلوب منه أن ينقذ بطلة روايته وتوقف بالفعل عن إكمال القصة أربع سنوات استعار ما فعله الفليسوف الوجودى الإسبانى ميجيل اونامونو، فهو أيضا حاول أن يقتل بطل روايته وإذا ببطل الرواية يطل من بين السطور ويقول له: وأنت بأى حق تريد أن تقتلنى؟! ويرد المؤلف: أنا الذى خلقتك وأنا أقتلك! ويقول له البطل: ولكن هل تستطيع أن تدفع الموت عن نفسك هل فكرت أنت لماذا تموت؟ ومادمت لا تعترف فلماذا لا تحاول أن تعرف .. إننى هنا أموت بلا سبب .. إلا لأنك حاقد على الأحياء .. وحاقد على الموت .. ولذلك تريد أن تلعب بالموت .. تقتل من تشاء وتحيى من تشاء .. كأنهم أخذوا رأيك فى حياتك ومماتك!

ويرتبك المؤلف .. ولا يدرى ما الذى يفعله ..

وهكذا يفعل الكاتب والأديب أنيس منصور ..

فاطمة فتاة عادية مشكلاتها مثل مشكلة ملايين الفتيات فى السادسة عشرة ، إنها كبرت فجأة صدرها ارتفع .. وشعرها طال وسرحانها زاد ، ويصور لنا أنيس منصور فى روعه وإبداع خوف الأم والأسرة على فاطمة من ذئاب المجتمع .

والأم تترك فاطمة لأختها الكبيرة .. والأخت الكبيرة تمسك فاطمة وتقول لها : اسمعى يا فاطمة .. أنت كبرتى الآن .. ولابد أن تعرفى أنه سيجىء يوم تتزوجين فيه من الرجل الذى تحبينه ، فالزواج من غير حب هو أكبر كارثة تصيب البنت والأسرة اليوم وغداً ..

والمشكلة التى تواجه أسرة فاطمة هى أن فاطمة يجب أن تتزوج الرجل الذى تحبه هى والتى تختاره هى .. كيف تختاره .. ؟ وكيف تحب .. ؟ أين تجده ... ؟ وكيف ... ؟

المشكلة التى تواجه فاطمة والتى تواجه الأسرة كلها .. أنهم جميعا عزلوها عن الواقع .. عن الدنيا .

وتنسرح أحداث هذه القصة بعد أن يتقدم إلى فاطمة أكثر من عريس ، ولكنها تحب شاباً تعرفه ولا تصارح أسرتها بذلك .. وينتهى بها الحال إلى الهرب من بيت أسرتها .. هرباً من هذا الحصار والقيود التى من حولها .

وتوقف أنيس منصور عن تكملة الرواية فلم يستمر فى مطاردة فاطمة .. ولم يضع لها العقبات الزائفة .. كان يستطيع بجرة قلم أن ينهى مشاكلها جميعاً بزواجها مثلا ..

وقرر أن فاطمة مشكلة .. وأنه عاجز عن أن يجد لها حلاً .. ومع أن مشكلتها من صنعه ومن بنات أفكاره أيضاً .. والمشكلة كالمنديل المعقود هو الذى عقده وهو الذى يجب أن يحله ..

ودار حوار بين المؤلف والبطلة وقفزت البطلة من الرواية وحاكمت مؤلفها وقالت البطلة : إذا كنت لا تعرف كيف تحل مشاكلك فكيف تحل مشاكلى ..

وانتهت الراوية بانتصار البطلة على المؤلف ! وإن كان المؤلف هو الذى كتب كلمات البطلة أيضا ..!

وقصص أنيس منصور تتسم فى مجموعها بأنها لا تتعدد فيها الشخصيات أو الأمكنة أو الأزمنة .

أما النسيج فهو اللغة التى تشمل الحوار والسرد دائما فى قصصه فى خدمة الحدث ، فالنسيج يساهم فى تصوير الحدث ثم تطويره بحيث يصبح كالكائن الحى له شخصيته المستقلة التى يمكن التعرف عليها ..

لذلك فإننا لا نرى الأحداث من خلال عين الكاتب أو تعليقاته ، بل من خلال الشخصية وتصرفاتها ، لذلك فإن أنيس منصور لا يجعل شخصياته تتكلم بمستوى لغوى واحد وإلا كان هو الذى يتكلم من خلالها ، لذلك جاءت اللغة فى خدمة

الشخصيات . كذلك استخدم الأديب أنيس منصور الأسلوب لدلالة على الشخصية ولاسيما في الحوار . فاستخدم بعض الاصطلاحات المعينة أو تعبيرات أو ألفاظاً معينة لكي يحدد اهتمامات الشخصية أو شخصها .

والحوار عنده يخفف من السرد الطويل ويجعل الشخصيات أكثر تجسيماً وأكثر حضوراً وهو أيضاً سريعاً وقصيراً .

ولقد استطاع الكاتب الكبير أنيس منصور أن يوظف أسلوبه المميز فى خدمة المضمون وتلاصقت جمله وتوالت بسرعة واحدة بعد الأخرى تعطى الإيقاع السريع غير المرهق ، وبذلك شارك الأسلوب فى المضمون ولم يكن مجرد وعاء له بل التحم به وأصبح جزءاً منه .

ويتميز الكاتب الكبير أنيس منصور عن غيره من كتاب القصة القصيرة أنه لا يتدخل فى تطور الحدث بالتقرير ، بمعنى آخر أن يخبرنا بالحدث بدلاً من أن يصوره لنا ، فهو فى قصصه لا يقرر لنا أن شخصاً ما ذكى أو ماكر أو شرير بل يقنعنا بذلك من خلال سلوكه وأفعاله بحيث نحبه أو نكرهه تماما ، كما نعرف أخلاق الناس وطبائعهم فى حياتنا العادية من تصرفاتهم دون أن يكون مكتوباً على جباههم أنهم أشرار أو طيبون أو أذكياء أو ماكرون ، فالقصة الجيدة لا تقول بل تكون .. لا تحكى ما وقع بل ما يمكن أن يقع .. لا تنتمى إلى التاريخ بل إلى الفن ..

أما البداية عند أنيس منصور فهى شيقة تثير اهتمام القارىء وتشده إلى القصة وربما كان عنوان القصة هو بدايتها ، وهو الذى يجذب القارىء إليها أو يجعله لا يكترث لقراءتها .

وهو يفضل البداية ذات الحركة فالبداية الوضعية تقتل عنصر التشويق . وقد

وقد وصف تشيكوف القصة الجيدة بأنها قصة محذوفة مقدمتها أى أننا نواجه بالأحداث مباشرة بلا مقدمات قد تصرف القارىء عن متابعة قراءته وقد اهتم ادجار الان ببداية القصة إلى درجة أنه قال إنها هى التى تحدد نجاح القصة أو فشلها .

أما قصة « عريس بالليسانس » فى مجموعته القصصية « هى وغيرها » فهى تحكى عن شاب حديث التخرج فى قسم الفلسفة بكلية الاداب ويذهب إلى بيت أحد الموظفين المتقاعدين يدق باب الشقة ويسلم الخادم رسالة ملفوفة ويطلب إليها أن تقدمها لسيدها .. ويدخل الشاب حانى الرأس ويجلس على طرف مقعد وثير وقد وضع بعض الكتب وحقيبة وجريدة ومجلة على ركبته .

وينفتح الباب ويدخل « عبد الستار بك » وهو رجل طويل القامة له شارب مفتول وبين شفتيه سيجار غليظ وفى يده اليسرى مسبحة .. ويقف بالقرب من الباب وينظر إلى الشاب ويمد يده دون أن يتجه إليه .. فينهض الشاب وتسقط

الكتب والمجلات فيدوس عليها بقدمه ويسلم على سعادة البيه .. وسعادته يضغط على قطعة القطن التى حشرها فى إحدى أذنيه !

ويدور حوار بينهما .. بين الأب والعريس المنتظر! .. الحاصل على الليسانس توأ والذى لا يملك إلا مرتبه وقلباً مملوءاً بالحب لإنسانة يود أن يخطفهـا فى غمضة عين إلى عش الزوجية !

ولكن ليس كل ما يتمنى الإنسان يدركه بل إن الشاب لم يكن يتمنى أن يقف هذا الموقف ويتصبب من جبينه العرق من الإهانات المتلاحقة من الأب. ويحس الشاب أن العالم من حوله يدور .. العالم المادى الذى لا يعرف إلا المادة فقط ويخرج الشاب مطروداً مشيعاً باللعنات والإهانات ومصاباً بمرض شباب العصر : الإحباط !

إن أدب أنيس منصور يتسم فى مجموعه بالصدق وقدرته الفائقة على التوفيق بين عواطفه المحتدمة وبين إرادة عقله الصارم ، فتجد أن ادبه فى نهاية الأمر يضم خلاصة تجاربه وبواعث آماله وأفراحه وأماله .

مع أنيس منصور تحس أن قلبك يدق فى عقلك .. وأنك حائر معه بين قلبك وعقلك .. وبين عقلك وعقله .. ومن هذه الحيرة تتولد شرارة التفاهم بينك وبينه .

وقصصه هى إطراقات فكره .. زفرات قلبه .. حبات عرقه .. فى مراحل مختلفة من حياته الأدبية والثقافية .. ففيها القصص الرومانسية الخيالية الملتهبة .. النائمة فى الأوهام المجنونة الأحلام .. وفيها الواقعية الحادة العاطفة .. وفيها التى تختلط فيها الدم والدمع .. والجريمة أيضاً !

وقد نجح أنيس منصور فى تصوير نوازع النفس الإنسانية والصراع الذى ينشب بين الغرائز وبينها ، ولم يكتف بتسجيلها تسجيلاً عقلياً فلسفياً مجرداً .. والسر يكمن فى أنه جمع بين الفلسفة والأدب فى توازن نادر دقيق ، أو بين الوجدان والعقل لذا جمعت قصصه بين النزعة الفنية والنزعة الإنسانية .

ويتميز أنيس منصور بعناوينه المعروفة والتى تعرفه من خلالها قبل أن تلتقط اسمه سواء على قصصه أو مقالاته أو مؤلفاته ، وهى عناوين تتسم بالإثارة مع التشويق على القراءة والتركيز المعبر عن حقيقة المعنى . لذلك جاءت عناوينه .. شيقة .. رشيقة .. مثيرة وشائكة أيضاً !

●●●

هذا أسلوبه .. هذا أنيس نفسه!

إن الطريقة الخاصة للكاتب فى اختيار معانيه وألفاظه الغرض منها التأثير فى القارىء أو السامع . فالفنان الذى يعمل داخل مرسمه له أسلوبه الخاص ، والأديب الذى يجهد نفسه لتدوين كتاباته له أسلوب خاص .. وجهة الاختلاف هذه تتمدد فى طريقة المعالجة لهذا الفن أو هذا الأدب فيظهر الفرق بين الفنون من ناحية أسوبها ، وهنا تتشكل لدينا حلقة مكونة من عناصر أساسية .. الواقع والمكان والأديب وتأثير البيئة فى معالجة موضوعاته .

وليس لنا أن نخوض فى موضوع الأسلوب لمعرفة متانة أو ضعف نص أدبى أو لغة كاتب .. فهذه مسألة تتأتى بسهولة لمن يتمتع بقدرة نقدية ولغوية محددة .. ولكن أمراً يقودنا أحياناً إلى النقد اللغوى الذى يتناول لغة الأدب أولاً ودون الفصل بينها وبين المضمون ويتجاوز المتانة والضعف إلى كيفية إقامة الأديب علاقات بين الألفاظ وقدرة مفرداته على استيعاب المضمون وتقديمه إلى القارىء ، فإذا كانت هذه العلاقات مألوفة ومتداولة فالنص تقليدى كآلاف النصوص المماثلة وإن بدت جديدة ومبتكرة ، وخاصة حققت أولى سمات الأسلوب الادبى المتميز غير المقلد .. أنا لا أميل إلى اعتبار الأسلوب طريقة تعبير وكفى ..

فلكل أديب أو إى إنسان طريقة فى التعبير ، ولكن أن ينفرد كاتب بمنحى تعبيرى خاص ورائع يعرف به ويدل عليه فهذا هو الأسلوب .

ولقد انفرد أنيس منصور بأسلوبه المعروف المتميز .. فأنت تعرفه من وسط عشرات المقالات .. بجملة السريعة .. بعباراته الرشيقة الجذابة .. بترابط الجمل .. ثم هذه الإضافة التى تجعل ما يكتب له مذاق خاص وطعم خاص فهو تجربة مستقلة .. أسلوب متفرد ..

ولا آتى هنا بتعريف لأن الأسلوب يحس ولا يحدد وتمثله جزء من موهبة الناقد ، والقارىء المثقف المتذوق للنص الأدبى والأسلوب الادبى المبدع عند رجل أو أكثر أقصى ما يمكن أن يطمع إليه الأدب والنقد معاً فى عصر أو عصور يظهر مئات الشعراء فى حقبة ما مثلا .. يشتهر من بينهم أفراد قد يكون لواحد من هؤلاء أو لا يكون أسلوب خاص ، وقد تمضى قرون على أمة لا يبرز أديب يتميز بأسلوب متفرد .

وبقدر اهتمام النقاد العرب القدامى بالأسلوب من خلال دراساتهم فى النقد اللغوى وأخص من بينهم الجرجانى ونظريته الشهيرة فى النظم تكون للموضوع أهمية كبيرة وحاسمة فى عصرنا هذا وخاصة فى الشعر وقد تبلورت وظهرت بوضوح قبل سنوات قليلة وبعد جيل الرواد ، فلا قيمة لأى نص شعرى دون جملة شعرية متميزة ، وهذه هى قضية الشعراء الجدد : البحث عن الأسلوب .. وهذا ما يفسر لنا إصرارهم على التجريب وتجريب التجريب حتى يصلوا أو لا يصلوا إلى قمة الإبداع الادبى : الأسلوب المتميز وهذا ما يبرر لنا النغمة السائدة بين شعراء معاصرين كثيرين فى خرق العلاقات المألوفة بين الألفاظ بحثاً عن الأسلوب الخاص فيتشابه التجريب عندهم .. إن مؤدى الأسلوب وبالشكل الذى نقرره لم يكن يخطر على أذهان شعراء مطالع القرن العشرين كشوقى وحافظ والزهاوى والرصافى مثلا .. إنه محنة شاعر النصف الثانى من القرن العشرين وشعراء الأجيال المقبلة أن يجدوا لهم مكاناً حقيقياً فى مواكب المبدعين على مر العصور ، كما أظن لم تحظ بعناية النقاد المعاصرين بعد ؟!

وما نقوله على الشعر .. ينطبق على القصة والمقالة .. وكافة فنون الأدب !

ويقال لنا : هل نعتمد على الأسلوب الأوربى لإجاد أسلوب عربى حديث أم مزيج بين أساليب الغرب الجديدة والأسلوب العربى القديم ؟

ونقول ـ لا هذا ولا ذاك .

إن الاديب والكاتب الحقيقى لا يمكن أن يستعير أسلوباً من تجربة أديب اخر من أبناء جلدته وإلا كان مقلداً فكيف يستعير أسلوبه من أديب اجنبى . إن أموراً كثيرة ترفض ذلك منها اختلاف الطبيعة التركيبية للغات ، ومنها أن الأسلوب المتميز فى إقامة علاقات بين الألفاظ فى لغة ما وعند أديب معين إن سرنا على منواله فى لغة أخرى ولدى أديب ثان قد يصبح مضحكاً قبل أن يكون مسخاً ، حتى الترجمة إذا التزمت العلاقات نفسها فى النقل من لغة إلى أخرى تحولت إلى مهزلة ، فلكل لغة عطاء وسمات وعلاقة بناء بين الألفاظ ، ولا يمكننى أن أتصور أديباً حقيقياً اقتفى خطوات أسلوب أديب اخر غريب عنه وأفلح فى مسعاه ، فالتفرد فى الأسلوب أمر مستقل باستقلال الأديب المبدع، واستقلال لغته ينبع من روحه ووجدانه وتاريخه وموروثه ، أما التأثير والتأثر والإفادة والاستفادة فهذه مسألة أخرى .

وطريقة التعبير فى الأدب تتخذ من اللغة وسيلة وغاية ، وسيلة لأداء المعنى وغاية استيعابه والإيماء به وتقديمه بشكل جمالى معين قد يستعين بالأساطير والرموز والمجاز والتعبير غير المباشر وما إلى ذلك .

وهنا تبرز قدرة أنيس منصور ككاتب فى تشكيله الألفاظ واستخدامها بحرية وبراعة وتطويعها للمعنى وابتداعها عن النمطية السائدة ، وفى مزجه بين الشكل والمضمون متحداً واحداً وإيصاله إلى الملتقى خلقاً أدبياً رائعاً وتحويل طريقة التعبير إلى أسلوب متميز .

ويسمى بعض أساتذة الأدب العربى الحديث لغة الصحافة بالنثر العملى للتمييز بينها وبين النثر الفنى والنثر العادى -- والنثر العملى يعتبر اصطلاحاً لمسايرة لغة الصحافة للحياة العملية بما يجب أن يتوفر فيها من عوامل أهمها فى عصرنا الحديث السرعة .

وليس معنى هذا أن الكاتب الصحفى يستلزم اتباع أسلوب النثر العملى فحسب ، ذلك لأن الصحف والمجلات تتناول موضوعات مختلفة ومنها قصص إخبارية ومنها موضوعات أدبية ونقدية إلى غير ذلك ، فليس معنى هذا أن لغة الصحافة هى النثر العملى دائما لأن الصحف لا تهتم إلا بهذا اللون من النثر ، فإذا كان الموضوع وطبيعة النثر العملى طبيعة سهلة للغاية تنساب فى غير تكليف ولا تعقيد ، ولكنها فى الاسلوب الأدبى تسمو على الأسلوب الدارج فهى تتخذ لنفسها طريقاً وسطاً بين الأسلوب الأدبى الرفيع وبين الأسلوب الدارج .

والأسلوب الصحفى له ما يبرره لعدة عوامل أهمها عامل السرعة التى تحدثنا عنه فالسرعة فى الحياة الحديثة جعلت من الصعب على الصحفى أن يجد الوقت اللازم لكتابة القصة الصحفية كتابة أدبية وعليه ينبغى أن يكتبها بأدق أسلوب وأسهله ، وفى الولايات المتحدة حديثاً تتبع عدة طرق للكتابة السريعة والقراءة السريعة نظراً لما للسرعة من أهمية فى الحياة الحديثة حتى قيل إن بعض المدارس تعلم ضمن برامجها طريقة القراءة السريعة التى تتيح للقارىء أن يلم بالموضوع إلماماً كافياً فى أقل وقت ممكن ، وقد وصل مدى القراءة السريعة الى ألف كلمة فى الدقيقة .

إن دل هذا على شىء فإنما يدل على مدى أهمية السرعة فى عالمنا مما لا يتفق معه إمكان اعداد موضوع من الموضوعات الصحفية فى متسع من الوقت ، كما أن طبيعة القصة الاخبارية تستلزم وجود عامل السرعة أيضاً . وقد تضيع قيمة الاخبار بل قد يصبح عيبا صحفياً ان تنشر هذه الأخبار بعد مرور فترة وجيزة عليها اذا كانت بعض المصادر الأخرى قد سبقت بنشرها .

أما العامل الثانى فيتصل بجمهور القراء أنفسهم وهو يتصل أحياناً بطريق غير مباشر بعامل السرعة أيضا ذلك لأن الكثيرين من القراء أنفسهم يريدون أن

تقدم لهم القصص الإخبارية فى أسلوب سهل لا يدعو إلى تعمق فى التفكير ، إذ ليس لديهم الوقت لإعادة التفكير فى معنى من المعانى ، إلى جانب عامل ثالث هو أن غالبية القراء من أوساط المثقفين ، كما أن هناك عدداً لا يستهان به من قراء الصفحة لا يمكنهم فهم الأسلوب الادبى فى سهولة ويسر ، لذلك تلجأ لصحف إلى الأسلوب الصحفى السهل لا الأسلوب الأدبى فى عرض قصصها الإخبارية .

ولقد جمع الكاتب الكبير والأديب أنيس منصور فى مقالاته الصحفية مميزات الأسلوب الصحفى من حيث السهولة ، فهو لا يستعمل الألفاظ الضخمة أو غير المألوفة أو التى تحتاج إلى قواميس حيث السهولة إلى جانب العذوبة ، فهو يستخدم فى قصته الصحفية أسلوباً عذباً لا يتضمن ألفاظاً متنافرة أو كلمات يقل استعمالها أو غير شائعة أو ألفاظاً تتنافر حروفها وتفتقر إلى النغم العذب .

ولقد قصد أنيس منصور المعنى بأقرب الوسائل اللفظية وفى غير مواربة فى جمله القصيرة فضلاً عن استخدام الألفاظ الأكثر استعمالاً من الألفاظ العربية ، واستخدام الألفاظ المستحدثة وابتعد عن الجمل الاعتراضية فجاء أسلوبه بعيداً عن الجمود .. سلساً غير معقد .. وقصد المعنى فى أقرب لفظ دون محاولة استخدام الجمل الاعتراضية ، وذلك لأن الأسلوب الذى يكثر فيه الجمل الاعتراضية مجاله الأدب وليس الصحافة ، كما أن الأسلوب الذى تكثر فيه الجمل الاعتراضية تحتاج إلى وقت طويل فى التفكير وخاصة عند بعض القراء .

ولاشك أن الكاتب الكبير أنيس منصور .. سيرة وأسلوب ..

والسيرة تعنى مجموعة المواقف والاتجاهات والصفات التى تخص شخصاً بعينه وفى كل سيرة لابد من سمات تميز صاحب السيرة فى عقله وشعوره وخلقه ومزاجه وما يتبع ذلك من أنماط سلوكه واتجاه غاياته وأهدافه .

والأسلوب الذى نعنيه هنا هو مجموعة السمات التى تميز صاحبها عن غيره .. إنه النمط الخاص الذى يستغرق صاحبه مهما تغيرت الظروف والأحوال والملابسات التى يعايشها والغايات والمناسبات التى تحركه ، فالإنسان الذى تميزه صفات فى عمله وفى منزله وفى ناديه وبين رفاقه .. لابد أن يجد من يريد فهمه وتحليله ضبطاً واحداً ممتداً يحكم هذه الشخصية وميزها هو مفتاح الفهم لها والحكم عليها فى كل مجالات حياتها وملابسات سلوكها .

إن جميع الوسائل الفنية التى يلجأ إليها الأديب فى الإفضاء بأفكاره ومشاعره تمثل ذاته أقوى تمثيل مادام أديبا يصدر عن عقله وشعوره وخلقه ومزاجه ، ولذا فإننا إذا قرأنا آثاره الأدبية نجد فيها كل سماته النفسية والفكرية والشعورية ، وهنا تصدق كلمة « بوفون » فى وقتها وروعتها « الأسلوب هو

الرجل » وبذلك فان الاسلوب يعنى فى النهاية الانطباق التام بين السيرة وما يعادلها ، أو ما يترجمها ويجلى منابعها التى تصدر عنها وغاياتها التى ترمى اليها وشاراتها التى تختص بها .. فالكلمة الأدبية التى تصدر عن تأمل وإيمان بها تتعدى كثيراً جوانب الدلال لأنها تهدف إلى ما هو أكبر وأعظم ، ذلك أنها تمثل الوجود الحى للبعد الداخلى للإنسان فى موقف معاناة .

ومن كل ذلك فإن الكلمة التى تفيض بها نفس أنيس منصور إنما هى تعبير حى عن الأعماق البعيدة والسمات الخاصة التى تميز شخصيته .

ولقد وصف عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين أسلوب أنيس منصور المتميز بقوله : « هذا كتاب ممتع حقاً تقرؤه فلا تنقص متعتك بل تزيد كلما تقدمت فى قراءته ، ومع أنه من الكتب الطوال جداً فميزته الكبرى هى أنك حين تقرؤه لا تحتاج إلى راحة ، وإنما تود لو تستطيع أن تمضى فيه حتى تبلغ آخره فى مجلس واحد لانك تجد فيه المتعة والراحة والسلوى وإرضاء حاجتك الى الاستطلاع »

« فصاحب الكتاب حلو الروح خفيف الظل بعيد أشد البعد عن التكليف والتزيد والادلال بما يصل إليه من الغرائب التى يسجلها فى كتابه .

وإنما هو يمضى فى الكتابة فى يسر .. مرسلاً نفسه على سجيتها مطلقاً لقلمه الحرية فى الجد والهزل وفيما يشق وما يسهل لا يتكلف الفصحى ولا يتعمد العامية وإنما كتابته مزيج معتدل منسجم مع اللهجتين ، وهو لا يقصد إلى أن يبهرك ولا إلى أن يغرب عليك فى لفظ أو معنى ، وإنما يستجيب لطبيعته السمحة التى تكره التكلف والتحذلق والإسفاف ، وقد أخذت فى قراءته ذات يوم فكان أشد ما أضيق به العوارض التى تعرض فتصرفك عما أنت فيه على كرهك ، لهذا والضجر به والإحساس الذى لا يفارقك أثناء القراءة هو أنك مع الكاتب تشهد ما يشهد وتسمع ما يسمع وتجد ما يجد من ألم أو لذة ومن سخط أو رضاً تسافر معه ، وتقيم حين يقيم مع أنك لا تبرح مكانك وإنما هو براعة الكاتب واسماحه يستأثران بك ويخيلان إليك انك تلزمه فى حركته وسكونه كأنك ظل لا تفارقه »

إن أسلوب الأديب والكاتب المبدع أنيس منصور يدل عليه بكل أبعاده فهو خلاصة له والأديب إذ استطاع أن يتميز بأسلوب متفرد لا يكون ذلك الأسلوب جزءاً منه بل هو الكل الذى اشتركت فى تكوينه الأجزاء جميعا من تجارب ومواهب وتطلعات وزمنية وثقافة وأصالة وصدق أدبى واستقلال شخص لدى أديب معين ، إذ تميز بأسلوب خاص علما بأن الأساليب المتميزة تتفاوت بمستواها وروعتها ، وهذا الذى نعتبره ذروة فى الأدب هو نتيجة الجهد البشرى الفردى .. الاجتماعى التاريخى لدى المبدعين وعلى هذا يكون الأسلوب هو الإنسان .

ويمكن أن نعرض القضية بعيداً عن الأدب فى أن الفرد .. الانسان بطريقة حديثه وتفكيره وردود أفعاله هو نتيجة وخلاصة لحياته وتجاربه وأحداث زمانه وثقافته ، وإذا عكسنا المسألة على الابداع نقول : هذا أسلوب أنيس منصور .. هذا أنيس منصور نفسه !



السادات عرض ثورة مايو على شرائط فيديو !

الكثيرون لا يعرفون أن الرئيس الراحل أنور السادات قد فكر مع زملائه المتهمين معه فى قضية اغتيال أمين عثمان فى إصدار مجلتين اسبوعيتين داخل سجن مصر عام ١٩٤٦ ، تتضمان الحوادث العامة والتعليق عليها ونقد المتهمين أنفسهم والتعليق على ما يدور من حوادث فى السجن ، وتحولت الفكرة إلى واقع عملى فصدرت المجلة الأولى يوم ٢٣ أكتوبر ١٩٤٦.باسم « الهنكرة والمنكرة » ورئيس تحريرها وسيم خالد وصدرت الثانية يوم ٢٦ أكتوبر ١٩٤٦ باسم « ذات التاج الأحمر » ورئيس تحريرها محجوب الجابرى .

وبالرغم من أن هذه التجربة تعد عملاً محدوداً بالمقاييس المتعارف عليها فى العمل الصحفى إلا أن أهميتها تتجسد فى كونها تجربة تعكس بوضوح الاهتمامات الأولى لأنور السادات بالمجال الصحفى واستعداده له .

وقد عمل أنور السادات صحفياً في مجلة المصور عام ١٩٤٨ عقب الإفراج عنه مباشرة والحكم ببراءته فى قضية اغتيال أمين عثمان ، وقد تولى بعد قيام الثورة بستة أشهر فقط مسئولية أو دار صحيفة أنشأتها الثورة وهى دار التحرير للطباعة والنشر .. وعنها صدرت أول جريدة يومية للثورة وهى جريدة الجمهورية والتى صدر العدد الأول منها فى ديسمبر ١٩٥٣ ، وكذلك مجلة التحرير فى أول يناير عام ١٩٥٤ .

وعلى الرغم من أن السادات قد عرف الكثير من الصحفيين الذيب عملوا معه خلال حياته الصحفية أو التقى بهم بعد رئاسته إلا أنه كان أقربهم إليه بلا منازع هو أنيس منصور .

ولقد عرف أنيس منصور الرئيس السادات مصادفة .. حين كان السادات نائباً لرئيس الجمهورية وفى يوم من الأيام جاء السادات الى أخبار اليوم وكان مشرفاً عليها وقابله أنيس فى الأسانسير وصافحه وقدم له نفسه فقال له السادات :

قرأت لك الموضوع الأخير عن بوذا فى الصفحة الأخيرة من أخبار اليوم وقد أعجبنى جداً .. لقد استمتعت به .. وأنا كمان باعرف أكتب يا أنيس

فرد عليه أنيس : ما أنا عارف .. بالتأكيد

وخرج أنيس من الأسانسير وظل السادات يتحدث ظناً منه بان أنيس لا يزال موجوداً فى الاسانسير !

وجاء موظف الاستعلامات إلى مكتب أنيس وقال له : سيادة النائب كان لايزال يتحدث إليه .. إنه فى انتظارك بالمكتب .. وذهب إليه أنيس فى مكتبه فبادره السادات قائلا :

أريد منك يا أنيس صفحة أدبية فوراً .

ووافق أنيس رغم مشاغله الصحفية وقتها حيث كان يكتب عدة مقالات فى وقت واحد : العمود اليومى واليوميات والصفحة الأخيرة من أخبار اليوم التى كان يعرض فيها « ديانات أخرى » فضلا عن مقالة آخر ساعة . ثم التقى أنيس بعد ذلك بالرئيس السادات لتقديم واجب العزاء فى أبيه وبعدها فى اجتماع عام مع آخرين بشأن مشاكل الورق ، ويومها كان أنيس منصور رئيساً لتحرير مجلة آخر ساعة وأبدى الرئيس السادات بعض ملاحظاته على المجلة .

ثم دعى الرئيس لفرح ابنة الوزير محمد توفيق عبد الفتاح أحد الضباط الاحرار ووزير سابق للشئون الاجتماعية وسفير لمصر فى كوبا وسويسرا وهو مصادفة خال زوجة أنيس منصور .. ووقف أنيس فى انتظار الرئيس السادات على الباب .. وما أن رآه السادات حتى بادره قائلا :

إيه اللى جابك هنا يا أنيس .

فضحك أنيس قائلا : الوزير خال مراتى .

وحضر السادات الحفل والتقطت له عدة صور مع العروس والأسرة وإذا بالسادات يقول للسيدة رجاء حجاج .

انتى تزوجتى أنيس

فردت قائلة : أيوه .. ليه

فأجابها : الله يكون فى عونك !

وكثيرا ما سأل بعدها أنيس الرئيس السادات عما كان يقصده بهذه العبارة فكان السادات يضحك دون أن يصرح !

وقد طلب السادات من أنيس منصور الاتصال به لإعادة صياغة مذكراته لكن أنيس لم يتصل به ! وأعطى السادات مذكراته ليوسف السباعى وظهر الجزء الأول منها فى جريدة الأهرام !

وكان أنيس منصور يلتقى بالسادات فى رحلات الخارج مع رؤساء تحرير الصحف .

وفى إحدى الرحلات وكانوا عائدين من السعودية نادى السادات على أنيس منصور وطلب منه أن تخرج إلى حيز الوجود مجلة ٦ أكتوبر !

وكانت البداية الحقيقية لصداقة طال أمدها بين رئيس جمهورية وكاتب كبير !!

واستمرت حتى رحيل السادات بل كان المفروض أن يلتقيا السادات وأنيس بعد حادث المنصة بساعات فى جبل الراحة !

ومع العدد الأول بدأت مذكرات الرئيس السادات وهى « الجليد يذوب فوق موسكو والقاهرة » وكان الغرض من هذه السلسلة هو تصحيح التاريخ الحديث أو العلاقة المصرية السوفيتية . ولذلك كان الرئيس حريصاً على أن يوجهها إلى الشباب فى مصر والبلاد العربية يحكى تجربته « المريرة مع الاتحاد السوفيتى ، وبعدها بدأت مذكرات » من أوراق السادات التى كتب معظمها أنيس منصور بعد أطول تسجيلات للرئيس السادات .. أكثر من ٢٠٠ شريط تسجيل بصوت السادات يروى فيها كل شىء ولا يزال يحتفظ بها أنيس منصور حتى الآن !

وأجرى مما أكثر الاحاديث فى الصحافة .. أكبر عدد من الأحاديث مع [illegible] والعربية . وقبل أن يكتب مقاله السياسى كان على صلة يومية بالتليفون مع الرئيس السادات .. وكثيراً ما كان يكلفه بمهام سياسية دبلوماسية ..

بل إن أنيس منصور جلس مع الرئيس السادات أطول ساعات يمكن أن يجلسها معه إنسان ولو كان أقرب المقربين إليه !

حدث هذا بعد ثورة ١٥ مايو حين جلس معه فى استراحة المعمورة من الثانية عشرة ظهراً حتى الواحدة بعد منتصف الليل !

وكان السادات يحكى فيها لأول مرة كيف خطط ونفذ لثورة ١٥ مايو .. وانتهى فيها شرائط الكاسيت التى أحضرها أنيس معه ، وكذلك الشرائط الموجودة فى استراحة المعمورة . وبدأت سيارات الرئاسة تجمع من الكورنيش شرائط الكاسيت التى انتهت ايضا ثم طلب انيس من جيهان السادات شرائط من جيهان السادات شرائط أخرى وكان لامفر من أن يحكى السادات ثورة ١٥ مايو على شرائط لأغانى فيروز ! ١٣ ساعة كاملة رفض فيها السادات أن يتناول الطعام رغم إلحاح جيهان السادات ، وبعدها فرغ أنيس الشرائط وأعاد صيغتها وعرضها على السادات فعدل فيها ثلاث كلمات ليصدر بعدها العدد الأول من مجلة اكتوبر ! .

وكانت للسادات ذاكرة سياسية قوية فهو يستطيع أن يحدد الأحداث السياسية بتواريخها وأيامها فيقول لك إن الحادث الفلانى الذى وقع من عشرين عاما كان يوم ثلاثاء وتمسك الآلة الحاسبة وتجد ما يقوله صحيحا ! حادثة غريبة فى نوعها .. كان السادات فى العريش والثورة لم تقم ، ثم فوجىء بجمال سالم ينتحى بحسن ابراهيم ويهمس له بشىء لم يسمعه السادات وانصرفا .. كان ذلك قبل قيام الثورة وذات يوم من أيام عام ١٩٧٧ كان السادات يحكى مذكراته على انيس وفجأة تذكر السادات هذه الواقعة .. وطلب من أنيس منصور أن يذهب ليسأل حسن ابراهيم عن الحوار الذى دار بينه وبين جمال سالم فى المطار .

وكان رد حسن ابراهيم بالطبع : والله مانا فاكر .

فقال له الرئيس غريبة .... فعاد انيس يقول لحسن ابراهيم الرئيس مستغرب

فكان رد حسن ابراهيم : غريبة .. انه هو فاكر .. ولا انا مش فاكر !

وكان كل ما يتذكر السادات هذه الواقعة يحاول أن يعرف حقيقتها .. حكاية حدثت من عشرين عاما لكنها تمثل له سؤالاً بلا جواب ! وفى يوم اتفق أنيس مع حسن ابراهيم على ان يختلقا له أى موضوع .

فقال له أنيس : لقد تذكر حسن ابراهيم أخيرا الواقعة كان يقول لجمال سالم لما تنزل مصر اوع يفوتك فيلم ريتا هواريث .. جلدة ..

فرد السادات قائلا : لا لم يكن معروضا فى سينما الازبكية بل كان معروضا فى سينما استراند !

كان يتذكر الوقائع بأدق تفاصيلها ولو مر عليها عشرات السنين

وكان من المفروض أن يلتقى أنيس بالسادات يوم ٦ أكتوبر بعد العرض العسكرى ليذهب إلى وادى الراحة بل إن الحقائب قد ذهبت إلى هناك بالفعل .

وجلس أنيس أمام التليفزيون يشاهد العرض العسكرى الذى توقف فجأة وانقطع ولم يجد ما يقوله رداً على أسئلة التليفونات ..

وعرف وذهب الى مستشفى المعادى ووجد نائب رئيس الجمهورية حسنى مبارك ومعه سكرتيره يطلب له أرقاماً

وسأله أنيس عن نوعية الذين أطلقوا الرصاص على الرئيس

فأجاب : لم تحدد بعد .

وهمس النبوى إسماعيل فى اذنه : إن الاطباء يفعلون المستحيل !

ثم تسلل أنيس إلى غرفة العمليات ورأى السادات مضرجاً فى دمائه رأى ما يعجز عن وصفه ويتمنى من الله أن يهبه القدرة الهائلة على نسيانه ، والتقى بالدكتور محمد عطية طبيب الرئيس الذى خرج معه من الغرفة وهو يقول : لا أمل مطلقا !

ورأى د. أمين عفيفى زوج ابنة الرئيس وقد أسند رأسه إلى الحائط وراح يدقه ويبكى، أما ممدوح سالم فقد جلس إلى جوار أسرة الرئيس وراح يبكى بحرارة وانهيار. أما جيهان السدات فقد كانت أشد تماسكاً!

فقد جلست على مقعد أمام غرفة العمليات فى ذهول لا تكلم أحداً ولا يكلمها أحد .. ولم يفلح أحد فى أن يحركها من مكانها

أما سكرتارية الرئيس وحراسه فقد ظهر عليهم الإعياء والإرهاق والعيون دموية .. والملابس أيضا!

وقال له د. مصطفى المنيلاوى: لقد جاء السادات ميتاً إلى مستشفى المعادى!

ونزل أنيس منصور سلالم المستشفى على قدميه وقد وجد العجب!

وجد من يحمل البوت الأسود الطويل .. والبنطلون وقد تدلت مع ذراعيه .. كأنها مشنوقة.

إنها بعض ملابس أنور السادات!

ولا ينسى أنيس يوماً جاء فيه الترزى إلى الرئيس يعرض عليه ملابس جديدة تحت الأشجار فى القناطر الخيرية. ولم يكد يمر الترزى يحمل شماعة عليها هذه الملابس حتى وجد أحد الحراس ـ لا شعورياً ـ قد اعتدل واقفاً!

سبحان الله .. ما أعظم حكمتك وما أقساها أيضاً!

لقد وعد السادات أنيس أن يرافقه إلى وادى الراحة ولكنه ذهب وحده إلى الراحة .. الراحة الأبدية!

●●●

سبع سنوات ضائعة فى عصر السادات

« الازدواجية هى بلهارسيا الأديب المصرى ».

عبارة أؤمن بها جداً فمن الصعب أن يزاوج الأديب بين أعماله الابداعية وأعماله الادارية ، أو أن يجمع بين الكتابة فى الأدب والكتابة فى السياسة ..

وفى اعتقادى أن الأديب أنيس منصور خسر كثيراً بالانشغال بالكتابة السياسية وارتباطه السياسى الوثيق بالرئيس أنور السادات ..

فخلال سبع سنوات هى فترة ارتباطه السياسى بالسادات تعطل أنيس منصور تعطيلاً مباشراً عن أعماله الأدبية والفكرية والفلسفية ، فلم يصدر له كتاب واحد اللهم إلا فى الفترة الأخيرة حين صدر له كتابه « فى صالون العقاد » محاولاً به اللحاق بقطار مؤلفاته السريع قبل فوات الأوان ، حيث كان يصدر له سنويًا ما بين أربعة وخمسة كتب فى العام الواحد !

فلاشك أن الكتاب الادبى هو الابقى .. أبقى من المقالات السياسية التى لاتحتمل القراءة بعد فوات أسبوع واحد من مرور أحداثها ..

ولاتندهش أن تقلف بعدها هذه المقالات سندويتشات الفول والطعمية !

والكاتب أنيس منصور لايعتبر نفسه كاتباً سياسيًا ولكن كاتباً فى الفكر السياسى ، فهو ليس مشغولاً بالأوضاع الحزبية ولا ملاحقة القضايا اليومية التى تنشغل بها الوزارة التى تنتقدها المعارضة ويتخذ منها موقفاً معيناً أسبوعاً بعد أسبوع .

ولكنه مشغول بالفكر السياسى ، وطريقته له هو الاشتغال بالأدب السياسى أو بالسياسة الأدبية ، فهو مشغول دائما بتأديب السياسة أو بتسييس الأدب ! .. إيماناً منه بأن الكتابة السياسية قصيرة العمر ، وأن ما يكتبه من مقالات سياسية

فى مجلة أسبوعية أو جريدة يومية يلقى يوماً بيوم . فهو يحاول أن يطيل من عمر الكتابة السياسية بتحويلها إلى كتابة أدبية .

ولا يعترف أنيس منصور بأنه خسر فى الكثير من أعماله الادبية والفلسفية فى عهد السادات ، وبالتأكيد أختلف معه فى هذا الرأى ورأيه فى هذا أن الكاتب لا يخسر فى جميع الأحوال ، ويضرب بذلك مثلاً حين كان فى مدينة (اجرا) التى يقع بها تاج محل بالهند وكان معه شقيق نزار قبانى الذى كان يشغل وقتها سفيراً لبلاده فى الهند وخرج عليهم عراف من وسط الحقول ومعه مجموعة من الثعابين وظل يعزف على الناس ، والثعابين تكتب اسم انيس على الأرض وطلب العراف من أنيس مبلغاً من المال ليضعه على الحجر لكى يكشف له طالعه فنصحه بألا يضيع نقوده فالعراف يضحك عليه !

فرد عليه أنيس : أنا لن أخسر شيئاً فى كل الأحوال سأكتب .. !
كان صادقاً سأكتب .. كان كاذباً سأكتب !

ومثله مثل المثل الإسبانى الشهير فى الحب : تقع كويس وقعت .. تقع سيىء وقعت فأنت فى جميع الاحوال قد وقعت فى الحب !

فهو فى جميع الأحوال سيكتب ..

ويعتقد أنيس منضور أنه خلال عهد السادات استغرقته الكتابة السياسية ، ولكن كتابه « فى صالون العقاد .. كانت لنا ايام » كان أكبر تعويض عن الكتب التى لم تصدر له خلال السبع سنوات الضائعة !

وأسباب هذا « الصالون » هو أن يريح نفسه من عناء الكتابة السياسية ، والتخفيف من أعباء فكرة هذا الكتاب التى ظلت تلح عليه ويحملها فى رأسه وعلى كتفيه مايقرب من عشرين عاما !

والفن هو التخفيف من المعانى وفى التخفف فن ومتعة ، وتشاء الظروف أن يموت بعدها السادات ويعود أنيس إلى ميدانه الحقيقى الأصيل ! فالمشكلة التى تواجه أديب السياسة هى ألا يفقد حماسته الأدبية تحت ضغط الأحداث العنيفة المستمرة ، وفى الوقت نفسه لاتغرقه السياسة فينسى خط البداية .

وكانت مقالات طه حسين فى السياسة أدباً جميلاً ، ولم يكن فى استطاعة طه حسين إلا أن يكون أديباً ، فهو عندما يجلس للكتابة تطل عليه مئات الكتب من روائع الأدب والفن العربى والعالمى ، ولم يكن فى استطاعة طه حسين أن يسد أذنيه عن الذى يدور حوله ولا أن يمحو من ذاكرته تجارب السنين فى الأدب وتاريخه ونقده .

وكذلك كان توفيق الحكيم بل ربما الحكيم هو أقرب الجميع إلى الفنان الذى اختار أن يتفرج على المجتمع دون أن يشارك فيه .

أما نجيب محفوظ فهو المؤرخ الحقيقى للحياة السياسية فى مصر ، ولكن ليست له صفات المؤرخين الذين يعرضون ما حدث كما حدث معتمدين على الوثيقة والتجربة الشخصية ، ولكنه يعرض التاريخ شاعراً وفناناً وعاشقاً وناقداً وهو أكثر حرية من المؤرخين وأطول عمراً أيضا ، فالمؤرخين فى خدمة فنه ولكن فنه تاج على رءوس المؤرخين .

وإذا كان لابد لأنيس منصور أن يفاضل بين اثنين من المؤرخين : الجبرتى والرافعى فإنه يفضل الشيخ عبد الرحمن الجبرتى ، فالرجل لم يكن سياسيا انما هو هو شاهد عيان ينقل بصدق وأمانة وسجل رأيه بوضوح ، وتاريخ الجبرتى سجل لكثير من العادات والتقاليد والألفاظ العربية والمصرية والأجنبية والمصطلحات المستمدة فى عصره . وعلى الرغم من أن الجبرتى كان حريصاً على الصدق والأمانة فإنه لم يشأ أن يكون جهاز تسجيل ، وإنما كان يعلق غضبه واحتقاره لكل أشكال الظلم والقهر الفرنسى ، وكان يشيد أيضا بعظمة مصر .. وهذا هو الذى جعل مؤرخاً عظيماً مثل توينبى يقول : « إن الجبرتى هو أعظم المؤرخين فى كل العصور » .

وكان عبد الرحمن الرافعى رجلاً طيباً على خلق كريم وكان يسجل ما حدث كما حدث ، ولكنه فى الوقت نفسه كان يقوم « بتصفية » التاريخ من الشوائب الأخلاقية أو الاجتماعية ، فتاريخ الرافعى تاريخ مهذب ، وفى رأى أنيس منصور إنه يشبه الطعام المسلوق .. إنه طعام صحى ولكنه لاطعم له أو ليست له نكهة النباتات الطازجة أو الغابات الوحشية .

وكان الرافعى رجلاً حزبيًا وسياسيًا وكذلك كان العقاد وطه حسين ود . هيكل ، ولم يكن الجبرتى والحكيم ومحفوظ وأنيس منصور !

ولما كان أنيس منصور تلميذاً فى المنصورة الثانوية زارهم د . محمد حسين هيكل باشا وزير المعارف وسأله ما الذى تحب أن تكونه عندما تكبر ؟

وكان جواب أنيس : لا أحب أن أكون مدرساً !

وكان ردًا غير سياسى .. فمعناه أنه لايحب أن يكون مثل مدرسه أو ناظر المدرسة أو ربما مثل وزير المعارف ، ولكن كانت إجابته صادقة فهو لايحب أن يعمل عملاً له علاقة بالتدريس ، التعليم وتصحيح الكراريس ، وأن يقول ما سبق أن قاله بالأمس ، وأن يمسك الطباشير وأن يشم رائحة الجير حتى الموت !

وعندما قابل الرئيس أنور السادات لأول مرة سنة ١٩٦٩ وكان وقتها نائباً لرئيس الجمهورية سأله ولماذا لاتكتب فى السياسة ؟

فقال له : سوف أفعل

فعاد وسأله : متى ؟

فأجاب : غداً

وكان ردًا سياسيًا وكتب أنيس مقالاً سياسيًا ، وعندما عاد إلى هذا المقال بعد ذلك لم يجده سياسيًا وإنما وجده نموذجاً للشكل والمضمون الذى يستريح إليه فهو يمارس حريته فى التعبير ، ولكنه يراه ليس سياسيًا تماما وليس أدبيًا تماما ، وإنما هو خليط من كل ذلك .

وكان أول درس تعلمه أنيس منصور فى الكتابة السياسية قاسياً فقد كتب مقالاً بعنوان « حمار الشيخ عبد السلام » وعاقبه عليه الرئيس جمال عبد الناصر بالفصل من عمله ، وكان فى ذلك الوقت عام ١٩٦١ رئيساً لتحرير مجلة « الجيل » ومدرساً فى الجامعة ووجد نفسه فى الشارع بلا مرتب محروماً من الكتابة ومن التأليف ومن الخروج من مصر إلى أى مكان آخر ، وفى ذلك الوقت طلب منه عدد من الأصدقاء والأمراء السعوديين أن يترك مصر نهائيًا وفكر فى الهرب من بورسعيد ولكن ظروفاً خاصة منعته من ذلك !

أما هذا المقال فكان تعليقاً على رواية توفيق الحكيم « السلطان الحائر » وقد عكس أنيس المعانى الواردة فى رواية الحكيم على أوضاع الصحافة فى مصر ، وكانت قد أممت نهائيًا ، ولقى الأستاذان مصطفى أمين وعلى أمين كل أنواع الهوان ، ولكنهما رفضا ذلك ، ووجدا أن موقف الرئيس عبد الناصر لم يكن موقفاً قومياً بالدرجة الأولى ، ولكنه موقف شخصى ، وكان أنيس وثيق الصلة بالأستاذين على أمين ومصطفى أمين ، وبعلى أمين أكثر : صداقة وحبًا وتشجيعاً وحزناً على ما أصابهما وأصابه .

وحين أعاد أنيس منصور نشر هذا المقال فى مجلة « أكتوبر » قرأه الرئيس السادات فقال ضاحكاً : أعوذ بالله .. إن هذا المقال تستحق عليه الشنق وليس الفصل !

وفى أول لقاء للرئيس السادات بمحررى أكتوبر فى ميت أبو الكوم روى قصة هذا المقال وحرية الصحافة فى عهد الرئيس عبد الناصر وأعاد تعليق الرئيس السادات وقال مداعبا : سيدى الرئيس إنك تحيرنى .. فالرجل الذى كان يشنق الناس اكتفى بفصلى وأنت الذى لاتفصل الناس تطالب بشنقى !

والدرس الثانى عندما انتقل مع مصطفى أمين وعلى أمين إلى دار الهلال فقد كتب مقالاً يقارن فيه بين « الوحدة والعزلة » وكان مقالاً فلسفيًا نفسيًا ولكن الذى لم يخطر على باله أن الرئيس عبد الناصر قد وجد فى هذا المقال أيضاً تعريضاً له وسخرية بالوحدة مع سوريا والانفصال عنها ، ولذلك أمر بمنعه من الكتابة ودعاه وقتها د . محمد عبد القادر حاتم إلى لقائه وأبلغه أن جمال عبد الناصر قد أمر بعودته إلى الكتابة . وقبل ذلك تلقى خطاباً رقيقاً من المرحوم على أمين وكان وقتها فى طوكيو يدور فى رحلته حول العالم سنة ١٩٥٩ وجاء فى خطابه :

إن الرئيس جمال عبد الناصر قرأ مقالك المنشور فى « أخبار اليوم » عن نظام « الشيوعيات » الصغيرة فى الصين فأعجبه جدًا وقال : إنه مقال سياسى ممتاز فلماذا لا يكتب فى السياسة ؟

وفى واشنطون قابل رئيس هيئة الاستعلامات وكان مريضاً فى إحدى المستشفيات وقال له : إن الرئيس جمال عبد الناصر قد كتب بقلمه على هذا المقال .. إنه مقال سياسى رائع !

وفى سنة ١٩٦٣ حين اقترب أنيس منصور من جمال عبد الناصر ليتسلم منه جائزة الدولة التشجيعية فى أدب الرحلات .. نظر له جمال عبد الناصر نظرة فاحصة ثم قال له : هو أنت ؟!

ولم يفهم أنيس المعنى المقصود من ذلك . ولكن فى أحد الأيام روى له المرحوم يوسف السباعى أن الرئيس عبد الناصر سأله : إن كان أنيس شيوعيًا ؟

وكان رد يوسف السباعى : الشيوعى أنيس آخر .. عبد العظيم أنيس .. وليس أنيس منصور .

وربما أدى هذا الخلط بين الاسمين إلى أن يكون للرئيس عبد الناصر موقف خاص فيما يكتبه أنيس منصور !

وفى يوم أخبره الصحفى اللبنانى الكبير سعيد فريحه أنه التقى بالرئيس جمال عبد الناصر وتحدث معه فى شأن عودة مصطفى أمين وعلى أمين إلى مكانهما من « أخبار اليوم » بدلاً من وقفهما عن العمل . فقال له : بل لابد من إذلالهما .. وحتى هذا الأنيس منصور اللى طالعين به السماء قد فصلته هو أيضا !

وظل الشك يلاحق أنيس منصور فى كل الذى يكتبه فى السياسة .. أو يكتبه غيره فى مجلة الجيل التى كان يرأس تحريرها .. فهو لايعرف اين يقع هذا الذى يكتبه إذا سمح بنشره من نفس الرئيس عبد الناصر او الذين حوله ؟!

بل إن وكيل المخابرات فى ذلك الوقت إبراهيم بغدادى جاء يسأله عن صورة على شكل ظلال ظهرت فى مقال عن صيد الأسماك فى بورسعيد . وكان الموضوع عن نقص السردين بسبب السد العالى الذى أنهى عصر فيضانات النيل ..

ولم يجد صورة لصيد السمك ليضعها فى المقال فوضع صورة ظلالية لرجل وامرأة ليست لهما معالم واضحة . وقد وقفا عند السور الحديد على قناة السويس وسأله إبراهيم بغدادى : من الذى وضع هذه الصورة .

فقال أنيس : سكرتير التحرير

وسأله إن كان يعرف من هما صاحبا هذه الصورة فأجاب بالنفى .

واستدعى أنيس منصور سكرتير التحرير وقال أيضا : إنه لايعرف من هما .

وكانت الصورة الظلالية الباهتة لناهد رشاد وزوجها يوسف رشاد الذى كان طبيب الملك فاروق . ولا أحد يعرف ذلك ولا معنى لها إذا عرف أحد ذلك .

ولا علاقة لها بنقص السردين بسبب بناء السد العالى ! وإنما وضعت هذه الصورة لتجميل الصفحة التى خلت من الصور .

ومرة أخرى سأله إبراهيم بغدادى : ما معنى أن تنشر فى مجلة « الجيل » أن الرئيس جمال عبد الناصر قد اقام حفل زفاف ابنته فى بيته « المتواضع » فى منشية البكرى .

ولم يفهم أنيس منصور معنى ذلك واستدعى المحرر الذى كتب هذا الخبر فقال : لابد أن يكون حفلاً متواضعاً لأنه لم يقم فى فندق سميراميس أو فى فندق شبرد .

وكان سؤال إبراهيم بغدادى ، ولكن كيف عرفت أن بيت الرئيس متواضع ؟

ولم يكن الكاتب أنيس منصور ولا المحرر الذى كتب الخبر يعرفان أن بيت الرئيس عبد الناصر ليس متواضعاً بسبب التعديلات التى أدخلت على حديقته وعلى ملاعب التنس ولا أن به حمام سباحة .

فظن الرئيس عبد الناصر والمخابرات أنهم يغمزون ويلمزون . وعرف بعدها أنيس منصور أن الشك والقيود لم تكن قاصرة عليه وحده وإنما لحقت كثيرين .

ويمكن القول بان نكسة سنة ١٩٦٧ هى التى جعلت أنيس منصور كاتباً سياسيًا وجعلت الفلسفة أبعد عن حلمه .. وإن كان الأدب والتاريخ وعلم النفس هى اعداد والدم والعرق الذى مزج به كل ما كتب بعد ذلك .

فقد بدأت الصدمة الكبرى بأنه ذهب إلى الجبهة فى الأيام الأولى من شهر يونيو ١٩٦٧ ورأى وسمع وانبهر وتوقع أنه النصر لمصر والعرب لاشك فيه !

وقد جمع قصائد الشبان وخطبهم ووعد بنشرها وامتلأت عيناه وأذناه وعقله وقلبه ، وأصبح مثل مدفع سريع الطلقات قد أعد إعداداً تاماً ليطلق فى أى يوم ٤ يونيو .. وكان أنيس منصور آخر مدنى يعود من الجبهة فقد دعاه الفريق صدقى محمود إلى طائرته لتكون النكسة بعد ذلك بساعات وليكون كل الذى شاهده تراباً . والذى سمعه صدى والذى توقعه سراباً ، وليكون يوم النصر هو يوم الهزيمة .. إن هذه المعانى وغيرها قد هزته من الأعماق ودفعته إلى الاعتقاد بعدد من الحقائق فى مقدمتها : إننا حاربنا عدوًا لانعرفه ، وحاربنا عدوًا يعرفنا تماماً ، فكان لنا ما نستحقه وكان له ما يستحقه .

ولهذا فلقد رفع الكاتب الكبير أنيس منصور شعارا هو « اعرف عدوك » فكتب عن اليهود فى التاريخ كله وعن إسرائيل ، وكيف قامت وما الذى تريده الصهيونية العالمية من العرب ومن العالم كله .. ومن مصر بصفة خاصة وكتب مئات المقالات فى أخبار اليوم والأخبار والجيل وآخر ساعه ، وهذه المقالات هى دراسات متعمقة للبيئة اليهودية والكيان الصهيونى .

فقد أصدر أنيس منصور ثلاثة كتب جمع فيها كل هذه المقالات هى : الحائط والدموع والصابرا ، الجيل الجديد فى إسرائيل .. ووجع فى قلب اسرائيل .

أما مقالاته السياسية التى كتبها على مدى اشتغاله بالكتابة السياسية فقد جمعها فى جزءين « فى السياسة » وهى مجموعة مقالات سياسية تناولت شتى قضايانا الوطنية السياسة والاقتصادية والاجتماعية ، حاول فيها أن يكسو السياسة أدباً وفلسفة .. فهو دائما مشتغل بالأدب ، ولكنه ينتقل بين غابات السياسة الخارجية والداخلية يبحث عن فريسته .. ضالته المنشودة .. كل ما هو جديد !

●●●

إسرائيل تشكو أنيس منصور للحكومة المصرية!

فى أقل من عام واحد خلال عام ١٩٨٤ وبداية ١٩٨٥ اعترضت الحكومة الإسرائيلية أربع مرات على أربعة مقالات كتبها أنيس منصور وهاجم فيها بشدة وبعنف إسرائيل .. والمشكلة الأزلية بين إسرائيل وأنيس منصور .. أنه يعرف عنهم الكثير ، بل إن وزارة الخارجية الإسرائيلية اعترفت رسميًا للحكومة المصرية وبكل وضوح وصراحة بأن أنيس منصور يعرف الكثير من نقاط الضعف فى الشخصية اليهودية ، وأنه لا يكتب عنهم مصادفة ولكن بتركيز شديد قوى يعرف مواطن الوجع فى الشخصية الإسرائيلية !

ولا غرابة فى ذلك مطلقاً بعد أن رفع شعارات عديدة بعد نكسة ١٩٦٧ منها «الانسان القارىء تصعب هزيمته» وتطوع بإقامة معرض تنقل بين العواصم العربية والمحافظات المصرية وموضوع المعرض هو : اعرف عدوك ، وكان المعرض يضم كل الكتب العربية والأجنبية عن القضية الفلسطينية والصهيونية وإسرائيل والمؤامرات التى تدبر لنا وبيننا ، وكان هدفه هو أنه لكى نفلت من الهزيمة الفادحة يجب أن نعرف عدونا !

وكل الكتاب اليهود فى العالم يعرفون مكانة إسرائيل فى قلب أنيس منصور ! لدرجة أن الكاتب اليهودى الصهيونى الإنجليزى ديفيد هيرست أدلى بحديث لمندوب الـ أم . بى . سى إحدى الشبكات الأمريكية يقول فيه : إن أنور السادات رجل كاذب ونازى وممثل فاشل على مسرح السياسة ، وإنه ليس كما يقال رجل سلام وإن له مستشاراً اسمه أنيس منصور من أعدى أعداء اليهود وله مقالة يقول فيها : إن غلطة هتلر الوحيدة أنه لم يقتل عدداً كافياً من اليهود !

وقد تم نقل هذا الحديث على شريط فيديو كاسيت وشاهده أنور السادات مما أثار غضبه الشديد .. وطرد السادات مندوب الـ أم . بى . سى من المؤتمر الصحفى فى ميت أبو الكوم ومن مصر كلها !

ولكن هل تغيرت وجهة نظر أنيس منصور الكاتب السياسى فى إسرائيل واليهود بعد كامب ديفيد ؟! هل استطاعت شخصية سياسية كبيرة مثل أنور السادات كرئيس للجمهورية وبحكم أن أنيس منصور كان من أقرب المقربين إليه من الكتاب والصحفيين أن يؤثر على رأيه فى اليهود وإسرائيل ؟!

لقد كان رأى الرئيس أنور السادات فى إسرائيل سيئاً وقد عبر ذلك بنفسه حين قال إنه رأى بعض الإسرائيليين فى مطار روما بينما كان يشاهد بعض الفترينات فابتعد عنهم سريعاً !

ولقد كان أنور السادات معجباً بشخصيات هتلر وروميل ، واليهود أخذوا ضده ذلك فمعنى إعجابه تفسيره هو أنه موافق على القضاء عليهم ! والحقيقة أن هتلر كان يحارب الإنجليز .. وأنور السادات كان صديقاً لأى عدو للإنجليز !

والكاتب الأمريكى اليهودى المسرحى « سول بيلو » الحائز على جائزة نوبل للأدب نشر فى أحد الهوامش فى كتابه « عن القدس وإليها » إن السادات رجل نازى وليس رجل سلام بعد أن نشرت الواشنطن بوست مقالة للسادات يؤكد فيها إعجابه بهتلر !

ولقد أصدر أنيس منصور بعد النكسة ثلاثة كتب فيها هجوم عنيف على اليهود والصهيونية وإسرائيل هى الحائط والدموع والصابرا ، ووجع فى قلب إسرائيل . وكلها تؤكد معنى واحداً ، أن التاريخ يقول لنا إنه من المستحيل السلام مع اسرائيل فاليهود لم يعرفوا السلام فى أى وقت ، ولأنهم لم يذوقوه فهم يخافونه أيضا .. لأن السلام يفرق بينهم . فالذى يجمع بينهم هو الخوف من العدو .. وهو عدم الشعور بالأمن .. ولذلك فأنسب حالاتهم هى التعبئة العسكرية .. ولو فوجىء اليهود بأن الدول العربية قد سالمتهم لأدى ذلك إلى أن يقتلوا بعضهم بعضاً ، وهذا هو الانتحار القدسى الذى لابد أن يحدث يوماً ما !

اليهود فى رأى أنيس منصور نوعية غريبة من البشر لم تعرف الأمان ، ولذلك لا أمان لها ولا أمان معها .. فالعالم اليهودى لورنتس أحد علماء الحيوانات والطيور وهو متخصص فى دراسة الأوز وفى كتابة (العدوان) عند الحيوانات انتهى إلى أن الحيوان المعتدى هو عادة الحيوان الضعيف ، فالحيوانات الكبيرة لاتعتدى ، ولكن الحيوانات الضعيفة عندما تخاف هى التى تعتدى ، كذلك اليهود جماعات متفوقة منزوية فى حارات ، وسوء النية عندهم جزء من عدم الشعور بالأمان ، ولذلك فهم فى حالة عدوان مستمر إلا أن تتحقق فرصة الاستئناس والائتلاف . ويرى الكاتب الكبير أنيس منصور أن تجربة اليهود فى التاريخ كله أنهم لاعرفوا الأمان ولا سوف يعرفونه !

وأنيس منصور هو الكاتب الوحيد الذى عندما يتحدث عن إسرائيل يقول الشعوب اليهودية فى إسرائيل ، لأنها تضم عدداً من الشعوب المختلفة لغوياً

وعرقياً وتاريخيًا والتى ستجلبت إلى هذه البلاد واستنبتت أو شتلت وانتقلت الأرض وإنه لم يفلح فى إذابة الفوارق اللغوية والمذهبية الدينية والسياسية إلا حالة الاستنفار المستمر أو التعبئة العسكرية لأنهم ليسوا إلا جيتو كبير بين دول لاتحبها وإن حالة الاستنفار أو التعبئة الأبدية هى التى جعلتهم فى حالة انسجام مزور أو مزيف ! بمعنى أنه لو قدر فرضاً إن سلامتهم الدول العربية لانتهت عملية الاستنفار والتعبئة ولا أكل اليهود بعضهم بعضاً .

فالمجتمع الإسرائيلى مجتمع مزور سابق التجهيز بفضل الرأسمالية الأمريكية والمعتقدات الماركسية السوفيتية معاً .. معاً .. فالشيوعيون البولنديون والروس اليهود أعطوهم المذهب واليهود الامريكيون أعطوهم التمويل !

فهى دول رأسمالية التمويل ... شيوعية العقيدة !

والمستوطنات الإسرائيلية ليست إلا نوعاً من الشيوعيات الصغيرة أو الكوميون الموجود فى الصين .

فمن الصعب على المجتمع اليهودى أن يعايش العرب أو أن يعايشه العرب وإنما هى دولة حكمها حكم دولة اسبراطة العسكرية فهى ترسانة عسكرية .. والترسانة العسكرية مثل معسكرات الكشافة والسجون والأقسام الداخلية فى المدارس .. مجتمعات صناعية وليست مجتمعات طبيعية لكنها مزورة أو مفبركة .

وكان هذا هو رأى أنيس منصور قبل أن يعلن فليسوف الحضارة المؤرخ الإنجليزى ارنولد تويبنى أثناء عدوان إسرائيل على مصر ١٩٦٧ حين قال : حتى ولو انتصرت إسرائيل على العرب فى ١٩٦٧ فمصيرها الزوال لأنها مجتمعات مزورة ومزيفة ، وأن مثل هذه المجتمعات غير الطبيعية قد زالت عشرات المرات فى التاريخ !

كان هذا هو رأى أنيس منصور أيضا وخلاصته أن الشعوب اليهودية شعوب غريبة متنافرة يصعب أن تعايش العرب ولو اتفق العرب لقضوا عليها .

ولكن إسرائيل قوية مرتان ، مرة بتماسكها والأخرى بتفكك وتخاذل العرب . الى أن جاء الرئيس أنور السادات وفى خطوة واحدة تغيرت الصورة .. زعيم أكبر دولة معادية لإسرائيل .. يسافر إليها وحده دون حماية أو حراسة أو سند إلا شجاعته وجراءته وصفة فكرية ألقاها فى مجتمع إسرائيل فارتبك مجتمع إسرائيل ، جاءت مبادرة السادات دليلاً على أن السلام ممكن . وأنه الممكن الصعب وقد تم السلام . إذن لقد أصبح السلام المستحيل ممكناً وقد أدى ذلك إلى انقلاب فى حسابات سياسية واجتماعية كثيرة فى إسرائيل وفى العالم كله . ورأى بعدها أنيس منصور أن السلام ممكن ولكنه صعب والسلام عملية مستمرة .. السلام فعل وليس حالة من حالات وقف إطلاق النار .

وقد كان سلاماً مع مصر وسلاماً « مبتسراً » مع لبنان ..

لقد أمكن التفاهم والتفاوض والتعايش وكان ما يراه مستحيلاً أصبح ممكناً بعض الشيء ، ولكن لما عرف الإسرائيليين عن قرب ازداد اقتناعاً أنهم من الصعب أن تتعايش معهم لأنه لا أمان لهم ولا أمان معهم ! لأنهم شالكون خائنون سيئو الظن لا يمكن التعامل معهم !

وفى نفس الوقت تتحدث كل الدول العربية عن السلام ولكن بأساليب مختلفة ولابديل عن السلام لأن أحداً لا يريد أن يحارب إلى آخر مواطن أو إلى اخر قطرة فى بئر بؤر .. وليس لدى الزعماء العرب شجاعة السادات وجرأته الفذة .. والسادات بالسلام وقبله الحرب كان سياسيًا عالمياً فريداً .. وإذا كنا لانرى ذلك الآن فسوف يراه أحفادنا بعد مائة عام ..

رغم التقارب بيننا وبين إسرائيل إلا أننا مختلفون تماما ولا يستبعد أنيس ـ أن تسوء الأوضاع فى منطقة الشرق الاوسط فندخل حرباً جديدة مع اسرائيل!

لقد اختلف بعد سياسية التطبيع ـ ككاتب سياسى ـ خلافاً شديداً ، فالمجتمع الإسرائيلى مجتمع صعب جدًا ومعقد ، ولانزال نعامل إسرائيل بتحفظ شديد ، فمشكلتنا مع إسرائيل أننا نتعامل مع قزم يركب كتفى عملاق هو الولايات المتحدة الأمريكية ، ونحن مطالبون دائماً بتحسن هذه العلاقات وإلا لا قروض ولاسلاح فى الطريق !

وهناك خوف من القادة العسكريين من أن السلام سوف يؤدى إلى تـ ريح الجيش وإلى اختصاره وإلى تجريد إسرائيل من أهم نتائج الخوف : اليقظة الدائمة ، وقد خسر اليهود الكثير بسبب الخوف العاجز وكسبوا كل هذه الأرض بسبب الخوف الواعى أى الخوف المستمد عسكريًا ..

وقد قامت دولة إسرائيل على الخوف فقد « اعتصرتهم » الشعوب الأخرى وحشرتهم فى الحوارى المظلمة ، ودفعهم الخوف من كل الناس إلى التآمر على كل الناس والتواطؤ ضد كل الشعوب حتى اليوم - وهم معذورون فى ذلك لأنهم لم يعرفوا الحب أو الصداقة أو المودة إنما عرفوا كراهية كل الناس واحتقارهم والخوف منهم .

يقول الفريد نوبل صاحب جائزة نوبل بمنتهى المرارة : إن يهودياً واحداً كان يحب الناس بلا مقابل ، يهودى واحد فقط فاستحق هذا اليهودى أن يكون إلهاً : إنه المسيح !

وكما اختلف اليهود على الحرب وضرورتها واختلفوا على « شرعية » قيام دولة إسرائيل هم الآن أشد اختلافاً مع مصر ومع العرب . صهيونيون فى كل مكان .. فالصهيونية تمتد وتتشعب فى كل بلاد العالم ، وهذا الأخطبوط الصهيونى بأطرافه المتعددة قد سيطر على نظم الحكم والسياسة والأدب والاقتصاد فى معظم دول العالم .

فلابد أن نعثر على مجهر جديد يكشف بصمات هذه الأصابع ، وقد تكون البصمة حادة واضحة تراها العين المجردة ، وقد تكون باهتة تحتاج إلى ميكرسكوب ، ولكن يستحيل وجود بصمتين متطابقتين .. فاليهود مختلفون كالبصمات وقالها الوزير النمساوى مترنيخ الذى استطاع أن يحكم الدبلوماسية الأوربية كلها أربعين عاما :

« كل بلد له يهود من نوعه » .

بمعنى أوضح لابد من كشف خفايا جديدة فى السياسة الصهيونية .. فى الأدب الصهيونى التى تختلف من بلد لآخر ، والتى اختلفت بعد أحداث ٦ أكتوبر المجيدة بعبور الجندى المصرى لقناة السويس وانعكس ذلك بدوره على الأدب الإسرائيلى والصهيونى ، وانكمشت الأصابع التى كانت تلعب من وراء الستار ، وأقول انكمشت ولم تختف فهى مازالت موجودة ، وأطراف الاصابع جزء من اليد ، واليد عضو فى الجسم ، فلابد من معرفة الجسم الصهيونى بأحجامه الطبيعية ووظائفه الفسيولوجية وأجهزته المدمرة ، وعقله التخريبى وقلبه المغلف بالعناد !

ولسنا وحدنا الذين حاولنا ان نعرف عنهم . فإنهم حاولوا ويحاولون أن يعرفوا عنا الكثير ، وكان بن جوريون رئيس وزراء إسرائيل السابق يحاول أن يحفظ سوراً كاملة من القرآن الكريم ، وأبا إيبان يجيد اللغة العربية ويتعمق فى دراسة التراث العربى والتاريخ العربى ، وكان يقوم بتدريس اللغة العربية والأدب العربى للطلبة فى جامعة كامبريدج ، وترجم (يوميات نائب فى الأرياف) لتوفيق الحكيم إلى اللغة العبرية ، والشاعر اليهودى يهودا هاليفى الذى عاش فى اسبانيا خلال الحكم العربى الإسلامى للأندلس كان يتغنى بالصهيونية بقصائد عربية !

المعرفة سلاح .. وسلاح قوى وخفى فى معركتنا ضدهم ..

وكان لابد من منظار جديد يكشف جرائم جديدة للصهيونية !

ولقد رفع الكاتب الكبير أنيس منصور شعاره الشهير « اعرف عدوك » .. أى لابد أن نرفع ظلام الجهل عن العقول . والقراءة وحدها لاتكفى وإلا انطبق علينا المثل المعروف عن أولئك العميان الذين ارادوا معرفة فيل ضخم فوقعت يد أحدهم على ذيله فقال لاصحابه : إن هذا الفيل هو شىء رفيع قصير ، ووقعت يد الثانى على أذنه فقال : بل هو شىء كالمروحة ، ولمس الثالث ساقة فأعلن أنه شىء كالعمود ، أما الرابع فاصطدم ببطنه وصاح لا .. بل هو كالحائط .. وهلم جرا . وحتى لانكون مثل هؤلاء العميان لابد لنا أن نقرأ .. ونقرأ بوعى وإدراك لما نقرأ ، وهذا هو الأهم لأن الأصابع الصهيونية التى أمسكت بالأقلام لتكتب تنشر سمومها من خلال ما تكتبه دون أن يحس القارىء بذلك .. نقرأ بوعى وإدراك .. لان الإنسان القارىء تصعب هزيمته !

ولقد أصدر أنيس منصور عديداً من المقالات والكتب لكى يقرأ القارىء العربى فى كل مكان القصة الطويلة المعقدة .. قصة اليهود فى العالم وتفاصيل القصة معروفة للكافة .. ولافائدة من سردها إلا اذا كان فى النية الصادقة أن نستفيد مما حدث أن نستفيد من تجارب اليهود أن نبكى بعين ونقرأ بالعين الأخرى .. نقرأ تاريخ هؤلاء الأعداء العاقلين العالمين .. إن العدواة وحدها لاتكفى .. كما أن الحب وحده لايكفى .. العداوة عمياء كالحب تماما إلا إذا وضعنا لها هدفاً وركنا لها طريقاً ، ولقد رسم لنا أنيس منصور طريقاً مرصوفاً ووضع لنا علامات المرور حتى لانصطدم بالحقائق بعد فوات الأوان .

ولقد صدر لأنيس منصور كتابه الحائط والدموع ثم جيل الصابرا ، وأخيراً وجع فى قلب إسرائيل .

وهذه المؤلفات جميعها تتناول تاريخ اليهود فى العالم منذ جذورهم التاريخية . حتى يومنا هذا .. يحلل مشاعرهم ويكشف النوايا الخبيثة والميول العدوانية والدعاية المسمومة لهم .

ومنذ سنة ١٩٦٧ بدا أنيس منصور في كشف كل هذا وحث القارىء العربى على أن يعــرف عدوه .. كيف يفكر .. كيف يعيش وكيف قدر ودبر .. وكيف استطاع وكيف يستطيع أيضاً ، ومهمة كل من يمسك قلماً أن يقول للناس بصدق وعن فهم ما الذى يراه وما الذى يمكننا أن نتعلمه .. رجال السياسة يجب أن يشرحوا سياسة إسرائيل .. والأجهزة السياسية التى تحكم إسرائيل .. رجل الدين يجب أن يعرض علينا مذاهب إسرائيل والخلافات من أكبر قوة حاكمة فيها .. وكذلك مهندس الصحارى ومهندس الرى .. ومهندس المياه .. والطبيب .. ورجال الجيش . إننا يجب أن نعرف عدونا .. إننا يجب أن نعرف بعقل وبهدوء وبموضوعية مالم نكن نعرفه من قبل ، ومايزال عندنا وقت فلاشىء سوف ينتهى اليوم أو غداً أو بعد غد ، فكل أساليب الحل طويلة .. ولكن الوقت الذى نتعلم فيه لايمكن أن يكون طويلاً .. لأن الذى يجب أن نعرفه كثير وهذا الكثير يحتاج إلى وقت طويل وإلى بال أطول ..

ولقد كان بال أنيس منصور طويلاً وأصدر ثلاثة مؤلفات .. هذه المؤلفات تعتبر موسوعة كاملة عن اليهود والصهيونية وإسرائيل .

وهذه الموسوعة بدأت بكتاب « الحائط والدموع .. عن قصة اليهود فى العالم .. إن اليهود شعب غريب عجيب فى هذه الدنيا .. ظلوا يبكون لأنهم يتعذبون فى كل أرض وفى كل عصر .. وتحولت هذه الدموع عبر آلاف السنين وآلاف الأميال إلى عقد متينة .. وإلى عقبات .. وإلى أشواك .. وإلى مؤامرات .. وإلى دسائس . وإلى حقد على العالم كله .. على كل إنسان ليس يهودياً .. على كل إنسان فى وطنه .. على كل إنسان معترف بوجوده .. على

كل الحدود والحواجز والفواصل .. واتجهوا بكل مرارة العصور إلى تحطيم القوالب والقواعد والفوارق والنوعيات والأديان والألوان . ومن وراء هذا التخريب العالمى كانوا هم فى حواريهم الضيقة وفى بيوتهم العالية .. ومن معابدهم السرية يفكرون ويدبرون .. كانوا يدعون العالم إلى التفكك ثم يتماسكون .. يدعون إلى القضاء على القوميات ويشعلون النار الدينية بينهم .. كانوا ينادون بالعالمية ويتمسكون بأرض الميعاد والدعوة لها والتخطيط لها .. لا فى استراليا ولا فى إفريقيا .. ولكن فوق فلسطين على الأرض العربية وفى قلب العرب ..

وقد تفرق اليهود فى كل مكان .. كما تتفرق الأوراق فى شجرة واحدة ، وكما تتفرق الأصابع فى يد واحدة ، وكما تفرقت الفصول فى هذا الكتاب .. ولكن الهدف واحد .. والجسم واحد ..

فهل نتعلم ذلك .

وقيل الكثير عن اضطهاد اليهود فى أوربا .. وإن هذه الكوارث قد حلت بشعب برىء .. ولكن الحقيقة أن الإسبان اليهود الأثرياء الذين طردوا سنة ١٤٩٢ لم يكونوا مكسورى الخاطر ولكنهم كانوا الأغنياء والتجار والمهنيين ومحصلى الضرائب .

وفى البرتغال طردوا لأنهم استغلوا المجتمع المسيحى أبشع استغلال ، أما فى التجارة فقد دخل اليهود فى أذيال نورمان الفاتح وتزايد عددهم حتى أن ايرون لنكولن كان أكثر الناس ثراء فى إنجلترا فى وقته ، وقد شملت عملياته المالية البلاد كلها وعمل عنده كثير من كبار النبلاء ورجال الكنيسة ولما مات ورثة التاج البريطانى بعد أن خصص له فرعاً خاصاً مكوناً من ٢٠٠ شخص لبحث ميزانيته !

ولهذا فقد طرد اليهود من كل دول العالم ، ففى إنجلترا طردهم إدوارد الأول سنة ١٢٩٠ ولم يسمح لهم بالعودة حتى عام ١٦٥٥ .

وفى فرنسا طردهم فيليب الأول سنة ١٣٠٦ ثم سمح لهم بالعودة ولكنهم طردوا ثانية عام ١٣٩٤ ، واستقر اليهود فى باردو وافيجنون ومرسيليا ومن ساكسون طردوا سنة ١٣٩٤ وفى هنغاريا (المجر الآن) كان اليهود سنة ١٠٩٢ يشرفون على جميع الضرائب وطردوا سنة ١٣٦٠ وفى تشيكوسلوفاكيا طردوا من براغ سنة ١٣٨٠ ثم اقام الكثير منهم بعد سنة ١٥٦٢ ... وفى عام ١٧٤٤ طردتهم مارى تيريزا ثانية .

وفى النمسا طردهم البريخت الخامس سنة ١٤٢٠ وفى هولندا طردهم اترخت سنة ١٤٤٤ وفى اسبانيا طردوا سنة ١٤٩٢ وفى ليتوانيا طردهم الدوق السكندر العظيم وفى ايطاليا طردوا من مملكة نابلى وسردنييا سنة ١٥٤٠ وفى بروسيا

طردوا سنة ١٥١٠ وفى بلغاريا طردوا نهائيا سنة ١٥٥١ اما فى البرتغال فلقد طردوا سنة ١٤٩٨ ولم يسمح لليهود فى دخول السويد حتى سنة ١٧٩٢ كما لم يسمح لهم بدخول الدانمرك قبل القرن السابع عشر ولم يسمح لهم بدخول النرويج بعد عام ١٨١٤ .

والفترة ما بين سنتى ١٣٠٠ ـ ١٦٥٠ والتى تحدد فترة طرد اليهود تحدد أيضا عصر النهضة وما كانت تحدث نهضة فى اوربا مالم تتمكن شعوبها من السيطرة على التجارة من ايد حفنة من التجار اليهود ..

ولذا يقال : ان العصور المظلمة لليهود بدأت مع عصر النهضة فلقد رحل اليهود ثم بدأ عصر النهضة !

ومن السخرية ان تكون انجلترا اخر دولة يغزوها اليهود واول دولة تطردهم وأول محاولة للمساواة بين اليهود والانجليز كانت سنة ١٧٥٣ فلقد صدر مشروع بقانون للجنسية يساوى بين اليهود والانجليز .. وثار الانجليز وظهرت الصور الفاضحة على جدران شوارع بريطانيا !

وأغنى اغنياء بريطانيا من اليهود .. ولنستون يملك اكبر عدد من المحلات التجارية فى بريطانيا ٢٤٥٠ فرعا .. ليونز صاحب محلات الشاى المشهورة .. سيمون ماركس هو صاحب محلات ماركس واسبنسر لبيع الاقمشة فى بريطانيا .

وماركس المليونير اليهودى مات فى سنة ١٩٦٤ ومن بعدها اصبح اللورد اسرائيل سيف اميرا للصهيونية البريطانية من اغنى اغنياء بريطانيا على الاطلاق .

وما اكثر الادباء اليهود الانجليز ارنولد وسكر وبرنارد وكويسر وهارولد بنتر وفرانك ماركس وليونيل بارت وبيتر شافر وحتى اللورد جورمان رئيس مجلس الفنون يهودى ايضا ورويتر صاحب الوكالة الاعلامية العالمية يهودى ايضا .

واليهود الانجليز يقدمون مساعدات ضخمة لاسرائيل وعلى الرغم من ذلك فان بن جوريون عندما زار بريطانيا من اجل طلب مساعدات لانشاء جامعة النقب قال لهم : ليس الصهيونى هو الذى يقيم فى بريطانيا ويغدق بأمواله على اسرائيل .. بل الصهيونى هو الذى يقيم فى اسرائيل !

ونادى بذلك ايضا ابا ايبان فهو يهودى بريطانى !!

وعندما وقعت المذابح فى دمشق سنة ١٨٤٠ بين اليهود والمسيحيين والمسلمين ، وقتل اليهود طفلاً صغيراً وامتصوا دمه وعجنوا بدمائه طعامهم المقدس ، وثار العرب ضدهم ولكن الزعيم اليهودى بونتفيورى الذى كان مستشاراً للملكة فيكتوريا استطاع أن يضغط على الملكة التى جعلت السلطان يصدر قراراً بعدم المساس بممتلكات اليهود فى الشام .

إن المحزن حقًا أن تكون مجرماً بالتعصب أو تكون ضحية له ..
وقد كان اليهود على الدوام مجرمين وضحايا فى الوقت نفسه !!
وإن السخرية الأكيدة التى تستخرج من التاريخ اليهودى هى أنهم بدلاً من أن يتعلموا من مصائبهم وآلامهم .. نجدهم يصنعون بالعرب ما فعله النازيون بهم !
ولقد أكد المؤرخ البريطانى ونستون تشرشل ـ حفيد رئيس وزراء بريطانيا الأسبق بعد ٦ أكتوبر فى مقال بجريدة «الاوبزرفر» البريطانية عن حرب أكتوبر إن الجنرالات الإسرائيليين قد فوجئوا وهم غافلون ، فقد كانوا سكارى من نشوة كأس أطاحت برءوسهم سنة ١٩٦٧ .

وإذا ذهبت إلى الأماكن السياحية فى لندن فانك سوف تجد يهودياً فى انتظارك ليهمس فى أذنك بأن الزعيم اليهودى مونتفيورى هو الذى أضاء بمصابيح الغاز التى أنتجتها مصانعه الشوارع المظلمة لعاصمة الضباب !

ولقد كان التقسيم الثالث لبولندا ذا مغزى عظيم فى التاريخ الروسى ، وعلى أثره ضمت روسيا اليها أكبر عدد من يهود العالم .... ومنذ ذلك نجد أن التاريخ الروسى أصبح مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالمشكلة اليهودية ، ثم كان اليهود المعول الهدام لانهيار القيصرية الروسية ، فلم تسمح الحكومة القيصرية لليهود المطرودين من غرب أوربا بالإقامة داخل حدودها فى الوقت الذى كانت تتدفق على بولندا أعداد ضخمة من اليهود فى القرن الثالث عشر والخامس عشر !

والحى اليهودى لروسيا هو إحدى الولايات على أطراف سيبريا .. على حدود الصين واليابان وهى ولاية بيربيجان التى تبلغ ١٥ ألف ميل ، والأحياء اليهودية تعتبر من وجهة النظر اليهودية أحد العوامل الهامة للتاريخ الحديث ، ولقد تجمع عدد كبير من اليهود أقاموا فى هذه الولايات حوالى ١٢٥ سنة ومن هذا التقارب أصبحت اليهود وتجاربهم تكاد تكون واحدة وانتشرت لغة يهود وسط أوربا فى القرن العشرين ، وفى ولاية بيربيجان فى سيبريا أنشئوا حكومتهم الذاتية للجالية اليهودية .

وقد اعترمت الحكومة القيصرية فى بداية الأمر بنظم هذه الحكومة الذاتية
وسمحت لهم أن يفرضوا الضرائب على اليهود كما سمحت لهم بإنشاء محاكم وظيفتها ، انهاء النزاع بين اليهود فقط ، ولكن سرعان ما فقد اليهود هذه المميزات فى سنة ١٧٩٦ مما اضطرهم إلى الوقوف أمام المحاكم العاديه وبدأ اليهود كالعادة يصرخون ويبكون ويحاولون أن يستنزفوا الدموع من الماقى من ظلم الحكومة القيصرية على أنهم كانوا فى حقيقة الأمر يتمتعون بالأمن والاستقرار ، وهجموا على اقتصاديات البلاد كسرب من الجراد فى حقل قمح جديد !

وليس بمستغرب أن تقول إن اليهود الذين يكونون ٤٪ من سكان روسيا قبل الحرب العالمية الأولى كانوا يشغلون ٧٨٪ من الطبقة المهنية .

فلو أراد الشعب أن يطرد هؤلاء القلة المتمكنة فانه يهدد بذلك اقتصاده القومى بكارثة لامفر منها !! لأن اليهود كان يمثلون جزءاً جوهريًا من الطبقة المتعلمة وطبقة الأخصائيين . وكان من نتيجة هذه السيطرة الفاسدة أن اندلعت الثورة الشيوعية . ولقد حاول اليهود منذ البداية السيطرة على الحكومة الشيوعية ففى جنيف سنة ١٩١٨ ، والحرب العالمية الأولى تجتاح أوربا كلها كانت دولة روسيا البلشفية تحاول أن تؤكد وجودها بزعامة لينيين .

ولقد اتفقت شقيقتان يهوديتان هما دورا وفانى كابلان على ان لينين يجب ان يموت !

وفى ليلة ٣٠ أغسطس سنة ١٩١٨ تجمع عدد كبير من عمال البضائع واتجهوا جميعاً إلى حيث كان من المقرر أن يلقى لينين خطاباً فى العمال ، وسارت الشقيقتان فى الزحام ووقفتا بين العمال والعاملات تستمعان الى خطاب الزعيم إلى أن انتهى وسط هتاف الجماهير الحماس ثم نزل من المنصة واتجه إلى سيارته ، وفى الطريق اليها استوقفته الشقيقتان واقتربتا منه وراحتا تتحدثان اليه وفجأة أخرجت إحداهما مسدسها وأطلقت رصاصتين على صدره وسقط لينين وسط بركة من الدماء ، لقد مزقت إحدى الرصاصتين رئته ومات متأثراً بجراحه بعد ذلك فى ٢١ يناير ١٩٢٤ ، ونفذ حكم الإعدام فى دورا كابلان التى أطلقت الرصاص على لينين ، أما اختها « فانى » فلم يعرف أحد شيئاً عن مصيرها إلى أن اذيع فى موسكو أن « فانى كابلان » ماتت فى السجن سنة ١٩٥٨ .

ومن مفارقات الأيام أنها ماتت فى نفس اليوم الذى تم فيه إطلاق أول قمر صناعى فى الفضاء .. ماتت بعد أن رأت أعظم انتصار حققته دولة لينين ! وتروتسكى اليهودى أيضاً يعتبر الرجل الثانى بعد لينين ، بل كان البعض يعتبره الرجل الأول فى الثورة الروسية !

ولقد نشرت جريدة نيويورك تايمز « الأمريكية نبأ الثورة فى ٨ نوفمبر على صفحتها الأولى بعناوين تقول إن تروتسكى هو قائد تلك الثورة وإن لينين ليس سوى واجهة ظاهرية !!

وقد اختلف تروتسكى مع لينيين عدة مرات قبل الثورة وبعدها كان منشأ الخلاف اختلاف شخصية الرجلين مما أدى إلى اتهام تروتسكى بالغرور والعجرفة وحب الظهور ، وبينما كان لينين لاينظر إلى نفسه أبداً فى مرآة التاريخ ولاينشغل بما سيقوله التاريخ عنه كان تروتسكى يريد أن يزيد من عدد صفحات التاريخ !

لكن بعد سنة ١٩٢٤ دب خلاف ونزاع شديد سرعان ما تحول إلى صدام ومطاردة عنيفة وقتال بين تروتسكى وستالين ، أدى ذلك النزاع إلى تكوين مجموعة معارضة لستالين اتخذت من تروتسكى رمزاً لها ..

وقبض ستالين على تروتسكى ثم نفاه إلى الماباتا فى وسط آسيا ، ولكنه فر هارباً وحوكم غيابياً فى محاكمات موسكو سنة ١٩٣٦ بتهمة التآمر ضد النظام الاشتراكى السوفيتى لستالين وحكم عليه بالإدام غيابياً ، وظلت المخابرات والسلطات السوفيتية تطارده عبر تركيا وفرنسا والنرويج فى أحداث مثيرة حتى وجد ملجأ فى المكسيك ، ولكنه سرعان ما أغتيل مضروباً ببلطة فى رأسه وخرج قاتله مورنار من السجن فى أغسطس سنة ١٩٦٠ ، يحكى الجريمة للصحفيين الذين التفوا من حوله وقال وضعت معطفى على المائدة حتى أستطيع أن أخرج بلطة تكسير الثلوج من جيبى وعندما بدأ تروتسكى فى قراءة خطابى أخرجت البلطة وأغلقت عينى ! ثم انهلت بها على رأسه بضربة هائلة ! وأطلق الرجل صرخة لن أنساها طول حياتى وانبعثت منه آهة حزينة لانهاية لها ، ثم قام يترنح كالمجنون وألقى بنفسه علىّ وعقرنى بأسنانه فى يدى..

وها هى ذى آثار أسنانه لاتزال باقية بعد عشرين سنة !

فإذا وقفت اليوم فى أى مكان فى الاتحاد السوفيتى وذكرت اسم تروتسكى فإنك تعرض نفسك لارتكاب جريمة يعاقب عليها ، وتعتبر التروتسكية فى نظر الشيوعيين جريمة وخيانة وتوجه تهمة التروتسكية أحياناً إلى سياسة الصين .

وتروتسكى فى كتاباته (لست مذنباً) و (حياتى) و « الثورة التى خانوها » يعترف بأنه يهودى وأن اليهود أغلبية لابد لها أن تسيطر على الوضع فى روسيا حتى يكون لها المكانة اللائقة ..

وإذا كنا لانستطيع أن نخفى خطورة هجرة اليهود الروس إلى إسرائيل فإننا لاننسى ، ولايجب علينا أن ننسى أن هجرة اليهود الألمان أيام الحكم النازى قد مهدت لقيام إسرائيل سنة ١٩٤٨ !

إن اليهود السوفيت على الرغم من أنهم سيطروا على الحياة الاقتصادية للبلاد على مر العصور .. وشربوا دماء الرؤساء نخباً لانتصاراتهم .

وسقطت الإمبراطوريات تحت مفاتيح خزائنتهم .

فإنهم يذرفون الدموع .. ويستدرون العطف من أجل المزيد !

ضائعون ..... مشتتون .. ويصفون أنفسهم بأنهم زنوج الاتحاد السوفيتى !

ولقد سيطر اليهود على التجارة والمال فى فرنسا حتى قبل عهد شارلمان ، وفــــى .. عهد فيليب الأول (١٢٨٥ ــ ١٣١٤) الذى يعتبر بلاشك آخر وأعظم سلالة كيبتان ، وبفضله أصبحت فرنسا اعظم قوة فى أوربا .

وكانت حاجة فيليب إلى المال هى التى أدت إلى مصادرة ثروة اليهود وطردهم من فرنسا وكان اليهود وهم الذين يتحكمون فى أعظم ثروة سائلة ،

وصادر فيليب ثروتهم وطردهم وانتهت سيطرة اليهود على الحياة التجارية فى فرنسا وسمح لعدد قليل منهم بالعودة ثانية ، ولكنهم طردوا ثانياً سنة ١٣٩١ !

وفى ١٧ مارس سنة ١٨٠٨ أصدر نابليون قراراً على كل يهودى يريد أن يفتح دكاناً أن يثبت حسن سيرته وسلوكه لدى الهيئات الدينية ولدى الإدارة المحلية .. أما إذا قرر اليهود أن يعيشوا فى منطقة الراين فعليهم بالزراعة .. ويمتنع عليهم بالاشتغال بالتجارة والسمسرة !

وديجول يعتبر نابليوناً جديداً لفرنسا .. إنه يبدو وكأنه مبعوث فرنسا التاريخية إلى فرنسا الحاضرة لتذكيرها بعظمتها السابقة !

وقد أفضى يوماً للرئيس الأمريكى الراحل جون كنيدى بالمبدأ الذى يطبقه فى حياته الخاصة فقال : « إننى أقول لك يا سيدى الرئيس .. وصديقى العزيز .. لاتصغ إلا لنفسك ! ولم يصغ ديجول لليهود أبداً فى حياته فهو يعتبرهم السبب الحقيقى للمظاهرات التى اجتاحت شوارع فرنسا ضده سنة ١٩٦٨ .

ويقول اليهود عن ديجول : « قاوم ديجول يكرهك .. أطعمه يحتقرك .. ولكنك اذا لم تثبت أمامه فإنه سيتجاهلك .. وتكون تلك نهايتك » !

ولم كان ديجول أستاذاً فى الإعراب عما يدور فى ذهنه فى أى موقف معين فإنه أطلق عبارته المشهورة .. إنه شعب مختار .. مغرور .. متسلط ! .. وكان رد اليهود عليه « لاخيار لنا إلا أن نرقص الفالس .. معه !

فاليهود هم أغرب شعب .. وإسرائيل هى أغرب تكوين سياسى ودينى واجتماعى ولغوى .. ففى اسرائيل ٧٢ لغة والأبناء لا يعرفون لغة الآباء ..

الأبناء يتكلمون العبرية والهيئات الدينية تحلم باليوم الذى يطبقون فيه الدين حرفيًا وبشدة ، فلا يعمل الناس يوم السبت ولايتزوج اليهود من غيرهم ولاتقدم المطاعم إلا الوجبات « الكوشير » أى المطهرة .

وفى القرن ١٩ أقبل اليهود على الصهيونية لأنها كانت (الوصفة الطبية) لأمراض يعرفها اليهود ويشربون بسببها المر فى كل دولة : الضياع . والشتات والتيه .. والعزلة التامة .. التعالى والجبن والتآمر والبيع والشراء فى كل الظروف التى تحيط بالبلاد التى يعيشون فيها .. والمكسب دائماً لأنهم لا يتكلفون شيئاً . ولم يؤمن بالصهيونية أ العالمون الواهمون .. و ومن أشهر العالمين الصحفى النمساوى تيودور هرتسل .. وكان يرى أن الصهيونية هى : أن يكون لليهود وطن .. ولايهم أن يكون هذا الوطن : فى روديسيا أو استراليا أو كندا .. وبعد ذلك تركزت الصهيونية حول فلسطين ..

وقد حاول اليهود بأساليب ملتوية معقدة أن يحققوا أهدافهم السياسية الموضوعة فى إطارات دينية مجنونة وأن يظهروا أمام العالم كله فى صورة المساكين الأبرياء الواسعى الأفق ، مع أن هناك حقيقة مؤكدة وهى أن اليهود

مهما اختلفت ألوانهم ولغاتهم وبلادهم ومذاهبهم السياسية هم يهود أولاً وقبل كل شىء بعد ذلك .. والتاريخ من أوله لآخره يقطع بأنهم تآمروا وضربوا وأفسدوا البلاد التى يعملون فيها من أجل دينهم ومن أجل إسرائيل .. واذا كان هناك أفراد قلائل ينادون بأنهم ليسوا متعصبين لإسرائيل فهم قلائل .. ولاسلطان لهم ..

والكتاب ـ الحائط والدموع فى مجموعة أنشودة كاتب إنسان يدافع عن كرامة وطنه وقوميته ويفضح أكاذيب العدو ومزاعمه .

ولقد فتح الكاتب الكبير أنيس منصور بهذا الكتاب الباب لكى نعرف العدو ، فتح الباب ليدخل كتاب وأدباء فى هذا الموكب الذى تقدمه أنيس منصور وكنت واحداً من هؤلاء فقد أصدرت استجابة لهذا النداء الملح كتابين أولهما : « صهيونيون حتى أطراف أصابعهم » ثم « ياليل العين اليمنى لديان » واشتركت مع عميد الدراسات العبرية فى مصر الدكتور حسن ظاظا في أربع سهرات كاملة من اذاعة الشعب عقب حرب اكتوبر بسلسلة من اللقاءات التليفزيونية مع المذيع عبد الرحمن على فى برنامج « أمل الملايين » .

ثم اصدر انيس منصور كتابه المثير الذى أماط لنا اللثام فيه لاول مرة عن الجيل الجديد فى اسرائيل والذى يحاول ان ينسلخ عن الجيل القديم ولكن هؤلاء « الصابرا » طراز مختلف تماما عن هذه الصورة الشاعرية التى تصورها الدعاية اليهودية فى كل مكان فمن أهم معالم الدعاية .. الاسرائيلية انها تختار دائما صورة فتاة جميلة شابة عارية وقد حملت السلاح .. وهى شبة عارية لان الجو حار ... وانها بهذه الصورة تكون مثيرة اكثر .. وتغرى الشباب اليهودى وغير اليهودى ان يسارع الى اسرائيل والى الحياة فى المستعمرات .. وقد جاء الى اسرائيل كثير من شباب العالم وشاباته .. وكانت الصدمة الكبرى .. فلم تكن الحياة بهذه الشاعرية .. وانما هى حياة جافة خشنة .. وليست هذه المستعمرات الا انواعا من المعتقلات تحت الارض .. واذا كان اليهود يجدون فى هذه السجون معنى دينيا او وطنيا فالاجانب لا يشعرون بشىء من ذلك .. واذا كان اليهود يريدون ان يطهروا انفسهم من كل ماهو انسانى فما ذنب الاخرين ؟

ولكن الصابرا هؤلاء ليسوا روضين عن الحياة فى المستعمرات لان معظم هؤلاء الذين يعيشون فى المستعمرات من اليهود الشرقيين اى السفرديم اما سكان المدن فهم من اليهود الغربيين الاسكتازيم فما هذه التفرقة بين الشرقى وبين الغربى وبين الابيض والاصفر ثم ان الاوربيين الذين يسكنون المدن هم الذين يتولون المناصب الكبرى اما الشرقيون فهم الذين يقومون بالاعمال اليدوية وباحط الاعمال الاخرى .. ثم انهم هم الذين يعيشون فى المستعمرات

تحت الارض كانهم وحوش ضارية فكأن ابناء المستعمرات هم الذين يضحون ويتعذبون من اجل اسرائيل بينما اسرائيل تكافىء كل الذين لايعملون شيئا ٠

ونصف سكان اسرائيل من ابناء المستعمرات ٠

وثلاثة ارباع سكان اسرائيل من الشرقيين المنبوذين وعندما يذهب الصابرا الى المدن فانهم يجدون المدن عامرة باللعب والضحك والمرح .. فالشبان اكثر نعومة والفتيات اكثر انوثة .. اما هؤلاء الغلاظ الاجلاف او الالواح او بالعبرية : شوتسباه .. فى الكويت يستخدمون كلمة غريبة للدلالة على هذا المعنى هى اشبثاه ربما كانت قريبة من الكلمة العبرية ٠

اكثر من ذلك انهم يقرءون الصحف والمجلات الامريكية وخصوصا المجلات الجنسية ويرون ان اليهود الامريكان يعيشون فى النعيم .. وان الكثيرين من اليهود قد هاجروا من اسرائيل وهربوا من المستعمرات الى اوربا وامريكا ثم انهم يريدون ان يفعلوا نفس الشىء ٠

بل ان الدولة تنظر الى الامريكان على انهم مصدر الحياة والمال والدفاع .. فالدولة لاتستنكر ان يعيش اليهود فى امريكا واوربا .. فلماذا يعيشون هم ايضا هناك .. ثم لماذا هم وحدهم المطالبون بالوطنية والتضحية بينما غيرهم يدفع الفدية : اى يدفعون النقود

فقط حتى لا يعيشوا فى اسرائيل أو يموتوا من أجلها !

ولذلك يهرب كثير من « الصابرا » من الحياة فى المستعمرات .. (الصابرا) كلهم ملحدون .. فقد كرهوا الدين وكرهوا قصص العذاب وبطولات المعذبين من اليهود .. وأكثر الذين يتناءبون أثناء الصلاة من اليهود الصابرا ٠

ومن المشاهد المضحكة أن نجد على مدخل أحد المعابد هذا النداء :

« ممنوع التثاؤب بصوت مرتفع .. وهذا التحذير موجه إلى الصابرا طبعاً الذين زهقوا من الإرهاب الدينى ٠ وانتشرت بين هؤلاء الشبان الخمور والمخدرات ٠

وانتشرت أيضا حالاتهم المرضية العصبية ٠

فعندما ذهب العالم اليهودى برونو بيتلهايم إلى إسرائيل ليدرس حالات الأطفال الصغار .. وجد أن ٨٠٪ من الأطفال يتبولون أثناء النوم .. وأن ٢٠٪ من الشبان الكبار يتبولون أثناء النوم .. وأن ١٠٠٪ من الشبان مصابون بحالة كآبة دائمة ..

وكان تعليق هذا العالم اليهودى : أن الحياة الجديدة قاسية .. وأن هؤلاء الشبان فى حاجة إلى مئات السنين لتصبح لهم عادات جديدة متوازنة !

ونسبة نزلاء مستشفيات الأمراض العصبية كبيرة جدًا .. ربما أكبر نسبة فى أى بلد فى العالم كله ٠

والصابرا ممزق تماما بين الذى يسمعه والذى يراه .. والذى يريد أن يفعله وبين الذى يعمله غيره من اليهود فى العالم .

إن زعماء اليهود قد ضحكوا على اليهود فى كل مكان .. وأوهموهم أن إسرائيل هى ارض الميعاد .. هى جنة الله على ارضه . يكفى أن يمشى الإنسان دون أن يسأله احد :

هل أنت يهودى ؟

يكفى ان يعمل بيديه دون احتقار من احد يكفى ان يدافع بسلاحه عن ارضه !

ولكن الصابرا لايرون شيئا من ذلك : فالبعض يسألونهم : هل انت يهودى ؟ ولكنك لاتبدو يهوديا ؟

ثم انه وحده المطالب بأن يموت دفاعا عن الذين لايعملون من اليهود البيض .

ومن المألوف جدا ان يهرب الصابرا من المستعمرة وان يهرب من الجيش ايضا .. لانه لايعرف عن اى شىء يدافع .. ولا عن اسباب كراهية اليهود للعرب .. انه هو شخصيا لم ير من العرب شيئا ولكن اجداده رأوا .. ولكن ليس من الضرورى ان يؤمن بما آمن به أجداده .. وهو يسمع دائما : عن اجداده وعن العرب .. ولا رأى اجداده ولا رأى العرب .. ان العرب فى اسرائيل لايحمل السلاح ولايقاتلونه .. بل انه يعطف على العرب لانه مضطهد مثلهم .. فكان سكان اسرائيل من ثلاث درجات مواطن من الدرجة الاولى وهو اليهودى الابيض الذى لايعيش فى المستعمرات .. واليهودى الملون الذى يعمل بيديه ويعيش فى المستعمرات .. ثم المواطن من الدرجة الثالثة هو المواطن العربى .

وهناك جماعات يهودية تكره اسرائيل .. تكره هذا الاسلوب القاسى من الحياة ولكن هؤلاء الكارهين يلقون انواعا من العذاب : الحياة فى المستعمرات .. والتجنيد الاجبارى .

و « كيبوتز » كلمة عبرية معناها الجماعة وهى الاسم الذى يطلق على نظام المزارع الجماعية التى اقامتها الحركة الصهيونية فى فلسطين من اوائل القرن العشرين لتكون العمود الفقرى لجيش اسرائيل .

والنطق الصحيح للكلمة هو « كيبتس » لا « كيبوتز » كما يظهر من هجائها الالمانى الكلمة من اللغة الييدية وهى خليط من العبرية والالمانية

وكانت التجربة الاولى لاقامة مزرعة جماعية فى قرية الشجرة سنة ١٩٠٨ حيث تولت مجموعة من العمال ادارة هذه المزرعة ووزعت العمل على افرادها ولقد تأسس اول كيبوتز فى اسرائيل سنة ١٩٠٩ بالقرب من بحيرة طبريا ثم بعد ذلك بعدة شهور تم تحويل هذه المزرعة الصغيرة الى مستعمرة دائمة سميت

« اجانيا » ثم انشأت بعد ذلك عديدا من المستعمرات مثل زمارين والخضيرة رجيفات حاييم وبيت الفا حتى اصبح عدد الكيبتات فى اسرائيل اليوم ٢٤٢ كيبتس يعيش فيها حوالى ٩٢ الف نسمة يتراوح سكان كل كيبت بين ٣٠ والفى نسمة ويقيم فى الكيبوتز خليط من اليهود الذين جاءوا من اوربا الشرقية والغربية والوسطى يعيشون حياة فى غاية التقشف .. بيوت صغيرة متلاصقة مكونة من غرف .. كل غرفة مخصصة لعائلة مكونة من رجل وامراة اما الحمام والمطبخ فتعتبر اماكن جماعية .. فلايوجد حمامات خاصة مثلا بينما يتناول الجميع طعامهم فى صالة الاكل عامة ويتم تنظيف الملابس وكيها فى المغسلة العامة والعمل فى الكيبوتز اجبارى لا اختيار فيه .. وهو مفروض على السكان بحيث لامجال للمناقشة فيه ومن يخالف يعرض نفسه للطرد والتشهير .

وتنحصر السلطة فى الكيبوتز فى المؤتمر العام الذى يضم جميع أعضاء المستعمرة ، ويعتبر هذا المؤتمر السلطة العليا ويجتمع مرة واحدة أسبوعياً .. وقد يبدو للبعض أن هذا التنظيم ديمقراطى للغاية .. ولكنه على العكس من ذلك لأن أعضاء المؤتمر العام لايقبلون على حضور الاجتماع الأسبوعى بانتظام بسبب إجهادهم فى العمل .. ويتجنبون أيضاً عضوية اللجان لما فيها من عمل إضافى لايتقاضون عنه أجراً مفضوية هذه اللجان بلا مقابل .. ولاتوجد فى الكيبوتز حياة عائلية بالمعنى المفهوم .. ويتضح لنا أن منشئيها كانوا يعتبرون الزواج مؤسسة برجوازية بالية لاتتناسب مع حياة الكيبوتز والاعتبارات الاقتصادية والاجتماعية فيها .. فالبعض مسألة شخصية ، والزواج مسألة لاتحتاج إلى مراسيم .. إن كل ما يحتاج الى اليه الرجل والمرأة لإعلان زواجهما هو التقدم بطلب غرفة مشتركة وبمجرد القبلة الأولى فإنها ستصبح زوجته !

مجتمعات بدائية فى القرن العشرين .. يطبقون شريعة الغاب .. رجال ونساء وشباب يمارسون الجنس والدعارة بدون أى ضوابط اجتماعية أو قانونية .. ويصبح « الزواج » قانونيًا عندما تحمل المرأة إلا اذا عارض أحدهما فى قانونية الدعارة .. !! أما الطلاق فهو أن يفترقا متى أرادا ولاشأن لأحد أو لأى سلطة بهما !! ولاتعرف المرأة فى هذه الحالة بأنها زوجة فلان .. بل على أنها رفيقته أو بمعنى أوضح « عشيقته » .. والمرأة هى السبب الأساسى فى أزمة الكيبوتز ، فالمرأة هى سبب الاستقالات وهى وراء المطالبة الملكية الفردية . والحياة الخاصة وبالتالى فإنه ليس بمستغرب أن تجد المرأة غير سعيدة فى الكيبوتز .

وعندما يولد الاطفال يتولى « بيت الاطفال » فى المستعمرة رعايتهم ومؤسسة الكيبوتز تكون مسئولة غن تدريب وتثقيف الطفل منذ ولادته حتى سن الثامنة عشرة ـ وتبدأ الخطوة الاولى بعد الولادة بايام فيوضع الطفل عامة الاول ينقل

الى منزل اخر يبقى فيه حتى سن الرابعة .. وفى تلك المرحلة يسمح للآباء باصطحاب اطفالهم الى منازلهم لقضاء بعض ساعات معهم .. وفى سن الرابعة ينقل الطفل الى مدرسة للاطفال يبقى فيها حتى السابعة ليبدأ بعدها دراسته الابتدائية وفى تلك المرحلة يلقن الطفل أسس العقيدة الصهيونية الولاء المطلق لاسرائيل وكراهية العرب .. اما المرحلة النهائية فى الكيبوتز فهى المرحلة الثانية ويؤهل نظام التعليم الثانوى الطلاب للالتحاق بالجيش ولكنه يجعل تاهيلهم لدخول الجامعات خارج الكيبوتز اقل من المستوى المطلوب .

والكيبوتز ليس معسكرا فقط .. فان له دوراً كبيراً فى الحياة السياسية داخل اسرائيل ومنها خرجت الاحزاب السياسية .. فمن عصابة الهاجاناه نشأ اشهر حزب فى اسرائيل وهو حزب الماباى الحاكم ومن عصابة الارجون ولد حزب حيروت ومن عصابة البالماخ ولد حزب المابام !!

ومتناقضات الكيبوتز كانت مادة خصبة لادباء وشعراء اسرائيليين منهم الكاتبة يائيل ديان وروت الموجى والشاعر دان عومر .

وقد رسمت الحركة الصهيونية للكيبوتز صورة رومانسية فجعلته افضل صورة للاشتراكية وانقى شكل من اشكال الديمقراطية .. اما رواد حركة الكيبوتز فانهم ابطال أسطوريون !

ولكن الحقيقة مغايرة لذلك والكيبوتز لا يستحق شيئاً من هذا التمجيد الزائف فهى بعيدة عن الديمقراطية .. معادية للاشتراكية .. كارهة للبشر .. تؤمن « بشعب الله المختار » وتؤمن بالتمييز العنصرى ليس بين اليهود وغيرهم بل على التمييز بين اليهود الأوربيين وغيرهم من اليهود الشرقيين .

والكيبوتز مادة دعاية لجذب اكبر عدد من المهاجرين ولقد اجتذبت اليها مئات متعددة من اليهود فالكيبوتزات الدينية بدات للمتدينين على انها خير مكان للعبادة .. ورأى اليساريون على انها المكان الامثل فى تطبيق الاشتراكية والفقراء .. هى الملاذ والملجأ .. اما الشباب المغامر الباحث عن اللذة الجنسية فانها جنتة المفقودة !

والكيبوتز أقرب ما يكون الى منظمة فاشية لانه يربى الاطفال على الروح العسكرية وتعلمهم كراهية العرب وكل من ليس يهوديا !!

والجنود الاتون من الكيبوتز اكثر جنود اسرائيل عصبية وقسوة لانهم نشئوا على اكثر المتناقضات غرابة .. واسرائيل لاتجد نفسها مضطرة لان تعلن عن خسائرها اذا كان قتلاها من ابناء الكيبوتز لأنه ليس هناك عائلة تسأل عنهم ويهمها مصيرهم .. ولان آباءهم وأمهاتهم غارقون فى قبلات جديدة .. وزيجات جديدة !!

ان أنيس منصور فى كتابه « الصابرا » الجيل الجديد فى اسرائيل يرسم ملامح هذا الجيل الجديد الذى عاش فى المجتمعات الاسرائيلية الزجاجية الهشة وقد راينا عينات منهم فى السجن الحربى فى القاهرة .

وقد اذاع التليفزيون المصرى حديثاً لأحد الأسرى الأفغان يقول : انهم فى اسرائيل لا يريدون ان يحاربوا .. انهم فوجئوا بالمقاتل المصرى والكتاب جسر طويل يذهب بك الى الماضى السحيق ثم يمتد بك الى يومنا هذا .. انها ملحمة طويلة مثيرة اثبت فيها انيس منصور انه يدافع ويقاتل « اليهود مضطهدون فى البلاد العربية والدول الاشتراكية » سمفونية تغرقها اسرائيل كل ساعة فى كل محطات العالم ! سمفونية يعزفها عازفون من مختلف الجنسيات ولكن النوتة الموسيقى واحدة .. ولان العازفين فقدوا ذاكرتهم .. فجأة فاننا نذكرهم بالسلم الموسيقى !!

فأول حاخام رسمى فى التاريخ صدر بقرار عرب فلقد اصدر الخليفة (عمر بن الخطاب) بعد فتح فلسطين قراراً بتعيين الحاخام الأكبر « بوستنائى » وكان هذا اول حاخام رسمى فى العالم .

واصدر الخليفة (على بن ابى طالب) قراراً بتعيين حاخام آخر هو « مارا اسحاق » وجعل مقره « الكوفة » عاصمة الخليفة .

وفى عصر الأمويين وصل تمتعهم بالحريات الى حد ان الخليفة « عبد الملك بن مروان » وافق على ان يكون بينهم مشرفون على النظافة والاضاءة فى المسجد الاقصى !

ولقد تقلد اليهود المناصب العالية فى الاندلس ومارسوا التجارة بحرية وشاركوا فى الحياة الثقافية وكان اليهود مضطهدين تحت حكم القوط ومعاملة العرب الممتازة لهم جعلتهم يقبلون على دراسة اللغة العربية والتراث العربى وهذه المعاملة هى التى جعلتهم ينبغون فى ميادين العلم والمعرفة .. فكان منهم « ابن جبيرول » والطبيب « موسى بن ميمون » الذى فر هارباً من الاضهاد الأوربى فى أسبانيا وكلفه الملك العادل « أيوب » بتأسيس أول كلية فى الطب فى الشرق الأوسط .. ولما مات هذا الطبيب اليهودى شيعه آلاف المسلمين يتقدمهم الملك العادل أيوب نفسه .

ويوسف بن حسداى .. واضع الشرح على كتاب « القراط » بعنوان (شرح الفصول) « ويوسف قمحى مترجم » الرشد الى واجبات القلب « وابراهيم بن حسداى مترجم » كتاب « التفاحة » ويهوذا الحريرى مترجم « كتاب السياسة لأرسطو » .

ولعل أبرز الوقائع التى تؤكد أن اليهود تمتعوا بحريات لم يعرفوها من قبل ما حدث فى عهد الخليفة (عبد الرحمن الأموى) فى الأندلس ، فقد عين حاخاماً

يهودياً اسمه « صموئيل بن تجريله كبيراً لوزرائه فى قرطبة عاصمة الأندلس .. وبلغ حنو التسامح والديمقراطية قمته عندما سمح هذا الخليفة بإقامة مناظرة فكرية بين الحاخام اليهودى صموئل وبين الامام العرب « أحمد بن حزم » حول صحة الدين اليهودى أو الدين الإسلامى .. منتهى الديمقراطية !

وعندما خرج العرب من الأندلس تعرض اليهود لاضطهاد شديد ثم طردوا منها بعد ذلك فالتجئوا الى العرب فى شمال افريقيا وشرق البحر المتوسط .. ولقد عمل اليهود فى البلاد العربية فى جميع ميادين الحياة .. وجمعوا الثروات الضخمة وكان منهم الوزراء مثل « يوسف اصلان قطاوى » فى مصر والدكتور بنزاكين فى المغرب .. و « اندريه بسيس واندريه باروخ فى تونس .. وكان منهم ثلاثة فى المجلس التأسيسى بعد الحكم الذاتى فى الجمهورية التونسية .

ومع النازية الألمانية بلغ العداء للسامية أعلى مراتبه .. وأصبحت قضية اليهود هى القضية الأولى فى الفلسفة النازية . وهذا واضح فى كتاب « كفاحى » لهتلر وكتاب « أسطورة القرن العشرين » للفيلسوف وزنيرج .. ومن قبلة فلسفة العداء للجنس السامى عند الفليسوف الألمانى الجنسية إنجليزى الأصل (تشميرلين « والذى تزوج ابنه الموسيقار فاجنر .. وكذلك فى مؤلفات نيتشه ..

والألمان المعاصرون معذرون إذا ارتعدوا لمجرد ذكر هذا التاريخ الرهيب لليهود فى بلادهم .. فقد طردوا وأحرقوا وخنقوا .. وأقيمت لهم معسكرات الاعتقال فى داخاوا وبلزن ويوختفالد وأوشفتس وتربلكنا وغيرها .. وحرموا من الدراسة والتدريس ومن التجارة .. وأرغموا على أن يجعلوا لهم أسماء عبرية .. وأن يضعوا حرف « ياء » أى يهودى على ملابسهم .. وأن تضع الدولة هذا الحرف على جوازات سفرهم .. ولاشىء من هذا ولا واحد على ألف قد حدث فى الشرق العربى كله ..

وأنيس منصور يؤكد فى كتابه « وجع فى قلب إسرائيل » أننا لسنا « معادين للسامية » لأننا ساميون ومن الناحية الدينية فكل الأديان السماوية وغير السماوية سامية .. واللغة العربية سامية أيضاً .. فنحن لسنا أعداء للسامية أى أعداء لأنفسنا .. وإنما هى صفة أو تهمه يوجهها اليهود إلى الأوربيين وليست الأسيويين أو الإفريقيين .. ويبرز فى كتابه الثالث من سلسلة كتب اعرف عدوك حقيقة هامة وهى أنه لا يوجد عداء للسامية كالموجود الآن فى إسرائيل ، فهم فى إسرائيل يحتقرون اليهود الملونين أى السامية والحاميين أيضاً .. وليس عندنا فى الشرق أو مصر مايدل على العداء للسامية لا عندنا « عقدة الذنب » العميقة عند الأوربيين ضد إحراق وإغراق وطرد واضطهاد اليهود .. وإنما الذى عندنا هو التكفير عن هذه الذنوب الأوربية .. فبسبب إرهاب اليهود فى أوربا جاء اليهود إلى الشرق .. وبسبب العداء للسامية ظهرت الصهيونية .. أى القومية

اليهودية .. أو جمع اليهود من كل مكان إلى مكان واحد هذا المكان هو القلب الدامى للعالم العربى .. فنحن هنا نكفر عن جريمة لم نرتكبها وعن اضطهاد لم نقم به ، ذبحوهم وقتلوهم بالملايين هناك ليموت ويتشرد منا الألوف والملايين فى كل أرض .. ولتقع حروب توسعية على الدول العربية .. ومع ذلك فحربنا مع اسرائيل حرب ضد كيان سياسى عنصرى مجنون ضد نظام إرهابى .. وليس ضد الساميين الذين هم كل العرب ومعظم اليهود !

إن كتاب « وجع فى قلب إسرائيل لأنيس منصور هو رحلة طويلة تبدأ بالجذور التاريخية لليهود منذ سنة ١٩٠٠ ق . م إلى ١٩٠٠ بعد الميلاد .. يحلل فيها عقد اليهود منتهية فى هذه الدراسة إلى أننا نكفر عن جريمة لم نرتكبها ..

ومازالت إسرائيل ... تعزف سمفونية « اليهود مضطهدون فى البلاد العربية » . ولأن هؤلاء العازفين قد فقدوا ذكراتهم وفقدوا عصا المايسترو فإن أنيس منصور يذكرهم بالسلم الموسيقى لأنهم أتلفوا آذان الشعوب بهذه السمفونية النشاز !

●●●

ما أشقى وما أتعس الأديب الذى يقدم على الزواج ؟!

عبارة شائكة قد تغضب زوجات الأدباء ولكنها حقيقة مؤكدة تعرفها إذا فتشت في حياة الأدباء والفنانين .. أديب روسيا الكبير تولستوى .. أسوا زوج تعيس فى تاريخ الأدب .. فقد كان أميراً غنياً وكان شاباً يافعاً فى ريق العمر .. وكان أديباً نال شهرة واسعة منذ نعومة أظافره ، وأحبته فتاة صغيرة وجميلة وجلست عند قدميه وحكى لها قصصه وقرأ لها مقالاته وأسندت رأسها إلى ركبته وانهارت وذابت وأحبها وأحبته وتم الزواج ، ومع هذا القيد الأزلى ولدت زوجته كانت كلما رأته يغازل فلاحة فى الحقول الشاسعة أو يضاجع أخرى ، وربما هذا هو السبب فى حرصها على أن تحمل وتلد له عشرين ولداً ! فقد كانت تريد أن تؤكد لمئات الفلاحات أنها لا تزال تعشق هذا الزوج اللعين وأنها هى وأولادها سوف يرثون الأرض ، ولكن تولستوى خيب ظنها ووجه إليها لطمة قوية .. وزع الأرض على الفلاحين فلم ترث زوجته إلا المرض والجنون والهوان والفقر ، وعندما ذهبت الزوجة إلى القيصر تشكو زوجها عبر الزوج فى أروع ما يكون التعبير فى إحدى قصصه عن هذه الفضيحة ، وهذه الحياة التى عاشها تولستوى قد سجلها فى قصة « الحرب والسلام » فقصة الفتاة « ناتاشا » وزوجها « بيير » ما هى إلا قصة حياة تولستوى نفسه ، وعاشت زوجة تولستوى بعده سنوات وفضحته فى مذكراتها التى بلغت مئات الصفحات ، ولا يستريح الأديب مونترلان إلى عبارة قالتها أرملة تولستوى : « عشت فيه من أجله وأريده كذلك » .. إنها تريد أن تقول إنها أفنت حياتها من أجل تولستوى فأنجبت له هذا العدد من الأبناء ، وليس صحيحا أنها عاشت فيه وإنما الصحيح أنها عاشت به أملا فى أن تقضى عليه ، فالزواج قاتل للعبقرية لأنه يقضى على العزلة .. والعزلة ضرورية للمفكر ولا شىء يفسدها أكثر من زوجة رعناء مثل زوجة تولستوى !

وعاشت زوجة د.ه.لورانس بعده عشرين عاماً لتكتب أتفه ما فى حياة هذا الفنان العظيم ، وهى لا شك صورة مختلفة تماما عن حقيقة هذا الكاتب العظيم .. لقد روت لملايين القراء كيف يصاب بجميع الأمراض قبل أن يكتب وكيف يخرج اللعاب من فمه وكيف يصاب بالإمساك ويصرخ !

وقبل أن يموت الفنان العالمى بابلو بيكاسو انفصلت عنه زوجته وعشيقته الرابعة فرانسواز جيلو لتكتب تاريخ حياته معها ، إنه كان يجافيها أحيانا بأن يطفىء عقب سيجارة مشتعلة فى جسدها أو يلقى به فى وجهها ! ومع ذلك فقد طالت العلاقة بينهما واستمرت أكثر من عشر سنوات وصاحبته الآنسة فرانسواز وأنجبت له ابنة وولداً غير شرعيين هما : كلود وبالوما ومعناها الحمامة بالإسبانية ، والكتاب الذى أصدرته فرانسواز جيلو فضيحة كبرى .. بدأت تردد حكايتها مجتمعات الفن والأدب فى باريس ، وانتقلت بسرعة البرق إلى عواصم الدنيا ابتداء من سنة ١٩٦٥ حيث وجدت البشرية ما تقتات به من سيرة رجل ناضج مشهور ، وبيكاسو يزداد غضباً على صاحبته أم ولديه ، ويلجأ للمحكمة يريد أن يصادر كتابها وحكم المحكمة التى لا توافق يثير الضجة أكثر حول الكتاب الذى تطبع ترجمته إلى عديد من اللغات ، ولكن ماذا قالت فرانسواز جيلو فى كتابها .. إنها تؤكد خطأ واحداً هو تقديرها لرجل أحبته ثم احتقارها له وأنها عاشقة مع فنان عظيم هو نفسه صعلوك عظيم أيضاً ! وأنها تؤكد فى كتابها عن أعظم الناس فى حياتها .. بأنه رجل شهوة يتملكه الشذوذ فهو يريدها عارية أغلب الوقت .. يريد أن تأكل معه عارية .. تجلس معه عارية .. تدخل المطبخ عارية أمام ولدهما وابنتهما الصغيرين !

أما زوجة سقراط فلا هى كتبت حرفاً واحداً ولا هو كتب حرفا واحداً ولكن لعنات زوجته ظلت تتردد على مسمع المؤرخين والفلاسفة الذين جاءوا من بعده ، ولعل اللعنة الوحيدة التى أطلقها هى قولته المشهورة « متى أتيح للمرأة أن تتساوى مع الرجل أصبحت سيدته » وفى رأى بعض علماء النفس أن الزوجة التى تناسب الأديب أو الفنان هى الزوجة التى تعطيه الراحة فقط دون أن تفتح فمها بكلمة .. أى التى تتنازل عن آدميتها من أجل راحته .. التى تضحى من أجله بإنسانيتها .. بأن تتحول إلى مجرد حيوان أو قطعة أثاث جميلة فى منزله ! وليس من السهل أن يجد الفنان هذا الحيوان الجميل !

إن الرسام جوجان تزوج فتاة بدائية .. فى جزيرة تاهيتى .. لا تعرف لغته ولا تعرف صناعته .. وعاش وكان سعيداً مع هذا الحيوان الجميل ، الشاعر رامبو عندما هرب إلى الحبشة واشتغل فى تجارة الجلود كانت له زوجة لا تعرف كيف تنطق اسمه .. وظل سعيداً بها حتى مات ، وحتى إذا وجد الفنان هذه الوسادة المريحة فإنه سيثور عليها مرة أخرى إنه لا يريدها هكذا جامدة .. مجرد حيوان لا يتكلم لا ينطق .. لا يحس به .. لا يفهمه .

إن الفنان لا يطيق الحياة مع أجمل إنسان لا يتكلم .. فالفنان أو المفكر أو الأديب يريد حياة تجمع فى طياتها كل المزايا وكل العيوب فى آن واحد !

إنه يطلب المستحيل فلا سعادة لفنان فلا فن مع الزواج ولا زواج مع الفن !

فالكاتب لا يطيق المرأة الثرثارة والمرأة الصامتة فإذا تحدثت فهى ثرثارة تضيع وقته ووقت القراء ، وإذا كانت صامتة فهى تمثال أصم وأجوف فهى لا تفهمه ولابد من أمرأة تفهمه فلا مانع إذن من أن تفهمه المعجبات !

وهذه حقيقة .. ألم أبدأ هذا الفصل بتلك العبارة الشائكة « ما أشقى وما أتعس الأديب الذى يقدم على الزواج ! » .

ولكن هذه العبارة لا تمت لأنيس منصور بصلة !

فهو أسعد الأزواج فى تاريخ الأدب منذ أن تزوج من السيدة الفاضلة رجاء عام ١٩٦٤ ويعتقد كثير من النقاد أن أسلوب أنيس منصور ازداد إشراقاً وعذوبة بعد زواجه !

ويجتمع فى السيدة رجاء هذا الذكاء والحنان .. والثقافة والحس الفنى الرفيع .. أو هذا التألق .. النار التى تدفىء والنور الذى يضىء ولابد أن تكون مزاياها الكثيرة واحتمالها لا ستغراقه فى العمل من الخامسة صباحاً حتى منتصف الليل ! واستعدادها للتضحية ، والتضحية دائما هو الذى جعلها قدرة !

والأديب لا يكون عزباً متشدداً لسنوات طويلة ، وإنما فقط عندما يبلغ السن التى يراها مناسبة للزواج ، ويكون ذلك عادة بعد الثلاثين ، ولا توجد سن مناسبة محددة للزواج ، فكل حسب ظروفه النفسية والاجتماعية .

ولهذا تزوج أنيس منصور فى سن الثامنة والثلاثين .

ولابد أن تكون الصفات الجميلة لزوجته هى التى نقلته من عزب متشدد إلى متزوج أكثر تشدداً .. أى الجمال والذكاء والتشجيع والصبر على المكاره .. والمكاره هى انشغاله كثيراً .. واستغراقه فى القراءة والكتابة .. أى بين الحمل والولادة والرضاعة الفكرية والحضانة العاطفية !!

وأنيس منصور لا يعرف تحديد النسل الفكرى ، بل إنه كثيراً ما يفكر فى ثلاثة أو أربعة كتب فى وقت واحد إلى جانب كتاباته اليومية والأسبوعية والشهرية .. فضلا عن مواعيده ومقابلاته وندواته وأحاديثه الإعلامية ، والحب فى نظر أنيس منصور .. عاطفة تولد من الإعجاب والتفاهم والتعود والرغبة فى الامتلاك ..

والإنسانة التى أحبها أنيس منصور قبل الزواج كانت أمه .. كانت منبع الحنان والحب والعطف والألم الدائم والعذاب المتدفق ليست هى وإنما الزمن .. ايام كان أنيس طفلاً صغيراً ينتقل من قرية إلى قرية وراء أبيه .. فى ذلك الوقت تعمق عنده الشعور بالغربة فالغربة والاغتراب .. أحس أنه مثل البدو

الرحل أو مثل أبناء الغجر ! أو الشعراء الصعاليك أو اللا منتمى ، ومن هذه المعانى وتضاربها تفجر فى داخله إلاحساس بكل معانى الفلسفة الوجودية !

ولكن بعد الزواج تحاول زوجته أن تحفه بالأمل ، ولكنه يائس وبالتفاؤل ولكنه متشائم !

ورغم الخلاف فى تكوينه وتكوينها فإنه قد توافق معها إلى حد بعيد فهى على حد تعبيره وهو نادرا ما يتحدث عنها ولو بكلمة واحدة فى وسائل الإعلام أو أقرب المقربين إليه - هى فى غاية الحيوية ولكن ليست عندها طاقة -- فهى تستطيع أن تنشط يوماً كاملاً تتحرك وتعمل وتنظم وتنسف وتبنى ، وبعد ذلك تنهار من التعب أياماً طويلة !

أما أنيس منصور فعنده طاقة ولكن ليس عنده حيوية فمن الممكن أن يجلس على مقعد واحد ساكناً جامداً يوماً كاملاً وإن تحرك فلكى يقلب صفحة فى كتاب ، ومن الممكن أن يغلق عليه الباب يوماً أو عشرين يوماً يقرأ ويكتب بلا كلل أو ملل !

ولكن الزواج قد أدخل فى حسابه « بعداً » اجتماعياً وبعداً أخلاقيا وبمرور الوقت وجد أن الحق معها فى معظم الأحيان .

والكاتب الكبير أنيس منصور لديه نظرة « أحادية » فهو يكتب كأنه لا أحد هناك -- وسبب ذلك موقفه المتباعد من الناس أى حرصه على أن يكون هناك هناك مسافة بينه وبينهم .

ولقد كتب أنيس منصور إهداء إلى زوجته بخط يده فى كتابه « من أول نظرة » عند صدوره وبطريق الخطأ أهدانى هذا الكتاب منذ سنوات وقد كتب فيه « إلى من كانت أول نظرة وستكون آخر نظرة -- إلى زوجتى » أنيس منصور .

ويرى أنيس منصور أن هذا العالم مكون من جنسين مختلفين فى الشكل والملامح والأزياء والوظيفة والهموم .

رجل وامرأة -- وليس من الصعب أن يلاحظ الانسان أن هناك ميلاً خفياً بين الجنسين ، وأن كل واحد منهما يحاول أن يخفى هذا الميل ، أن يتفنن فى إخفاء ما يريد أو إظهار مالا يريد -- وقد أعلن الرجال من أيام الفراعنة أن المرأة سر -- وأنها لغز -- وأحياناً أنها لعنة وأنها الجنس الآخر -- وأنها الجنس الضعيف -- وأنها الجنس العنيف -- وأنها الجنس الضائع -- وأنها الجنس فقط .

والنصائح التى كانت تقولها الامهات للزوجات من أيام الفراعنة والصينين تؤكد أن نظرة القدماء للزواج مخيفة -- وأنها لا شىء أقسى ولا أصعب من علاقة رجل بامرأة .

وكلمة الجنس لا يخيف المرأة -- وهى أيضاً لا تشينها -- فالمرأة جنس طبعا -- وسوف تبقى كذلك -- والمرأة شخصية أنثوية -- وعقلية أنثوية ، ولكن

الرجل يميل إلى أن يضيف شيئاً فيقول : أفهم أن المرأة أنثى .. وكل شىء فيها يؤكد أنوثتها .. ولكن عقل المرأة غريب جداً .. وهذا صحيح .. فليس عقل المرأة هو الغريب .. ولكن العقل نفسه شىء غريب .. وجهاز عجيب .. عند المرأة وعند الرجل .. وإلا فمن الذى يستطيع أن يقول لنا ما معنى أن يتذكر الإنسان .. ما معنى أن ينسى الانسان وما معنى أن يحب وأن يكره وأن يخاف ، كل هذه معان لا أحد يعرفها بالضبط .. وفى علم النفس عشرات النظريات المختلفة ومئات العلماء العظماء الذين لم يتفقوا على هذه المعانى ، والنتيجة هى أن أحداً لا يعرف بالضبط ما معنى العقل عقل الرجل وعقل المرأة

ولقد ظل كتاب « من أول نظرة » بإهدائه الخاص فى مكتبتى الخاصة فى منزل قديم .. وتصدع هذا المنزل وانهارت خمسة طوابق وذهبت لأستعيد بعض الكتب من الأنقاض ، وكان أول كتاب يخرج فى يدى من وسط الركام والأنقاض والأتربة وفتحت الكتاب لأجد هذا الإهداء .. كان الحبر لا يزال لامعاً .. وأيقنت يومها أن الحب الحقيقى لا يمكن أن تصيبه الزلازل !

وكتاب من أول نظرة « للكاتب الكبير أنيس منصور » يستعرض من خلاله تاريخ المرأة خلال العصور .. مشاعرها .. قوتها وضعفها .. جمالها ودلالها .. قسوتها ورقتها .. نعومتها وخشونتها !

والمرأة فى نظر أنيس منصور أقل من رجل وأكبر من طفل .. إنها باب جهنم .. لم يخلقها الله من رأس آدم حتى لا تسرف فى طموحها ، ولم يخلقها من قدميه حتى لا تمرغ كرامتها فى الأرض .. خلقها من ضلعه لتكون قريبة من قلبه .

أسهل جداً أن تمشى وراء أسد من أن تمشى وراء امرأة !

ليس أسوأ من امرأة ولو كانت طبيعية !

وعبارات أخرى التصقت فى عينى الرجل وهو ينظر إلى المرأة من خلال عدسات متلونة اسمها : رغباته الملتهبة .

والرجل يجب أن يقول : ولكن سلوك المرأة معقد جداً .. واندفاعتها صارخة وعواطفها متطرفة .. وهى تنتقل من حالة نفسية إلى حالة نفسية بسرعة مدهشة وهذا صحيح .. ولكن كيف يفسر العلماء ذلك ؟

إنهم أيضاً لم يتفقوا على رأى .. إنهم يذهبون إلى البيوت وإلى المعامل وإلى المستشفيات ويتفرجون على المرأة المريضة والمرأة السليمة .. ويضربون رءوسهم بأيديهم .. ثم يضربون رءوسهم فى جدران الليل .. ولا يصلون إلى معنى واضح .. فإذا كان هذا موقف العلماء المتخصصين فلماذا نختار نحن معنى واحداً لا يقبل المناقشة وهو أن المرأة متقلبة متغيرة .

ونكتفى بهذا المعنى الذى لم يتفق أحد من العلماء على صحته .. إنه كسل من الرجل فى أن يناقش هذه الأفكار الثابتة الخاطئة ، وحرص من الرجل على

أن يتهم المرأة .. ويستريح .. ويتركها تتعذب .. أو يتركها حائرة فى فهمه هو .. وفى فهم نفسها .. أما الحقيقة فهى أن المرأة انفعلت وتنفعل كما علمها الرجل .. واعتقدت ما علمها الرجل .. وخافت كما علمها الرجل أن تخاف .. فالمرأة تتصرف وفقاً للتقاليد والعادات الموجودة فى عصرها .. فهى تفعل ما يتوقعه الناس منها ، والمرأة ابنة عصرها .. أما الرجل فكثيراً ما يكون متمرداً على عصره .. أما المرأة فمن النادر أن تتمرد لأنها تجىء وراء الرجل .. تلميذة مطيعة من أيام الغابة إلى زمن الالكترون ..

إن سلوك المرأة متنوع وليس جامد الخطوط ولا ثابت الألوان ، وإن كانت المرأة هى المرأة .. وجسمها هو جسمها ، وبناؤه ووظائفه وأنوثتها واحدة مهما كان لونها ، وأمراضها واحدة وما يريده الناس منها واحد ، والمرأة فى تكوينها الجسمى والنفسى تمر بمراحل مختلفة .. أو بأعمار متعددة ، وهذه المراحل ليست محددة تحديداً واضحاً ، فهى تتداخل بعضها فى بعض ، كما تتداخل البذرة فى النبات الصغير ، والنبات الصغير يتحول إلى شجيرة ، ثم إلى شجرة ثم يجىء دور الأزهار والثمار .

وجسم المرأة يتغير ووظائفها تنشط لتواجد احتياجات كل مرحلة من مراحل عمرها ، والحياة ليست مقسمة تقسيماً واضحاً .. وإنما هى عملية مستمرة متطورة ، ويمكن وصفها بأنها عملية صاعدة .. فالمرأة ترفض فى تكوينها الجسمى والنفسى حتى تصل إلى مرحلة النضوج .

وهذا الغموض وهذه الألغاز التى توصف بها حياة المرأة لم تعد سراً ، فعن طريق الطب الحديث أصبحنا نعرف الكثير جداً عن المرأة ، فبعد أن اكتشف الطب الحديث الوظائف الخطيرة للغدد الصماء لم يعد فى جسم المرأة سر واحد لا تعرفه .. لم يعد خافياً علينا أن نعرف غضبها وبكاءها .. لم يعد سر واحد لا تعرفه ، لم يعد سراً التغلب الدائم لحاجتها النفسية مرة كل شهر .. وأياماً كل شهر .. وهذه الغدد تؤثر فى وظائفها الجسيمة وفى غددها .. إنها بركان من الحيوية وليست نوعاً من الفوضى .. وإنما هى نظام دقيق إلى درجة الإعجاز .. وفى هذا النظام الدقيق فى الغدد تتجلى عظمة الخالق .. فالإنسان هو أعقد وأعجب المخلوقات التى نعرفها .

ومن مئات السنين .. ومن ألوف السنين أيضاً كانت هذه الاضطرابات التى تصيب جسم المرأة تجعلها تشعر بأنها مجنونة ، أو أنها فى طريقها إلى الجنون وكأن المجتمع ينبذها ويؤكد فعلاً أنها مجنونة أو شريرة أو سامة ، فالمرأة قديما عندما كانت تصاب بالمرض الشهرى كان المجتمع يطردها .. يمنعها من تقديم الطعام أو عمل الطعام ويمنعها من زيارة أى إنسان وكان يعزلها فى بيت إلى أن تزول العفاريت التى تركبها .

أما الآن .. فالمرأة لديها معلومات طبية وعلمية كثيرة تسمعها وتقرؤها .. وكل هذه المعلومات تؤكد للمرأة أنها طبيعية وأن ما يحدث لها هو شىء طبيعى لأن تكوينها الجسمى ووظائفها مختلفة عن تكوين الرجل .. وهذا الاختلاف بين الرجل والمرأة ليس معناه أنه لصالح الرجل .. وإنما هما مختلفان فقط ..

ولكن المجتمع ظل مئات السنين يؤكد للمرأة صفاتها السلبية .. مثلا إنها ليست فى قوة الرجل .. إنها ليست فى ثبات الرجل .. إنها ليست فى ذكاء الرجل .. ليست فى عبقرية الرجل .. وإنها قلقة مضطربة .. لا أمان لها .. ولا إحساس عندها أى أنها رقيقة . ولكنها مثل رقة أمواس الحلاقة ناعمة وقاطعة .. فالرقة ليس معناها الضعف ولكن معناها القوة الناعمة .. كرقة الحرير اليابانى .. ناعم ولكنه متين .. وهذا يدل على أن المرأة تعيش فى عالم يعاديها أو على الأقل ليس صديقاً لها ، لأنه عالم الرجل ، الرجل القوى والرجل الأب والرجل الأخ والزوج .. والقانون والعادات والتقاليد والممنوعات والمحرمات . وكلها من صنع الرجل وكلها تشير إلى أن المرأة إنسان قاصر ، ومن الضرورى الحجر عليها وتقيدها .. وعلى المرأة أن تجد نفسها رغم هذا كله .. وأن تؤكد وجودها وتنمى شخصيتها وأن تواجه الرجل وتعاديه وتصادقه وتعايشه بعد ذلك لتستمر الحياة .

ولكن ما الذى يريده الرجل من المرأة !

الذى يريده الرجل .. هو بالضبط ما تحاول المرأة أن تحققه .. فالمرأة تفعل ما يريده المجتمع والرجل هو المجتمع ..

ومن المؤكد أن المرأة تريد أن تكون أنثى فى مظهرها وفى أفكارها وفى علاقتها ، وهى تريد أن تنجح فى تحقيق هذه الرغبة .. والأسلوب الذى تستخدمه المرأة يتوقف على درجة الرغبة وعلى الهدف ، ولا شك أن المرأة .. كل امرأة تريد أن تكون طبيعية وأن تشعر بأنها طبيعية .. أى أنها أنثى وأن أنوثتها واضحة لبنات جنسها ولأبناء الجنس الآخر . وإن كان المجتمع قد استقر على صفة واحدة من صفات الأنوثة هى المظهر الجسمى للمرأة والمرأة عادة عندما تريد أن تكون جميلة فهى تتوهم أن الجمال شىء والصحة شىء آخر وأن الذى تفقده بالمرض تستطيع أن تكسبه بأدوات التجميل وهذه غلطة . لأن الصحة قادرة على أن تحقق الجمال أيضاً لأن الجمال مظهر خارجى فقط . ولكن الجمال نظام داخلى ووظائف وغدد تفرز الهرمونات التى تحقق جمال الجسم واتزان النفس .

والعلاقة بين الرجل والمرأة هى أصعب العلاقات ، ولكن الصعوبة ليست بسبب المرأة وحدها ولكن بسبب الرجل أيضاً ، ولكن الرجل لأنه هو الذى يحكم وهو الذى يؤلف الكتاب والأغنية والسيناريو فهو يتحدث عادة عن صعوباته هو : أى عن المرأة فهو قادر على أن يشكو .. وقادر على أن ينشر شكواه .. قادر على أن

يغرس ذلك فى عقل المرأة فتصدقه .. أى أنها تصدق أنها موضع شكوى وأنها صعبة وأن العيب فيها ، ولكنها لا تعرف ما الذى تفعله وتحتاج إلى أن يقول لها الرجل ذلك ، أى يقول لها ما الذى يجب أن تفعله حتى لا تكون موضع شكوى .. ويصبح الرجل بعد ذلك : هو الطبيب وهو المريض ، وهو الداء وهو الدواء ، المرأة هى الضحية .. ولكن إذا عرفت المرأة بوضوح حقيقة هذه المشكلة المعقدة فإنها ستجد أنها بريئة وأن الرجل ظالم ، أما الجريمة نفسها فهى مشتركة بين الرجل والمرأة .. فلا أحد برىء ولا أحد مجرم .. وإنما الحياة جريمة يقتسمها رجل وامرأة وبمنتهى البراءة .

وهذه القصة من الأدب السنسكريتى، جاءت فى الصفحة الأولى من الكتاب تقول القصة : يقال إن الله بعد أن فرغ من خلق الأرض والسماء والطيور والحشرات والأشجار وبعد أن فرغ من خلق الرجل .. جمع بقايا كل شىء وجمع منها المرأة ، خلق وجهها من استدارة القمر ، وخوفها من فزع القطة .. وجرأتها من شراسة النمر .. وإخلاصها من وفاء الكلب .. وكلا منها من عسل النحل .. وغيرتها من إبر النمل .. وبعد ذلك أعطاها الرجل ، ولم يمضى سوى أسبوع واحد حتى عاد الرجل يرد هذه الهدية إلى الله وهو يبكى قائلا : أنت أعطيتنى هذه فخذها .. فهى لا تكف من الكلام ولا تسكت عن البكاء ولا تعمل أى شىء .. وهى تريد أن أداعبها ليلاً ونهاراً .. خذها يارب ..

وأخذها الرب غاضباً .. وبعد أسبوع عاد الرجل .. وهو يقول : أريدها يارب .. فقد كانت تغنى وترقص .. وكانت تغمز لى بعينيها بعد الغروب وأنا أشكو من الوحدة .

وأعادها الله إليه .. وبعد ثلاثة أيام قادها الرجل إلى الله وهو يقول .. تعبت معها يارب .. تعبت حتى لم أعد قادراً على الشكوى منها ، خذها يارب .. خذها .. وهنا ثار الله على الرجل قائلاً : اخترلك شيئاً .. هل تريدها أو لا تريدها .. انطق فوراً الآن وإلا أعدمتك وأبقيت عليها وخلقت للمرأة زوجاً غيرك .. انطق ..

واستدار الرجل وهو يسحب حواء من شعرها .. وهو يقول : لا أنا قادر على بعادها ولا أنا قادر على قربها .. لا تملى الحياة معها .. ولا على الحياة بغيرها !

وكل الأصابع تشير إلى عداوة الكاتب الكبير أنيس منصور للمرأة ، وعند تبريره لهذا العدوان يقول الكاتب نفسه :

« يجوز أن يكون هذا عداء إذا فهمنا العداء على أنه مصارحة المرأة بما لا تحب ، فالمرأة لا تحب الصراحة وأى امرأة لا تريد أن تكشف حقيقة نفسها فوجهها ليس هو الوجه الذى تعرفه ولا ملامحها تدل عليها .. فهى عالية الصدر ممشوقة القوام مرهفة الخصر .. كل ذلك لأسباب صناعية فكلما تطورت صناعة

التجميل فى العالم ازدادت رهافة المرأة .. أى ازدادت كذباً .. أى بعداً عن الصراحة ، فهى تلقاك بشكل يختلف عما تراها عند قيامها من النوم .. فإذا كانت عداوة المرأة هى مصارحتها فأنا من أعداء المرأة .. والمرأة تفضل من يكذب عليها على الذى يصارحها ، والرجل الذى يصارح المرأة عادة ليس هو الذى يكسب قلبها .. وكل الذين أحبتهم المرأة فى طول التاريخ وعرضه هم الذين يكسبون قلبها وأنا لست حريصاً عليها ولا أتعب ولا أندم على أننى أصارحها يوما بعد يوم فكتاب « قالوا » الذى أصدرته فيه آلاف الكلمات كلها إبر لامعة مسمومة تشكك المرأة فى كل عواطفها ، ومع ذلك اشترى هذا الكتاب كل النساء والفتيات ، فالمرأة ليس صحيحاً أنها تكره من يعاديها .. إنه يغيظها ولكنها تهتم بما يقول أما الكاذبون فهم يسعدونها ولكنها فى نفس الوقت لا تهتم بهم كثيراً !

●●●

الحب هو التفضيل هو الإيثار هو أن تؤثر إنساناً واحداً ونتعلق به وأن يؤثرنا هذا الإنسان أيضاً على غيرنا ويتعلق بنا ليتم التبادل فى الحب عن حرية كاملة فى الاختيار والهبة .

على أننا لا يمكن أن نحب إنساناً ونؤثره على غيره إذا أحببناه بالجسد فقط ، فالجسد ينشد اللذة واللذة متقلبة وغادرة لا تقوى على الثبات والوفاء .

إن عاطفة الحب تدفع الوجود بما فيه إلى البقاء وتساعده على النمو والازدهار ، وبدون الحب يصبح الهواء غير صالح للاستنشاق ، وعندئذ يأخذ الوجود فى الفناء الحب يكون بين اثنين أى بين سالب وموجب حتى ينطلق تياره .

وما وجد فنان إلا ورسم الحب أى رسم أثره على الإنسان باعتبار أن الحب علاقة حتمية بين الرجل والمرأة لاستمرار النوع والتواجد والبقاء .

الحب لم يتغير اليوم عن الأمس ولكن الذى تغير هو نظرة إنسان المعاصرة إليه ، إن إنسان اليوم ينظر إلى الحب على أنه وسيلة للحياة ، وأنه عنصر لابد له أن يفخر به عند تحقيقه وأنه إشباع لإحدى غرائزه .

هناك مثل يقول « ما من شجرة إلا هزتها الريح وما من قلب إلا هزه الحب » .

والقلوب يختلف بعضها كما تختلف وجوه الناس ، فهناك قلب يهزه الحب فيهتز ولكنه ينبض كأنه ساعة مكسورة هززناها فإنها لا تدق ولا تتحرك عقاربها ، وهناك قلب يهزه الحب فينفتح كأنه وردة وتسقط منه ورقة صغيرة مكتوب عليها كامل العدد « وهناك قلب لا يكاد يهزه أحد حتى يدق ويصرخ ويقول :

- يانصيب .. سحب الليلة آخر ورقة .

ونحن نعلم أن هذه الأوراق لا أول لها ولا آخر ، وهناك قلب لا يفتح إذا اهتز وينفتح مهما حركناه .

فلهذا القلب مفتاح .. وهذا المفتاح ضائع .. وهناك أناس يفضلون أقصر الطرق إنهم لا يبحثون عن المفاتيح .. وانهم «يفسخون» هذه القلوب ويفتحونها بالقوة .. وتتفتح القلوب .. ولكن بعد أن تتحطم .

أى أن القلوب أنواع .. وبالتالى فإن الحب الذى يسكن هذه القلوب ألوان وعن هذه الألوان .. ظل أنيس منصور يبحث هنا وهناك . عن معنى الحب .. مكنونات الحب .. فلسفة الحب .. إنه ظل منذ بداية اشتغاله بالأدب حتى الآن باحثاً عن هذا الشىء الغريب .. الذى اسمه الحب .. وحاول أن يسجل ويبدى آراءه فى هذا العالم العجيب .. عالم الحب فما هى نظرته ؟ وما الذى أراد أن يقوله لنا بعد رحلته الطويلة .. فى عالم المرأة .. والحب .. والنفس البشرية .

إن كل إنسان يبحث عن الحب .. والطفل يبحث عن الحنان .. والمراهق يبحث عن الزمالة .. والبالغ عن الزوجة .. والعجوز يبحث عن الممرضة .. وكلها أنواع من الحب ولا يمكن الاستغناء عن الحب أبداً فما هو الحب ؟

يرى أنيس أن الحب هو علاقة بين شاب وفتاة قائمة على التفاهم والحنان لتحقيق الراحة والسرور ، ولكى يحرص الإنسان على هذه الراحة فإنه يتعب ويضحى من أجل نفسه ومن أجل الفتاة التى يحبها .

فالحب الرومانتيكى مثلا نرى فيه الفتاة والفتى يعتقدان أنهما خلقة لبعضهما وأنها لا تصلح لأحد سواه وأنه لا يصلح لواحدة غيرها ، كل شىء فى كل منهما قد خلقه الله لينعم به الآخر وكلمة الرومانتيكى « مأخوذة من الكلمة الأجنبية » « رومان » بمعنى قصة خيالية .. لذلك فالحب الرومانتيكى هو الخيالى .. هو الحلم الشاعرى .. والحب الرومانتيكى يقوم على أنه عناق دائم بين روحين تكمل الواحدة منهما الأخرى فكيف ذلك ؟ يرى بعض المفسرين لأحوال الحب .. أن الله عندما خلق الأرواح قسم كل واحدة منها إلى نصفين وألقى بالنصفين فى مكانين مختلفين ، ولذلك فالنصفان يبحث كل منهما عن الاخر .

والحب الرومانتيكى يقوم على أنه عناق دائم بين روحين تكمل الواحدة منهما الأخرى فكيف ذلك ؟ أى هو الذى يلتقى فيه النصفان ويصبحان قلباً واحداً وحياة واحدة .. وتصبح الحقيقة والخيال شيئاً واحداً .

ولذلك فإن الزوجة الشابة مثلا التى تزوجت من رجل كسر باب قلبها عنده وحبسها فى زنزانة .. تفضل الجلوس الهادىء ساعات طويلة على أقصى لذة حسباً فى الدنيا ، إنها تفضل الكلمة الحنون على شهر عسل وله ألف يوم .. إنها تفضل قبلة من أى أحد تحس نحوه بالحب الحقيقى على قبلة طولها الليل والنهار ، وهناك زوجات كثيرات اليوم تمنين الطلاق فى أى لحظة من أزواجهن ،

ويفضلن الحياة بلا أزواج ، ويأكلن العيش والملح لأن أزواجهن ليسوا إلا حيوانات وإلا وحوشاً ولا يفهمون ماذا تريد الزوجة .

وهناك نوع آخر .... من أنواع الحب .. أو لون آخر من ألوان الحب .. هو حب الروح .. وهو حب القلب الكبير .. والعقل الناضج والفتاة التى تحب أحياناً الرجل الكبير .. إنها تحب الرجل الذى يفهم حقيقتها والذى جعل وزناً كبيراً لمشاعرها ، إنها تحب الرجل الذى يشعر أنها قطعة من الماس يجب أن تصان لا قطعة من السكر يجب أن يمتصها فوراً وتذوب ويبحث عن أخرى ، ولا تحب الرجل الذى ينظر على أنها كومة التراب ويجب كنسها ورش الأرض بعدها ، إن هذه الفتاة تبحث عن العلاقة التى تدوم ولا يدوم إلا حب الروح + وكل الناس الذين يتحدثون عن الحب يقصدون كيف يكون الإنسان محبوباً لا محباً .

والمشكلة إذن هى كيف يكون الإنسان محباً وناجحاً ومحبوباً ؟

الرجال ، يريدون ذلك بأن يكون الواحد منهم ناجحاً .. قوياً .. غنياً .. والنساء بأن تكون الواحدة منهن جميله أنيقة رشيقة .. وأسباب النجاح فى الحياة هى نفسها أسباب النجاح فى الحب ، فالناجح هو الذى يكسب الأصدقاء ويكون له أثر فى الناس ، والإنسان المحبوب هو الناجح عند الجنس الآخر وقبل أن يكون الإنسان ناجحاً عليه أن يعرف الواقع الذى يعش فيه وأن يعرف كل شيء عن أجمل وأقسى ما خلق الله .. فمن يكون هذا المخلوق ؟!

وأنيس منصور فى دراساته يحاول أن يجد الإجابات عن تلك الأسئلة الحائرة التى تدور على ألسنة الناس وفى ذهن المفكرين ، فالمرأة هى أجمل وأقسى ما خلق الله فبدون المرأة الحياة صعبة .. مع المرأة الحياة أصعب والرجال العقلاء يعلمون أن دموع المرأة لاقيمة لها ولا تعنى شيئا شيئاً ، فالمرأة تبكى كما تمطر السماء وهى تتشنج وتهدر لأن الرجال يسدون فمها ولأن الرجل يدوس على لسانها والمرأة تتنفس من لسانها ..

وتناول فى دراسته « من أول نظرة » أسرار العلاقات الإنسانية المتشابكة المعقدة بين البشر يفسرها ويحللها بأسلوب أدبى وعبارة قصيرة رشيقة باحثاً عن حقيقة هذا المخلوق الذى ولد من ضلع آدم .. وكان « ضلعاً معذباً ومحيراً » فأمل الرجل .. هو الشهرة .

أما أمل المرأة .. فهو الحب .

وعند المرأة أن تعطى بلا حساب .. ويكفى أن تحب مرة واحدة .. وتقول : عشت فى حياتى مرة واحدة .. أما بقية العمر .. فذكرى الأيام الجميلة ، وقد بلور أنيس رأيه فى الحب فحاول الإجابة عن السؤال الخالد « ما الحب » ؟ مستعيناً باثنين من أساتذة الحب ، فهما ليسا الوحيدين وإنما استراح إليهما إنهما الشاعر اللاتينى « أوفيد » والعالم النفسى الكبير « ايريش فروم » وكل

واحد منهما قد ألف كتاباً اسمه «فن الحب» أما الحب فى رأى أنيس فهو النشوة الذهبية .. على شكل سهم ينطلق من قلب إلى قلب .. أو من جسم إلى جسم وليس نوعاً من الكرم أن يكون المحب من ذهب ، ولكن الكرامة هى التى تجعل الفريسة تطالب بأن تقع ضحية لأغلى أنواع السهام لأن هذا يرضى كبرياءها .

ولاشك أن الحب له عناصر يرتكز عليها وهى كما يراها الكاتب تتمثل فى الاهتمام .. والمسئولية والاحترام والمعرفة . فالأم التى تهتم بطفلها .. بصحته .. بطعامه .. هذا هو الحب الحقيقى .. أما المسئولية فمعناها أننا إذا سألنا أحد اجبناه إذا طلب منا أعطيناه فوراً فالأم مسئولة « جسمياً » عن طفلها والحب مسئول « نفسيا » عن محبوبته .

وإذا كان الفرنسيون يصنعون الحب فإن الإنجليز يتحدثون عنه والألمان يفكرون فيه والطليان يأكلونه ، أما الأسباب فإنهم يرقصونه .. والرقص لا تغرب عنه الشمس فى إسبانيا فما هى حكاية الحب الإنسانى .. إن « الحب الإنسانى » كما يقول المؤلف هو عنوان كتاب للسيدة « نينا ابتون » وقد شاءت أن تختار .. بداية عربية صحيحة للفتاة العاطفية فى إسبانيا .. فاختارت كتاب « طوق الحمامة » لأبى محمد على بن حزم الأندلسى دستوراً للمحبين ، لأن هذا الكتاب يضم عدداً من الرسائل فى الحب والغرام والتنزه بالعين والغيرة والطاعة والكرامة . والحب عند ابن حزم له علامات وأوصاف .. فالذى يحب .. هو الذى ينظر بإمعان ، ومن علامات الحب أيضا الحرص على الحديث مع المحبوبة والتضحية ومع ذلك فإن ابن حزم لا يرى حباً أقوى ولا أبقى من حب الله وقالت « نيتا ابتون » : إن ان حزم كان أول من كتب عن معنى « النظرة » لأنه قسم جفن المرأة إلى مربعات وكل حركة فى مربع لها معنى « فالإشارة بمؤخرة العين الواحدة معناها : لا تقترب !.. وتفتيح العين وتسبيلها .. ومعناهما .. ماذا تريد ؟

وتقليب الحدقة ثم صرفها بسرعة معناه : احترس واحذر .. وكسر النظر .. معناها فرجت .

لكن العالم الكبير « ايريش فروم » قد وضع علامات هامة أمام المحبين فيقول : على المحب ألا يكون أنانياً ألا يكون مشغولاً بنفسه وألا يجعل نفسه مركز الدنيا وأن كل شىء يدور ويروح ويجىء من أجله ، وأن العالم كله فى خدمته وأن الفتاة التى يحبها تقف فى طابور طويل من الحاشية الغريبة التى عينها لنفسه .

ودراسات أنيس لم تقتصر على الحب والمرأة فقط كما قد يتبادر إلى الذهن ، بل إنه يتعرض إلى موضوعات فلسفية وسياسية واجتماعية ، فقد وصف مشهداً مسرحياً للشبان الساخطين فى أمريكا .

لقد اختفى الشاب فى الظل ثم عاد بسرعة يقرأ وقد أدار ظهره للحاضرين وقال : المادة الأولى من البيان !

ـ لا يمكن أن يوصف الواحد منا بأنه « هيبى » إلا إذا كان حراً متحرراً وإلا إذا كانت حريته مطلقة حتى الموت .. والموت أهون من حياة المحافظين الجامدين المتزمتين الذين لا يتعبون من كلمات : يحب .. ولابد .. وحتماً ومن الضرورى .. ورغم أنفك .. والنار لك فى الآخرة .. واللعنة عليك فى الدنيا .

وهنا صرخ الشبان وتعالت الصرخات ، وكانت هناك فتيات صغيرات وأطفال يبكون .. صراخ وبكاء وعويل ثم اختفى كل هؤلاء فى الظل وعاد الشاب يقرأ وظهره للحاضرين .

المادة الثانية تقول :

إن هذا المجتمع الأمريكى صناعته الكذب والذى يكذب أكثر يكسب أكثر والذى يكذب على أكبر عدد من الناس يصل إلى أعلى المراكز .. إن جونسون كذاب .. كان ومايزال فى نظرنا .. إننا لا نحارب من أجله .. ولا نحارب باسمه .. ولماذا لا يذهب جونسون إلى الميدان الآن .. إنه قد أصبح عاطلا يتقاضى مائة ألف دولار . ثم تتابعت مشاهد المسرحية الساخطة وسط صرخات المتفرجين المؤيدة لذلك السخط . وقد مزقت المسرحية اقنعة الرياء من فوق جبين المجتمع الأمريكى . هذا المجتمع قد كشفه أيضا مجموعة من الكتاب والعلماء وصدرت اراؤهم وأبحاثهم فى كتب مثل « نانسى باكار » عن الضياع البشرى وتقرير الدكتور كنزى وغيرهما .. وكلها تمزق الأقنعة الزائفة التى يحاول المجتمع الأمريكى أن يضعها فوق وجوه أفراده .. إن الناس فيه قد تباعدوا عن بعضهم وتباعد الناس فى البيت الواحد فالأب يذهب إلى عمله ، وكذلك الأم والأطفال فى المدرسة ولا أحد يدرى بأحد ولا أحد يستطيع أن يسيطر على الصغار إذا كبروا إلى الشارع .. وضاعت علاقات الحب .. والتفاهم بين الجميع .

ويختتم أنيس منصور تحليلاته قائلاً : إنهم يتصورون أن الجنس والنجاح فى الجنس .. هو الذى يؤدى إلى الحب ويؤكده ويجعله على أساس متين .. مع أن العكس هو الصحيح .. فالحب هو الذى يجعل الجنس متعة .. وراحة . والحب هو وحده القادر على تصحيح الأساليب التى نستخدمها فى الاستمتاع الجنسى ، وهو الذى يجعل الضعيف قوياً والقوى ضعيفاً .

ويواصل أنيس رحلته مع الحب .. والتاريخ .. والأدباء فهو يعرض لنا كتاب الأديبة الإيطالية داتشيا ماريانى وهى زوجة الأديب الإيطالى الكبير البرتو مورافيا فى « مذكرات ضائعة صغيرة » تقول فيه :

ـ ما الذى يريد أن يقوله هذا الأديب فى كل أعماله الأدبية ؟

لو سألته : هل تحب الحب ؟

لأجاب : أكرهه .

ـ ولماذا ؟

ـ لأنه مضيعة للوقت .

ـ إذن ما الذى لا يضيع معه الوقت ؟

ـ الحيـاة ..

ـ وهل يعيش الناس بغير حب .. ؟

ـ بل أن يكون الحب حياتهم .

ـ قصدك أن تكون الحياة حبهم ؟

ـ هكذا أفضل

ـ ما الفرق بين المعنيين ؟

ـ أنت تضيع وقتى فى مناقشات لفظية .. دعنى .. فأنا على موعد مع فتاة جميلة .

ـ أنت لا تستطيع أن تتمنى ما لا تعرفه .. وما لا تحس به .. فالسعادة شعور شخصى .

ـ من الأفضل أن توجل الاعتذار إلى ما بعد .. فليس عندى وقت يتسع للكلام .

ـ إذن .. هل أعتذر عن هذا التدخل فى حياتك ؟

ـ سؤال أخير قبل أن تذهب إلى محبوبتك .. ألا يدور بينك وبينها كلام .. ألا تحدثتها عن نفسها .. هل تقسم بشرفك أن لن تروى لها كلمة واحدة مما دار بينى وبينك ؟

ـ لا أستطيع لابد أن أروى لها ذلك .

ـ ولماذا ؟

ـ لأننى لا أكذب .

ـ فإذا لم تسألك عن شىء ؟

ـ سأجد نفسى أتحدث عما دار بيننا .

ـ لماذا ؟

ـ لأن المحبين يتحدثون عن كل شىء .

ـ عن السعادة ؟

ـ إنهم يشعرون بها فقط .

ـ عن الحب ؟

ـ إنهم لا يتحدثون عن الحب .. إننا نحب فقط أما أنتم فتتحدثون عن حبنا .. نحن شعراء الحب .. وكل الناس مؤرخون للحب .

ـ وهل شعراء الحب يكرهون تاريخ الحب ؟

ـ نعم .. لأن المؤرخين يكذبون .. وهم يخترعون قصصاً .. ويصنعون لنا أسماء لانحبها .. نحن نحب فقط .. هذا كل ما تفعله .. أما الحب الذى له أول وله

آخر .. وله قواعد وله مبادىء .. فهذا هو الحب الذى أحبه .. إننى لا أخضع لقاعدة .. ولا أعرف أحداً من الناس . ولا أراهم .. عندما أجلس إلى محبوبتى فليس فى الدنيا غيرها .. عندما أستمع إليها .. فالكون كله قد ابتلع لسانه .. لا همس إلا همسها .. لا صوت إلا صوتها .. لا وجه إلا وجهها .. لا سعادة إلا معها .. لا زمن .. لا حاضر .. لا ماضى .. لا مستقبل .. لا تاريخ ..

ـ ألا تلاحظ أنك رغم حرصك على أن تنطلق إلى محبوبتك قد بقيت معى بعض الوقت .

ـ لم أكن معك لحظة واحدة .. إننى معها .. فليس حديثى معك إلا حفلة تكريم لها .. إلا تعميقاً لشوقى إليها .. إلا محاولة لأن أحفظ ما قلته أنت وما قلته أنا لكى أرويه لها .. فالبعد عنها خطيئة .. والحديث إليها اعتراف دائم بالذنب .. وأكبر ذنب أن أكون بعيداً عنها مشغولاً بغيرها .

ـ ومع ذلك تقوم إنك تكره الحب ..

ـ نعم .. أكره الكلام عن الحب .. لأن الحب حريق وليس دخاناً .. لأن الحب قلب حريص على أن ينزف وليس عقلاً حريصاً على أن يعرف .

وأنيس منصور قد مر بتجارب كثيرة واطلع على كثير من الآراء والأفكار والأقوال عن الحب عاش مع الحب .. كأنك فى رحلة من رحلاته العديدة التى اشتهر بها وهو يرى أن الحب فن يجب أن تتعلمه .. وتعلمه بأن تعرف أسسه وقواعده .. ولكى تنجح فى تطبيق هذا الفن .. فلابد من تطبيق قواعد أخرى .. ضرورية فى الحب وكل فن فأول هذه الشروط أن يكون هناك نظام .. وبلا نظام لا تكون هناك قدرة على التركيز .. والتركيز فى الحب ينبغى أن يصل إلى أقصى درجة .. إلى أن تركز مشاعرك كلها على الفتاة التى تحبها وأن تصبر .. لان الصبر صعب جداً على الإنسان الحديث !! إنه أكثر صعوبة من قدرته على النظام والتركيز .

فمع الكاتب الكبير أنيس منصور تعيش مع الحب .. كأنك فى رحلة .. وهى من أمتع الرحلات التى يمر بها القارىء .

وكتاب « يا من كنت حبيبى » رحلة شائقة فى الحب والمرأة والجنس والزواج .

وعنوان الكتاب كما هو واضح يرن فى الماضى .. ولكن أفكاره معاصرة ..

ويا من كنت حبيبى اسم فصل من فصوله يقع بعد مقدمة الكتاب ، والكتاب شاعرى العبارة ويشع منه جو رومانسى .. هو من خصائص الكتاب فى مطالع صباهم الفنى وذلك بسبب انفعالهم الشديد بكل شىء .. وكل شىء فى هذه المرحلة يقول الكثير فى العيون والقلوب والعقول . وأنيس فى هذا الكتاب « يا من كنت حبيبى » والذى كتبه من سنين يتناول فيه هذه الموضوعات بالوجدان

عندما كانت أشجاره أذرعاً حانية وظلاله أحضاناً دافئة وكان ليله أكثر همساً وظلاما .

وهذه المرحلة يسميها أنيس بأنها المرحلة التى لم يكن يعرف فيها نفسه .. ثم جاءت بعد ذلك المرحلة الأخرى وهى مرحلة معرفة النفس والتى بدأت بكتابه « وداعاً أيها الملل » . والقارىء لهذا الكتاب يجد أن الكاتب قد وضع الكثير من البذور لكثير من الأعمال الأخرى صدرت بعد ذلك وستصدر بعد ذلك .. كلما ازدات معرفة الكاتب لنفسه .. وللناس . فمثلاً نجد أن العقل عند أنيس منصور في كتاب يا من كنت حبيبى هو الحب وان العقل الذى لا يسمح بالحب ليس عقلاً .. بل منتهى الجنون . وأنيس منصور في هذه المرحلة له عذره فقد كان يحب .

والمؤلف يحاول فى هذا الكتاب أن يقدم لنا تعريفاً للحب وهى محاولة قديمة لكل من سبقوه على الطريق . ولم يتمكن أحد من أن يقدم لنا تعريفاً « جامعاً مانعاً » لهذا الساحر المجهول الذى اسمه « الحب » .

فيقول الكاتب فى موضوع الذين نحبهم « إن الحب هو أقدم سؤال فى الدنيا والجواب عنه فى موضوع الذين نحبهم فى كل كتاب وفى كل أغنية وفى كل فرح وفى كل مأتم . وإن الحب هو الذى . فتح للناس أبواب السجون . وهو الذى لطعهم على أبواب المحاكم . وهو الذى أوقفهم أمام القسيس وأمام المأذون .

وكل يوم يولد قلب وينفتح ويدخل الحب . وكل يوم يتحطم قلب وتبقى حروفه منقوشة على هذا الحطام . ثم نرى المؤلف يتساءل دائما عن الحب فيقول :

إن الحب : ـ جوهرة اهتمام الإنسان وإنه كورق النشاف يمتص البقع السوداء من حياة المحبوب . وهو مرض يرفع درجات الحرارة . وهو عطاء دائم وقصص أطفال لأنه كلام صغير لا تتعب منه الأذن ولا يمله اللسان . وهو قبلة ظامئة لا تشبع منها ولا ترتوى بها .

والحب هو الكلمة التى لا تقال فأنت تحب ولا تقول ـ وأنت تبكى ولا يرى أحد دموعك .. وأنت تحزن ووجهك باسم .

والذى يحب هو الذى يجعل حياته تفسيراً لهذين الحرفين ح .. ب ولا ينطق بها . وإنما يجعل الحب ورقة خضراء ويجعل الورقة تتحول إلى زهرة والزهرة تتفتح ويكون لها عطر بالفراشات كأنها حائرة .... هكذا الحب : ينمو ورقة ورقة وزهرة زهرة وقبلة قبلة .. وتظل الزهرة بلا اسم بل إنها لا تحب أن ينطق أحد اسمها .

والفتاة التى تحب تريد أن تنتزع كلمة الحب من شفتى حبيبها .. تريد أن تسمع هذه الكلمة أن تسمعها فى الهواء بين وجهها ووجهه .. فإذا انطلقت الكلمة فى الهواء راحت تقبل هذا الرسول الذى حمل إليها هذه الكلمة .. تريد أن تسمعها فى أذنها ... وأن تظل هذه الكلمة مطبوعة على أذنها .. فإذا عادت إلى بيتها

دارت أسطوانة جميلة لتسمعها وحدها طول الليل .. أسطوانة عليها كلمة واحدة هى : أحبك ..... وتريد أن تذوق هذه الكلمة بفمها .. فيكون لها طعم ولها رائحة ولها نفس .... وتريد الفتاة أن تنتزع هذه الكلمة من بين شفتى حبيبها .. وأن يكون ذلك بصعوبة .. إنها تريد أن تنتزعها حية قوية .. كما تنتزع العصفور الحبيب الضعيف من بين أسنان القطة .. هذه هى حالنا مع الذين نحبهم :

فهل يرضى الذين نحبهم .. إنهم لا يرضون .. إنهم أطفال لا يعرفون ولا يقدرون ولا يشبعون .. إنهم مرضى لا يستريحون .. إنهم حالمون لا يفيقون ... إنهم ماء البحر لا يرتوى .. إنهم الدم الذى يوجعنا ونتوجع به .. هذه هى حالتنا مع الذين نحبهم ..

فاذا كانت هذه هى حالك أيها القارىء .. فأنت تحب .. أما إذا لم يكن لهذا الكلام معنى عندك .. فأنت رجل عاقل .. واسمح لى أن أعزيك فى عقلك .. فالعقل الذى يمنعك من الحب ليس عقلاً إنه منتهى الجنون .. آسف .. اعذرنى ... فإننى أحب !

وبرغم أن مادة هذا الكتاب قد كتبت منذ سنوات ونشرها المؤلف كما هى حتى تحتفظ بحرارة أسلوبها القديم ووهجه ، إلا أن المؤلف يقدم لنا صورة حديثة لأسرة مصرية وأسلوبها فى التربية ونظرتها للحب والجنس والزواج .

ففى داخل الأسرة المصرية علاقات تنقصها الصراحة والشجاعة والحرية ولذلك فإننا نجد الأسرة المصرية غامضة ممزقة ويخرج منها أطفال فيهم اهتزاز وقلق .

والعلاقة الأولى تبدأ بالأب والأم وكيف تم الزواج بينهما إن الأب إذا اختار زوجته جاهلة فإنه يحكم مقدماً على أولاده بالتعب والعذاب فيصعب على الأم أن تجارى أولادها .... أن تساير الجيل الجديد فى أفكاره فى اندفاعه .. سيكون الأطفال فى سرعة الصاروخ وتكون الأم فى سرعة قطار الصعيد .

وسيكون الأب نموذجاً سيئاً أمام أبنائه .. نموذجاً سيئا للرجال والأزواج ومثلا فى قسوته على الأم وعلى أولادها ..

وإذا قبلت الأم الزواج من رجل لا تحبه فسيرى أبناؤها ذلك .. حين يسمعونها تلعنه ليلا ونهاراً وتلعن الأيام التى أوقعتها فيه وكيف أن زوجها قد ضحك عليها وخدعها وكيف أنها صدقته ، ولن يكون صعبا على ابنتها أن تعرف ان الرجال كذابون وأنهم خادعون ، إن ابنتها تسمع نصف الحقيقة ويملأ نفسها الخوف من كل رجل كبير أو صغير ، وتبدأ البنت فى الابتعاد عن الناس فكلهم كأبيها خونة ومضللون . أما الولد فعندما يرى أنه تلعن أباه وتعذبه وتقسو عليه فإنه يصاب بصدمة شديدة لأنه كان يتصور أن أباه هو أعظم رجل فى العالم ، فإذا به يجده لا يساوى شيئاً وكان يتصور أن أباه يساوى مليون جنيه فإذا هو بضعة ملاليم لا قيمة لها .

وعندما يكون الأب أكبر من الأم بعشرات السنين .. وعندما يكون الأب سكيرا وعند ما تكون الأم مسرفة .

كل اختلاف بين الأب والأم يؤدى إلى خلافات بين الأبناء . ولذلك فالأسرة تبدأ بهذه العلاقة بين الاب والأم .. وفى أوربا وأمريكا توجد مكاتب وعيادات للاستشارات الزوجية .. فيتقدم طالب الزواج ويسأل إن كان يصلح للزواج من هذه السيدة أو لا يصلح .. وهذه الاستشارة معناها أن الزوج لا يفكر فى نفسه فقط وإنما يفكر فى أولاده إنه يفكر فى الضيوف الذين سيسكنون هذا البيت معه .. هل يجدون الطعام أو يموتون من الجوع ؟ هل يدفعهم من البيت إلى الأرصفة إلى السجون أو من البيت إلى المدرسة إلى الحياة الناجحة ؟

إن كل انسان عندما يوقع عقد الزواج هو يوقع شهادة ميلاد أولاده وشهادة وفاتهم ووثيقة زواجهم ، إنه يقطع تذكرة نجاحهم أو فشلهم .

فمشكلة الأبناء تبدأ من هنا : إنها تبدأ مع هذه العلاقة بين الأب وزوجته .

والمرأة والحب والزواج هى من قضايا المفكر الكبير أنيس منصور .. كذلك هى قضية الإنسان الكبرى ومحوره أيضا فنرى الكاتب فى موضوع بعنوان « هذا اليوم سيجىء يفسر لنا سبب انصراف الناس عن المرأة الجادة حتى إذا كانت جميلة من خلال وصية وزيرة بريطانية لابنتها والتى تقول فيها : إن الرجل يفضل الفتاة التى تلبس الجميل من الثياب والتى تسوى شعرها وتختار عطرها وتهذب صوتها على البنت الجادة التى تقرأ وتدرس وتفهم .. ولكن ينبغى أن نضيف إلى ذلك فساتين أخرى فساتين عقلية وأخلاقية أضيفى إليها الفهم والتجربة فالفساتين لا تدوم ولكن الفهم السليم للحياة وللزوجية هو الذى يدوم .

فى الشرق تمشى المرأة وراء الرجل .

وفى اوربا تمشى إلى جواره

وفى أمريكا تمشى أمامه .

فى الشرق يترك الرجل المرأة فى البلد أو فى البيت أو فى الشارع .. .. والرجل الشرقى لايزال مع الأسف يفضل المرأة التى أقل منه فى الثقافة .. فى الشخصية .. فى التجربة . وكثيرا ما نسمع رجلا مثقفا متعلما عرف وقرأ وجرب الرأى . هذا الرجل يعلن بصراحة أنه سيذهب إلى بلدهم ويختر عروسة « خام » عروسة لم يرها أحد ولم يسمع عنها أحد .. لم تنظر من باب ولا من شباك عروسة تقف وراءه على طول الخط . فإذا حدث أن هذه العروسة رفعت رأسها وفتحت عينها وقالت : لا --- تكون هذه هى المصيبة ، ومعنى ذلك أن البنت « خسرت » وأن أخلاقها « فسدت » وأنه لابد أن يكون هناك رجل اخر .

ومن الممكن أن تسير المرأة وراء الرجل وإلى جواره وأمامه وتنجح حياتها معه . مادام هناك فهم سليم لطبيعتها وطبيعته .

ولكن لابد أن يحدث هذا التطور .

إن المرأة الشرقية تحاول الآن أن تدرك الرجل وأن تجلس إلى جواره فى كل مكان . وسيحدث هذا .. وستنال نفس الحقوق وستسىء استخدام هذه الحقوق تماما كالرجل وتماما كالمرأة الأوربية .. بعد ذلك ستتقدم على الرجل تماماً كالمرأة الأمريكية وستشبع من كل الحريات وبعد ذلك تتطلع إلى الوراء .. إلى الايام الذهبية عندما كانت تنام فى البيت بعيدة عن المصانع والمعامل والمكاتب .. ويتركها الزوج ويذهب إلى عمله .. ثم يعود إليها مرهقا .. فتنهض تغسل له يديه ورجليه وتقدم له الطعام .. إنه ليس زوجها فحسب ، وإنما هو أبوها وأخوها وحاميها ..

ولابد أن يحدث هذا فى مصر .. ولكن بعد أن تمر المرأة المصرية بتجارب المرأة الأوربية والأمريكية . فمتى تصبح القاهرة كباريس ؟!

سيجىء هذا اليوم .

إن الكاتب أنيس منصور استطاع من خلال هذا الكتاب أن يمسك بنبض العاطفة والحب كما لم يفعل كاتب قبله ، وأن يعرى العلاقة بين الرجل والمرأة من حياة أفضل .. وسيجىء هذا اليوم الذى تتحرر المرأة المصرية من قيود التقاليد والعادات لتسير بجانب الرجل على خط واحد !

إنه هنا يؤكد قول محرر المرأة قاسم أمين « متى تهذب العقل ورق الشعور أدرك الرجل أن المرأة أنسان من نوعه لها ما له وعليها ما عليه ، وأن لا حق لأحدهما على الآخرين بعد توفيه ما فرضته الشريعة على كل منهما لصاحبه الا ما يعطيه كل من نفسه بمحض ارادته وحسن اختياره »

ويعزز ما أنشده الشاعر العراقى معروف الرصافى

يرفع الشعب فريقا   من إناث وذكور
وهل الطائر إلا   بجناحيه يطير ؟

ولكن لما قضى على المرأة الخضوع لمصالح النوع الإنسان مع ما لهذا النوع من الرذائل والخطايا ، وجب أن تعود المرأة على احتمال مظالم الزوج وجور الإنسانية فى صبر وسكوت واستشعارها اللين واللطف والدماثة والرقة هو أقرب إلى مصلحتها منه إلى مصلحة الرجل فليس فى استعمالها الخشونة والغلظة إلا ما يريد الرجل لها اضطهادا وقسوة وعنادا وجبروتا واستبداداً إذ يقول الرجل فى نفسه ما كنت والله لا عفو للمرأة وأذل وأهون وهى التى خلقها أضعف أسراً وأهون ركنا وأقل حيلة وحولاً وجملها لى متعة ونزهة وألعوبة ، وما كانت المرأة الضعيفة لتغلب حامل السيف والرمح بالساق اللعين المحلى بالأساور ، وما كان الظبى ليغلب الأسد ولا ساكن الغاب ليذل لساكن القاع ، والله سبحانه وتعالى لم يخص المرأة بصفات الوداعة والدماثة ورقة الخلابة والتلطف وحسن التوود

والتزلف ليظهرلان فى مظهر الغلظة والفظاظة والمشاكسة والشراسة ، ولم يخلق النساء ضعافا لطافا ليكن ذوات بأس وشدة وسطوة وسلطان وغطرسة وغلواء ، ولم يرقق من أصواتهن ليستعملنها فى التهديد والوعد والادعاء والإبراق ، ولم يجعل من محاسنها ويبالغ فى صقلها وتهذيبها حتى تكون وجوها للعبوس والتقطيب - على أن الشدة والعنف والشراسة ليست الأسلحة التى أراد الله أن تغلب بها المرأة زوجها ، بل فى لين المرأة ولطفها ما يقهر الرجل ويخضعه وينال منه بما فيه إصلاحه وتقويمه اللهم إلا أن يكون وحشا ضاريا وجباراً عاتيا .

إن الرجل خلق للقيادة والمرأة للإرشاد ، وليس كل الرجال قادة وكثيراً ما أظهرت المرأة كما لا نادرا فى القيادة وبالأخص فى بعض المواقف الحرجة التى لم يكشف نور مصباح الفليسوف عن وجود رجل فيها ، ولكن هذه استثناءات لأنه لا كمال فى أعمال الحياة إلا باتحاد الرجل والمرأة معا وسيرهما جنبا إلى جنب .

وهذا ما يسمو إليه الكاتب أنيس منصور أن يتحد الرجل والمرأة لا أن يتحد الرجل وصعوبة الحياة على المرأة -- أن تسير المرأة جنبا إلى جنب مع الرجل .

سيجىء هذا اليوم بإذن الله .

ويجيب المؤلف عن مجموعة من الأسئلة فى هذا الكتاب وهذه الأسئلة عن الحب مرة أخرى وأيهما أعنف فى حبه : الرجل أو المرأة ؟ -- ويقول أنيس منصور : لا توجد قاعدة لعنف الحب عند الرجل أو المرأة فنحن نجد رجالا يحبون بجنون ، ونجد نساء كذلك ، ولكن حب الرجل هو الذى يخلق شيئا جديداً فلولا حب الفنانين والشعراء والعلماء ما كان ٩٠٪ من التراث الأدبى والفنى ، ولكن حب المرأة يبنى أسرة جديدة وأروع قصص الغرام فى التاريخ كانت من وحى رجال أحبوا ، وسالت دماؤهم على صفحات التاريخ ولا نعرف فى التاريخ كله امرأة واحدة كتبت قصة غرام خالدة وكل الذين كتبوا هم الرجال ، والسبب أن مهمة المرأة هى أن تكون الهدف . وأن تكون الجو الذى يبتكر فيه الفنان والجو الحار الذى يجعله يصرخ من النار والبارود الذى يجعله يرتجف من البرد -- إنها الجو والضوء والغاية وهذا أكبر فضل لها علينا .

ويعود أنيس فى كتابه إلى السؤال المدود فمنه نبدأ وإليه نعود .

ما هو الحب ؟

ويجيب الكاتب قائلا : هو أغمض وأعقد علاقة بين رجل وامرأة تناولها الشعراء والفنانون والفلاسفة خمسة آلاف سنة ، والنتيجة أن الناس مايزالون يطلبون المزيد من الحب وعن الحب ، وقد نشرت صحف إنجلترا أخيراً أن إقبال الناس على القصص العاطفية أكبر من إقبالهم على أى نوع آخر من القصص ولكن ما هو الحب ؟ هناك آلاف التعريفات للحب -- فهناك من يقول إنه شىء فى

القلب .. أو قوة سحرية تربط بين رجل وامرأة .. أو أنه ينبوع السعادة فى هذه الحياة او أنه الشمس التى تشرق فى أفقين اثنين فى وقت واحد .. والشاعر العربى أبو نواس يقول :

يقول أناس : لو وصفت لنا الهوى
فوالله ما أدرى الهوى كيف يوصف

ولكن مع ذلك يمكن ان يقال إن الحب هو : تفاهم وتعود امتلاك .. أنت تتفاهم مع إنسان وتتعود عليه وتريده لنفسك .

وأنيس فى هذا الكتاب يحاول ـ وقد نجح فى ذلك ـ أن يتلمس مكان الحب فى هذا العصر ومفاهيمه .. هل فقد الإنسان روحه وفقد معها الحب .. أو ان العصر كله قد جعل للحب مفهوما اخر .

سؤال : أيهما أكثر إخلاصا فى الحب .. الرجل أو المرأة ؟

الجواب : بلا تردد .. المرأة فالمرأة بطبعها مخلصة للرجل الذى تحبه إنها لا ترى أحدا سواه ولا تسمع أحدا غيره . فعواطفها تسير فى اتجاه واحد نحو الرجل الذى تحبه إن قلبها كالراديو الذى لا يذيع إلا محطة واحدة .. هى رجلها التى تحبه .. أما الرجل فهو مخلص أيضا للمرأة ولكن على طريقته هو وهو يتمشى مع طبيعته ، فهو من الممكن أن يحب أمرأة ويخلص و هذا الحب ، ولكنه مع ذلك من الممكن أن يعرف غيرها من النساء . فهو كالراديو الذى يذيع لجميع المحطات والمرأة لا تستطيع أن تتصور أن هذا الرجل يحبها . لماذا ؟ لانها تقيس كل شىء على نفسها فهى لا تستطيع أن ترى أو تسمع أو تفكر فى أحد غيره .. فكيف لا يفعل مثلها ؟ طبعا كان أفضل لو فعل مثلها ولكنه لا يستطيع ولن يستطيع .. ومن هنا كان عذاب الرجل وعذاب المرأة إنهما طبيعتان مختلفتان .. ويحاول كل مهما أن يغير من طبيعية الآخر !

وأنيس منصور ينافى فى هذه الإجابة ما قيل عن المرأة من أنها .. قوة الفساد والإفساد .. من لا يلعنها مجنون .. مصدر كل شر .. روح الشيطان .. حية رقطاء أكثر مرارة من الموت .. حيوان جميل .. ناقصة عقل ودين أصل الرذيلة منبع الخطيئة .. شر لابد منه .. خراب فى البيوت العامرة .. ملعونة فى كتاب . فهو بإجابته يجدد كل الثقة من جديد فى المرأة فالمرأة أخلص من الرجل .

سؤال : هل الخناق أو الشجار ضرورى بين المحبين ؟

جواب : لابد أن يحدث .. بل يجب أن يحدث ولا يوجد اثنان لا يحدث بينهما شجار أبدا .. بل إن هذا الشجار دليل على الصحة .. على الصحة العاطفية فأنا إذا تشاجرت مع الفتاة التى أحبها معناه أننى أحبها وأننى أخاف عليها وأننى أهتم بها .. وأننى صاحب حق وأننى مالك .. وأنها لى .. والفتاة التى أحبها يرضيها هذا الشعور بل إنها تعمل بوعى أو بدون وعى على أن أتشاجر معها .. إنها تريد

أن تعرف مدى اهتمامى بها ومدى حرصى عليها .. والمرأة تريد أن تشعر دائما أنى أطاردها أننى اخطفها أننى أنتزعها من أنياب الاخرين حتى ولم يكن هناك آخرون .. إن الفتاة التى احبها تكون بين ذراعى ومع ذلك تقاومنى .. تقاومنى لا لانها تمانع فى أن اقبلها ولكن لأن المقاومة لذة ولأنها تريد أن تثير فى الرجل غريزة الصياد الذى يطارد ويجرى ويفوز بها فى النهاية .

●●●

والحكمة تقول: تشاجروا.. تصحّوا!

سؤال : ولماذا يفكر المحبوب فى الانتحار أو فى الموت ؟

جواب : الانتحار معناه الهرب من مواجهة موقف صعب .. وبدلا من أن نفكر فى حل لهذا الموقف فإننا نهرب منه .. بأن نموت والانتحار معناه أيضا أننا نحاول تهديد الإنسان الذى نحبه بأنه سيفقد شيئاً عزيزاً عليه .. بأنه سيفقدنا .. وبأننا نلقى على ضميره مسئولية هذه الجريمة وأنه هو المجرم .. أو لعلنا نحاول أن تثير فى قلبه الشفقة علينا وقد مر معظم المحبين بهذه التجربة .. فالذى يتظاهر بالمرض والذى يدمن التدخين أو الخمر والذى يهمل فى دروسه لكى يرسب .. كل هؤلاء يحاولون إثارة الشفقة .. وكلهم يحاولون الانتحار بصورة من الصور .

واذا كان الحب ليس مجرد علاقة عاطفية بين الجنسين .. أو بين الصديق وصديقه أو الأبن وأبيه .. بل هو شىء أكبر من ذلك بكثير وأعمق .. إنه خروج من قوقعة الذات .. امتداد لروح الفرد إلى عالم أكبر منها وأشمل .. فالإنسان حينما يكسر حاجز الوجود والتفرد يمد إلى العالم من حوله يد الحب .

وإذا كان الحب هو ذلك اللقاء الرائع بذات أخرى فإن أنيس منصور كان فى هذا الكتاب هو مصباح علاء الدين الذى يضىء للمحبين السبيل إلى الحب ذلك الكنز العظيم .

فهذا الكتاب .. هو قلب تحول إلى ورق .. ودم تحول إلى حبر .. وكوخ صغير فى مهب العذاب ! هو قلب أنيس منصور !

فلقد كان أنيس فى صغره يرتدى أحذية أخواته الأكبر منه ، وكانت الأحذية أكبر من قدمه ، وكان يشعر براحة فى قدمه وحرية فى الحركة ، أو هكذا كان يقول لنفسه ويقول للآخرين .. والآخرين هم زملاؤه فى المدرسة الذين

يتعجبون من هذا المنظر الغريب ، فقد كان بعض زملائه يجيئونه ليتفرجوا على حذائه كم هو طويل .. كم هو كبير .. ومن الغريب أن انيس لم يكن يلاحظ ذلك .. وأصبح أنيس أضحوكة زملائه فى المدرسة وكان يؤلمه أنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً .. لا يعرف كيف يدارى حذاءه .. ولا أين يضع قدمه .. وأصبح يتصور أن كل تلميذ يقع منه قلم على الأرض أو مسطرة إنما هى حيلة ليلقى نظرة على حذائه .

فكان أول من يدخل الفصل .. وآخر من يخرج منه .

وعرف أنيس لأول مرة أن « نظرة العين » قاسية .. قاتلة وموجعة ومؤلمة .. ومن الممكن أن تقول أكثر وأقسى مما يقول اللسان .

وتمنى لو كان له جلباب بدلا من البنطلون القصير حتى يطمس آثار هذه الجريمة صندوق زبالة .. كل إخوته .. حقيقة مؤلمة لهذا الطفل المسكين ولكن ما الذى يستطيع أن يفعله طفل ليس له حول ولا قوة ؟

لا شىء .. طبعاً !

وإذا قال لأمه فماذا عساها أن تفعل ؟ ولا شىء مطلقاً .

إن الناس فى غاية القسوة .. لا يرحمون لقد كان هذا الطفل يسكن فى ملابس غيره سعيد بها فطردوه منها .. أو عيروه بها .. أو جعلوه ينظر إلى حذاء كل تلميذ ويقارن بين حذاء ابن المدرس وابن الناظر وابن العمدة .. وكان يرى ابن العمدة يجىء إلى المدرسة راكباً حصاناً لا لشىء إلا لكى يبدو حذاؤه جديداً صغيراً لامعا .. كأنه يضعه فى عين اى إنسان .. او عين هذا الطفل المسكين .

ولم يلبس أنيس منصور فى طفولته حذاء جديداً ولو لمرة واحدة ..

وعرف أن المشى فى الشارع فضيحة وأن الذهاب إلى المدرسة يجب أن يكون فى ساعة مبكرة حتى لا يراه الناس .. هل من المعقول أن يكون نشاطه وحبه للمدرسة وحرصه على أن يكون تلميذاً متفوقاً فى جميع مراحل التعليم هو أنه يصحو قبل أن يصحو الناس وأن يذهب إلى أى مدرسة سيراً على الأقدام ، هل كان ذلك سببه أنه لم يحصل على حذاء جديد فى حياته ؟!

وما من أحد فى هذا العالم الا واختبر مرات عديدة ألواناً شتى من الأنفعالات ، بعضها .. عنيف قوى كالصاعقة ينفجر فجأة بدون سابق إنذار تاركاً وراءه نفساً مضطربة وجسما متداعياً إلا وقد تملك جميع المشاعر وتردد صداه فى أنحاء النفس كلها .

فالانفعال ضرب من السلوك ومن المحال أن يخطئه المشاهد لما ينجم عنه من تغيير فى ملامح الوجه واللفتات والحركات ، وهو حالة بارزة لأنه يعقب حالة سكون تكون فيه الحركات منتظمة والملامح منسجمة والتفكير هادئاً .. فالانفعال دليل على أن التوافق الذى كان محققاً بين ميول الكائن وبيئته قد

هدد واضطرب وفقد ، وذلك وذلك للعجز والفشل عن مواجهة ما يعترى الموقف الراهن من تغير فجائى أو من صعوبة غير متوقعة ، وكذلك لعجز التفكير عن إجاد حل سريع لا يمكن إرجاؤه نظراً لمطالب الموقف الملحة . فالانفعال إذن من حيث هو حالة شعورية وسلوك خاص نتيجة لفقدان التوازن ولاختلال النشاط فهو يدل على سوء الاستعدادات والتأهب .. هو مظهر من مظاهر الفشل والخيبة والضعف ، ولهذا السبب يؤدى عادة إلى سوء استعمال مؤهلاتنا وإلى تشتيت قوانا عبثاً وتبديدها بدون الوصول إلى النتيجة المرجوه الصالحة ، ولذلك قيل إن ضبط النفس من أهم عوامل النجاح وخاصة فى الميدان الاجتماعى .

وكان لهذا الحادث المبكر والانفعال الجامح منذ الصغر أثره فى نفسية أنيس منصور حتى الآن فهو يستيقظ مبكراً قبل أن يصحو الناس ليقرأ ويكتب ويفكر ويكتب ، وكان فى صغره حريصاً على أن يكون تلميذاً متفوقاً فى جميع مراحل التعليم ، فهو يصحو قبل أن يصحو الناس أما الآن فهو يصحو مبكراً لكى يكون كاتباً ممتازاً فى كافة فروع العلم والمعرفة والفنون والآداب ، وبدلاً من أن يذهب إلى أى مدرسة سيراً على الأقدام فهو يركب الآن قطاراً يسير على قضيبين من الفكر والإنصاف ، ويركب أسرع طائرة فى العالم .. هذه الطائرة لها جناحان من الفلسفة والفن .

وحاول أنيس ونجح فى أن يخفى هذا الحذاء القديم الواسع الموجود فى اللا شعور بالقراءة ، وهذا السيل الجارف من مؤلفاته ليثبت أن حذاءه دائماً جديد

وكان أنيس يقف وراء الباب إذا جاء إنسان يدق باب البيت حتى لا يراه أحد حافياً أو لابد أنها الغريزة .. فلقد أصبح أنيس منصور شاباً مشهوراً بين تلاميذ المدرسة الثانوية عندما نظر إلى فتاة ونظرت له فى عينه .. ذاب ... تلاشى .. تساقط إليها .. وتصور أنها رأت وأرادت وحريصة على أن تعرف التلميذ أنيس منصور .. صغيراً على الحب لا يعرف ما معنى نظرة فتاة مرت لعلها لم تقصد أى شىء ولا يمكن أن يكون هذا الطفل قد كبر فى عينيها لأن والده اشترى له حذاء قديماً .. ملتصقاً تماما بقدمه .. فلم يترك شارعاً فى المنصورة لم يسر فيه وكأنه يريد أن يشهر حذاءه المختلف عن كل الأحذية .

والناس لا تعرف بكم من الدموع بكى هذا الطفل الصغير .. لا يعرفون كم ساعة بكت أمه .. كم يوما غاب الأب عنهم .

وذات يوم بعد غياب دق الباب ودق معه قلب أنيس الصغير

نعم إنه أبوه .. عاد بعد غيبة .. ليس المهم هو عدد الأيام التى غابها .. لا يعنيه الشوق الجارف الذى يحمله فى قلبه .. المهم الأشياء التى حملها على صدره .. وقبل أن ينظر الابن أنيس منصور إلى عينيه الخضراوين قال الأب يرحمه الله :

أتيت لك به -- فلا تحزن يا حبيبى !

وفتح أنيس الصندوق الأبيض وهو لا يكاد يتبين لون الحذاء -- هل هو أسود -- هل هو أسود قاتم -- هل هو بنى غامق ولكنه حريص على قدميه يضغط عليهما -- يعانقهما بشدة -- ولم ينم تلك الليلة إلا بعد أن نظف حذاءه من الداخل والخارج . وفى الليل عندما صحا من نومه سألته أمه إلى أين ؟ فقال لها : إلى دورة المياه . ولم يكن هذا صحيحاً فهو يريد أن يرى حذاءه -- إنه يفضل أن يبدو قديما -- أى أنه كان عنده منذ وقت طويل ، ولسبب من الأسباب ارتدى أحذية إخوته -- أى أنه غير الحذاء باختياره .

وفى الصباح راح يروى هذا كله من غير مناسبة لكل الزملاء وهم يرون أنه يقول كل ما لا مناسبة له ، ولكن المناسبة موجودة فى أعماقه تهزه -- تشده بقوة وعنف -- تدفعه إلى أن يقول -- إلى أن يصدر بياناً يكذب فيه كل ما دار فى رءوس زملائه . أما هذه الفتاة فقد استقرت فى خياله طويلا .

وفجأة انقطع الحذاء -- لأنه ضيق -- وكان من الضرورى إصلاحه بسرعة -- وتم إصلاحه -- ولكن خوفه المستمر أن يتفجر جعله يخاف من المشى بسرعة ويخاف من المشى كثيراً -- ويخاف من اللعب أو اللعب فى حوش المدرسة .

وأضيف إلى تكوين أنيس النفسى شىء جديد : الخجل -- أو الخوف أو أتحد الاثنان معاً ضده .

أما الخوف فهو من كل شىء -- من العودة إلى البيت -- من الخروج من البيت -- من الغد -- من كل إنسان يدق بابه -- من كل إنسان يسأل عنه -- من كل ساعى بريد فهو يخشى أن يكون الخطاب اعتذاراً من والده بأنه لا يستطيع ان يبعث لهم مالاً هذا الشهر -- الخوف من الجوع -- من المرض من كل عين خبيثة -- عادة خبيثة -- تتركز على قدمه أو ملابسه كلها . وتعلم أنيس منصور فى ذلك الوقت وكان فى الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمره إذا مشى أن يحنى رأسه -- أن يخفى رأسه -- ألا ينظر إلى أحد فى وجهه -- وكانت أمه تضرب به المثل فتقول : ابنى مودب ولا ينظر إلى أحد فى وجهه ولا يخرج من البيت !

وكانت أمه معجبة به فقد كان مثلها الأعلى أن يكون الابن فى خجل البنت وحيائها ، وهذا هو الأدب فى نظرها ولم يكن يستطيع أنيس أن يفعل غير ذلك ولو أراد ذلك !

وقد أثرت هذه الفترة فى نفسية وحياة أنيس منصور حتى الان فهو رجل خجول جداً ، ولا يستطيع أن يدخل أى محل عام بمفرده والذى يريد أن يحرجه هو الذى يدعوه إلى مكان عام والمشكلة هو أنه لا يستطيع مواجهة الناس فيشعر بحرج شديد .

حتى عندما عرضت مسرحيته « الأحياء المجاورة » وخرجت بطلة مسرحيته سماء جميل والبطل حمدى غيث والمخرج جلال الشرقاوى إلى الجمهور على خشبة المسرح لتحيته .. قوبلوا بالتصفيق الحاد وطالب الجمهور فى الصالة مؤلف المسرحية أنيس منصور لتحيته ودخل جلال الشرقاوى يدعوه لتحية الجماهير ، ولكنه رفض وألح الجمهور بالهتاف عايزين أنيس .. عايزين أنيس والتصفير وخشى على مقاعد المسرح المتهالكة من الدق عليها ! .

واستمر أنيس فى رفضه ولم يخرج من الكواليس لمواجهة جمهور مسرحيته رغم الألحاح الأكاف ، ويومها ضحك الدكتور مندور وقال :

أنيس خائف إنه لايزال يعانى من عقدته !

وظل أنيس يهتم بهذه الفتاة إلى أن جاءت خالته من الريف ، وكانت سيدة جميلة جداً رقيقة ولطيفة .. شقراء رشيقة وصوتها جميل وحنانها لا حدود له ، وكانت تحبه وكان يحس بذلك .. إنها أول امرأة فى الدنيا أحس أنيس منصور أنها تحبه ولم يعرف معنى طعم الحب ولا يكاد يراها حتى يجد نفسه مجذوباً إليها ومجذوباً بها .

وقالت له ذات مرة : أحبك كأنك ابنى !

وكان أنيس يحس هذا المعنى .. ولم يكن لخالته ابن فى ذلك الوقت فكانت أمه وكان ابنها . وكانت خالته هى أمه الأولى يجلس إلى جوارها فيشعر أنه قد ارتدى أحسن ملابسه وأجملها ، وكم تمنى لو شاهده الناس معها .. كيف أنه أمه جميلة جداً وتحبه جداً ويحبها جداً .. فهو لم ير أمهات زملائه فى المدرسة وحتى أم هذه الفتاة السمراء جارته ليست جميلة .. ليست لها عينا خالته ووجهها المشرق ولا شعرها الطويل ولا صوتها الجميل ، وهى تغنى لا أحد مثلها فى الدنيا .. ولا حتى أمه !

وماتت خالته وأحس الطفل أنيس منصور أنه هو الآخر قد مات فقد تمسك بنعشها وراح يذرف الدموع ويصرخ وراح يناديها .. والناس يمنعونه بالقوة ويقولون : حرام يا ابنى !

وكثيرا ما صحا من النوع مفزعا على منظر خالته وهى تشده إلى عالمها فينهض من فراشه .. وكل من حوله يصرخ ويبكى وهو يقول :

خدينى معك .. ولا حياة لى .. خدينى إليك !

وبعد موت خالته أدرك ان القلب مات .. ولم يتعلق قلبه بأحد ..

ووجد أنيس نفسه فى هذه السن الصغيرة يكتب مذكراته وليس واضحاً كيف اهتدى إلى الكتابة .. فلم ير أحداً فى بيته يفعل ذلك .. ولكن كلما وجد نفسه وحيداً أمسك القلم ، وكانت المحبرة هى آلالامه التى يستمد منها المواد . كان

نوعا من الحديث إلى نفسه -- وكانت أمه تقوله له : يابنى إنك لست كأحد من الناس !

ولكن لماذا ؟ لماذا يا أمى ؟

لست كأحد من الناس فنحن دون الناس -- ولكن لماذا ؟ هل لأننا نسكن فى الطابق الأرضى وأناس آخرون يعيشون فى الأدوار العليا ؟ هل لأننى تلميذ أسكن فى الطابق الأرضى وصاحب البيت مدرس ويسكن فى الطابق العلوى ولا ندفع الإيجار بانتظام ! هل لأن أبى بعيد عنا معظم الوقت ولا نستطيع أن نعيش معه ؟ هل لأننا نأوى إلى البيت مع غروب الشمس لكى نصحو مبكراً مع شروق الشمس نقرأ على ضوئها ..

وكانت الأم صحتها فى تدهور مستمر يجلس إليها أنيس يقرأ لها فى المصحف الشريف كم من الليالى أمضاها هذا الطفل الصغير أنيس منصور بجانب أمه هى تنزف الدم وهو ينزف الدموع ولا حيلة له إلا البكاء عليه وعليها يرحمها الله .

وكانت جارته الفتاة السمراء غنية مما كان يسبب له حرجاً .. كانت كل ملابسها جديدة وزاهية ، وأنيس لا يستطيع أن يتابع خطوط الموضة معها إنه لا يملك إلا ملابسه بل أثماله البالية .

ورآها ذات يوم من بعيد تمشى على كوبرى المنصورة ولم ترفع عينيه من عليها ولفت حول عنقه كوفية تشبهاً بالأستاذ العقاد ، وكان مفتوناً به فى ذلك الوقت . ولذلك كان أنيس منصور قريباً من الحب ولم يكن فى الحب ..

وعندما يستعرض ما حدث له بعد ذلك بفترة طويلة كم جارة .. كم تلميذة .. كم قريبة .. كلهن سواء .. كلهن وجع قلب ..

وجفت الدموع بعدها ..

والمرة الأولى التى استمع فيها أنيس منصور إلى كلمة الحب لأول مرة .. كان ذلك فى الريف . وكان أنيس طفلاً فى كتاب القرية « كفر الباز » فأمه من عائلة الباز وصاحب الكتاب ابن خالة أمه .

وكانت أمه وأم المحبوب ماتزالان على قيد الحياة وكانت جدته شقراء زرقاء العينيين .. شقراء الشعر من هؤلاء المغاربة الذين ولدوا من أصول قريشية .. وكثيرا مثلها فى محافظتى الدقهلية ودمياط .. وكانت كثيرة التردد على هذا الكتاب وكانت توصى به وبأحفادها . وفجأة وفى أحد الأيام سمع أنيس همساً وتسأل من زملائه فقالوا له : إن صاحب الكتاب يحب « فلانة » وكان يقولها مع الأطفال ويرددها ثم يهرب .. وكان الطوب يلاحقه .. فكلمة الحب مخيفة والذى يقولها يستحق العقاب .

وكثيرا ما جلس أنيس على الترعة أو على النيل وتمر فتاة غسلت وجهها ورفعت طرف ثوبها فيتهامس الأطفال الأكبر سناً ويقولون : إنها تحب فلاناً .. أو أن فلاناً يحبها .

وكان يسمع عن اناس يذهبون إلى الحقل ليلاً -- وإلى الساقية -- وتتردد كلمة الحب وذات مساء جلس أنيس إلى جوار جدته على الطبلية يتناولون طعام العشاء وهمس فى أذن جدته التى كانت فى غاية القوة والقسوة :

إن فلاناً وأشار إليه يحب فلانة . وضربته وأوجعته ونهرته -- وكان أول مرة فى حياته يعانى مثل هذا العقاب وقرر الانتقام من جدته ! فى يوم مولد النبى ذهب إلى كل الحلل التى وضعت فيها اللحوم والأرز والحساء ووضع عليها التراب ولم يهرب وظل واقفاً إلى جوارها تماما مثل المجرم النزيه الشجاع الذى يقف بجوار جثة قتيله حتى يأتى البوليس وطبعاً كان عقابه مضاعفاً !

وكانت له أخت ماتت -- أخت غير شقيقة -- وقد مات أبوها -- وردية وكان شعرها أسود وعيناها عسليتين طويلة .

وكان يتسلل إلى أخته هذه -- طفلين صغيرين -- يخفى لها فى جيوبه سكر النبات -- ويضعه فى يديها وكان يخاف أن يجهر بحبها أن يقول للناس : إنى أحبها .

وفى يوم من الأيام وبشىء من العناد والتحدى وأثناء العشاء ومن غير أى مناسبة وقف وقال :

إننى احب أختى !

وتوقع أن تمتد إليه الأيدى -- ولكن أحداً لم يضربه وضحك الجميع.وقالوا : طبعاً أليست أختك !

وأحبها وماتت أخته ، ولقد كان الحب والموت متلازمين ، وخاف أكثر على الذين يحبهم بحبهم أن يجاهر بحبهم حتى لا يفقدهم .

إن هذا المعنى هو الذى رسخ فى أعماقه واستقر عنصراً قوياً من عناصر اليأس -- ولوناً من ألوان التشاؤم ورصيداً من التعاسة . وفجأة -- انتقل من المنصورة إلى القاهرة -- كما تنتقل سمكة من حوض سمك إلى بحر -- أو كما تنقل سمكة من ماء مغلى إلى فرن ملتهب .

وفى القاهرة دخل أنيس الجامعة -- أو انحشرت فيها فقد أصابه مرض جلدى . والسماء والناس وعربات الإسعاف والصرخات والبكاء والدموع -- ولكنه رأى إحدى زميلاته تقول : ولكنه بحث ممتاز !

وكانت عباراتها مثل طوق نجاة ألقى إلى غريق بعد أن أكل السمك ذراعيه !

وفى زحمة الأحداث ضاع هذا الموقف المؤلم وأصبح أنيس نموذجاً للطالب المجتهد والممتاز بين زملائه ، وكانت له طريقة فى المشى غريبة فقد كان يمسح قدمه فى الأرض ويدقها دقاً -- كأنه يؤكد لنفسه أو لغيره أنه لا يهمه ما تفعله الأرض بحذائه فإذا كانت الأرض بلاطاً فحذاؤه حديد ..!

نفس العقدة القديمة للأحذية القديمة

ولم يتحمل أنيس هذه النكتة من أحدى الزميلات

صحيح ما لون هذا الحذاء ؟

ولم يتحمل النكتة عندما عرف أن عدداً من الزميلات كن يتراهن على لون حذائه : هل أسود على أخضر أو أسود على بنى أو أحمر على أسود . ولم يغفر لهن هذه المداعبة أبداً ولم يتحدث إلى واحدة منهن ثلاث سنوات -- على الرغم من أن كل واحدة قد أعتذرت -- ولكن الطفل من داخله عقدة الحذاء سنوات لم يسمع وما سمعه لم يقبله عذراً وجيهاً !

واندهشوا جميعا كيف أن أنيس قلبه أسود .

ولكنهن لا يعرفن الحقيقة -- الحقيقة الأليمة !

ومنحت الدولة أنيس خمسة وعشرين جنيهاً مكافأة على أنه أول التوجيهية وتمنى أنيس فى قرارة نفسه أن يشترى بها أحذية -- فقط أحذية . أسود وأخضر وأحمر -- أحذية ذات ألوان صريحة تماماً -- لا يختلف أحد عليها . وإنما أحذية تتلقى من الناس الإجماع -- كان الناس لا تشغلهم إلا الأحذية لونها نوعها وطولها وعرضها ومن هو صاحبها -- الذى يلبسها أو أنه إنسان آخر -- كأن الأحذية بيوت لها ملاك ولها سكان !

ولكن عندما قبض المكافأة تغير تفكيره فجأة .

وقال لنفسه :

إذن أشترى الكتاب الجديد وأرتدى الحذاء القديم -- يكفى أننى قادر على شراء حذاء -- وفى نفس الوقت زاهد فى شرائه !

فهو قد أراح نفسه بنفسه -- واستراح إلى هذه المعانى ! ولهذا أطال أنيس منصور الوقوف أمام غرفة الكاتب الأمريكى همنجواى فى مدينة هافانا بكوبا -- لقد كانت الغرفة باهرة ساحرة -- إنها مليئة بعشرات مئات الأحذية !

ولقد أدهشته غرفة نوم العقاد فقد فرشها بالأحذية -- وكل الأحذية واسعة حتى لا توجع قدميه !

والفليسوف اليونانى ابنداو فليس عندما قرر الانتحار ذهب إلى بركان أثينا -- وألقى بنفسه فى البركان وطار حذاؤه فى الهواء -- وعندما سقط الحذاء على رءوس الناس أدركوا انه انتحر -- لقد كان حذاؤه دليلاً عليه .

وتوقف طويلا عندما كتب الأديب الإنجليزى هـ . ج ويلز -- كيف أنه يعرف الناس من أحذيتهم !

وعندما زار اليابان أراد أن يشترى حذاء له ، ولكن اليابانيين يعتذرون ويسرفون فى الاعتذار وعيونهم الضيقة على قدمه الكبيرة -- وكانوا إذا أتوا له بحذاء كان يجده صغيراً إلى جوار قدمه . حتى إنه فى إحدى المرات وضع قدمه

كلها فى صندوق العلبة فكان أكبر من العلبة .. وتمزقت العلبة وتمزقت جوانبهم من الضحك !

وعلى الرغم من أن الأحذية قد تلونت وتبدلت وتغيرت مصانعها بين مصر وأوربا وأمريكا إلا أن أنيس منصور لايزال يتذكر حتى الآن كيف أن سلحفاة صغيرة كانت فى بيت أمه .. وكيف أن هذه السلحفاة الصغيرة تسللت إلى أحد الأحذية ولم تستطع الخروج ولم يتمكن أحد من الاهتداء إليها .. وماتت !

ولاحظ أن فى أول رحلاته إلى أوربا سافر الى إيطاليا .. وبالأخص جنوب إيطاليا وأمضى وقتاً طويلاً فى مدينة توارنتو ووقع فى إحدى القنوات وانتهز هذه الفرصة وراح ينبش فى طفولته عن مخاوفه .. ويعرفها فى الهواء لتجف وتموت .. مثل السمك إذا خرج من الماء .. وأسرف فى ذلك ، ولكنه فجأة اكتشف أن المنطقة التى وقع فيها هى التى يسجلها الجغرافيون « كعب الجزمة الإيطالية » .. فشكلها كالحذاء تماما !

وعندما زار جزيرة سيلان ذهب يبحث عن الأماكن التى عاش فيها الزعيم أحمد عرابى فى مدينة كاندى .. وجد بيت عرابى ووجد بعض الذين رأوه وهو يركب حصانه نظيف الملابس لامع الحذاء !

واتجه إلى جبل آدم .. هذا الجبل يقال إن آدم عليه السلام عندما نزل من الحبشة إلى الأرض .. وضع قدمه الأولى فوق هذا الجبل .. ولذلك سمى جبل آدم وفوق هذا الجبل توجد بحيرة .. هذه البحيرة لها شكل القدم ولذلك سميت قد آدم ، وقد شاهد أنيس منصور هذه البحيرة وشاهدها ابن بطوطة من قبله .. هذه البحيرة لها شكل القدم .. هذه البحيرة هى أكبر حذاء من الحجر عرفه الإنسان .. فأبونا آدم عارياً حافياً .

وفى مدينة كولمبو عاصمة سيلان رأى الناس يمشون على النار .. ليس أبناء سيلان فقط .. ولكن عدداً من الأوربيين المتصوفيين . ولم يلاحظ أن أقدامهم قد تغطت بالزيت أو الشحم أو أى مادة عازلة .

ويخرجون من النار دون أن تكون أقدامهم قد احترقت !

وهناك نظريات خبيثة تقول : إنه من الأصح أن يمشى الإنسان حافياً بل وأن ينام عارياً .. وهناك أغنية مشهورة تقول :

دعونا ننام على الطريقة السويدية !

والطريقة السويدية هى أن ينام الإنسان عارياً تماما تحت غطاء ثقيل فالجسم يجب أن « يتنفس » .. وليست القدم فقط ولكن بقية الأعضاء !

وهذه الجروح الغائرة فى أعماق أنيس منصور لم تندمل وحتى إذا تماثلت للشفاء فإنها سرعان ما تنكأ من جديد .

ولم تكن الزميلة الجامعية التى أهدته أباجورة وحذاء تقصد أى شىء عندما اختارت له هذه الهدايا فهى لا تعلم ولا تتصور أن أنيس منصور يسكن فى بيت بلا كهرباء وكيف لها أن تعرف ذلك -- ولا هى تعلم قصة حياة حذائه الشهير، ولكن أنيس ثار عليها وألقى بالأباجورة على الأرض .

أما الحذاء فقد ألقى به فى النيل لماذا ؟

إنها معذورة فهى لم تختر الوقت المناسب لتقديم هديتها، ولم تكن تعلم أن هناك ضغطاً تاريخياً عنيفاً على هذا الشاب الواقف أمامها .

وعرف أنيس فتاة صغيرة وسار معها فى إحدى الليالى فى شارع الجبلاية بالزمالك . وكانت تفضل شراء الترمس على السودانى : ناعم ولذيذ .

وكان أنيس قد تجاوز نفسية مرحلة الإحساس بقدمه ولكن أدهشه أنها أقترحت أن يسيروا حافيين وتردد، وفجأة خلعت حذاءها وجلست على أحد المقاعد تحت المصباح ومدت يدها وخلعت له حذاءه ورأى ساقيها وقدميها وفى عيونهما اتفاق على المعنى الذى دار بينهما :

فعلاً ساقاها جميلتان !

وكلما سارت على طوبة تأوهت فى نعومة وتساندت عليه، وكان أنيس يجب أن يظهر الكثير من الطوب فى طريقها، بل أن تدخل شكة فى قدمها لترمى بنفسها عليه . وطلب منها أن يكتفى بهذا القدر من المشى ولم تفهم أنهما بدءا السير فى النور، ثم ادعى أن واحداً من المشاه قد عرفه -- فهو يسكن فى الشقة المقابلة له وأنه قد تشاجر معه، ولم تفهم الفتاة طبعاً وكلما حاولت ان تفهم تعثر أنيس فى قصة ضعيفة ركيكة غير مقنعة، ولكنه حامل أن يخفى عجزه عن الاقناع وافتعل الغضب .

وقالت : هل زهقت منى ؟

فقال : لا طبعا .

- إذن ماذا حدث ؟
- تعبت .
- من ماذا ؟
- لم أنم منذ يومين ؟
- ولكنك لم تخبرنى بذلك -- هل مايزال والدك مريضاً ؟
- مريض وكفى !

وانتهت المناقشة وانتهت معها العلاقة بينهما .

والسبب فى ذلك هو الخجل الذى عانى ولايزال وسوف يعانى منه أنيس منصور، فالخوف عزيزيته مهما اختلفت الأسماء التى توصف لهذا المعنى مثل :

الخجل والوجل والحياء والانزواء والانطواء .. والفردية والتأمل والتفلسف والتدين .

والخوف هو الغريزة الأولى التى اهتز تحتها وتستر عليها .

ولقد ولد أنيس خائفاً

والإنسان يولد خائفاً ثم هو يبحث عن الأمان بعد ذلك . والطفل عندما يولد لابد أن يبكى أو لابد أن يجعلوه يبكى ، فإذا بكى علموه بعد ذلك ألا يبكى أو يبكى بحساب .

والبكاء هو الذى أصبح اسمه بعد ذلك : الأدب والفن

وأصبح أنيس منصور يبكى حبراً وليس ما كتبه فى عشرات من مؤلفاته إلا نوعاً من التخفيف عن نفسه ، فالأدب والفن هو أن يخفف الإنسان عن متاعبه .. يجمعها يعرضها ويتركها وراءه ويذهب يبحث عن شىء جديد أو شىء قديم يعرفه بصورة جديدة .

وما أكثر ما فى النفس من هموم ، وما أكثر ما فى الطفولة من جروح ولكن ما أقل ما يتسع وقتى الإنسان ليعرف ذلك ..

ويؤكد علماء التحليل النفسى أن البيئة المحيطة بالطفل لها أهمية كبيرة يتعرض له من خبرات فى سنولت حياته الأولى قد تظل ملازمة له فى حياته المقبلة ، ففى هذه السنوات الأولى تعلم الطفل الكثير من الخبرات التى تؤدى به إلى النمو .. فإذا كانت خبراته نابعة من جو اجتماعى هادىء يسوده العطف والحنان والشعور بالأمن والانتماء ، استطاع أن يكتسب من الخبرات التى تساعده على تكوين القدرة على التكيف مع نفسه وعلى مجتمعه .

ولكن إذا مر الطفل بخبرات تابعة من مواقف الحرمان والشعور بالتهديد وعدم الانتماء وتتعدد هذه المواقف وتزداد حدتها ، أدى ذلك إلى تمهيد الطريق لتكوين شخصية تعانى من الاضطراب والقلق والصراع ، وفى هذا يصرح من يقومون بالعلاج النفسى أن تاريخ العصابيين ومضطربى الشخصية إنما يكشف من اضطراب مشابه أو ممهد فى طفولتهم ، فكل مرض نفسى أو عقلى ما هو إلا مأساة كتبت فكرتها فى الطفولة بين الآباء والأمهات ، ثم يقدم الفرد الضحية بتمثيلها فى عهد الكبر .

إن ما كتبه الكاتب الكبير أنيس منصور عن تلك الفترة الخصبة من حياته ليس إلا محاولة لرسم خريطة لمشاعره .. عواطفه .. أحاسيسه .. مواجعه .. والحب اختلف فى نظره عما كان فى الماضى .. الشاعر فى الماضى حين كان يشاهد طرف ثوب محبوبته أو قدمها .. كان شاعراً رومانسياً ولكن اليوم كل شىء يتعسر فى الماضى كان يوجد قدر من الاحترام وقدر من المبادىء .. الظروف اختلفت .. وسائل تحقيق الرغبات اختلفت.. واليوم أصبح الناس

يتحمسون لقصة حب رومانسية مثل قصة « تشارلز وديانا » هزت الكرة الأرضية كلها وهزت معها مشاعر وعواطف فوقها .. ليست لكونهما أمير وأميرة .. لا .. ولكن الناس فى حاجة إلى هذا الصفاء وهذا النبل الخيالى الذى افتقدناه بسبب استغراقنا فى ماديات الحياة التى لا طائل منها !

ولقد ابتدع الأديب أنيس منصور لوناً فريداً وممتعاً فى أدبنا المعاصر .. هو ما يسمى بأدب « الأقوال اللاذعة » وقد جمع هذه الأقوال فى كتابه الممتع الفريد فى بابه فى أدبنا « قالوا » الذى وجه فيه سهامه اللاذعة على المرأة والتى غلفها ببعض القسوة عليها ولكنها قسوة يغلفها لون جميل عذب من الفكاهة الهادئة الحلوة . فهى ليست بهدف السخرية والفكاهة .. بل إنه يضمّن تلك الأقوال أفكاره وفلسفته وخلاصة تجربته على المرأة والحب بكل صوره وألوانه !

وقد كتب لهذا الكتاب مقدمة جميلة حاول فيها أن يشرح سر هجومه على المرأة وقسوته عليها وتبريره لمثل هذا العنف الساخر أو القسوة الباسمة فقال :

« هذه العبارات التى فى هذا الكتاب إلا نوعاً من التوتر الشائك حاولت أن أزين بها جسم المرأة » .

أو أنها خيوط من الحرير حاولت أن أشبكها بدبابيس لامعة على جلد المرأة وحاولت أيضا أن أجعلها ملتصقة : فستاناً ممزقاً . وحاولت أن أقلد المرأة فى حرصها على أن يكون فستانها هو بشرتها الثانية !

ونسيت أن « تمزيق » الفستان يوجعها ويؤلمها .. وفى اللحظة التى تصرخ فيها المرأة من هذه العبارات الملتصقة بجسمها وقلبها وعقلها وطبيعتها تتردد ضحكات الكثير من الرجال .

ومن الدموع والضحكات ومن الصرخات واللعنات نسجت هذا الثوب الجديد الشفاف الذى يلسع ولكنه لا يحرق !

وهذه العبارات تدل على رأى ..

ولا أدعى أن هذا الرأى صواب .. فلا يوجد رأى صواب كله .. ولا يوجد رأى خطأ كله .

ففيه الكثير من الصدق وفيه الكثير من السخرية .

فهذه العبارات ككل الثمار فيها حلاوة وفيها بذور وقشور !

كان هذا هو تبرير كاتبنا وتحليله لسخريته المريرة من المرأة : ذلك اللغز المجهول ! ومن أطرف تلك الأقوال التى أوردها أنيس منصور تقدم بعضها والتى تفصح عن خلاصة رأيه فى المرأة وحيرته أمام ما يراه لغزاً مجهولاً وهو المرأة ذاتها .. بكل تلونها وبكل أطوارها وتصرفاتها !

وهى أقوال تصور فلسفة كاتبنا فى المرأة والحب والزواج والسعادة والملل .. والعذاب بالمرأة .. وعلى المرأة ؟

والأغرب هو الرجل الذى لا « يعزيه » أحد فى حريته ..؟

حب تطارده : جميل .. حب يطاردك : أجمل ..

بعض النساء لديهن القدرة على تسلية أى رجل .. إلا الزواج ؟

أن تحب المرأة رجلاً تحبه النساء وأن تحب رجلاً لا تحبه النساء : عذاب المرأة قاتل ضعيف .. والرجل قتيل قوى ؟

لا شىء أقوى ضعيف .. والرجل قتيل قوى ؟

لا شىء أقوى من الزواج .. إلا الهرب منه ..

تتفتح كل الأبواب لأى حمار على ظهره ذهب .

رحلة طويلة من ظلمات القبر .. إلى ظلمات الرحم .. هذه هى حياتنا .. قبل الزواج خيال أروع .. وبعد الزواج خداعنا أبشع ...؟

الحب كالشمس فيها حرارة وألف لون .. والزواج كالقمر فيه برودة ولون واحد .

المرأة كالظل : تهرب منه يطاردك .. تطارده يهرب منك !

التمساح يبكى عندما يأكل فقط .. المرأة تبكى عند كل شىء !

امرأة تجىء فى موعدها .. امراة مسترجلة !

الله خلقها غامضة ليحاول الرجل فهمها .. ولم يفلح !

امرأة تقول أنا اسفة .. حالة نادرة ولا أصدقها !

فى الليل والحب يصاب الناس بعمى الألوان .

كما يعيش النحل على امتصاص الزهور .. يعيش حسن المرأة على القبلات

كذابون : التاجر عندما يحلف .. والسكير عندما يصلى .. والمرأة عندما تبكى ..

إن من عوامل نجاح أى كاتب وتغلغل فى القلوب خاصة عند الشباب هو أن يكون خفيف الظل ولا أقول أن تكون كتاباته كلها فكاهة وسخرية ، بل انه يجب ان يطعم كتابا بهذا اللون المرح الخفيف ، ولا يتأتى هذا اصطناعا بل يتأتى بعفوية وعن موهبة حقيقية يمتلكها الكاتب وعن طبيعة مرحة تنعكس فى كتاباته عندما يمسك بالقلم حتى فى أشد الموضوعات جدية وصرامة !

كان هناك أدب يحتاج للفكاهة وخفة الظل وبراعة المقارنة : المفارقة اللغوية والفنية فان كتابات الكاتب الكبير أنيس منصور حافلة بهذه الخاصية الشيقة الفريدة . وقد تجلت هذه الخاصية فى ارائه اللاذعة حول المرأة .

ان هذه الأقوال تفصح عن مدى عمق تجربة أنيس منصور ، فقدرته على معرفة خفاياها أو التوغل إلى أعماقها وفهو أطوارها !

ومما ساعده على ذلك قدرته على دقة الملاحظة وتتبعه التفاصيل والجزئيات التى تخفى عن الأعين المتفحصة ، وفهمه لنفسية المرأة وتطورات عواطفها المتباينة

عندما خلع أنيس قوقعته !!

الدين وجدان قديم فى الإنسان نشأ معه وسيظل أبد الآبدين أحد نوازعه وطموحه وأحلامه .

هذه العبارة الموجزة تحسها بعد أن تقرأ كتاب الكاتب الكبير أنيس منصور ، طلع البدر علينا والدين قد أثر فى حياة أنيس منصور الذى حفظ القرآن وهو صغيراً دون أن يعرف معناه ، وكان يصلى الفجر وراء والده دون أن يدرك معنى الحركات التى يؤديها ، ثم يجلس مع والده يحتسى كوباً من الشاى بالنعناع ، ثم يرتل القرآن حتى تظهر الخيوط الأولى من شمس يوم جديد ، وحتى يومنا هذا لابد أن يستيقظ أنيس فى الخامسة من صباح أى يوم ليجلس إلى مكتبه وليبدأ العمل .

ولقد كان أنيس يامل ويتمنى أن يصبح مثل عمه -- رجل دين يلبس الجبة والقفطان ، وتكون له هيبة وجلال واحترام رجال الدين ، فالمناخ الدينى من حوله يهيىء له ذلك ، وها هو قاسم مشترك مع نابليون بونابرت الذى كان يتمنى ذلك أيضاً . ولكن الأقدار تحمل فى طياتها الكثير .

وعندما نودى على أنيس محمد منصور ليتسلم جائزة الدولة فى عيد العلم لم يتصور كثيرون أنه أنيس منصور الكاتب الصحفى ، فقد كانوا يظنون ان انيس منصور أرثوذكسى أو كاثوليكى أو مارونى أو بروتستانتى ، ولكن لم يتصوروا ابدا أنه أنيس محمد منصور ! حتى أن بعض الوزراء كانوا يرسلون بطاقات تهنئة لانيس فى أعياد المسيحيين !! بل إن الأستاذ سلامه موسى كان يعتقد إلى حين وفاته أن « أنيس » أحد الأقباط الأرثوذكس ، ولم يفعل أنيس شيئاً لنفى هذه الإشاعة غير الصحيحة !

وعندما أوفدته « أخبار اليوم » إلى روما لحضور مؤتمر الكرادلة تصور بعض المحررين فى أخبار اليوم أن سر اختياره أنه كاثوليكى ! ولكن هكذا انيس منصور ! هو مسلم وبعض الناس يحسبونه مسيحياً ، وهو متزوج وكل الناس يتصورونه عزباً وهو يحب المرأة ، وكل كتاباته تلعنها وهو رجل واقعى ويحمل ليسانس الفلسفة !! إنه كتلة من المتناقضات فى أذهان الناس !!

ورحلة أنيس منصور مع الدين بدأت منذ اللحظة التى سمع فيها كأى طفل كلمات :

الله والنبى والجنة والنار .. وهى كلمات غير واضحة ، ولكن يصحبها كثير من وسائل الاقناع بالكلمات والابتسامات واللعنات .. من الأب والأم والإخوة والناس .. وينغرس فى الأعماق بأن الخير جنة وأن الشر نار ، وأن النبى قال ذلك والقرأن يؤكد ، ولم يكن يعرف أنه حقق شيئاً كبيراً إلا يوم ذهب شيخ الكتاب يعلن لوالده أن « أنيس » قد أتم القرآن الكريم . وظهرت البهجة والسعادة على وجه الجميع .

واجتمع أهل الريف فى قرية نوب طريف مركز السنبلاوين دقهلية ، اجتمع الشيوخ والناس الطيبون والعمدة وشيخ البلدة فى بيت والده ، وكان البيت قصراً عظيماً يملكه عدلى باشا يكن ، وكان أبوه مأموراً لتفاتيشه ، وفى ساعة مبكرة من اليوم تغيرت ملابسه وتبدلت ، وأحس بمن يقول له : لاتلعب اليوم فاليوم يومك !

ثم جاء الحلاق وقص شعره وبعض الحلوى امتدت إلى جيوبه والقروش إلى يده ، والنظرات تغيرت والقبلات تغمره من كل جانب .. إن هذه القبلات قد عرفها فقط عندما كان مريضاً .

وتتردد عبارات تدوى فى أذنه : يا بختك ... الجنة لك .. ادع لنا !

وفى العام التالى دخل المدرسة .. وكان معروفاً أنه يحفظ القرآن لدى القليل من الناس ، ومئات من أبيات الشعر وفى مقدمته الشعر الذى نظمه أبوه فى التصوف وفى الهجاء وفى الغزل .. وقصائد طويلة لشعراء آخرين ، وقدرته على حفظ الجيد من الكلام قد تأكدت ، فهو بلا شك تلميذ مختلف ، وهذا واضح أو هكذا كان المدرسون يقولون ، وفى المنصورة الثانوية اشترك أنيس فى تشكيل جمعية دينية اسمها « جمعية المفكرين الأحرار » بالاشتراك مع مجموعة من زملائه .

كانوا أربعة : واحد أصبح شيوعياً وعنيداً ، والثانى أصبح فعلاً من رجال الدين المسيحى وهو الآن فى أثينا ، والثالث يعمل فى الأذاعة الإسرائيلية من تل أبيب ، وأنيس منصور .

وفى الجامعة تخصص أنيس فى دراسة الفلسفة أو الفلسفات والأديان ومقارنتها ، وقرأ التوراة ولكنه لم يأخذها مأخذ الجد وأفزعته قصصها الجنسية الفاحشة ، ولم يفهم لذلك معنى ، واستهواه من الأناجيل انجيل بولس الرسول وربما كان بولس أقرب كل الحواريين إلى الفلسفة اليونانية . وترجمة من الإنجليزية والفرنسية إلى اللغة العربية السهلة ثم قرأ « دلالة الحائرين » للفيلسوف اليهودى موسى بن ميمون طبيب صلاح الدين الأيوبى ، وكان هذا الكتاب يستهويه كثيراً وطويلاً لأنه مكتوب باللغة العربية ولكن بحروف عبرية ، وكان فرصة للتمرين على قراءة اللغة العبرية .

والتقى أنيس بأساتذة تحدثوا عن الدين كضرورة وحياة مثل العقاد ود . عبد الرحمن بدوى .

وكان أنيس يتردد على بيت العقاد فى مصر الجديدة وكان هو لايبالى بشىء ، وفى إحدى المرات أخذ الأستاذ العقاد يتكلم عن الله والسماء والأرض ويقول : كيف يخلقنى الله فى عصر يعيش فيه هؤلاء البهائم ، ويشير إلى عدد من الحكام والوزراء وأساتذة الجامعة ! ولم يكن العقاد إلا مفكراً عظيماً ومؤمناً عظيما ورائدا عظيماً ، فقد أضاء الكثير من المصابيح فى كافة المجالات ، وملأ العقول بالفكر ، وملأ الفكر بالاعتزاز ، وجعل المفكرين فى قمة البشر .

وجاءت مع الدكتور عبد الرحمن بدوى « الفلسفة الوجودية » والتقط أنيس الكلمة وحولها إلى كتاب فلم يعجبه الكتاب الذى أصدره د . عبد الرحمن بدوى فهو لايفهمه إلا الذين درسوا الفلسفة ،أما الناس العاديون فيستحيل أن يفهموه ، ومن ثمَ أصدر أنيس كتاباً عن الوجودية ، وكان أسهل كتاب صدر عن الوجودية باللغة العربية ، ووزعت منه أكثر من مائة ألف نسخة سنة ١٩٥٢ !

وذات يوم ذهب إلى « المدير الدومنيكى » فى العباسية .. وكان يدرس الفلسفة المسيحية هناك .. وفى يوم وجد صورة لرجل أعجب به جداً ، وكان يريدها ولايعرف كيف يحصل عليها ولايستطيع أن يشترى الكتاب الذى وجدها فيه ، وطلب من الصديق الأب قنواتى أن يقتنى هذه الصورة .. وكانت ضحكته الساخرة مقنعاً له .. حتى لاينزعها !

وبعد ذلك اشترى أنيس كل كتب ومؤلفات الأب تيلا ردى شاردان ، وقرأ أروع ما كتب .. ووجد أن أفكاره أروع من صوره .. فهو عالم ورجل دين وفيلسوف وهو قنبلة تضىء بعنف !

وأنيس منصور من الأشراف فنجده لأمه صاحب ضريح يزار فهى من أسرة الباز فى دمياط والدقهلية ، وفى الأعياد كان الناس يشترون اليهم على أنهم أناس متميزون ، فهم أشراف ، وكان أجداده لأبيه من الأشراف أيضاً ومن الأولياء وهم ينحدرون من الإمام شمس الدين الشربينى من مدينة شربين .

وفى يوم استصحبه والده إلى مسجد أبو حمص من محافظة البحيرة ، وكان امام المسجد اسمه الشيخ روحه وقدمه والده مع كثير من الإعزاز وهو يقول ولدى ـ صلاح ـ وكان هذا هو اسمه فى ذلك الوقت ، ولكن امه بعد ذلك رفضت أن يكون له اسمان !

ـ وَلدِى صلاح هذا قد حفظ القرآن الكريم والهمزية النبوية والبردة للبوصيرى ، وقرأ كتب أدب الدنيا والدين ، والسيرة النبوية لابن هشام ودلائل الخيرات

وكان رد الشيخ روحه : إن هذا من دلائل الخبرات !

وأعجب أنيس بهذا الرد على اعتباره أول مديح بليغ ، ولم يكن يعرف لماذا بعض الناس الطيبين يطلبون منه أن يؤمهم فى الصلاة وهو صغير ، ولكنه عرف فيما بعد أنه يفضل عنهم لأنه يحفظ القرآن الكريم ٠

وعندما سافروا إلى طنطا تسلل وحده إلى جوار مسجد السيد البدوى

ووقف يقرأ الفاتحة ويدعو الله أن يشفى والده ووالدته ، وأن ينجح فى مدرسة السيدة مباركة الأوليه ، وبعد أن فرغ من الدعاء اكتشف أنه توجه إلى محطة سكك حديد طنطا ، فلم يكن هذا هو ضريح السيد البدوى .. وكان والده حريصاً على أن يروى هذه النكتة لكل الناس .. وكان الناس يطيبون خاطره قائلين : ولكنك توجهت إلى الله .. والله فى كل مكان !

وفى امبابه كان فى « جمعية الإخوان المسلمين » وكان أميناً للمكتبة ، وألقى قصيدة أمام الشيخ حسن البنا وكان رجلاً ظريفا لطيفاً ، وصفق لقصيدته عن الهجرة النبوية ونصحه بأن يلتقى بواحد من الإخوان لنشر قصيدته التى لم تنشر ، بل بعد أسابيع قليلة وجد اسمه على باب قصر جمعية الإخوان المسلمين بامبابه من المفصولين والذى يرجىء ألا يترددوا على الجمعية إطلاقا ، وكانت مفاجأة مفزعة وعرف السبب فيما بعد وهو أنهم لا يؤدون الصلاة فى أوقاتها ثم إنهم يستغلون مكتبة الجمعية للمذاكرة واستهلاك الكهرباء ولا يدفعون الاشتراكات ٠

وذهب أنيس إلى بيت موظف بشيكوريل يسكن فى شارع محمد على وكان يهودياً يروج للماسونية ، وزاره فى بيته وأعطاه بعض الكتب الفرنسية ولكنه لم يفهم منها شيئاً !

وتردد كثيراً بعد ذلك على المعبد اليهودى لبن عزرا وهو أيضاً فى مصر القديمة وعلى مسافة قريبة من كنيسة أبى سرجه ، وعلى مسافة مئات الأمتار من مسجد عمرو بن العاص الذى غطته الأتربة والأحجار من الداخل والخارج ٠

ومعبد بن عزرا فيه تحف لانظير لها فى العالم ففيه التوراة القديمة .. وفيه التلمود وفيه « المنورة » ذات الشموع ، وفيه العبارات المأخوذه من التلمود

والتى تقول : « حتى لو كانت أبواب السماء مغلقة فى وجه الصلوات فإن الدموع تفتح كل الأبواب » .

ودرس التوراة والتلمود ـ بعض مئات الصفحات من التلمود .. وأعجبه من التوراة عدد من الأسفار مثل : المزامير ونشيد الإنشاد وارميا واشقياء .

وظل عدد المترددين على هذا المعبد يخلطون بين اسمه واسم رجل له نفس الاسم وهو يهودى ، وكانت زوجته اسمها جويس منصور صاحب ديوان « صرخات » ، وكان ابنه دواد عدس ، عرفوا فيما بعد أنهما اثنان والاسم واحد .

وفى سنة ١٩٥٥ كان عضواً ضمن وفد مصر فى « مؤتمر الجريجين » الذى انعقد فى القدس وكان يرأس هذا المؤتمر المليونير اللبنانى اميل البستانى واستطاع الوفد المصرى أن ينحى اميل البستانى عن الرياسة وأن ينتخب الجميع د . فؤاد جلال .

وفى يوم الجمعة ذهبوا للصلاة فى المسجد الأقصى ، وكان الإمام والخطيب هو الشيخ الباقورى وخرجوا من الصلاة ولم يجدوا أحذيتهم ضاعت أو ضلوا الطريق إليها ، وذهب حافياً إلى الفندق وكتب الشيخ الباقورى قصيدة مطولة فى اختفاء حذاء أنيس منصور !

وذهب مع الشيخ الباقورى والدكاترة عزيز صدقى وحسين مؤنس وراشد البراوى ووزير الخارجية المرحوم قدرى طوقان إلى زيارة حائط المبكى .. وهو الحائط الغربى من معبد سليمان الذى تهدم أكثر من مرة .. الحائط ليس عالياً ولكنه فى حارة ضيقة وقد بنيت عليه الأعشاب .

وبين الأحجار توجد أوراق فعندما يزور اليهود حائط المبكى يبكون ويصرخون ويطلبون من ربهم الخلاص والعودة .

وفى بيت لحم زار أنيس كنيسة المهد وقد تقسمت الكنيسة من الداخل إلى قطاعات لكل فئة من فئات المسيحية ، وهناك رأى المزود الذى ولد فيه السيد المسيح .

ورأى مكان النخلة والتى تحدث عنها القرآن الكريم وهو يتوجه إلى مريم عليها السلام (وهزى إليك بخذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً .

ومشى فى طريق الآلام الذى سار فيه المسيح يحمل صليبه والرومان يضربونه واليهود ، ورأى الجسمانية حيث تناول المسيح عشاءه الاخير والذى خانه فيه أحد تلامذته : يهوذا الاسخربوطى وباعة للرومان بقروش قليلة .

وعندما ذهب لزيارة الفاتيكان ،كان فى ذهنه أنه أمام تحفة معمارية ولوحات رائعة على الجدران وأمام أعظم مكتبة فى العالم وأخطر مكتبة سريه أيضاً وأن الفاتيكان أغنى دولة وأقدم دولة . وقد استطاعت أن تقاوم كل الأحداث وتبقى كما هى بلا جيوش ولها أموال فى كل بنوك الدنيا ، وأن الذين يستثمرون

أموالهم هم أصحاب الملايين من اليهود ، ودخل إلى كنيسة القديس بطرس .. أنها تحفة فنية والقديس بطرس هو الذى هرب من روما من الاضطهاد ، فلقيه المسيح فى الطريق فسأله القديس بطرس باللاتينية : كوفاديس دومنيى ومعناها أين تذهب أيها السيد

فقال له المسيح : جئت لأصلب من جديد !

وأدرك القديس بولس أن المسيح يقول له : « إنه يصلب مرة أخرى فى جسم التلميذ بطرس .

وعاد القديس بطرس إلى روما ليكون من الشهداء فقد صلبه الرومان بعد ذلك بوقت قصير .

وضمن وفد من القساوسة الصغار دخل أنيس منصور كنيسة القديس بطرس ووضع طاقية على رأسه وتشاء المصادفات أن يمر إلى جواره البابا يوحنا الثالث والعشرون محمولاً على محفته الذهبية ويضع يده على رأسه ويمسك الطاقية ويمزق جانباً منها ثم يضعها على رأسه بعد ذلك ؟ .. وعندما خرج انهال على رأسه عشرات من الواقفين خارج الكنيسة واختفت الطاقية قطعاً صغيرة فى ايديهم - على سبيل البركة ، وعندما روى هذه القصة على ظهر الباخرة فى آسبيريا عائداً إلى مصر تهجمت على رأسه عشرات الأمهات يقبلن مكان البركة !

وفى الهند رأى أنيس منصور معابد فشنو رشيفا ورأى الأبقار المقدسة التى إذا نامت فى الطريق توقف المرور تماماً والتى إذا دخلت محلاً فإن أحداً لايقربها . أو إذا أراد أن يخرجها فإنه يصرخ حولها ولا يلمسها ، وقد اعتادت هذه البقرة من ألوف السنين على هذا الاحترام والتقديس .

لذلك فهى آمنة فى كل ما تفعله فهى تعيش وتموت ولايذبحها أحد .. الثيران فقط هى التى يذبحونها .. ورأى القرود المقدسة والثعابين المقدسة والحشرات المقدسة ، ورأى السلام والأمان فى أهل الهند .

وفى العراق زار النجف وكربلاء .. وهنا أقدس قداسات الشيعة ، فعلى بن أبى طالب عليه السلام قتل وأولاده من بعده .. وارتدى الناس السواد حداداً على ذلك ، وارتدى رجال الدين السواد أيضاً ، والمساجد فى غاية الروعة وتحت قبابها أكوام من الأحجار الكريمة جاءت من كل مكان .. وروائح البخور والعطور تبعث من أرض المساجد .

وفى طهران ذهب يتفرج على معبد النار أو النور .. المعبد غرفة واحدة ، وفى منتصف الغرفة غرفة زجاجية فى داخلها قنديل مشتعل . والقنديل يستمد طاقته من الزيت ، ومفروض أن هذا القنديل لاينطفىء أبداً مثل شعلة الجندى المجهول .

وعلى المؤمن أن يجلس على مقعد وأن يظل ينظر إلى هذا القنديل ويتفكر فى الكون . فكل شىء فيه نور ونار ، والله هو هذا النور وهذا النار ، وليس القنديل إلا رمز لذلك ، ومادام الإنسان غير قادر على أن يرى الله مباشرة فلينظر إلى ما يرمز له .

والقنديل صنعه إنسان ، وقدم له الزيت إنسان ، ويجلس امامه إنسان فى حالة ذهول .. ففى هذا القنديل قدرة الله .

وجاء رجل الدين وقد نزل من سيارة فخمة وقد ارتدى البيجاما والشبشب ، وفى مكان مجاور توجد إدارة المعبد .. ومنها تتعالى ضحكات ناعمة ، واقترب ليرى أربع فتيات جميلات جدًا يلعبن الورق !

وفى طوكيو رأى المعابد الكبرى هناك .. وفيها نيران مشتعلة ليلاً ونهاراً ، ورأى عدداً من المعابد البسيطة التى تتعلق فى مداخلها مقشات ، ومفروض أن يهز الإنسان هذه المقشة فتكنس خطاياه ، واليابانيون يفعلون ذلك فى الذهاب والإياب .. واليابانيون يقيمون لأنفسهم معابد فى البيت .. نماذج صغيرة لهذه المعابد معابد ترانزستور ويصلون أمام هذه المعابد ويخرجون وقد أدوا واجبهم نحو ربهم ، ولو سقط هذا المعبد الصغير لأى سبب فإن الرجل اليابانى يشترى معبداً آخر ويضعه فى نفس المكان تماما كما يضع مسماراً فى حائط .. أو يضع لوحة بدلاً من لوحة ، فهو يعلم أن كل هذه رموز فهو لايصلى للمعبد ، ولكن يبتهل أمامه هو وأهل بيته ، فالمعبد الصغير يوحد بين أفراد الأسرة ، يوحد اتجاههم وصلاتهم !

وفى الطريق إلى الغار وَجد الناس يكتبون أسماءهم على الصخور ، ولكن الطريق ليست له معالم ، وكان ينظر إلى القمة فلا يراها بوضوح ، ويمد يده إلى الصخور ويرفع ساقه ويتسلق ولايعرف مابعد ذلك ويقول : كان الرسول إنساناً اخر .. وكان شابًا وكانت عنده قضية كبرى وتنتظره نداءات السماء .

وعند قمة جبل حراء .. هذا هو الغار أو انجانب الخلفى من الغار . له فتحة على شكل شفتين متجمدتين من الحجر الأحمر الجرانيت .. كأن الغار أراد أن يقول شيئاً ، ولكن فجأة تحولت صرخاته إلى شفاه جامدة فسكت منذ ذلك الوقت .. وإنما الذى نطق بالحقّ هو الرسول الكريم .

والغار له فتحة من الناحية الأخرى فى مواجهة مكة .. فى مواجهة الكعبة .. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقف فى هذا المكان .. ثم ينزل بساقيه ويتساند على هذه الصخرة بالذات .. ثم يدخل الغار وقد حنى رأسه قليلاً .. ثم يضع طعامه .. من لبن الماعز .. وبعض الخبز ثم يجلس .. ثم يسند ظهره إلى داخل الغار ويتوجه إلى السماء .. فإذا جاء الليل .. دخل الرسول إلى عمق

الغار . وأسند ظهره وراح يفكر فى أمر الناس .. ما كان منهم وما سوف يكون .. ولكنه لا يدرى ماالذى يدفعه الى هذا المكان .. إنه مدفوع إلى هنا .

وعلى الغار كانت قبة .. انهدمت .. ولم يبق من هذه القبة البيضاء إلا جداران صغيران طليا بالجير الأبيض .. فيراهما الإنسان من مكة .. ومن عرفات .. أما مدخل الغار فمسدود بالأحجار أيضاً فقد كان من عادة الناس أن يجيئوا إلى هذا المكان وهى رحلة شاقة .. وبعضهم كان يسقط ميتاً .. وبعضهم تحطمه الصخور ، وبعض الناس كان يقيم الليالى الطويلة فى الغار .. والغار الضيق والناس يتزاحمون وبعضهم يتعبد ولم يأمر الرسول أحداً بأن يفعل ذلك .

ولكن التعبد فى هذا المكان بدعة .. ومشقة ، ولذلك سدت فتحة الغار حتى لا يذهب إليه أحد ..

وعندما كان الأمير فواز أمير مكة المكرمة فى السيارة مع الرئيس السادات قال للرئيس السادات : إن بعض الناس يذهب إلى جبل النور ويتعذب كثيراً حتى يصل إلى غار حراء ويبيت فيه مع أن هذا ليس من الدين فى شىء .

وقال له الأمير فواز : إن الأخ أنيس منصور قد جاء أكثر من مرة حاجاً ومعتمراً ليذهب إلى غار حراء .. ليكمل كتاباً له .. وأخشى أن يفعل نفس الشىء .

وقال له الرئيس السادات : أعتقد أنه جاء ليتأمل ويكتب بعد ذلك .

فقال الأمير فواز : فإذا ذهب وأقام فى الغار ؟

قال الرئيس السادات إذا فعل ذلك ضعه فى السجن !

ووجد أنيس منصور الغار مسدوداً بالطوب الأحمر حتى لا يدخل السجن !

وعندما وقف أنيس منصور فوق الغار شعر بالفزع والرجفة .. مع أن الغار أحجاره ككل الأحجار .. أحجار عادية .. ولكن المعنى .. المناسبة شىء يخيف ويهز ، ولا يجد الإنسان ما يقوله .. فما الذى يمكن يقوله أحد بعد الذى قاله صاحب الغار .. ما الذى يمكن أن يقوله عنه وعن الذى قال .. إن صاحب الغار قد كان له رأى فى كل شىء .. وله وقفة عند كل قضية .

ومن الصعب أن يكون له رأى إلى جانب رأيه أو حتى وراء رأيه أو اجتهاد فى الذى قاله .. صعب جدًا ..

وعلى الرغم من القيل والقال والكتابات المستفيضة .. يبقى الرجل كبيراً عظيماً لانعرف من أين تأتى اليه .. الطرق إليه كثيرة جدًا ومتشعبة ومتداخلة ومضيئة .. حتى لاتقدر أن تطبق عينيك .. والذى قاله لؤلؤ وماس وأحجار أخرى كريمة .. ولاتعرف كيف تصنع منها عقداً أو قرطاً أو خاتماً .. ولاتستطيع أن تدع شيئاً ولاتقوى على أن تأخذ كل شىء .. إنه شخصية باهرة .. كيف استطاع كل ذلك وحده .. كيف واجه الظلام بالنور ، والضلال بالهدى ، والقوة بالحق ، والعذاب بالرحمة ، والهوان بالإيمان ..

كيف هاجر من مكة .. كيف خرج منها ليعود بعد ذلك فاتحاً لها . محطماً أصنامها ، منظما فوضوها ثم يعود مرة أخرى إلى المدينة يلقى ربه ويدفن بها ..

ويكون له المكان الطاهر : قبرة ومسجده وتكون قبور زوجاته وصحابته وأنصاره .

ولقد دخل أنيس منصور قلب الكعبة عشر مرات ..

أربع مرات وراء الملك فيصل ..

وأربع مرات وحده ..

ومرة وراء الرئيس جعفر نميرى ..

ومرة وراء الرئيس السادات ..

ويصف أنيس منصور هذه المشاعر الفياضة المشبوبة وهذه الأحاسيس التى تداعب خياله وتغذى وجدانه وتثرى خياله فيقول :

« وغمرتنى الراحة وأحسست أن شراييني من النيون الهادىء .. بلا حرارة ولاصوت .. وأننى فى حالة بين الحياة والموت .. فلا أنا حتى أشعر بجسمى ولا انا ميت بلا جسم .. ولكن فوق جسمى تحت .. وخط رفيع يربطنى بالاثنين ، وعندما خرجت من الكعبة أخذت أشعر بجسمى قطعة قطعة حتى أصبحت ثقيلاً علي وجدانى وعلى فكرى .. وأعيدت لى حياتى العادية ..

وفى داخل الكعبة كل شىء غمسوه فى ماء الورد .. ماء زمزم مع ماء الورد .. الأرض غسلوها والجدران بللوها .. وفى ركن داخل الكعبة أستار .. وأن تطلب من الله أن يتوب عليك .. فهو ركن التوبة .. ودعوت الله .. وفى الظلام اصطدمت بالذى يركع ، والذى يسجد ، والذى يبكى ، والذى يبلل ملابسه فى ماء زمزم .

ولكن إحساسى فى مسجد الرسول شىء اخر .. من نوع آخر .. فهنا كان يقيم الرسول .. وهنا كانت زوجاته .. وفى بيت عائشة وعلى صدرها مات .. وفى ملابسه غسلوه ودفنوه .. وعند كتفى الرسول دفن أبو بكر .. وعند قدمى الرسول دفن عمر .. وكان المسجد النبوى صغيرا عشرين متراً فى عشرين متراً ، فقد كان عدد سكان المدينة بقراها السبع ثلاثة الاف نسمة نصفهم من اليهود .. والنصف الباقى من الوثنيين ثم أصبحا مسلمين بعد ذلك .. والناس لايطوفون حول قبر الرسول .. كما يفعلون حول الكعبة .

ومن هنا كان يخرج من بيته ، وهنا كان يصلى ، وهنا كان يتحدث إلى الناس ، وهنا خرج مريضاً ، وهنا مرض ولقى ربه .

لابد أن الرسول كان شخصية ساحرة . فالذى يقرأ ما قال والذى يقرأ ما فعله الناس عندما سمعوا ما قال .. ولم يكن له مال ولاسيف وإنما فقط مايقول ،

وقدرته على اقناع الناس بصدق شخصيته وأمانته ، والقدوة التى كان عليها ثم انه كان بشرأ ينتصر وينهزم ويغضب ويمرض ويموت والقرآن يقول : « إنك ميت وإنهم ميتون » . ويقول : (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم) .

ومات الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى يوم الاثنين وهو اليوم الذى ولد فيه والذى هاجر فيه وبلغ المدينة فيه . وفيه نزل الوحى ، وفيه خرج من غار نور ، وفى هذا اليوم رفع الحجر الأسود ..

إنه إنسان تعرفه وتحبه وتعجب به وتستريح له وتبكى عليه وتفرح به .. شاب ورجل وأب وداعية وشجاع وحكيم .. إنه بشر رائع » .

بهذا الاسلوب الرائع وهذه الخطوط وهذه الشفافية كتب أنيس منصور « طلع البدر علينا » بنفس تذوب شوقاً إلى الحب الإلهى .. بروح تفوق إلى السمو الروحى .. لقد خلع أنيس منصور قوقعته وقدمها قرباناً للواقع الحقيقى .. أحاسيس بل نبع لا ينضب صاف .. لازوردى .. من الثراء الفكرى والروحى .

ولم يكن « طلع البدر علينا » هو الكتاب الدينى الأوحد للكاتب أنيس منصور وإن كان هذا الكتاب رصاصة من القلب مغلفة بالصوفية أطلقها أنيس منصور الا أنه أعقبها بكتابه « الخالدون مائة أعظمهم محمد » .

أما مؤلف هذا الكتاب فهو مايكل هارت عالم فلكى رياضى يعمل فى هيئة الفضاء الأمريكية ، استعرض كل الرجال العظماء فى التاريخ ووجد أن أعظمهم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أثرى الكاتب الكبير أنيس منصور المكتبة الإسلامية بهذا الكتاب الذى يعد إضافة جديدة ، وقد حذف أنيس منصور بعض العبارات وبعض المصطلحات العلمية الصعبة دون إخلال بما أراده المؤلف وان كان لم يلتزم بحرفية كل ما جاء فيه .. وقد أرسل للمؤلف خطاباً أبدى فيه إعجابه بعلمه وخلقه ، ويستأذنه فى نشر ما يستطيع من الكتاب ، ورد عليه مايكل هارت يشكره بشدة ويوافق على ترجمة الكتاب إلى العربية وتعريف الملايين من الناطقين بلغة الضادبة وبفكره . وقد لاحظ مايكل هارت أن من بين عشرات الألوف من ملايين الناس لم تذكر دوائر المعارف سوى عشرين ألف شخص كان لهم أثر فى بلادهم وفى بلاد العالم وفى التاريخ الإنسانى بوجه عام .

ولكن المؤلف عنده مقاييس ثابتة لاختيار الشخصيات المائه واستبعاد مئات غيرها .. من بين هذه الأسس أن الشخصية يجب أن تكون حقيقية ، فهناك شخصيات شهيرة وبعيدة الأثر ، ولا أحد يعرف إن كانت قد عاشت أو أنها من وحى الخيال استبعدها مايكل هارت ، واستبعد أيضا عدداً كبيراً من المجهولين

مثل أول من اخترع النار ، وأول من أخترع الكتابة .. لابد أن يكون شخصاً عبقريًا . ولكننا لانعرفه ولانعرف أيضا إن كان واحداً أو كثيرين .

المهم فى نظر المؤلف أن يكون للشخصية أثر شخصى عميق متجدد على شعبها وعلى تاريخ الإنسانية جمعاء .. ولذلك فقد اختار محمداً صلى الله عليه وسلم أول هذه القائمة وعنده أسباب لذلك مقنعة .

فالرسول عليه الصلاة والسلام هو الإنسان الوحيد فى التاريخ الذى نجح نجاحاً مطلقاً على المستوى الدينى والدنيوى .

وهو قد دعا إلى الإسلام ونشره كواحد من أعظم الديانات وأصبح قائداً سياسيًا

وأكثر الذين اختارهم الكاتب قد ولدوا ونشئوا فى مراكز حضارية ومن شعب متحضر سياسيًا وفكريًا ، إلا محمدا صلى الله عليه وسلم فهو قد ولد سنة ٥٧٠ ميلاديًا فى مدينة مكة جنوب شبه الجزيرة العربية فى منطقة متخلفة من العالم القديم بعيدة عن مراكز التجارة والحضارة والثقافة والفن ..

وقد مات أبوه وهو لم يخرج بعد إلى الوجود ، وأمه وهو فى السادسة من عمره وكانت نشأته فى ظروف متواضعة وكان لايقرأ ولا يكتب .

وفى الأربعين من عمره امتلأ قلبه إيماناً بأن الله واحد أحد ، وأن وحياً ينزل عليه من السماء ، وأن الله اصطفاه ليحمل رسالة سامية إلى الناس .

وفى عام ٦١٣ ميلادية أذن الله سبحانه.وتعالى محمداً صلى الله عليه وسلم بأن يجاهر بالدعوة إلى الدين الجديد .

وفى عام ٦٢٢ ميلادية هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة ، وهى تقع على مدى ٢٠٠ كيلو متر من مكة المكرمة .. وفى المدينة المنورة اكتسب الإسلام مزيداً من القوة ، واكتسب رسوله عدداً كبيراً من الأنصار .

وكانت الهجرة إلى المدينة المنورة نقطة تحول فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإذا كان الذين اتبعوه فى مكة قليلين فإن الذين ناصروه فى المدينة كانوا كثيرين .

وكان البدو من سكان شبه الجزيرة مشهورين بشراستهم فى القتال ، وكانوا الذين اتبعوه فى مكة قليلين فإن الذين ناصروه فى المدينة كانوا كثيرين .

وكان البدو من سكان شبه الجزيرة مشهورين بشراستهم فى القتال ، وكانوا ممزقين أيضاً ، ولكن الرسول استطاع لأول مرة فى التاريخ أن يوحد بينهم ، وأن يملأهم بالإيمان ، وأن يهديهم جميعاً بالدعوة إلى الإله الواحد ، ولذلك استطاعت جيوش المسلمين الصغيرة المؤمنة أن تقوم بأعظم غزوات عرفتها البشرية . فاتسعت الأرض تحت أقدام المسلمين من شمالى شبه الجزيرة العربية ،

وشملت الامبراطورية الفارسية فى عهد الساسانيين وإلى الشمال الغربى واكتسحت بيزنطة والإمبراطورية الرومانية الشرقية .

وكان العرب أقل كثيراً جدًا من كل الدول التى غزوها وانتصروا عليها ..

ولكن الرسول هو المسئول الأول والأوحد عن إرساء قواعد الإسلام وأصول الشريعة ، والسلوك الاجتماعى والأخلاقى وأصول المعاملات بين الناس فى حياتهم الدينية والدنيوية .

والقرآن الكريم نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم كاملاً وسجلت آياته وهو ما يزال حيًا ، وكان تسجيلاً فى منتهى الدقة فلم يتغير منه حرف واحد ، وليس فى الأديان الأخرى مثل ذلك ، فلا يوجد كتاب دينى آخر محكم دقيق ومانع جامع مثل القرآن الكريم ، لذلك كانت أثر محمد صلى الله عليه وسلم عميقاً . والرسول كان اعظم زعيم سياسى عرفه التاريخ ..

وإذا استعرضنا التاريخ فإننا نجد أحداثاً كثيرة من الممكن أن تقع دون أبطالها المعروفين مثلا : كان من الممكن أن تستقل مستعمرات أمريكا الجنوبية عن إسبانيا دون أن يتزعم حركاتها الاستقلالية رجل مثل سيمون بوليفار هذا ممكن جدًا على أن يجىء بعد ذلك بسنوات شخص آخر ويقوم بنفس العمل .. ولكن من المستحيل أن يقال ذلك عن البدو .. وعن العرب عموماً وعن إمبراطوريتهم الواسعة .. دون أن يكون هناك محمد صلى الله عليه وسلم .. فلم يعرف العالم كله رجلاً بهذه العظمة قبل ذلك ، وما كان من الممكن أن تتحقق كل هذه الانتصارات الباهرة بغير زعامته وهدايته وإيمان الناس به .

ربما ارتضى بعض المؤرخين أمثلة أخرى من الغزوات الساحقة كالتى قام بها المغول فى القرن الثالث عشر ، والفضل فى ذلك يرجع إلى جنكيز خان ، ورغم أن غزوات جنكيز خان كانت أوسع من غزوات المسلمين فإنها لم تدم طويلاً ، ولذلك كان أثرها أقل خطراً وعمقاً

فقد انكمش المغول وعادوا إلى احتلال نفس الرقعة التى كانوا يحتلونها قبل ظهور جنكيز خان .

وليست كذلك غزوات المسلمين .. فالعرب يمتدون من العراق إلى المغرب ، وهذا الامتداد يحتوى دولا عربية .. لم يوحدبينها الإسلام فقط، ولكن وحدت بينها اللغة والتاريخ والحضارة ، ومن المؤكد أن إيمان العرب بالقرآن .. هذا الإيمان العميق هو الذى حفظ لهم لغتهم العربية وأنقذها من عشرات اللهجات الغامضة . صحيح أن هناك خلافات بين الدول العربية وهذا طبيعى ، ولكن هذه الخلافات يجب ألا تنسينا الوحدة المتينة بينها .

ومن الشخصيات الدينية التى جاءت فى كتاب الخالدون مائة أعظمهم محمد ، شخصية موسى عليه السلام باعتباره صاحب الكتب الخمسة الكبرى فى التوراة ،

وباعتباره أيضا زعيم سياسى استطاع أن يخرج باليهود من مصر ، وقد وردت فى الكتاب المقدس آيات وروايات عديدة عن معجزات موسى ، من بينها أنه ألقى عصاه فتحولت إلى أفعى ، وأنه ضرب البحر فانقسم نصفين ، وهذه المعجزات كلها قد حدثت عندما كان موسى فى الثمانين من عمره . وعندما خرج بالعبرانيين من مصر الى سيناء .. وفى سيناء تاه أربعين عاماً !

ومن الشخصيات التى جاء ذكرها فى الكتاب شخصية عمر بن الخطاب ثانى الخلفاء الراشدين ، وفى فترة خلافته التى استغرقت عشر سنوات تحققت الفتوحات الكبرى للإسلام . وما أنجزه عمر بن الخطاب شىء باهر . فبعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام كان عمر هو الشخصية التى نشرت الإسلام فى مساحات شاسعة من الأرض ، ومن الشخصيات الدينية التى جاء ذكرها فى هذا الكتاب القيم شخصية المسيح عليه السلام الذى أرسى المبادىء الأخلاقية للمسيحيين . وكذلك نظرته الروحية وكل ما يتعلق بالسلوك الانسانى وأيضا شخصية بوذا مؤسس الديانة البوذية إحدى الديانات الوضعية ، وهى ديانة تحتوى على قدر من السلام والدعوة إليه ، ولاشك أن مبادىء السلام وترك العنف قد كان لها أكبر الأثر فى الحياة السياسية لكل الدول التى آمنت بالبوذية .

واختار مايكل هارت أيضاً من الشخصيات الدينية شخصية كونفوشيوس باعتباره أول فليسوف صينى يفلح فى إقامة مذهب يضمنه كل الأفكار الصينية عن السلوك الاجتماعى والأخلاقى ، ففلسفته قائمة على القيم الأخلاقية الشخصية ، وعلى أن تكون هناك حكومة تخدم الشعب تطبيقاً لمثل أخلاقى أعلى ، وقد ظلت تتحكم فى سلوك الناس أكثر من ألف سنة .

من بين الشخصيات التى اختارها زرادشت مؤسس الديانة الزرادشية وهى ديانة وضعية عاشت ٢٥ قرناً ولايزال لها أتباع حتى اليوم ، وهى ليست ديانة عالمية ، ولكنها ديانة محلية ، ولذلك لايمكن مقارنتها بالديانات الأخرى .

وبعد أن استعرض مايكل هارت أعظم الشخصيات فى التاريخ وجد أن اعظمهم وأعمقهم وأوسعهم أثراً هو محمد صلى الله عليه وسلم .

وأنه لم يحدث أن اكتمل دين بكل عناصره الفلسفية والأخلاقية والتشريعية سوى الإسلام ، وأن هذا الدين قد اكتمل تماماً فى حياة صاحب الدعوة اليه .. وأن الدين قد انتصر فى حياته .. واتسع بعد وفاته حتى أصبح المسلمون ٩٠٠ مليوناً فى جميع أنحاء العالم .

هذا هو كتاب الخالدون مائة أعظمهم محمد الذى قدمه إلى المكتبة الإسلامية الكاتب الكبير أنيس منصور ، وأضاف إليه من روحه بأسلوبه السهل الممتنع وعباراته المشرقة ، فجاء الكاتب إضافة حقيقية فما أحوج شبابنا الان إلى القدوة الحسنة فى هذا العصر المادى الذى استشرت فيه الجرائم ..

إن هذا الكتاب جدير بالقراءة والاقتناء فى المكتبة الإسلامية ، فهو عن القدوة التى يجب أن تتبع ، والمثل الذى يجب أن تحتذى -- عن سيد الخلق أجمعين -- أعظم الشخصيات أثراً فى تاريخ الإنسانية والبشرية كلها .
سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

أما فى كتابه « ديانات أخرى » فهو لايعرض للديانات الثلاث : اليهودية والمسيحية والإسلامية ، وإنما لديانات أخرى صغيرة جاءت من قبلها ومن بعدها ، ويؤمن بها كثيرون جدًا -- ثم إنها لاتخلو من المعانى الكبيرة التى تقوم عليها الديانات الثلاث !

وحين قبض على تنظيم « البهائية » فى مصر ، وكان من بينهم الفنان الكبير بيكار -- لم يكن أحد يعلم من هم البهائيون ، ومعتقدات وطقوس هذه الديانة بما فيهم رجال الأمن والقضاء والصحافة !

واكتشفوا أن أنيس منصور قد تناول كل ما يتعلق بالبهائية فى كتابه « ديانات أخرى » فى فصل كامل بعنوان « عصفور لاتعرفه طيور الحديقة » كان ذلك فى إيران سنة ١٨٤٤ عندما قامت حركة إصلاح دينية وأخلاقية -- هذه الحركة تزعمها رجل بسيط متواضع لايدعى أشياء كثيرة . وانما هو فقط يحاول أن يرى المحبة بين الناس -- هذا الرجل أطلق على نفسه اسم « الباب » -- والتسمية قديمة وهى مأخوذة عن بعض تقاليد الشيعة المسلمين ، وكان يعنى من وراء هذه التسمية أنها المدخل إلى شىء --- أو الطريقة -- أو السبيل -- وأنه هو الذى ينفتح على ضوء جديد إلى طريق جديد إلى إيمان هادىء هانىء ، ولكن الحكومة الإيرانية انزعجت لهذه الحركة الجديدة وألقت بالباب فى السجن ، ثم أعدمته سنة ١٨٥٠ وتبعه مئات من « البابيين » أتباعه ألقت بهم الحكومة فى ظلام السجون والقبور -- ولكن هذه الحركة لم تهدأ -- وإذا كان البابيون قد آمنوا بأن الباب هو رسولهم فإنهم بسرعة التفوا حول رجل آخر هذا الرجل هو بشر به « الباب » -- هذا الرجل هو ابن أحد الوزراء واسمه ميرزا حسين على ، وأطلق هذا الرجل على نفسه اسم : بهاء الله وحمل من جديد رسالة الباب وراح ينشرها بين الناس .

ولكن حدث سنة ١٨٥٢ أن أطلق طفل صغير الرصاص على شاه إيران ، وهنا ارتدت هذه الرصاصة الطائشة ألوف المرات إلى رءوس البابيين ، وكان لابد أن يدخل بهاء الله السجن -- ولكن وساطة أبيه والسفير الروسى قد أعطته فرصة الدفاع عن نفسه فى المحكمة -- وانتهز بهاء الله هذه الفرصة ليدعو للدين الجديد . الذى اختار من كل دين زهرة ، وأقام حديقة متعددة الأزهار والورود . ولكن شاه أصدر قراره بطرد بهاء الله الذى اختار أن يقيم فى بغداد وسار وراءه ألوف من البابيين يعيشون على القليل من الطعام والشراب ، والكثير من البهاء أقام

فى بغداد عشر سنوات ولكنه اضطر مرة أخرى إلى أن يترك بغداد وقبل أن يهاجر من بغداد خلا بنفسه فى « جنة رضوان » ١٢ يوماً من ٢١ أبريل حتى ٢ مايو سنة ١٨٦٣ فى مكان ما بالقرب من السلمانية .. وهذه الأيام تعتبر من أقدس أيام الديانة الجديدة ، وبعدها قرر الهجرة إلى اسطنبول . ومنذ ذلك الحين أصبح أتباعه يطلقون على أنفسهم اسم البهائيين .

واذا تساءلنا مثلاً ما الخلاف بين البهائية والإسلام وجدنا عدة خلافات أولها : أن محمداً صلى الله عليه وسلم ليس خاتم النبيين ، وإنما هو « الخاتم » الذى تزداد به أصبع من أصابع النبوة ، ولذلك فالأنبياء يتوالون الواحد بعد الآخر : إبراهيم ويعقوب وبوذا وزادشت وعيسى ومحمد بهاء الله وعبد البهاء .. وهكذا وهذا خلاف جوهرى على الإسلام ، وهناك طبعاً خلافات أخرى مع الإسلام ، ومع كل الديانات التى أخذت منها وعنها البهائية .

وقد جاء عباس البهاء إلى مصر والتقى به أديبنا الكبير عباس محمود العقاد ، ودارت بينهما محاورات ، ولكن العقاد لم تبهره الديانة البهائية وإنما رأى فيها اجتهاداً ومحاولة لتنشيط الأديان كلها .

ويقول العقاد : إنه تناقش مع عباس أفندس عن البهاء ، وعندما نظر الاثنان إلى النخيل فى الصحراء قال عبد البهاء : ما شاء الله حيث يوجد المطر يوجد الشجر ، فقال العقاد : بل حيث يوجد الشجر يوجد المطر .

والمعنى الذى يقصده عباس عبد البهاء أن المطر هو الذى يؤدى إلى حياة الشجر ، ولكن العقاد قصد أنه حيث يكون الشجر فلابد أن الله قد دبر له المطر .. الاثنان يتفقان فى معنى واحد : إن هناك وراء كل شىء حكمة الله .

إن كتاب « ديانات أخرى » هو كشاف من النور يكشف به أنيس منصور ويلقى به الضوء على أديان كثيرة فى الظلام ، وقد تظهر إلى النور ولكنك لاتراها ولن تراها ! .

●●●

لعنة الفراعنة بعيداً عنا..
وعن القارئين!

لم يقدر لملك من الملوك أن يردد العالم اسمه وأن ينصت لذكره كما قدر لتوت عنخ امون ، منذ أن كشف عن قبره فى الرابع من نوفمبر سنة ١٩٢٢ .. ضجة لم تحدث لمثلها من الاكتشافات الأثرية حتى أنه ظل وقتاً طويلاً من الزمن يحتل المانشتات الرئيسية فى صحف العالم ، لدرجة أن مفكراً مثل جورج برنادردشو يبدو أن الغيرة أكلت قلبه حين أحس بافتتان الناس بالمقبرة وما فيها ، فقال كلمته الشهيرة التى سخر فيها من جنون العالم باثار هذا الفرعون التى « لا قيمة لها إلا فى ذهبها والفن الرفيع منها براء » مع أن آثار توت عنخ آمون تعتبر إعجازاً فنياً لم يسبق له مثيل - حتى كادت أسلاك البرق تتناقل وصف ما كان يضمه قبره من ذخائر ونفائس ، حتى أخذت جموع غفيرة تهرع إليه ومحررو الصحف والمجلات ينشرون المقالات مع صور آثاره ، وراح الصناع يقلدون بعض حليه وأثاثه ، وتهافت السياح على شراء ما صنعوا ، فكان اسمه بذلك كله ملء الأفواه والأسماع ، وذخائره مثار الحديث والإعجاب .

كان توت عنخ آمون من عشيرة أخناتون الذى لا يعرف حتى الان صلتهما ، فمن العلماء من يقول : إنه أخوه الأكبر ، ومنهم من يقول : إنه أحد أقربائه .. ولكن من المؤكد أنه صهره ، وقد تولى العرش وهو لا يزال صبياً ، وتزوج من ابنة أخناتون الثالثة عنخى آن با أتون ، لكن لا يعرف إذا كان قد تزوجها قبل توليه الملك أو معه لتدعيم حقه فيه ، وإن كان من المعروف أنهما عاشا مع نفرتيتى فى قصر لها فى شمال تل العمارنه إثر خلاف نشأ بينهما وبين زوجها أخناتون فى أواخر حياته - على أية حال لقد كان اعتلاء توت عنخ أمون العرش فى وقت عصيب تألب فيه على مصر أعداؤها فى الخارج ، ففقدت بعض أملاكها وتجمعت فى داخلها قوى المعارضة ضد تشيع أخناتون لمعبودته اتون على حساب سائر

الآلهة القديمة .. فقد نشأ الكهنة فى أحضان العبارات القديمة وارتبطت بهم مصالحهم ، وكان من العسير عليهم قبول إله جديد ينشأ فى ظل الملكية وتحت رعايتها بما يضير آلهتهم . ولم يكن ليرضى عن العبادة الجديدة كهنة آمون بصفة خاصة ، وهم الذين كانت لهم السيادة الدينية فى كافة البلاد . والذين أضاع عليهم أمون المعبود الجديد ما تجمع لهم من سلطان منذ عدة أجيال . ولم يكن رجال الجيش ليرضيهم . كذلك تراخى أخناتون فى الدفاع عن أطراف الامبراطورية المصرية . ومن فقدان بعض أجزائها ، وكان الشعب على اختلاف طبقاته فى صف رجال الدين ، فقد نشأ هو أيضاً فى ظل المعبودات القديمة وما يتصل بها من عقائد ، وكانت دعوة أخناتون غريبة لا يفقه لها معنى .

ولم يكن الملك الصبى أو أحد من رجال بلاطه يستطيع أن يواجه ذلك كله ، وهكذا لم يقدر للدين أن يتجاوز حياة أخناتون ، فما كاد العرش يخلو منه حتى عادت العبادات القديمة إلى مسيرتها وغير توت عنخ آمون واسم زوجته إلى بمنخس ان يا أمون . ورجع إلى طيبة معقل الإله آمون . ومعه النبلاء والموظفون والصناع والفنانون والتجار وغيرهم ، وعاد لآمون سلطانه الدينى واستأنف الكهنة نشاطهم وراحوا ينشدون له أناشيد النصر فى كل مكان .. ومن المؤكد أنه قد صاحبت هذا كله أحداث لم يسجل التاريخ شيئاً منها ، وإن كان يغلب على الظن أن الذى تولى الملك من بعده كان من وراء العرش يسنده ويدعمه . ولم يقدر لتوت عنخ آمون أن يعيش طويلا فقد مات دون العشرين ، ولكن كيف انتهى حكم هذا الفرعون ؟!

هل مات مقتولا ؟!

هل قتله وزيره العجوز « اتى » ليرضى الكهنة ، وفى نفس الوقت يفوز بالعرش وبالجميلة زوجته !

أو أن قائد الجيش « حور محب » هو الذى تخلص منه بالاتفاق مع كهنة امون .. الذين حفظوا له الجميل حين وقف على الحياد أيام ثورة أخناتون الدينية والاجتماعية ؟!

الحقيقة أنه رغم كل التنازلات من جانب الفرعون الصبى فإن كهنة آمون لم يطيقوه .. يبدو أن الكهنة لهم دور كبير فى التخلص منه ، والدليل على ذلك أنهم بمجرد وفاته أغفلوا اسمه من قائمة الملوك .. كما أن حور محب وهذا ثابتاً تاريخياً كان يمحو اسمه ويغفل ذكره فى كل مناسبة ..

وثيقة وجدت فى مدينة « بوغاز كوى » فى اسيا وهى المدينة التى كانت من عواصم الحيثيين .. هذه الوثيقة تروى قصة أو مأساة فى الحقيقة حدثت حين كان الملك الحيثى « شوبيلى ياما » يعسكر خارج المدينة « قرقميش » ووصل إلى معسكره رسول يحمل خطاباً من ملكة مصر أرملة توت عنخ آمون تقول له بالنص :

« مات زوجى وليس لى ولد ولكن يقال عنك إن عندك أولاداً كثيرين فإذا أرسلت لى أحدهم سيكون لى زوجاً -- إننى لن أقبل -- تحت أى ظرف أن أتخذ واحداً من رعاياى زوجاً لى ، أنا خائفة جداً » --

وتقول الوثيقة : إن ملك الحيثيين داخله الشك فى مبدأ الأمر وظن أن فى الأمر شيئاً قد تكون خطة مدبرة له ، ولذلك أرسل رسولاً خاصاً إلى البلاط المصرى يبحث عن وجه الحقيقة !

وقد عاد رسول الملك الحيثى بخطاب آخر من الملكة تقول فيه :

لماذا تقول : « إنهم يخدعوننى » : فهل إذا كان لى ولد كنت أكتب إلى أجنبى لأفضح نفسى ؟! وأنشر مأساتى مأساة بلدى -- لقد أهنتنى بكلامك هذا -- فهذا الذى كان زوجى قد مات -- وليس لى ابن ولن آخذ أحداً من رعاياى ثم أتزوجه -- أنا لم أكتب لأحد غيرك -- الجميع يقولون إن لك أولاداً كثيرين -- أعطنى واحداً منهم كى يصبح زوجاً لى --

من خلال هذين الخطابين نستطيع أن نستشف أن الملكة الأرمل كانت تعيش « مأساة » وإن هناك ستاراً كثيفاً من الغموض حولها ضربه كهنة آمون ، ويبدو أنهم باركوا زواجها بالوزير العجوز « انى » ولكنها رفضته فحاولوا أن يباركوا زواجها بحور محب ولكنها كانت ترفض أيضاً -- وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على إنه حدث شىء ضخم -- مات توت عنخ آمون فى ظروف غامضة أشبه بجريمة قتل !

ثم إن رجل فى مصر إذا أراد أن يتولى العرش لابد أولاً من أن يتزوج الملكة وإلا كانت ولايته للعرش غير شرعية ، وهذه طقوس كان يحرص عليها قدماء المصريين أشد الحرص !

والثابت أيضاً أن الملكة الأرمل ، قد أرسلت هذين الخطابين قبل أن تنتهى مدة التسعين يوماً اللازمة لمراسم تحنيط ودفن الملك المتوفى ، والتى لا يجوز أن يتم خلال زواج الملكة .

ويبدو أن الملكة رأت فى هذه المرة فسحة من الوقت لخلاصها ، كما أحاط بالأسرة من التعسف والجبروت على أن ملك الحيثيين بعد أن تأكد من صدق الأحداث فى مصر أرسل واحداً من أبنائه ولكنه لم يتوج فرعوناً فهو لم يتزوج الملكة الأرمل ، كان كهنة آمون وأتباعهم له بالمرصاد فقتلوه قبل أن يصل إلى القصر ويحصل على صفة الشرعية فى أن يكون فرعوناً .

إن هذه الوثيقة على الأقل تفوح منها رائحة مؤامرة ، وربما أن هذه المؤامرة هى التى أجهزت على الفرعون الصغير للتخلص من آخر سلالة الفرعون أخناتون -- الذى كفر بآمون .

وهذه المؤامرة التى تشير إليها الوثيقة والتى يبلغ عمرها ثلاثة آلاف سنة ليست أسطورة من نسيج الخيال ، ولكنها جاءت نتيجة البحث والتجميع الجاد للدلائل تاريخية من الآثار التى عثر عليها فى كل من طيبة وبوغاز كوى فى آسيا الصغرى .. وهما مدينتان يفصل بينهما أكثر من ألف ميل !

ولاكتشاف قبر توت عنخ آمون قصة لا تخلو من طرافة .. فقد اعتاد ملوك الدولة الحديثة حفر مقابرهم فى واد بعيد بقصد إخفاء أماكنها ، على أن ذلك لم يحمها من التعرض لسرقة ما كانت تحتويه من ذخائر ، وقد ظل بعضها معروفاً في العهد اليونانى الرومانى .. وفى القرون المسيحية الأولى اتخذ النساك من بعضها مساكن .. ومنذ منتصف القرن الثامن عشر وجد بعض السائحين سبيلهم إليها فأخذوا يصفونها وينقلون بعض ما يحلى جدرانها من صور ، كما راحوا يكشفون عن بعضها وكان منهم فى أوائل القرن التاسع عشر بلزونى الذى صرح أنه لم يعد وادى الملوك يشتمل على قبر غير معروف .. ومع ذلك كشفت فيه مصلحة الآثار سنة ١٨٩٨ عن بضع مقابر ملكية جديدة ، منها مقابر كل من تحتمس الأول وتحتمس الثالث وأمنحوبت الثانى .

وفى سنة ١٩٠٢ سمع ليثودور ديفز بالحفر فى وادى الملوك حيث عثر على عدة مقابر منها مقابر كل من حتشبسوت وتحتمس الرابع وحور محب ، وقد أعلن أنه لم يعد فى وادى الملوك أى قبر آخر يمكن الكشف عنه ، وفى عام ١٩١٤ حصل كارنافون وكارتر على التصريح بالحفر فيه من ماسبيرو مدير مصلحة الآثار فى ذلك الوقت .

وآخر قيام الحرب العالمية الأولى أعمال الحفر ، وفى خريف ١٩١٧ قام كارتر بالحفر أوسط الوادى حيث كشف عن أكواخ بعض العمال فى عهد الأسرة العشرين .. ومضت ستة مواسم دون أن يجد شيئا يذكر ، فأخذ كارتر وكرنارفكن يشعران بالفشل ، وبدأ يفكران فى ترك وادى الملك إلى مكان آخر غير أنهما قررا أن يواصلا العمل موسماً آخر وأخيراً .

وفى نوفمبر ١٩٢٢ عاد كارتر للحفر فى المنطقة الأولى وأخذ يزيل أكواخ العمال بعد تسجيلها ورسمها .. وفى صباح ٤ نوفمبر كشف العمال عن أول درجة محفورة فى الصخر ، ولم يلبثوا أن كشفوا فى اليوم التالى عن درجات أخرى تودى إلى مدخل مختوم بختام جبانة طيبة وخاتم توت عنخ آمون بما دل على إنهم على أعتاب قبره .. وهكذا تم الكشف عن هذا القبر بعد أن كاد اليأس يتطرق إلى القلوب .

وقبر توت عنخ آمون أصغر مقابر الملوك جميعاً على أنه وجد مليئاً بأثاثه بعضه مكدس فوق بعض ، ويبدو أنه كانت هناك أزمة مقابر .!

وقد امتدت إليه يد اللصوص غير أنها لم تنقل منه كثيراً ، ذلك لأن أنقاض مقبرة رمسيس السادس وأكواخ العمال أخفته عن الأنظار . ومما وجد فيه من أدوات وأثاث وذهب وغير مذهب من مختلف الأشكال والأصناف .. قطع فنية رائعة تعدو الوصف ولا تقدر بمال .

وعلى كثرة ما وجد من آثار توت عنخ آمون فى قبره فإنه يخلو من نص يقص أخباره وأحداث عصره ، ولكن هناك بعض قطع الأثاث من صور فاتنة ونقوش بديعة ما يصور حياته الخاصة وولعه بالصيد ، وما كان يجمعه بزوجته الجميلة من مودة وحب بما يتفق وطراز تل العمارنة ولا يشبهه ما حفظ من آثار غيره من الملوك . وإننا لنراه مرة جالساً على سجيته وهى تقف من أمامه تعطره من إناء فى يدها ، أو تقدم له الزهور . أو تصاحبه فى زورقه وهو يصطاد طيور الماء . أو تقف بجانب قدميه تقدم له سهما بيد وتشير بالأخرى إلى بطة سمينة ليصطادها .

فإذا كان هذا كله مما أودع فى قبر صغير لملك مات ولم يبلغ العشرين ، فما أنفس ما ضاع من أثاث الملوك العظام أمثال أمنحوتب الثالث وسيتى ورمسيس الثانى ، الذين تتميز قبورهم بسعتها وفخامتها ، ولكن الأقدار شاءت بحفظ قبر هذا الملك الشاب بما فيه من كنوز لا تقدر بمال ، حتى كشف عنها لتبدأ نقطة تحول فى تاريخ الاكتشافات فى العالم .

ولكن لابد أن كهنة آمون قد استخدموا كل قدراتهم السحرية لحماية مقبرة الملك توت .. لحماية هذه المقبرة من الذين يسرقون القبور والكنوز الملكية . ونحن لا نعرف على التحديد ما الذى أصاب الذين نبشوا مقابر الملوك ولا كيف أصابتهم الأرواح .. ولكن الملك توت الذى جمع حوله عدداً من أشهر العلماء والأطباء هو فى نفس الوقت قد اختار ضحاياه .. فكانت لعنته عالمية .. لأنها أصابت رجالاً فى كل العواصم الأوربية والأمريكية والأفريقية .. ثم إننا لا نعرف كيف مات مئات العمال الذين حفروا الطريق إلى مقبرته .. لابد أنهم تساقطوا مثل الحشرات فى مقبرته .. لا يدرى بهم أحد .. لقد ماتوا تراباً على تراب .. ماتوا يحملون معهم إلى الارض سر هذا الفرعون الصغير .. وما كان لنا أن نعرف قوة السحر الأسود لولا هولاء المشاهير من الأغنياء والمؤرخين والأثريين والأطباء .

لقد ماتوا وهم يحملون سر اللعنة ..

نعم لعنة الفراعنة ..

و « لعنة الفراعنة » كتاب جديد ومثير فى آن واحد لأنيس منصور والكتاب فى مجموعه .. جديد ومخيف .. ولقد أصابت أنيس منصور لعنة الفراعنة أيضاً ولا أنكر أننى أصبت بهذه اللعنة المخيفة منذ أن بدأت فى قراءة هذا الكتاب !

فلقد كان أنيس فى هونج كونج .. وصل متأخراً من استراليا لا يعرف أحداً ولا ينتظر أحداً وكل ما يعرفه عن هذه الجزيرة هو ما قرأه عنها .. وفى جيبه ورقة عليها اسم أحد الفنادق فذهب إليه وسأل إن كانت له غرفة فقيل : لا لا

فتساءل : كيف .. لقد حجزت غرفة من استراليا وجاءنى الرد بأن الغرفة فى انتظارى وقد جئت بعد موعدى بساعتين فقط ..

ـ لا توجد غرفة ..

ـ هل تنصحون بأن اذهب إلى فندق آخر تعرفونه أو تربطكم به صلة عمل .

امتدت الأيدى الصينية القصيرة تشير إلى فندق على الناحية الأخرى من الشارع .. اتجهت إلى حيث كلمة فندق .. وصعد السلم .. وأشاروا له إلى غرفة مفتوحة ودخل وألقى متاعه واستلقى على السرير وراح فى النوم . وعند منتصف الليل استيقظ على ضوضاء كثيرة ثم رأى كلبا صغيراً نائما على حقيبته . إنه يشبه الكلاب الفرعونية التى فى حراسة المعابد .. أو فى حراسة الروح فى طريقها من الأرض إلى السماء .

ولم يصدق يومها أنيس منصور أن الذى يراه حقيقة وإنما تخيل أنه يحلم . فاستدار ليكمل حلمه لولا أنه أدرك أنه قد صحا من النوم فعلاً !!

لم يجد الكلب وضحك ونظر فى ساعته فوجد الليل قد انتصف فنهض وأقفل الباب . ثم عاد يفتحه من جديد وخرج ليسأل عن اسم الفندق الذى نزل به . وعرف من وجه موظفى استعلامات الفندق أن هذا ليس فندقاً بالمعنى المألوف .. ولا هو كباريه خاص .. وإنما هو فندق يعمل لحساب أحد الكباريهات وأن الرجل تحت أمره .. وكل ما يفعله هو أن يشير بأصبعه ! ودفع أجر المبيت وذهب إلى فندق مجاور اسمه « فندق كارتر فون » وكارتر فون هذا هو اسم الرجل الذى اكتشف مقبرة توت عنخ آمون . ودخل الغرفة . وأغلق الباب بالمفتاح فهنا هونج كونج جزيرة الخطف والنصب والاحتيال والغموض وكل الأقلام تؤكد ذلك .

ومضى يومان وفى اليوم الثالث ركب أنيس منصور الطائرة إلى طوكيو وفى الطائرة زارته فكرة مقلقة .. لقد تذكر أن حقيبته ربما لم تكن هى .. ربما هى حقيبة مشابهة ولا يعرف كيف سيطرت هذه الفكرة عليه وهو فوق السحاب .. هل جاء ذلك بسبب أن الطائرة قد دخلت منطقة أعصار .. مركز أعصار عنيف اسمه « دنيا » ولذلك أخذت الطائرة تهتز بعنف وتهبط وتعلو . والناس الصينيون واليابانيون من حوله يزدادون اصفراراً !

شىء غريب .. ثم تذكر أنيس منصور الكلب الذى نام على حقيبته صور غريبة متتابعة أو هلوسة متواصلة . وفى مطار طوكيو اكتشف أن الحقيبة ليست حقيبته وأمام موظفى الجمارك فتح الحقيبة وجد أنها قد امتلأت بملابس

الأطفال الصغيرة ، وقبل أن يفتح فمه بكلمة أقفل موظف الجمرك الحقيبة وأشار أن يحملها إلى خارج المطار .. وفى فندق « دايتشى » بطوكيو فتحها ليجدها قد امتلأت بملابس الأطفال وأحذيتهم ، ومعنى ذلك أن أنيس منصور فى طوكيو بلا منديل ولا جورب ولا بيجاما ولا موس حلاقة ولا كتب ولا مذكرات ، وكل ما جاء فى رأسه أنها مصادفة شخصية .. ومقلب غير مقصود وبضعة مئات من الدولارات يشترى بها الملابس ، وكما هى عادته فإنه ألقى بالملابس فى الطريق بعد استخدامها بعض الوقت حتى تكون حقيبته خفيفة إنها عادة سيئة ! وفى نهاية رحلته ذهب إلى إيطاليا سعيداً بالراحة الهانئة التى سوف يحصل عليها ، فقد تعب من السفر أكثر من ٢٢٣ يوماً حول الكرة الأرضية بلا توقف ، واختار من المدن الإيطالية مدينة رابالو على الريفييرا الإيطالية المدينة جميلة .. أنيقة .. رشيقة .. هادئة وأكثر سياحها من الإنجليز والألمان ، وفى القطار وجد اسم فندق صغير « توتى توت » .. اسم عجيب ولكن أسعاره معقولة وذهب إليه ووجد صاحبة الفندق سيدة ضخمة تضحك بمناسبة وبغير مناسبة ! ككل الايطاليين فقالت : آه جائع !

فرد عليها : جداً .

ـ من أين ؟

ـ من أمريكا

ـ أنت أمريكى .. لا أظن ذلك !

ـ قادم من أمريكا .. أنا مصرى .

ـ إذن أنت جائع جداً ..

ـ جائع إلى النوم فى عرضك .. أية غرفة واقفلها بالمسامير تماما كأنك تضعينى فى تابوت .. كأى ميت فرعونى !

ولم تتوقف السيدة عن الضحك ..

وفى الصباح عرف أن الفندق اسمه « توت عنخ آمون » ولكن على طريقة الإيطاليين فى تدليل الأسماء جعلوا اسمه « توتى ـ توت » إن كل شىء لتوت عنخ آمون ..

مصادفة غريبة أن ينزل فى هونج كونج .. ثم فى فندق يحمل اسم جلالته على الريفييرا الإيطالية .

ولما كان أنيس منصور لا يعرف السباحة .

فقد ركب زورقاً مع بعض الأصدقاء واهتز الزورق وسقط فى الماء .. فى نفس المكان الذى غرق فيه الشاعر الإنجليزى شيللى .. ولم يكن الماء عميقاً لابد أن الشاعر كان مخموراً ، وعندما أخرجوه من الماء اصطدمت ذراعه بالزورق ، فنزف دم أنيس منصور وعاد إلى الفندق مجروحاً مزكوماً ..

وحان موعد السفر ..

ولا يعرف بالضبط ما الذى حدث لقد اشتعلت النار فى غرفته .. كيف ؟ واحترقت الستائر .. والحقائب ..

وجاءت صاحبة الغرفة لتضرب كفاً بكف وتقول : كيف ؟

فقال لها : لا أعرف .. ولكن الجدران لم يصيبها شىء .. ولا الفراش ولا السرير .. ولا ورق الصحف .. ولا أثر لكهرباء فى الجدار الخشبى.

وفى القطار وفى طريقه إلى روما فتح حقيبته وصرخ :

إنها ليست حقيبتى !

وكان القطار قد تحرك ..

هنا فقط خطر على باله أنها « لعنة الفراعنة » .. أو « لعنة الفراعنه » ولم يكن أنيس منصور يعرف فى ذلك الوقت ما الذى نقصده عندما نذكر هذا التعبير ! أى ما الذى يحدث لأى إنسان عندما يكون له أية صلة بالفراعنة ؟ ثم ما هى صلته بالفراعنه ؟ وهل حدث نفس الشىء لأصحاب فندق هونج كونج أو فندق راى يوئه . ثم هل حدث نفس الشىء لكل النزلاء ؟ أو أن الفراعنة يخصون بمداعباتهم المصريين فقط ؟ ثم من هم هؤلاء الفراعنة الذين يفعلون ذلك ؟ هل هى أرواحهم تطارد كل الناس ؟ ثم ما هى لعنة الفراعنة التى أصابت مصر فى كل العصور ، فنحن فراعِنة ونعيش حول قبورهم وبين أرواحهم ؟

وتذكر على الفور أن هذا التعبير « لعنة الفراعنة » لم يظهر على الأقلام إلا بعد اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون ! فقد مات جميع الذين عملوا فى حفر قبر توت عنخ امون على أشكال غريبة ، أى كان موتهم غريباً عجيباً .. حدث ذلك لجميع العمال والمهندسين والأثريين والأطباء جميعا دون استثناء ، ولم يتنبه الذين اكتشفوا المقبرة إلى تلك العبارة المتكوبة عند مدخل غرفة الملك والتى تقول : إن الموت يضرب بجناحيه السامين كل من يعكر صفو الملك !

فلم ينج أحد من ضربة هذين الجناحين لا أحد ..

واختلف العلماء فى تفسير معنى اللغة ..

ولا أظن أحداً قد استطاع فى جو ورقة علمية أن يناقش قصة اللعنة كما فعل الكاتب الألمانى فيليب فاند تبرح فى كتابه المشهور « لعنة الفراعنة » فقد قرأ الكثير من الدراسات المعاصرة وتعمقها ثم عرضها فى عبـارة جميلـة

وتساءل : هل اللعنة هى إشعاع ذرى أو استخدام الفراعنة للمواد المشعة التى تتعرض لها كل من فتح المقبرة ؟

هل اللعنة نوع من الغازات السامة تخرج من الأعشاب والخشب عند فتح المقبرة ؟ هل هى نوع من النظريات تلاحق كل من اكتشف المقبرة أو لعب فى الخشب لقد حدث ذلك لأناس كثيرين .

هل الخفافيش فى الدهاليز والمقابر لها دخل فيما يصيب الناس بالهذيان حتى الموت ؟ لقد حدث ذلك كثيرا جداً .

هل هذا خاص فقط بتوت عنخ أمون دون لعنة الفراعنة ؟

هل لصوص المقابر من الأجانب الذين ماتوا فى ظروف غامضة قد أصابهم لتراب الذرى أو السم النباتى ؟

إذن كيف نفسر أنه حيث توجد مومياء فرعونية فى أى مكان فلابد من كارثة تحل بهذا المكان .. إن أعظم باخرة أنشاها الإنسان واسمها تيتانيك اصطدمت بجبل من الجليد وغرقت لأن بها مومياء فرعونية مسروقة ؟

ثم ماذا الذى أصاب العلماء والأطباء المصريين الواحد وراء الآخر ؟ ثم ما الذى ينتظر الأطباء والعلماء المصريين والفرنسيين الذين فتحوا مومياء رمسيس الثانى فى مصر وفى باريس ليعرفوا أسباب وفاته ، وإن كان هو فرعون الذى أخرج اليهود من مصر ؟

ثم إن عددا كبيراً من العلماء يؤمن بأن هناك شيئاً ما « فى داخل الأهرام والمقابر الفرعونية جميعا يضر بصحة الإنسان » ولكن ما هو هذا « الشىء » لا أحد يعرف .. إن خروشوف تلقى برقية من موسكو تحذره من دخول الهرم ولم يدخل الهرم فى آخر لحظة ولهذا السبب !

إن الفراعنة لم تنته أسرارهم بعد .. إنهم تركوا الكثير فى كل العلوم إنهم اهتدوا إلى سر المادة وسر الكون .

وكنت أتمنى أن يجد الكاتب الكبير أنيس منصور فى كتابه المثير تفسيراً علميًا لهذه اللعنة ، أو يعرض بصورة علمية الآراء التى قيلت فى التفسير العلمى لهذه الظاهرة .

فهذا الكتاب يعرض لعالم غريب تحوطه اللعنة من كل جانب .. لكل من يطرق هذا الموضوع الفراعنة وخفاياهم وأسرارهم .. لكل من يفتح تابوتاً فرعونية يحوى سرًا لقياس درجة حرارة حضاراتهم .. أو بوصلة للوصول وللتعرف على الجهات التى تقف عليها خفاياهم .

إن قصة بول برونتون البريطانى الذى استأذن مصلحة الآثار المصرية فى أن يبيت ليلة فى غرفة الملك أحمس نموذج لذلك .. يقول فى مذكراته : « أمضيت بضع ساعات فى الممر الكبير .. ثم اتجهت فى ضوء مصباح إلى غرفة الملك .. واتجهت إلى أحد أركانها وبدأ بعد ذلك الفزع الأكبر .. صفير فى أذنى .. وشرر يخرج من عينى أو يدخل عينى .. ورائحة ثقيلة تضغط على صدرى .. وإحساس بأن أمامى أشباحاً وأشكالاً مروعة تروح وتجىء .. تقترب وتبتعد والأرض من تحت تعلو .. والسقف من فوقى يهبط .. وجسمى ينتفخ .. ثم يتضاءل .. ولسانى لا يطاوعنى عندما أحاول أن أبتلع ريقى .. ثم إننى لا أجد ريقى ..

وأخيراً وجدتنى عاجزاً عن الصراخ وكان العرق جليدياً .. وحاولت أن أتسلل من الغرفة ولكننى وجدت نفسى مشلولاً تماماً .

وفى سنة ١٩٤٢ توفى اثنان من علماء الآثار .. وربما كان هذا الحادث هو الذى لفت عيون العلماء فى العالم كله إلى هذه اللعنة الفرعونية .

وفى مدينة القدس يوم ٢٨ يوليو سنة ١٩٤٢ توفى العالم البريطانى فلندور بترى .

وتوفى قبله العالم الأمريكى جورج ريزنر .. وكان هذا الرجل هو الذى اكتشف مقبرة أم الملك خوفو .. وهو أول من أذاع حديثاً فى الراديو من غرفة الملك فى هرم خوفو سنة ١٩٣٩ .. هذا الرجل توفى فى ربيع سنة ١٩٤٢ .. لقد دخل الهرم الأكبر واستلقى مرهقاً فى غرفة الملك .. ثم شعر بهبوط شديد .. وحملوه إلى خارج الغرفة .. ونقلوه إلى خيمة له بالقرب من الهرم مغمى عليه حتى الموت !

إن عالماً مصرياً اسمه د . عمر جهيد أعلن فى سنة ١٩٦٩ أن الذى يحدث داخل هرم خفرع يتناقض فى كل قوانين العالم الحديث والإلكترونيات !

وكان د . عمر جهيد هذا يتحدث عن الأشرطة الضوئية والصوتية التى سجلتها الأجهزة التى وضعها والفاريز تحت وفى داخل هرم خفرع ، وقال د . جهيد أيضا : « إن الذى أراه أمامى شيء غير طبيعى .. إما أن تكون هناك غلطة كبرى فى الهرم نفسه فتؤثر فى هذه الأجهزة وما ترصده ، وإما إننا أمام قوة كبرى لا تفهمها .. لا أعرف لهذه القوة اسما .. هل هى لغز .. هل هى سر .. هل هى لعنة الفراعنة .. هل هناك قوى خفية تعطل قوانين الطبيعة ، وبذلك تلغى كل ما تعلمناه من بديهيات رياضية وقوانين طبيعية .. أنا لا أعرف هذا السر الغريب العجيب ! » .

هل الفراعنة تركوا سموماً .. هل تركوا مواد مشعة .. هل استطاعوا أن يختزنوا الطاقة وأن يكثفوها ثم يطلقونها بعدذلك ! لا أحد يعرف أن الحضارة الفرعونية ماتزال تحتفظ دوننا بكل أسرارها !

ولقد كنت ذات يوم مع المخرج شادى عبد السلام الذى أخرج وتخصص فى إخراج أفلام عن تاريخ مصر القديمة والفراعنة منها المومياء وأخناتون وغيرها من الأفلام التسجيلية عن الحضارة الفرعونية .

فسألته : ألم تصبك لعنة الفراعنة ؟ ألا تخشى أن تصاب بلعنة الفراعنة ؟

فقال لى وهو يضحك : ياريت .. حتى أستطيع أن أحصل على جوائز عالمية كثيرة !

فمن المعروف أن حصل على جوائز عديدة عالمية بعد إخراجه فيلم المومياء الذى يتناول الموت عند الفراعنة ويدور حول مومياء الفراعنة !

وعدت أسأل نفسى : هل لعنة الفراعنة تصيب أناساً دون إخرين ، إن قراءة كتاب أنيس منصور يثير أسئلة كثيرة متعددة كنت أتمنى أن أجد لها الإجابة الشافية . ولقد أصابتنى لعنة الفراعنة بعد قراءة كتاب أنيس منصور !

وتوالت الحوادث والكوارث على رأسى بعد أن قرأت الفصل الأول ، وكلما قرأت فصلاً كانت تتوإكب المصائب من حولى ولا أجد لها سبباً إلا هذا الكتاب .

وفى اليوم الذى انتهيت من قراءته كنت مع المخرج التليفزيونى محسن خليل فى ميدان العتبة وكان كل منا يتفصد جبينه من العرق فقد كان الجو يومها حاراً جداً . ودعانى محسن خليل على عصير تمر هندى وخرجنا من المحل واستقلينا السيارة ، وفجأة وبلا مقدمات وجدنا أنفسنا فى حضن سيارة أخرى وحادث مروع .. والناس من حولنا من كل جانب .. ولكن الله سلم ونجونا من الموت بأعجوبة واكتشفنا بعدها أن اسم المحل الذى شربنا منه التمر هندى والذى يقع أمام قسم الموسكى فى العتبة اسمه : توت عنخ آمون !

يا إلهى .. إنها لعنة الفراعنة تحيط أيضا بالذى يقرأ عنها وتكتب عنها . إنها لغز .. سحر أسود .. قوة شيطانية .

تعويذة سحرية .. اسمها لعنة الفراعنة .. بعيداً عنا .. وعن القارئين !

●●●

أكاديمية لتعليم الإنسان

كيف يكون حيوانا نبيلا

منذ أن فتحت عينى على هذه الحياة وجدت فى منزلى أندر مجموعة من قرون الحيوانات قل أن توجد فى أكبر متاحف حدائق الحيوانات فى العالم ، وكذلك مجموعات نادرة من قواقع عالم البحار ..

وكان أبى منذ صغرى يحدثنى عن هذه المجموعات النادرة ويقول لى :

إنها أندر مجموعة فى العالم ، ويحدثنى عن تاريخ كل حيوان منها وكيف صيدت ؟ وبيد من الامراء ؟

أسئلة كثيرة لا تنتهى .. تقف أمامها علامات استفهام كبيرة .

فهذه قرون حيوان الأيائيل .. وهذا أبو حراب سودانى ، إن طول هذا القرن ١١٨ سم .. والموجود فى حدائق حيوان الجيزة ٩٠ سم فقط .

وفعلاً بدأت أذرع طرقات وغرف

وفعلاً بدأت أذرع طرقات وغرف متاحف حيوان الجيزة والنزهة بالاسكندرية

وما أن دخلت قصراً من القصور إلا وارتفعت عينى إلى أعلى حيث تعلق قرون هذه الحيوانات ، وبسرعة أعقد مقارنة بالنظر بينها وبين المكتبة الحيوانية فى بيتى !! وهذا حيوان الايلكو ..

وحيوان الايلكو فى صفاته مثل الأيائيل .

يتزاوج فى فصل الخريف ويحمل من حوله أناثه التى تصل فى الغالب إلى ثلاث أو أربع إناث .

ويأقلم قرونه فى جذوع الشجر حتى يحمى إناثه .. والأنثى لا تشعر بالتوتر الذى يشعر به الذكر ، وإن كانت تشعر به بعد ذلك عندما تتفرغ لحماية صغارها .

وهذا الحيوان فى طريقه إلى الانقراض بسبب الصيد وتدخل المدنية والحضارة إلى الغابات . وهو لا يعيش أكثر من سنتين فى حدائق الحيوان والمنافى .

ومن غرائب هذا الحيوان طريقته فى الغزل والحب ، فالذكر يجمع الإناث من حوله ثم يجرى ويحاور إناثه فى خطوط متوازنة كأنها لوحة أو رقصة بالية رائعة .

وهذا أسرع حيوان فى العالم وبالرغم من ذلك فهو الثانى بعد الفهد الهندى فى السرعة إلا أنه يحد من سرعته (١٠٠ كيلو فى الساعة) حتى تتم لعبة الحب والغزل !

وهذا الحيوان الذكر هو قائد اللعبة والموجه الأول لها ، وربما يرجع عدم استمرار لعبة الحب والغزل هى التى تؤدى إلى نهاية حياته بسرعة فى حدائق الحيوان !

ولهذا لم يكن غريباً حين صدر كتاب أنيس منصور « التاريخ أنياب وأظافر » ان اتلقفه بشغف ونهم فهو كتاب يجمع بين الثقافة والطرافة ، بين العنف واللين ، بين القوة والمرونة نلمس كل هذا ونحن نقلب صفحاته .. إن كل ما كنت أخشاه أن تخرج هذه الحيوانات من بين السطور لتتحول إلى مخلوقات حية تنبض بالحياة !

وأنيس منصور نفسه فى كتابه يقول « هنا نوع آخر من التاريخ .. إنه مجموعة عظام أى أن الحيوانات التى كانت تعيش من ملايين السنين قد ماتت فى ظروف لا نعرفها وتركت بقاياها ، وجاء العلم الحديث فجعل العظام فحماً ثم درس الفحم وحلله وراح يعد ذراته ليعرف كم واحدة من هذه الذرات قد ماتت .. وعن طريق الذرات الباقية يعرف عمر هذه الحيوانات .

ويمكن أن يقال إن التاريخ : كومة تراب وجدها أحد العلماء فى أحد الكهوف ، ففى الكهوف جاء الإنسان القديم وأمسك غصن شجرة وغمسه فى الدم ثم رسم على الجدران صوراً لهذه الحيوانات وجاءت الاجهزة الحديثة واستخرجت من الدم شهادة ميلاد الإنسان وشهادة دفن هذه الحيوانات .

وجاء الإنسان مرة أخرى وجمع التراب والعظم ونظم منها معانى جديدة لكل ما حدث .. فالتاريخ عمل إنشائى .. أو موضوع إنشاء .. ففيه كثير من الكذب الجميل ، فالتاريخ هو دكان سمك .. أو حظيرة أبقار .. لأنه تاريخ الحيوان على هذه الأرض .. ولكن هذا التاريخ لهذه الحيوانات وبهذا المعنى ظلم لها جميعا .. لأن الحيوانات قد قاومت ملايين السنين .. واكتسبت تجارب وتصلبت ضلوعها وأرجلها وارتفعت أعناقها ونبت لها الريش والزعانف وقاومت قوى الطبيعة وقاومت الإنسان .. واستطاعت أن تبقى أكثر تنوعاً وأكبر عدداً وأطول عمراً ..

وسوف تنتهى الحياة إنسانية على هذه الأرض أو تنتقل إلى كواكب أخرى . ولكن الحيوانات هى التى سترث الأرض وما عليها .

فكل الحيوانات التى تعيش الآن وأضعف من الإنسان كانت آلهة عبدها الانسان وتلمس بركتها وأقام لها المعابد وأشعل من أجلها الحروب .

وفى الكهوف والمعابد القديمة آثار باقية تدل على هذا التقديس العظيم للكلاب والقطط والطيور والثعابين والحيوانات الأخرى ، فكأن هذه الحيوانات كانت فوق على العين والرأس ثم أصبحت تحت أحذية الإنسان .. كانت آلهة فأصبحت عبيداً يسوقها ويذبحها أو يحبسها ويتفرج عليها .. إن كل هذه الحيوانات آلهة مال عليها الزمن !

عبدها الإنسان .. ثم طاردها .. وقتلها .. ثم طاردها وصادها ، وحاول أن يستأنسها وتحقق له ذلك ورباها ليذبحها ويأكلها ، ثم استخدم بعض هذه الحيوانات فى جر العربات وجر عربات التاريخ من قارة إلى قارة ومن مرحلة .. إلى مرحلة .

وتاريخ الإنسان والحيوان هو ملحمة العذاب من أجل البناء .. إنها معارك الصداقة والعداوة .. معارك السيادة .. وكان من الطبيعى أن يسؤ الإنسان بعقله .. وقد سجل ذلك كله فى أغانيه وأعماله الفنية وفى أساطيره ، وأنيس منصور يتعرض فى هذا الكتاب أصل وتاريخ هذه الحيوانات جميعاً ، فالحمار أفريقى الأصل .. وهو لايزال فى مصر كما كان من آلاف السنين ، والحمار كالكلب استحق اختيار الإنسان أيضاً .. وأول مرة رأينا فيها رسماً لحمار كان هكذا حماران أحدهما يمشى وراء الآخر وأمام الاثنين جحش صغير .. وقد رأينا على ظهر الحمار الأول ولم يشأ الرسام أن يبين لنا ما الذى يحمله الحمار الآخر .. ولكن لابد أنه يحمل شيئا مماثلاً ..

ويقال إن المصريين وصفوا أحد ملوك فارس بأنه : ملك حمار فما كان من الملك الفارسى أر تكسر كس الثالث إلا أن أقام احتفالاً للعجل أبيس ووضع حماراً بدلاً من هذا العجل وغضب المصريون وثاروا !

ويقال إن المصريين القدماء كادوا يحرقون مدينة الإسكندرية ذات الطابع الاغريقى والتى تقام فيها تماثيل ادوليس وافردويت لأن أحد الرومان قد قتل قطاً !

أما الحصان فالمصريون قد عرفوه أيام الأسرة الثانية عشرة .. ويقال إن الحصان قد أتى به الهكسوس وهم ملوك الرعاة ، ولكن ليست هذه حقيقة مؤكدة ، فمن المعروف أن الحصان قد استخدمه البابليون قبل ذلك بوقت طويل وعندما دخل الهكسوس إلى مصر كان الحصان قد سبقهم إليها ، ولا يزال الحصان يحتفظ بالاسم العربى القديم : سوسيم أى خيول والعربات اسمها مركبوت .

أما الجمل فلم يدخل مصر إلا فى عهد الرومان ..

والمصريون قد عرفوا الخيول التى تجر العربات قبل أن يعرفوا ركوب الخيول نفسها .. وفى متحف اللوفر لوحة مشهورة اسمها لوحة النسور .. ففى هذه اللوحة بعض النسور تحوم حول جثث القتلى غير أن أحد ملوك سومر يركب عربة يجرها حصان وكان ذلك قبل الميلاد بعشرين قرناً ، أى على أيام حمورابى .

والخيول حيوانات مفضلة عند الإغريق فهم يرون أن الحصان : حيوان نبيل جميل وأن الحصان لابد أن يكون الآلهة قد صنعوه بأيديهم مباشرة أى أنهم لم يكلفوا أحداً من صغار الآلهة بصنعه .. وكان الإغريق يفضلون الحصان لأن فيه نزوعاً إلى الحرية .. فهو جميل نبيل حر .. وكلما كان الحصان شرساً ، كان ذلك مجالاً وتحدياً للإنسان أن يستأنسه فإذا فعل فهو بطل .. الإسكندر الأكبر مثلاً كان له حصانه المشهور بوسيفالس .. ولم يكن أحد يقدر على ركوبه .. ولكن الإسكندر استطاع عندما اتجه بحصانه ناحية الشمس .. والشمس هى التى جعلت الحصان أقل انطلاقاً .. ولم يكن هناك شىء أعز عند الإسكندر من هذا الحيوان الجميل .. فلما مات حصانه أقام له المدن باسمه وأقام مدينة فى نفس المكان الذى دفن فيه رمزاً للوفاء .. فقد حمله هذا الحصان حتى الهند !!

إن عمق العلاقة التى تربط بين الإنسان والخيل منذ القديم .. والتى تزداد بمرور السنين متانة .. وتأصيلاً تثير علامات الاستفهام .

كما أن العناية .. والرعاية .. والاهتمامات المستمرة التى تلاقيها الخيل من الانسان على غيره من سائر الحيوانات الآخرى تجعل المرء يتوقف طويلاً . فاذا كان حب الإنسان للخيل يعود لجمال شكلها .. ورشاقة قوامها فإن النمر أكثر جمالا .. ورشاقة منها ، وإذا كانت دواعى الاهتمام .. اهتمام الإنسان بالخيل تقوم على ما تقدمه له من خدمات فى تنقله وأعمال مزرعته .. فإن الجمال والحمير والبغال تفوقها قوة واحتمالا .. وصبرا طويلا وهى تقوم بمثل هذه الأعمال . أما إذا كان المعيار .. هو تجاوب الخيل السريع لمتطلبات الإنسان .. وتلبية رغائبه .. وتنفيذ أوامره ونواهيه فإن القردة أثبتت جدارتها فى هذه الناحية . وإذا توقف الآمر على ما يستفيده الإنسان من الخيل بعد موتها عن منتجاته فإن الماشية والأغنام من حقها الاستئثار بهذه الناحية .

إذن ما هى الأسباب الحقيقية التى تقف وراء هذه العلاقة الحميمة ؟ وما الذى يجعل حديث الإنسان لا يخلو من الإشارة إلى الخيل .. والتغنى بها من خلال شعره ؟ الحقيقة التى تجيب عن كل هذه الأسئلة هى أن الخيل تجمع كل هذه الصفات الجيدة .. هذه الصفات التى لا تتوافر مجتمعة فى غيرها من الحيوانات

التى يستفيد منها الإنسان .. والأهم من هذا إن فضل الخيل على غيرها من الحيوانات جاءت بها الآيات الكريمة التى وردت فى القرآن الكريم .. ومن خلال الأحاديث الشريفة وحب الأنبياء لها .

وقد ورد ذكر الخيل فى أكثر من آية من آيات القرآن الكريم كلها ترفع من قدرها على غيرها من الحيوانات الأخرى .. كما أقسم بها الله خالق هذا الكون .. وما فيه من مخلوقات فى قوله تعالى : « والعاديات ضبحا » وفى الآيات الكريمة إشارات إلى فضل الخيل وتكريمه .. وارتباطه بصفة الخير وقال عز وجل فى حديث قدسى : « خلقتك عربياً وفضلتك على سائر ما خلقت من البهائم بسعة الرزق والغنائم تقاد على ظهرك والخير معقود بنواصيك »

ويأتى ذكر الخيل فى أحاديث سيد الخلق محمد عليه الصلاة والسلام مدحاً وتكريماً امتداداً لفضلها الذى أوردته الآيات الكريمة

فقد جاء فى الحديث الشريف

« كل لهو ابن آدم باطل إلا تأديبه فرسه وملاعبته أهله وريعه فى قوسه »

وقال عليه الصلاة والسلام : « من أرتبط فرساً فى سبيل الله كان له مثل أجر الصائم والقائم والباسط يده بالصدقة مادام ينفق على فرسه »

كما جاء فى حديث اخر « الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة وأهلها معانون عليها والمتفق عليها كالباسط يده بالصدقة »

وقال عليه الصلاة والسلام : « علموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل » .

وفى حديث للنبى الكريم صلوات الله وسلامه عليه يربط فضل الخيل بالجهاد فى سبيل الله اذ يقول : « من هم أن يرتبط فرساً فى سبيل الله بنية صادقة أعطى أجر شهيد » . ويذهب الإمام أبو حنيفة إلى أن الرسول الكريم كان فى غزواته يعطى الفارس سهمين والراجل سهما واحداً ..

وقد كان للرسول الكريم عليه الصلاة والسلام خمسة أفراس هى (لزار - لحاف - المرتجز وقد سمى كذلك لحسن صهيله - السكب - اليسوب - وكلها معدودة من خيل بنى هاشم

وكان داود نبى الله يحب الخيل كثيراً .. فلم يكن يسمع بفرس يذكر (بعرق (أى بأصل وعتق أو حسن أو جرى إلا بعث إليه .. حتى جمع ألف فرس لم يكن فى الأرض فى ذلك الوقت وغيرها .

وقيل إن أول من ركب الخيل واتخذها سيدنا إسماعيل ابن إبراهيم ، وإنما كانت وحشا لا تطاق حتى سخرت له .

وفى فصل أسماه أنيس منصور أكاديمية لتعليم الإنسان كيف يكون حصانا نبيلا يعرض فيه لتاريخ طويل ومثير لأول مظهر من مظاهر الحب والعطف

والإعجاب بالحصان -- إن تاريخ الإنسان والحصان طويل فالحصان فى العصور الوسطى كان « أداة » عسكرية يركبه الجندى المغطى بالحديد ويتغطى الحصان بالحديد ويدخل الاثنان المعرك حتى الموت -- الحصان هو الذى يموت غالبا وكان من الصعب على الإنسان أن يرى ملامح الحصان فهو مثل دبابة ذات أربعة أرجل ، ولكن أحدا لم يلتفت إلى جمال ورشاقة هذا الحيوان النبيل -- أو نظر الى تركيبة الجسم الجميل أو إلى خطواته -- وإنما كان الحصان مصفحة أو قذيفة يركبها المقاتل . ولكن بعض النبلاء الإيطاليين فى القرن السادس عشر تنبه فجأة إلى هذا الحيوان الجميل -- يقول النبيل الإيطالى فدريكو جريسونه فى مذكراته : (كل شىء حدث فجأة -- وكأننى لم أر الحصان فى حياتى قط -- لقد نظرت إليه -- وتأملته -- وأحسست كأننى نبى مكلف بإنقاذ هذا الحيوان من الإنسان . فهذا الحيوان شكله جميل وخطوته قوية ناعمة -- وحركته رشيقة -- وهامته مرفوعة .. إنه واحد من النبلاء هجر حياة الإنسان واحتبس فى هذه القلعة الفخمة من اللحم والشحم .. ان هذا الحيوان أسير وأنا الذى سوف أحرره » وبدأ النبيل جريسونه يعلم الحصان كيف يخطو وكيف يقفز من فوق الحواجز .. وافتتح مدرسة لتعليم الخيول أو على الأصح ليعلم الناس كيف يعاملون الخيول بما تستحقه من التقدير والاحترام والحب .

وانتشرت أخبار هذه المدرسة .. وجاء النبلاء .. وجاءت الخيول وتعانق الإنسان والحيوان فى إطارات من الحركة الجميلة ، ويمكن أن تسمى هذه الحركة الفروسية : أى أن يكون الإنسان فى سمو الحصان وفى جماله .. وأن يكون شهماً جميلاً .. محبا للحياة والحيوان والإنسان --

ومن بعده جاء رجل اسمه بنياتللى -- هذا الرجل هو الذى وجه الدعوة إلى بلاد الملوك والأمراء وهو الذى وجد الشجاعة ليقول : « مولاى » صاحب الجلالة يجب ألا يكون القصر الملكى زريبة للخيول وإنما يجب أن يكون مقراً شتوياً وصيفياً لعدد من الأصدقاء الأوفياء لهم أربع أرجل وأذيل وعنق وبشرة حريرية لامعة -- يجب أن يكون النبلاء والأمراء أصدقاء للخيول أى أصدقاء لطراز من الكائنات تعلمت منها معنى الشرف والشهامة والشجاعة والجمال والأناقة -- مولاى صاحب الجلالة -- إن كل قصر يضم خيولاً .تأكل وتشرب من أجل أن تموت فى القتال .ليست إلا مجزرة ملكية -- مولاى أنت حر فى اختيار أصدقائك وأصفيائك -- ولكن يجب يا مولاى ألا تنسى هذه العبارة التى تعلمتها من الخيول : قل لى كيف تعامل حصانك أقل لك من أنت --

وجاءت الخيول بالمئات والنبلاء بالألوف إلى « أكاديمية تعليم الإنسان كيف يمشى كالحصان » -- فى مدينة نابلى الإيطالية -- وكان بنياتللى يعلم

الخيول كيف تمشى على الإيقاع الموسيقى .. وكيف ترقص وحدها .. أو قد امتطاها أحد النبلاء .. إن عصراً من احترام الإنسان للإنسان أو للحيوان قد بدأ .. وكان هذا البدء هو المعاملة النبيلة لحيوانات أكثر نبلاً هى : الخيول !

ولأسباب متعلقة بمزاج الشعب الإسبانى لقيت الثيران نوعاً آخر من المعاملة بمصارعة الثيران قديمة ، ويقال قديمة جداً لدرجة أن علماء الآثار يجدون نقوشاً على الكهوف القديمة لثيران قد أصابتها السهام .. وهى تنزف وتجرى .. والإنسان لم يظهر فى هذه النقوش إما لأنه من المفهوم أنه هو الذى أصابها أو لأن رسام النقوش أراد أن يقول إن الثيران كانت أسرع منه فى الهرب لدرجة أنه لم يستطع أن يلحق بها فيظهر فى هذه النقوش !

وقصص الثيران ونوادرها فى تاريخ إسبانيا والبرتغال كثيرة جداً ولاتزال .. يقال إن الملك الفونسو السابع أحد ملوك البرتغال أقام مصارعة للثيران بمناسبة تتويجه ولم يكتف بالدماء التى سالت فى هذه الحظة ، فقرر أن يتولى هو إطلاق السهام على عشرين ثوراً حتى قتلها والجماهير سعيدة بمهارة ملكها !

وعندئذ ولد للملك الإسبانى كارلوس الخامس ابنه فيليب الثانى سنة ١٥٢٧ قرر الملك بهذه المناسبة السعيدة أن تقام مصارعة للثيران وأن يكون هو فارسها الأوحد ، وظل يقتل من الثيران حتى همسوا فى أذنه بأنه لم تبق فى المملكة ثيران قال : إذن توجل الحفلة يا سادة إلى أن تجىء ثيران أخرى من بلاد أخرى !

ويقال إن السياسى الإيطالى الكبير الإسبانى شيزاره بورجيا قرر أن يتسلى فى إحدى الليالى ، وكان له عشرون ثوراً فى إحدى القلاع .. فظل يطلق عليهم السهام حتى قتلها فى ليلة بدأت بغروب الشمس حتى مطلعها فنقلوه إلى فراشه مرهقاً وهو يقول : لقد كان عملى شاقاً هذه الليلة !

وكان من عادة النبلاء فى إسبانيا أن يصارعوا الثيران وهم على ظهر الخيل .. حتى إذا هاجمتهم الثيران أفلحوا فى الهرب منها .. وفى عصر الملكة إيزابيلا غطيت قرون الثيران .. ولكن الجماهير لم تسعد بذلك .. فاهتدى الإسبان إلى طريقة جديدة تجعل قرون الثيران حادة مدببة لكى تكون مفزعة لمصارعى الثيران وللمتفرجين .. وفى البرتغال كانوا يضعون طبقاً من الجلد على قرون الثيران ..

وعلى الرغم من أن مصارعة الثيران نوع من الرياضة العنيفة فإن شكلها أقرب إلى الصيد منه إلى الرياضة .. فالمصارع لا يداعب الثور بعنف ، وإنما هو يصيده ويقتله فى النهاية .. فهم يضعون الثور فى حظيرة مظلمة لبضعة أيام ثم يفتحون الحظيرة فجأة ويخرج الثور إلى النور ثم يجىء من يمسك له غطاء أحمر دامياً .. ثم من يضربه بالرماح .. ثم يصيب كتفيه ويسيل دماءه .. كل ذلك

لكى يثور الثور ، فإذا ثار وهاج تقدم الفارس أو « المتادور » ومعناها الجزار ورح يعاكس الثور ويدور به حتى يدوخ فإذا داخ انقض عليه -- ومن العجيب أن الثور يخرج من الحظيرة مرهقاً وكأنه يعرف ما سوف يحدث له ، فإنه لا يريد أن يشترك فى صراع مع أحد -- بل إنه يريد أن يهرب من النور إلى الظلام غير أن باب الحظيرة قد أغلق -- وليس له إلا أن يقاوم وهو مرهق تماماً -- فكان المصارع قد خرج يصارع حيوانات مكدورة ولكن الجماهير تصرخ -- وأحيانا الأعيرة النارية -- ولابد أن يقتله سواء صارعه أو لم يصارعه -- لأن الجماهير لا ترضى بما دون الدم وموت الثور .

والرقص والغناء للبطل الذى قتل الثور أمام ملايين العيون فى كل مكان . وأصبحت مصارعة الثيران مهنة -- حرفة -- غالية الثمن -- ومربحة . وأصبح للثيران تاريخ وهم يحرصون على اختيارها وتربيتها وهم لا يطلقون سراح الثور بعد المعركة ولا يحيلونه إلى التقاعد ثم يأكلون لحمه بعد ذلك -- لابد أن يموت !

وكلما ذكر موضوع الثيران أو رأيت فيلماً يصور مصارعاً يحاور ثوراً هائجا بغلالة حمراء تذكرت على الفور الكاتب الأمريكى همنجواى -- لقد كان كاتباً -- صحفياً -- شجاعاً سواء أكان مصارع ثيران فى إسبانيا أم جندياً فى إيطاليا أم صياداً فى خليج كوبا --

كان همنجواى نفسه شجاعاً شجاعة تستغرب عن الكتاب -- هؤلاء المخلوقات الحقيقية التى لا تعرف إلا القلم والكتب ولا تخوض إلا تجارب الأفكار -- أو تجارب الغرام ، إن الرجل الذى ظل يبحث عن الموت طول حياته لا يمكن أن يموت فى سن الرابعة والخمسين ، وأخذ همنجواى من الحياة مهلة سبع سنوات أخرى ثم التقى بالموت فى صورة رصاصة طائشة شوهت وجهه الشجاع --

ومن العبث أن نقول إن همنجواى انتحر -- لأن شجاعته البدنية الخارقة وقدرته على تحمل الألم كل ذلك لا يمكن أن يتهاوى فى لحظة كما يحدث للمنتحرين -- إن حياته قد تقول لا -- مرة واحدة --

أما أدبه فإنه يقول لا -- آلاف المرات

فقد كانت شهامة الرجولة هى المحور الذى يدور حوله أدبه --

وكان الرجل الشهم الذى يتحطم وقد يتمزق إلى قطع لكنه لا ينهزم ولا ييأس ولا يحس بالقهر والضياع ، كان هذا الرجل هو نموذجه الذى يقدمه للقارىء فى كل رواياته تحت اسم جديد وفى ظل ظروف وأقدار جديدة --

وليس عبثاً فى حياة همنجواى أنه أغرم بمصارعة الثيران -- وكان يتتبع مباراتها ويصادق مشاهير المصارعين ويؤرخ لحياتهم ، ويستمد منهم شخصيات

رواياته ، بل لقد بلغ به غرامه بمصارعة الشيران أن ألف عنها كتاباً لا رواية وسمى الكتاب « الموت بعد الظهيرة » لأن من طقوس مصارعة الشيران أن تتم مبارياتها فى الساعة الخامسة بعد الظهر ..

وقد لام كثير من النقاد همنجواى على تأليف هذا الكتاب وقال بعضهم : « ما بال هذا الكاتب الروائى الذى انفتحت له أبواب المجد حين كتب روايته » والشمس تشرق أيضا .. ينحرف بموهبته إلى تأليف دليل سياحى عن مصارعة الثيران .. ملىء بأسماء المصارعين وحلبات المصارعة وصفات الثور القوى وتقاليد القتال ..

ولكن الواقع أن همنجواى كان يرى فى مصارعة الثيران معنى غريباً .. معنى ينسجم مع حياته هو وتحديه للموت ومواجهته فى كل لحظة ..

كان يرى أن الثور يمثل الحياة التى تتنفس على هذه الأرض .. الحياة الخام بكل ما فيها من وحشية وقسوة وكروفر وغضب وحقد . وهى الحياة التى لابد أن يواجهها الموت ويقهرها فى ساحة المصارعة الواسعة المستديرة التى تمتد جوانبها الدائرية إلى ما لا نهاية . أما المصارع فهو القدر الذى يمنح الموت لهذه الحياة الخام .. إن المصارع حين يغرز طرف السيف فى جلد الثور فى أناقة ونبل وإنما يؤدى آخر شعائر تقديم الموت إلى ضحيته .. إنه يسقى الثور كأسه الأخيرة ..

والمصارع نفسه ثائر ضد الموت .. ثائر ضد الأقدار . ولذلك فهو يعطى نفسه حقاً لا تملكه إلا القدرة الإلهية .. حقاً إلهياً .. وهو حق الموت .. والمصارع حين يمنح الموت يمنحه فى خيلاء وزهو . والخيلاء إذا كان خطيئة مسيحية فهو فضيلة وثنية . والمصارع لابد أن يكون وثنى النفس . لابد أن يؤمن بالفأل والحسد وبالقديسين والنبوات وبالقطط السوداء والأرقام المنحوسة .

ويميز همنجواى بين نوعين من المصارعين

المصارع الذى يعبد المال والشهرة . وتستذله المرأة . ويفتش عن الكسب الرخيص . وينتظر تصفيق الجماهير ..

والمصارع المتكبر المرير النفس الذى يقتل كأنه صاحب حق . ولا يعبأ بالجمهور أو النقاد ..

وحرفة أخرى من حرف الرجولة أولع بها همنجواى .

تلك هى حرفة الصيد سواء أكانت صيد الأسود فى إفريقيا أم صيد سمك الماريين الذى تزيد السمكة منه ألف وخمسمائة رطل فى خليج كوبا .

وشخصيات الصيادين تزحم رواياته وقصصه . وثمة قصص الصيد عنده هى قصة « العجوز والبحر » ..

وهيكل القصة فى منتهى البساطة ..

فالعجوز الصياد « سانتياجو » كان يوماً ما من أمهر الصيادين فى خليج كوبا عندما كان شاباً ولكن شيخوخته أضاعته وحظه السيىء لازمه ..

لقد أخفق فى الصيد أسابيع طويلة ، وذات صباح انطلق إلى أعمق أعماق الخليج حيث لا يجروء أحد الصيادين على الاقتحام لأنه يريد أن يصطاد سمكة لا يستطيع غيره من الصيادين أن يصطادها ..

وعلقت بسنارته سمكة من نوع المارلين وظلت تجره شرقا وشمالاً ليلتين كاملتين وهو فى قاربه قابض على الحبل بكلتا يديه اللتين تمزقتا وتخدرتا من التعب والإعياء ومن سحبة الحبل الحادة كالسيف ، هو أيضا حريص على حياته إما أن يقتل السمكة .. أو تقتله السمكة .

إنهما خصمان كبيران كل منهما يحترم الآخر .. إنه يخاطب السمكة معتذراً : لابد أن أقتلك .. لابد أن أقتلك .. ولكنى أرجو المعذرة !..

وفى اليوم الثالث قبل الظهر استطاع أن يسحب السكة إلى جوار القارب وأن يقتلها بحربته ، ولما كانت السمكة كبيرة الحجم بحيث لا يتسع لها قاربه فقد تركها تتدلى إلى جانبه ، ونشر شراعه الصغير المرقع عائداً إلى أرض الوطن ..

وأحست كلاب البحر الدنيئة بالسمكة فأخذت تنقض عليها ، وحين بلغ الصياد الميناء لم يكن قد بقى من السمكة إلا هيكلها العظمى وذيلها الضخم الذى يشبه صارى السفينة .

لقد تحطم الصياد الشيخ ولكنه لم ينهزم .. لم ييأس .. لأنه حين عاد إلى مرفئه أغفى عليه قليلاً ثم صحا ليفكر فى الخروج إلى الخليج من جديد .

هذا هو هيكل القصة بعد تعريتها من اللحم ، كما تعرت سمكة المارلين الضخمة حين أحاطت بها كلاب البحر .

ولكن لحم القصة هو أروع ما فيها .

كذلك كان لحم كتاب أنيس منصور « التاريخ أنياب وأظافر » هو أجمل متحف يحوى تاريخ هذه الحيوانات جميعها بأسلوب ، هو المرح الذى يسبق القارىء إلى هدفه فى الاستزادة من العلم الحديث والمعرفة وما كان أشد المكتبة العربية إلى هذا الكتاب الجديد فى موضوعه وأفكاره ..

إنها مكتبة بل متحف يقدمه أنيس منصور إلى قارئه ذلك الحيوان المفكر !

●●●

مولد ثقافى .. مولد سيدى العقاد !

من الصعب أن ترفع رأسك عن ٦٩٠ صفحة هى حجم كتاب « فى صالون العقاد كانت لنا أيام » للكاتب الكبير أنيس منصور . ولا غرابة فى ذلك مطلقاً فأنت تقرأ وتشرب عصير الأجيال ، وتجلس وجهاً لوجه مع كل عمالقة العصر وتتابع أمام ناظريك الأحداث على طريقة الفلاش باك السينمائية .

كل هذا فى كتاب « فى صالون العقاد » فليس هذا الكتاب عملاً أدبياً فلسفياً تاريخياً دينياً فقط ، لكـن عصـر الكـاتب أنيس منصور لب الحياة والفلسفة وقدمها لنا فى كأس تغنى عن محيط !

ففى صالون العقاد احتشدت كل العقول والأذواق والضمائر ، وكل الحديد والنار والقلق والعذاب والأبهة والكبرياء ، وكل المعارك بين المبادىء والقيم .

ولقد سألتنى إحدى مقدمات التليفزيون فى برنامج حصاد عام ١٩٨٣ عن أهم كتاب لهذا العام فلم أتردد فى اختيار هذا الكتاب ليكون كتاب العام أو هذا العقد أو نصف قرن من الزمان ، واكتشفت بعدها أن كل من جاء فى هذا البرنامج من الشباب والشيوخ والنقاد والأدباء اختار هذا الكتاب أيضا ، فلقد اجتمعت فيه كل ملامح الجيل ، وعذاب العصر ، وحيوية التاريخ ، وروعة الفلسفة ، وحرارة الدين .

فلقد سجل الكاتب أنيس منصور حياته وحياة جيله بين الضياع الفلسفى والضلال السياسى والحيرة الدينية ، فالكتاب قصة حياته فى مواجهة عمالقة الفكر المصرى الذى ارتبط بهم بعمق وأفلت منهم بعمق أكثر محتفظاً بشخصيته المستقلة فى الأدب والفكر والتى عرفها قراء العالم . فلقد ظل أنيس منصور منذ وفاة العقاد لا يستطيع أن يمسك بالقلم ، ولكن فجأة وبدون مقدمات وبدون

سابق إنذار بل ودرجة حرارته ٣٩ درجة بدأ يكتب أضخم كتاب وموسوعة تاريخية وأدبية فى النصف قرن الأخير، ويبدو أن الكتابة عن العقاد لابد أن تكون بحرارة الفكر وحرارة الجسد أيضاً.

لقد كتب أنيس هذا الكتاب من الذاكرة والمجهود العقلى الذى بذله فى استحضار أو إحياء ما حدث من عشرين عاماً، كان أكثره من المجهود العقلى فى تسجيله إلى جانب أن أفكار هذا الكتاب كانت موجودة فى رأسه منذ أن كان يتردد. وكان واحداً من أصغر المترددين على بيت العقاد فى مصر الجديدة. البيت ١٣ شارع السلطان سليم كل يوم جمعة حيث كان صالونه الأدبى .. وكان هذا الكتاب عبئاً على أنيس منصور ولابد أن يتخلص منه بأى شكل.. فاحتشدت كل حواسه وملكاته العقلية والأدبية وأفرغ كل ما فى جعبته عن العقاد لكى يريح نفسه عقلياً، فلقد صدر له بعد صالون العقاد خمسة كتب جديدة!

ولاشك أن العقاد أهم شخصية صادفها أنيس منصور فى حياته الفكرية والأدبية وتأثر بها كثيراً .. ولاشك أيضا أنه صاحب الفضل عليه فى توجيهه إلى كثير من القضايا الأدبية والنقدية والتاريخية، طبعاً بالاضافة إلى الدكتور عبد الرحمن بدوى أستاذ الفلسفة.

وعلى الرغم أنه لم يتفق مع العقاد فى قضايا كثيرة، لكنه كان مثل كرة النور التى تضىء لنا، وبعد ذلك يمكن أن يختلف معه .. فالعقاد صاحب فضل فى التقدير والتوجيه والنقد، فقد كان قوياً فى غير عنف .. قادراً فى غير صخب .. خلاقاً فى غير ادعاء .. ذلك هو العملاق .. المفكر .. الأستاذ ..

صفات وألقاب كثيرة لا تكفى وحدها لإطلاقها على ابن مصر العبقرى، فلقد ضرب العقاد بسهم وافر فى شتى الاتجاهات الأدبية والفكرية، وأضفى على قيمة الأدب والأديب بالكثير من المعانى والقيم والمثل الرفيعة لدرجة أنه بعد أكثر من عشرين عاما على رحيله يظل العقاد معنا بأعماله الفكرية التى خير شاهد على وجوده! فالموت لن يستطيع أن يعدو إلا على شخصه المادى، أما شخصه المعنوى فلن يستطيع الزمن أو الموت أن يعدو عليه أبداً .. فالفكر أبقى من كل شىء فى هذا الوجود.

فالعقاد وليست هناك أية مبالغة ليس أديباً أو فيلسوفاً أو مؤرخاً أو مفكراً فحسب بل هو جيل .. عصر من دنيا بأكملها .. والذين لم يعرفوا العقاد من أبناء جيله خسروا كثيراً.

ولقد ندم الرئيس الراحل السادات كثيراً على أن السياسة شغلته على ألا يتردد على صالون العقاد بعد أن قرأ كتاب أنيس منصور .. وحين كان ينشر هذا

لكتاب مسلسلاً فى مجلة أكتوبر كان يترك السادات كل شيء ليقرأه .. ولقد سمعت شخصياً حديثاً مسجلاً للسادات بصوته يقول فيه : إنه لم يقرأ شيئاً بهذا لشكل أو بهذا المعنى !

ولقد قال لى الأستاذ أنيس منصور : لقد عرفت الأستاذ عباس محمود العقاد كثر من غيره من كبار المفكرين والأدباء المصريين فقد كنت طالباً صغيراً لا شترى مجلة الرسالة إلا إذا كانت للعقاد مقالة فيها ..

وقد اكتشفت بعد ذلك أن هناك كتاباً آخرين على درجات متفاوتة من الجمال والروعة والأبهة المنطقية ، ولكن فى مثل سنى الصغيرة .. من الصعب أن يكون لإنسان معتدلاً وشاباً فى نفس الوقت .. أو من الصعب أن يكون معتزاً بذوقه لأدبى .. وفى نفس الوقت واسع الصدر والأفق . ولذلك كنت أرى أن الكاتب هو لعقاد وأن المقال هو الذى يكتبه وأن مجلة الرسالة خالية إلا منه .

أعجبنى فى العقاد هذا الصفاء العقلى وهذا الرداء الفنى .. هذا الشموخ الهندسى فى مقالاته .. هل كان العقاد ساحراً .. رأيته كذلك فهو يخرج بالمعانى من المعانى ولا أعرف كيف .. ثم هو قادر على أن يستدرجنا إلى ما لم يخطر على البال من نتائج . هل كان محامياً عظيماً .. هل كل مهندساً فكرياً جباراً .. كان كل ذلك ..

كنت واحداً من أصغر المترددين على بيت العقاد فى مصر الجديدة ، وعرفت أن العقاد على عكس خلق الله يتفاءل برقم ١٣ ويتفاءل بالبومة ، ولا يتشاءم من الكتابة عن الشاعر ابن الرومى الذى اهلك كل الذين كتبوا عنه .

وكان صالونه الأدبى يوم الجمعة من كل أسبوع وكانت الأعلام مرفوعة فوق ثكنات الجيش والمصالح الحكومية فى طريقنا إلى مصر الجديدة .. وكنا نرى أن هذه الأعلام مرفوعة من أجلنا نحن الذين نتردد على بيت العقاد !

وأنيس منصور رسم صورة عن قرب واضحة الملامح لعملاق الفكر العربى ، وإذا كان العقاد قد قال عن نفسه فى فترة الأربعينات : « إننى رجل مغرد فى التواضع ، ورجل مفرط فى الرحمة واللين ، ورجل لا يعيش بين الكتب إلا لأنه يباشر الحياة ، ورجل وسع شدقيه من الضحك ما يملاء مسرحاً من مسارح الفكاهة فى روايات شارلى شابلن جميعا » .

لقد رسم الكاتب الكبير أنيس منصور كل هذه الملامح للعقاد فى كتابه من خلال صالونه الذى اتسع لكل الآراء والتيارات والمذاهب والاتجاهات الفكرية والثقافية والأدبية .

وإذا كان من مزايا العقاد فى كتاباته عن العباقرة والعظماء قدرته على اكتشاف مفاتيح شخصياتهم ، فإن من مزايا أنيس منصور أنه اكتشف مفتاح صانع المفاتيح !

إن هذا الكتاب تشريح دقيق وجديد لتفكير العقاد وتفسير لمنهجه ، ثم تقييم موضوعى لآرائه فى الأدب والفن والفلسفة والحياة -- بل إنه يعرض لأصعب المشكلات الفلسفية والوجودية بأسلوب سهل مسترسل ، ويقدم لنا المجادلات التى كان العقاد يعقدها مع تلاميذه حول النازية والصهيونية والشيوعية والبهائية والبوذية والسوريالية .

وتلتقى فى الكتاب برواد الصالون من الرعيل الأول -- عبد الرحمن صدقى وصلاح طاهر وطاهر الجبلاوى وزكى نجيب محمود وعلى أدهم ، ثم من الرعيل الثانى وليم الميرى وعبد الفتاح الديدى وعامر العقاد وجلال العشرى لم يكونوا هوامش أو نسخاً منه ، ولكن كانوا أساتذة ومعيدين ، كانوا أشبه بهيئة تدريس فى جامعة أو أكاديمية العقاد العظيمة .

إن هذا الكتاب واحد من أعظم الكتب الأصيلة فى حياتنا المعاصرة -- إنه شهادة تاريخية ، واعتراف قاتل ، وإدانة لعصر بحثاً عن وظيفة الفكر فى مجتمع ناكر لا يعرف إلا الجحود والنكران .

إن القارىء بعد أن يفرغ من قراءة هذه الموسوعة يحس بالهوة الثقافية والمنحدر الأدبى والحضيض الفكرى الذى وصلنا إليه الآن !

لقد كان الإعجاب بالبطولة هو الوسم الذى اتسم به كل عمل من أعمال العقاد الفكرية والأدبية ، والذى راعى أمانة القلم وصانها أكثر من نصف قرن من الزمان - سجلها كاملة الكاتب أنيس منصور بأمانة وموضوعية علمية تجمع مع دقة التحليل وبراعة العرض والكثير من الجديد الذى يكتب لأول مرة .

ولم يكن غريباً أن يتخطى هذا الكتاب حدود الزمان والمكان وأن يفوز أنيس منصور بجائزة أحسن كاتب فى العالم الثالث ليكون رجل التأليف العالمى لسنة ١٩٨٣ حين اختاره المجلس الأعلى للتكامل الوطنى فى الهند ليكون أعظم المفكرين تأثيراً على دول العالم الثالث ، وذلك لمساهمته الإيجابية فى الفكر والتأليف .

وكان أنيس منصور هو الكاتب العربى الوحيد الذى حظى بهذه الجائزة بعد أن أعطيت من قبل للملك فيصل وشاوشيسكو والسيدة أنديرا غاندى .

فلقد فوجىء أنيس منصور ذات يوم بمكالمة تليفونية من الأديب الإذاعى حمدى الكنيسى ، وكان وقتها مستشارنا الإعلامى فى نيودلهى وكان صوته بعيداً وظلا يصرخان فى التليفون وحمدى الكنيسى يقول : مبروك ..

وأنيس منصور يرد : على ماذا ؟

فيقول الكنيسى : الجائزة ؟

وظن أنيس منصور أن حمدى الكنيسى يقصد بالجائزة هو تعليقه على ما كتبه كبار الكتاب فى مصر والوطن العربى عن كتابه « فى صالون العقاد » وظل يفكر لماذا يطلق على هذه المقالات جائزة !

وقابل أنيس الدكتور ممدوح البلتاجى رئيس هيئة الاستعلامات فى سويسرا وسأله عما إذا كان قد تلقى معلومات عن هذه الجائزة فأكد له أنه لا يعرف معلومات عن ذلك ٠

ثم جاء خطاب حمدى الكنيسى الذى يعلن منح الكاتب أنيس منصور جائزة التأليف العالمى والتفكير الإيجابى لعام ١٩٨٣ ٠

أما الهيئة التى تمنح هذه الجائزة فهى مكونة من ٢٣٨ عضواً من الكتاب والمفكرين وأعضاء البرلمان -- وأن اللجنة التى تقرر الجائزة تضم ٣٧ عضواً ولابد أن يكون رأيها بالإجماع وقد جمعت اللجنة على اختيار الكاتب المصرى أنيس منصور ٠

أما الهيئة التى ترشح لهذه الجائزة فلا توجد هيئة واحدة وإنما يقيمه -- مجلس التكامل الوطنى الهندى بناء على مصادر مختلفة فى دول العالم الثالث ، لأنها جائزة العالم الثالث من بينها اليونسكو ونادى القلم الدولى وتقارير مكتوبة من هيئات ادبية مختلفة ٠

إن صالون العقاد هو قصة أنيس منصور مع العقاد وضده -- وقصة جيله كله مع الدين والسياسة والأدب والفن والفلسفة -- هو وثيقة تاريخية سجلها بعقله وقلبه وهو يرتجف مثل اللافتات المصنوعة من النيون -- مجموعة الأضواء ٠ ومن هذه الأضواء إنه كان من المعروف أن العقاد يؤمن أو على الأقل ليس له رأى واضح فى دلالة الأرقام عند خبراء التنجيم أو علماء الفلك أو قراء الطالع ، وكان أنيس منصور يرى غير الذى يراه الأستاذ ، وكـ أول من أشار إلى أن السنة التى ولد فيها الأستاذ (العقاد) وهى سنة ١٨٨٩ التى قد ولد فيها طه حسين وهتلر ونهرو وسالازار وشارلى شابلن واثنان من الفلاسفة الوجوديين جبريل مارسيل ومارتن هيدجر -- والأديبان بول ناش وجان كوكتو ، والمؤرخان الكبيران عبد الرحمن الرافعى وارنولد توينبى ، وفى سنة ١٨٨٩ أقيم برج إيفل فى باريس واكتشف العالم الإيطالى سكباريللى أن هناك قنوات على سطح المريخ تؤكد أن هناك حياة وأن هناك كائنات هائلة تعيش فى الفضاء الخارجى ٠

وكان العقاد غاضباً على محمد عبد الوهاب لأنه امتنع عن تلحين أو غناء أية قصيدة له ٠

ولم يغن أحد شعراً للعقاد سوى مطربة مغمورة اسمها نادرة -- ولذا كان العقاد يرى أن محمد عبد الوهاب له صوت جميل أيضاً ، ولكن محمد عبد الوهاب لم يتغير فجميع ألحانه متشابهة ٠

وكان له رأى غريب فى الموسيقى والغناء فهو يقول : إن -- الفرق بين اللحن الحزين واللحن المرح هو سرعة دوران الأسطوانة فى الجراموفون ، فإذا أدرنا الأسطوانة بسرعة كان اللحن مرحاً ، وإذا أدرناها ببطء كان اللحن حزيناً ، وكان العقاد يضرب مثلا بأغنية « يا عزيز عينى وأنا بدى أروح بلدى وكان يغنيها بسرعة وعلى مهل ليدلل على وجهة نظره »

وكان العقاد يهتم بصوره وأحيانا يغضب من الصور التى تنشر فى مقالاته قال لأنيس منصور عندما كان الأخير يعمل فى أخبار اليوم يا مولانا : أنا لا أفهم ما هو المقصود بأن تنشروا لى صورة ضاحكة والمقال جاد وصورة بالطربوش والمقال ضاحك ؟

لابد أن تنبهوا سكرتيرية التحرير إلى هذا العبث !

ولقد نشرت صحيفة مصرية أن العقاد تقاضى مائتى جنيه لقاء حديث أدلى به إلى التليفزيون ، فاتصل العقاد بالصحيفة عاتباً غضبا : هل كثير على رجل كالعقاد قرأ ستين ألف كتاب وأصدر ستين كتاباً وأفنى عمره فى عالم الفكر والأدب أن يتقاضى هذا المبلغ ؟ إن مفعوصة مثل نجاة الصغيرة تتقاضى ما هو أكثر من ذلك فى عشر دقائق ! -- إن بلداً يستكثر على العقاد هذا المبلغ التافه -- لبلد تافه -- وصحافته أكثر تفاهة !

ولقد انفرد أنيس منصور (فى صالون العقاد) بأسلوبه المتميز المعروف وجملته السريعة وعباراته الرشيقة الجذابة ، ثم هذه الإضافة التى يضيفها دائما على ما يكتبه ، وهى هذه اللمسة الفلسفية التى تجعل ما يكتب له مذاق خاص ، وطعم خاص ، فهو تجربة مستقلة وأسلوب متفرد مما يجعلنا نوكد أن العقاد كان فى صالون أنيس منصور ، وهى نتيجة لأن أسلوب أنيس منصور فى هذا الكتاب يدل عليه بكل أبعاده فهو خلاصة له .

والأستاذ أنيس جمع كل هذا بأسلوبه السهل السلس فى أروع مهرجان للعقاد -- مولد ثقافى -- مولد سيدى العقاد ! وهو مولد لا ينفض بمجرد مرور الذكرى ، ولكنه احتفال أبدى شموعه لا تطفأ ، فأنيس منصور قد أضاف إلى عمر العقاد عشرين عاماً أخرى مؤكداً أن الذكرى عمر باق . لهذا فسوف ترتفع كل الأيدى -- كل الأجيال الثقافية لتلتقط هذا الكتاب من المكتبة العربية فى كل زمان ومكان -- إنه مهرجان أبدى للعقاد !

●●●

أنيس منصور إلا قليلا !

فى هذا الكتاب أضاء لنا الكاتب الكبير أنيس منصور حجرة جديدة فى أدبه لم ندخلها من قبل فهو تجربة مستقلة متفردة .. رحلة فى أعماق أنيس منصور .. فهو فى حالة ارتحال بين أفكاره وعلاقاته والناس والتاريخ ، وأمتع رحلاته تلك التى فى النفس الإنسانية .. هذه الرحلة فى أعماقه هو .. يرسم لنا من خلالها خريطة لمشاعره .. إنه يقدم لنا كيمياء الإبداع .. كيف يكتب ولماذا ومتى ؟ أما هذا الكتاب فهو « إلا قليلا » !

إن كل فكرة لديه هى مشروع فكرة .. مشروع قضية فإذا كتبها فقد أحاط بها إلا قليلا ، ولذلك يعاود عرضها والدوران حولها والنفاذ إلى داخلها مرة بعد مرة ، هذا الكتاب هو « إلا قليلا » وهو أول كتاب يكتبه أنيس منصور من المنزل إلى المطبعة فى أسبوع دون أن ينشر فصولاً فى صحيفة أو مجلة ، وهذا الكتاب مشروع لعدة كتب .. ولكنه اكتفى بأن سجلها بحرارتها وألوانها وهى تبدو مكتملة .. ولكن من يدرى ربما عاد إليها بعد ذلك فى كتب أخرى .

وفى « إلا قليلا » يكشف لنا أنيس منصور أسرار المهنة ، فهو يصحو كل يوم صيفا وشتاء فى الخامسة صباحاً يغسل يديه .. لابد أن يغسل يديه ويبلل عينيه بالماء ، ثم يتجه إلى مكتبه ويزيل كل الكتب من فوق المكتب وكل ورقة وكل قلم ثم يطفىء نور السقف حتى لا تجذب الكتب التى تملاء الجدران الأربعة نظره فهو لا يريد أن يركز على أى شىء

أما الورق فلابد أن يكون أبيض بلا سطور .. طويلاً ناعماً .. أما القلم فأمامه عشرات الأقلام .. لابد أن يكون حبرها أسود قاتماً .. ناعمة تنزلق على الورق بسهولة .. وألا تكون أسنانها مدببة مثل قرون حيوان الايلكو الذى يعتلى باب حجرة المكتب . وألا تكون أسنان الأقلام غليظة .. فإن كانت ناعمة جداً سبقته على الورق .. وإن كانت خشنة أو جافة أو ممددة فإنها تعرقل كتابته وهو يكتب

بسرعة التفكير بالضبط ، ولذلك فالحروف كبيرة .. وخطه ليس واضحاً فهو لم يرث جمال الخط عن والده الذى كان يكتب خطاً فارسياً جميلاً .

ورغم أنه يكتب فى حجرة مكتبه فإن آفاق تفكيره تمتد وتتخطى حدود الزمان والمكان ، فهو يدور حول العالم وهو لايزال فى مكانه لم يبارح مكتبته تماما مثلما يركب دراجة التخسيس الموجودة فى ركن من المكتب ويبدل عليها ساعات تكفى لأن يلف مصر كلها ، ومع ذلك فهو لم يبارح مكانه ولو سنتيمتراً واحداً !

ولابد أن يعد لنفسه كوباً من الشاى .. وإعداد الشاى هو نوع من الانشغال المؤقت ، أو هو عملية تسخين مثل لاعب الكرة قبل بداية المباراة .. أصحاء الذهن قبل أن يعمل . ولا يحب أن يكون الشاى بلا سكر ، ولا يحب أن يكون سكره واضحا .. فالمرارة الشديدة كالحلاوة الشديدة تفسد شيئاً ما فى الفم أو الرأس .

أو لعل التفكير يكون أيسر إذا توافر شروط عديدة اعتاد عليها : الضوء والطعم ونعومة الورق وانسياب القلم والهدوء التام والفراغ الذى حوله وأمامه ويجلس بالبيجاما حافى القدمين .

وكان الأديب الأمريكى همنجواى يكتب واقفاً فقد أصيب بكسر فى ظهره على إثر حادث طائرة .

وكان الشاعر الألمانى جيته يكتب واقفاً فلديه التهاب فى مصرانه الغليظ .

وكان د . رشاد رشدى يكتب فى حجرته على كرسى صالون صغير من الواحدة ليلاً ولا يغفو قبل السادسة أو السابعة صباحاً ، ومكتبه يعد تحفة فنية يجمع العديد من الآثار والتحف الثمينة .

والشاعر العظيم شكسبير يكتب بسرعة هائلة . ويقال : إنه لا يشطب كلمة واحدة وكان يختار ورقاً صغيراً

والروائى فتحى غانم يظل قلقاً طول الليل وقبل الكتابة يظل لساعات قلقاً ثم يسمع موسيقى هامسة ، ويبدأ فى كتابة روايته التى يعدل فيها دواما على مدى العام أو العامين !

والكاتبة زينب صادق تستحم بعد الكتابة وكأنها كانت تعانق قلمها أو تضاجع روايتها !

أما الفليسوف الوجودى الفرنسى سارتر فكان يكتب فى المقاهى .. فى أحد الأركان وأمامه زجاجة من النبيذ !

وليس من الضرورى إذا جلس أنيس منصور ليكتب أن يجد ما كتبه بسهولة ، وعندما تتعذر الكتابة فإنه يفضل أن يقرأ فى أى موضوع .. وتمضى الساعات

يتمتع بما يقرأ .. وقد يجد فجأة موضوعاً آخر غير الذى كان فى نيته أن يكتبه .

وإذا جلس ليكتب عدداً من المقالات القصيرة يجد نفسه فجأة قد كتب قصة لا علاقة لها بكل ما كان يدور فى رأسه ، وإنما تكون فكرة هذه القصة قد راودته عن نفسه منذ وقت طويل ولم يستسلم لها ، ثم وجد نفسه فجأة مستعداً لكتابتها كاملة .

كما أنه لا يطيق أن يرى شيئاً أمامه وهو يكتب أو أن يسمع موسيقى فهى تبعثر اهتمامه وتسحبه كموج البحر بعيداً عن الشواطىء !

وإذا كان لابد من الموسيقى فليكن حين يجلس للتفكير ، ولا يحب فى هذه الحالة أن تكون أغنيات لأن الاغانى كلمات وخطابات .. وهذه الخطابات تقوم بتشريده وجعله فى قصة حب وكراهية ! وهو لا يريد أن ينشغل بغيره ، ولذلك فالموسيقى أفضل .. إنها تطلق حريته .. إنها أجنحة .. إنها بالونات مملؤة بالأوكسجين ترفعه بعيداً دون هدف !

وهو يعتقد أن التفكير « كيمياء » .. أى عمليات كيميائية .. إضافة عناصر إلى أحماض الى سوائل .. وهزها معاً ليكون منها سائل جديد .. أو مادة جديدة .. ولكى تنجح هذه العملية الكيميائية لابد أن تتحقق شروط التفاعل .. وفقاً لمعادلة دقيقة .. هذه المعادلة لا أعرفها بالضبط ولكن بالتجربة اليومية .. فإنه يحسها ويحاول أن يكون دقيقاً فاليقظة فى ساعة معينة .. وتناول الشاى .. أو صنعه .. ووضعه أمامه دون أن يتنبه إليه .. ونوع الورق أكبر والإضاءة ودرجة حرارة الغرفة .

فهو يقوم بعمليات تكييف للهواء والماء والضوء والمزاج والتسخين ..
وينتظر .. وينتظر طويلا ..

وقد يكون هادئاً .. وغاضباً ولكنه دائماً يحنى رأسه للذى يجىء ويتوارد ولايزال المثل الأعلى لكل مفكر ما قاله فيلسوف الوجودية الألمانية مارتن هيدجر : إننى أجلس خاشعاً حانى الرأس أمام سيدتى .. وأنتظر ما تجود به على .. وقد تفضلت معبودتى فقالت والذى قالته ليس كثيراً .. ولكن أكنّ لها عظيم الاحترام والامتنان .

ويومياً فى الخامسة صباحاً يجلس أنيس منصور أمام معبودته :
الحقيقة !

وأنيس منصور لا يعود ثانية إلى ما كتب وإلا لأعاد كتابته من جديد ، فهو يعتقد دائماً بأن شيئاً ما لايزال ناقصاً فيما قاله .. مهما أسهب فى القول .. ومهما كان حجم ما يكتب !!

ففى اعتقاده دائماً بأنه يقول كل أفكاره إلا قليلاً !

فالكاتب يشبه الشاهد الذى يقف أمام القاضى ويقسم بأنه يقول الحق ولا شىء إلا الحق .. وكل الحق !

أما أنه يقول الحق فصحيح .. ولا شىء إلا الحق فصحيح أيضا ..

أما كل الحق فليس صحيحاً ..

فلا أحد يعرف كل شىء ..

ولا أحد قال كل شىء .

وإنما بعض الشىء بعض الوقت .

.. أى الحقيقة إلا قليلاً ! ..

●●●

فهرست

كتب المؤلف

١ ـ صهيونيون حتى أطراف أصابعهم . (طبعة أولى) ١٩٧٣ الشركة المتحدة للتوزيع (طبعة ثانية) ١٩٧٧ دار الأعتصام .

٢ ـ يائيل الصين اليمنى لديان . (منشورات بيروت) عام ١٩٧٤ .

٣ ـ كامو .. المتمرد الأزلى (المكتبة العربية) ١٩٧٥ .

٤ ـ مالرو .. الحب الصامت (منشورات بيروت) ١٩٧٦ .

٥ ـ الأدب الابنوس (دراسة فى الآداب الأفريقية) .

٦ ـ نجيب محفوظ ـ رؤية نقدية ١٩٧٧ .

٧ ـ ثروت اباظة .. الفلاح الارستقراطى (نهضة مصر بالفجالة) ١٩٧٧ .

٨ ـ رؤية نقدية فى الرواية العربية ١٩٨٢ .

٩ ـ عيون نقدية ١٩٨٤ .

١٠ ـ أنيس منصور .. ذلك المجهول (دار التعاون للطبع والنشر) ١٩٨٦ .

تحت الطبع

١ ـ أدب الأظافر الطويلة

٢ ـ الاسلام .. كتاب مفتوح .

٣ ـ البيوت تنهار ليلا . (رواية) .

رقم الإيداع : ٥٣١٦ / ٨٦





طبعت بالمطابع رقم (٢) لمؤسسة دار التعاون للطبع والنشر